قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس

الجزء الأول

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
[أستاذ] التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
[ب]كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
☏ : ٤٨٣٩٤٧٢ الإسكندرية



قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس

(دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)

تأليف

الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الجزء الأول

١٩٩٧

الناشر مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت : ٤٨٣٩٤٧٢ اسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يستثير اسم قرطبة في نفس كل عربي مشاعر عديدة مـن الاعتزاز المقرون بالاسى ، ويجيش صدره بهذه المشاعر المضطربة حين تشهد عيناه صورا من آثار المجد الدارس بأرض هذه المدينة العريقة التي لعبت دورا هاما في تاريخ الحضارة الاسلامية ، فان مدينة قرطبة من المدن القلائل التي ارتفعت الى مصاف الحواضر العظمى في العالم في العصور الوسطى ، فقد كسبت في القرن العاشر الميلادي شهرة لا تقل كثيرا عن شهرة بغداد حاضرة خلفاء بني العباس أو القسطنطينية العظمى مقر أباطرة بيزنطة ، ولا تتجاوز الصواب اذا ذكرنا أنها كانت من بين المدن الاسلامية الكبرى التي أثرت تأثيرا عميقا في التاريخ السياسي والحضاري للاسلام في المشرق والمغرب ، اذ كانت حاضرة الاندلس زهاء ثلاثة قرون وربع قرن من الزمان ، لعبت خلالها بأوتار السياسة في اسبانيا الاسلامية والمسيحية على السواء ، كما تحكمت الى حد ما في المصائر السياسية للامارات والدول التي كانت قائمة في المغرب وعلى الاخص الدولة الفاطمية وامارة الادارسة .

وفي المجال الحضاري تألقت قرطبة في عصر الخلافة الاموية بالاندلس تألقا لـم تشهده حاضرة اسلامية في العصور الوسطى باستثناء القاهـرة وبغداد ، وأصبحت بحق مهـد الحياة الرفيعة ، وكعبة الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون، ووطن الادباء، ومنار العلوم، وشمس الحضارة ، وبلغت من العمران والتمصير في هذا العصر الغاية ، واتسعت رقعتها بما انضم اليها من الارباض والظاهر حتى أصبحت عند انتهائها في التوسع والعمارة تتألف من واحد وعشرين ربضا تتوزع حول قصبتها ، ويدور بها وبأرباضها في أيام

الفتنة سور شامل[1] حفر وراءه خندق لم تشهد له قرطبة نظيرا في عصورها السابقة[2] . وعلى هذا النحو يمكننا القول بأنه اذا كانت بغداد قد لعبت دور القلب من العالم الاسلامي في الشرق حتى سنة ٦٥٦ هـ ، فان قرطبة كانت الرأس المهيمن علــى العالم الاسلامي في الغرب ، علــى الاقل حتى سنة ٤٠٣ هـ .

ومدينة قرطبة لم تعد مدينة اسلامية منــذ أن دخلت في فلك مملكة قشتالة في سنة ٦٣٣ هـ ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تفقد طابعها الخلافي الذي اتسمت به في عصرها الاسلامي ، وما زالت قرطبة تحتفظ بتراث هائل من ماضيها الاسلامي المجيد الذي عجزت معاول العصبية الدينية وحوادث الازمان أن تنتزع جذوره العميقة مــن أرضها الطيبة . ومن المعروف أن آثار الاسلام في قرطبة واضحة كل الوضوح في سائر مناحي حياتها ، وهو أمر يتوق القارىء العربي المعاصر الى معرفته وتحصيله ، لأن ما كتب حتى اليوم عن قرطبة لا يفي قط بما تستحقه هذه المدينة العريقة من دراسات طويلة تزيل عنها ما طمرها من تراب النسيان الذي تراكم على مر العصور على روائع آثارها فأغفلها العرب في عصور محنتهم . وعلى الرغم مــن البحوث العديدة التــي أفردها علماء الآثار الفرنسيون والاسبان لآثارها وعلى الاخصّ جامعها الاعظم ، فمــا زالت هناك مشكلات شائكة يتعلق أكثرها بتأريخ بناء هذا الجامع لم يتوصل العلماء بعد الى حلها ، وما زالت تحتاج الى المزيد من الجهود للوصول الى حلول نهائية لها ، كما أن المكتبة العربية تحتاج حقا الى دراسة شاملة مستوفاة عن قرطبة بتاريخها الاسلامي المجيد والمعالم البارزة لحضارتها في عصرها الذهبي . وقد دفعني هــذا النقص فيمــا دونه الباحثون العرب عــن قرطبة الاسلامية الى اختيارها

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، تحقيق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ، ج ٢ ص ١٤ .

(٢) ابن غالب ، قطعة من فرحة الانفس ، تحقيق الدكتور احمد لطفي عبد البديع ، ص ٢٧ .

موضوعا لهذه الدراسة التاريخية الحضارية لمجموعة مختارة مـن مـدن الاسلام قمت بدراستها منذ عشر سنوات وأهمها : المرية ومرسية وطليطلة وفاس في المغرب والاندلس ، وطرابلس الشام وصيـدا والاسكندرية في المشرق الاسلامي .

أرجو أن أكون قد وفقت في اجلاء صورة قرطبة الاسلامية للقارىء العربي حتى يتهيأ له من خلالها الاطلاع على صفحة مجيدة من تاريخ أمتنا العربية يعتز بها ويستمد منها مثله ، والله ولي التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

القسم الاول

التاريخ الاسلامي لمدينة قرطبة

الفصل الاول : قرطبة من الفتح الاسلامي حتى قيام دولة بني امية

الفصل الثاني : قرطبة في عصرها الذهبي : عصر دولة بني امية

الفصل الثالث : سقوط الخلافة الاموية واثره في اضمحلال قرطبة

الفصل الرابع : عصر التخلف : من قيام دولة بني جهور حتى سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين



الفصل الاول

قرطبة من الفتح الاسلامي حتى قيام دولة بني امية

(١) الفتح الاسلامي

أ ـ قرطبة قبل الفتح

ب ـ سقوط قرطبة في أيدي المسلمين

ج ـ تحصن القوط في كنيسة شنت أجلح خارج الاسوار

(٢) تاريخ قرطبة في عصر الولاة

أ ـ قرطبة حاضرة الاندلس

ب ـ منشآت الولاة في قرطبة

ج ـ موجة الشاميين

د ـ قرطبة مركز الصراع بين اليمنية والمضرية

الفصل الاول

قرطبة من الفتح الاسلامي حتى قيام دولة بني امية

(١)

الفتح الاسلامي

أ ــ قرطبة قبل الفتح :

تقع مدينة قرطبة على سهل مرتفع في سفح جبل قرطبة(١) المعروف عند مؤرخي العرب بجبل العروس(٢) ، ويؤلف هذا الجبل احدى سلاسل جبال سيرا مورينا ، وكان يمتد شمالي قرطبة ، ويغرس بالكروم والزيتون وسائر الاشجار وأنواع الازهار(٣) ، ويتراوح ارتفاع قرطبة ما بين ١٠٠ متر و ١٢٣ مترا فوق مستوى سطح البحر(٤) . أمـا من جهة الجنوب فقرطبة موفية على الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير الذي ينحني مجراه

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠١ ــ ابن غالب ، قطعة من فرحة الانس ، ص ٣٨ .

Rafael Castejon, Guia de Cordoba, Madrid, 1930, P. 12 — Castejon, Cordoba Califal, en : Boletin de la Real Academia de Ciencias, Bellas Letras y Nobles artes de Cordoba, ano VIII, No. 25, 1929, P. 257.

(٢) الادريسي ، وصف المغرب والاندلس من كتاب نزهة المشتاق ، نشره دوزي ودي غوية ، ليـدن ، ١٨٦٦ ، ص ٢٠٨ ــ ابـن غـالب ، ص ٢٦ ــ الحميري ، صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبـر الاقطار ، نشره ليفي بروفنسـال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ص ٥٣ ــ المقري ، نفـح الطيب ، ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) ابن غالب ، ص ٢٧ ــ المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٥ .

(٤) R. Castejon, Cordoba Califal, P. 257 — R. Castejon, Guia de Cordoba, P. 12.

انحناءة طفيفة نحو الغرب مؤلفا أهم طريق طبيعي في اسبانيا الجنوبية[1] ، ومن الغريب أن هــذا النهر هو الوحيد في الاندلس الــذي سمي باسم عربي[2] في عصر الولاة ، وكان يسمى قبل الفتح بنهر بيطي ، وينبع هذا النهر من جبل شقورة ، ثم يتفرع فرعين : أحدهما يسمى النهـر الابيض يتجه الى مرسية شرقا ، والفرع الآخر يمر بإستجة وقرطبة وإشبيلية غربا ، ويصب في المحيط الاطلسي[3] ، ومن روافده نهر شنيل الذي ينبع من جبال إلبيرة وعليه تقــع مدينة إستجة ، ونهر بليلنش[4] الذي يصب في شنيل ، والرافد الثاني نهر وادي شوش Guadaljoz الذي ينبع من جبل باغة ، والثالث الوادي الاحمر Guadalimar ، والرابع وادي بلون Guadalbullon وروافد أخرى .

وتحتل مدينة قرطبة فحصا خصبا ينتج الغلال ، وتمتد بجواره مناطق جبلية غنية بالمراعي والكروم وأشجار الزيتون . وتعتبر قرطبة مــن أكثر المناطق الزراعية انتاجا في اسبانيا وخاصة في سهل الكنبانية[5] ، وهي أراض سهلة تمتد الى جنوب المدينة ، اختصت بزراعة الزيتون الذي تغطي مزارعه مساحة تصل الى ٢٣٦ ألف هكتار ، وعليه تقوم صناعة استخراج الزيوت وصناعة الصابون[6] .

وقرطبة مدينة قديمة البناء « أزلية من بنيان الاوائل »[7] ، لا نعرف على وجه التحقيق المدى التاريخي لجذورها القديمة ، وأغلب الظن أنهـا

---

(١) Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle, Paris, 1932, P. 199.

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٦ . هناك انهار اخرى صغيرة عرفت فيما بعد بأسماء عربية مثل وادي الابيار .

(٣) الادريسي ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ — المقري ، ج ٢ ص ٢٥ .

(٤) Lévi-Provençal, La description de l'Espagne de Razi, al-Andalus, Vol. XVIII, P. 101.

(٥) Castejon, Cordoba Califal, P. 257

(٦) Castejon, Guia de Cordoba, P. 12

(٧) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٨ .

أيبيرية الاصل استنادا على عدد من التماثيل البرنزية الصغيرة ذات الطابع الايبيري التي أسفر عنها البحث الاثري في بقعتها[1] ، زد على ذلك أن الباحثين أثبتوا أن الاسم القديم لمدينة قرطبة هو Corduba ، وهو اسم أيبيري الاصل يتشابه مع غيره من أسماء مدن أخرى أيبيرية مثل Salduba وهو الاسم القديم الذي كانت تعرف به مدينة سرقسطة الرومانية Cesaraugusta قبل أن يعيد أغسطس قيصر بناءها في سنة ٢٣ ق٠م٠[2] ٠

وقد ورد اسم قرطبة لأول مرة في التاريخ الاسباني في الحرب البونية الثانية إبان الصراع بين رومة وقرطاجنة ، اذ ساهم القرطبيون في حملة هانيبال على رومة[3] ، ثم دخلت قرطبة في سنة ٢٠٦ ق٠م٠ في فلك الامبراطورية الرومانية ، وأصبحت بعد ذلك بثلاثين عاما ، أي في عام ١٦٩ ق٠م٠ عاصمة لاقليم اسبانيا السفلى Espana Ulterior[4] ٠ وازدهرت قرطبة في عصر الحاكم الروماني ماركوس كلوديوس مارسيلوس الذي وسع رقعتها ، وجملها بالابنية الرائعة ، وزودها بأسوار منيعة على نحو ما كان متبعا في نظم العمارة الحربية الرومانية[5] ٠ وكان لتلك الاعمال العمرانية أثر كبير في اجتذاب عدد من الاسرات الرومانية النبيلة الى قرطبة لاستيطانها، ولهذا السبب ارتفعت الى مصاف المستعمرات الرومانية Colonia Patricia وفي عام ٨٩ ق٠م٠ انحاز ماركوس تيرنسيوس فارون حاكم باطقة الى صفوف بومبي ضد يوليوس قيصر ، غير أن مارسيلوس قائد يوليوس قيصر استطاع أن يستولي على قرطبة عاصمة باطقة بعد موقعة موندا التي حدثت بالقرب من قرطبة فيما بين شهري مارس وابريل سنة ٤٥ ق٠م٠ ويقضي قضاء مبرما على ثورتها ، ثم دخلها يوليوس قيصر وأقام فيها ٠

---

(١) Castejon, Guia de Cordoba, P. 13
(٢) Abbad Rios, Zaragoza, Barcelona, 1952, P. 5
(٣) Castejon, Guia, P. 13
(٤) Ibid.
(٥) Ibid.

(٢)

وفي عصر أغسطس قيصر انقسمت اسبانيا الجنوبية الى اقليمين : باطقة في الشرق ولشدانية في الغرب ، واتخذت قرطبة قاعدة لاقليم باطقة[١]، وما لبثت أن أصبحت بعد أمد وجيز أحد مراكز قضائية أربعة في اسبانيا الجنوبية هي : قادس وإشبيلية واستجة وقرطبة[٢] . ويشير المقري نقلا عن ابن حيان والرازي والحجاري الى أن « اكتبيان (اكتافيوس) ثاني قياصرة الروم الذي ملك أكثر الدنيا ... أمر ببناء المدن العظيمة بالاندلس ، فبنيت في مدته قرطبة وإشبيلية وماردة وسرقسطة »[٣] . ويشير المقري في هذا النص الى أغسطس قيصر الذي مصر قرطبة وجعلها جديرة بأن تكون حاضرة لإقليم باطقة .

وتألقت قرطبة في العصر الروماني ، واتسعت قاعدتها ، وازدهر عمرانها ، ويذكر سافدرا أنها كانت تتألف من جانبين يفصل بينهما سور حاجز أقامه الرومان لفصل الاهالي الذين يسكنون الجانب الشرقي عن الجانب الغربي الذي يشتمل على المؤسسات الحكومية مثل قصر الوالي وثكنات الجند ، وهذا القسم الغربي هو ما عرف في العصر الاسلامي بالمدينة[٤] .

وفي عصر انتشار المسيحية في اسبانيا في القرن الثالث الميلادي استشهد من أبناء قرطبة صاحباها اللذان تتبرك بهما المدينة وهما القديس أثيكلو والقديسة فكتوريا[٥] . ثم كانت الغزوات الجرمانية المدمرة التي

---

(١) Albert Calvert & Walter Gallichan, Cordova : a city of the moors, London, 1907, P. 13.

(٢) J. Guichot, Historia General de Andalucia, t. I, Madrid, 1869, P. 166 — Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle, P. 201.

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٢٦ .

(٤) E. Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, P. 83.

(٥) Castejon, Guia de Cordoba, P. 13

تدفقت على إيبارية منذ عام ٤٠٩ م ، فقد اجتاحتها جحافل اللان بقيادة ملكهم هرمانريك ، والوندال بقيادة ملكهم جندريك ، وكانت هذه العناصر الاخيرة أكثر العناصر الجرمانية وحشية وأشدها ميلا الى التخريب والتدمير[1] . واقتسمت العناصر الجرمانية الغازية اسبانيا فيما بينها في سنة ٤١١ م ، فاستقر السواف وقسم من الوندال في الاطراف الشمالية الغربية أي في جليقية وأشتوريش ، أما اللان فقد أقاموا في لشدانية ، وأقام القسم الاعظم من الوندال في اقليم باطقة وجانب من شرق الاندلس . ثم دخل القوط الغربيون بقيادة أطاولف (٤١١ — ٤١٥ م) اسبانيا وانتزعوا برشلونة من الوندال في سنة ٤١٤ م ، واتخذوها قاعدة لهم . وبينما كان القوط الغربيون في عهد واليا وخليفته تيودوريد يتساحون في قلب اسبانيا ، كان الوندال يرتدون الى الجنوب ، ويأتون أثناء ارتدادهم على معالم الحضارة الرومانية ، وينثرون بذور الدمار في كل عمران باطقة ، وأصبح الساحل الجنوبي الغربي من شبه جزيرة أيبيريا (إيبارية) خاضعا لهم ، ونجحوا بفضل أسطولهم البحري في فرض سيادتهم على الجانب الغربي من البحر المتوسط ، وما لبثوا أن استولوا على جزر البليار ، وأخذت سفنهم تغير منذ سنة ٤٢٥ بصفة دائمة على سواحل مورطانية الطنجية تمهيدا للاستيلاء على المغرب[2] . واضطر الوندال أخيرا في عهد ملكهم جنصريك (٤٢٨ — ٤٧٧ م) إزاء ضغط القوط الغربيين عليهم من الشمال الى العبور الى أرض المغرب في ٤٢٩ بعد أن تركوا اقليم باطقة أثرا بعد عين ، وخربوا فيه مدائنه الكبار أمثال هسباليس (إشبيلية) ، وكرتا جونوفا (قرطاجنة الاندلس) وجادس (قادس) وكردوبا (قرطبة)[3] ،

---

(١) ابراهيم علي طرخان ، دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٦ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٣ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٦ .

(٣) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٤ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٥٤ .

وتبع ذلك اختفاء اسم باطقة ، وحلول اسم فندالوسيا محله نسبة الى قبائل الوندال المخربة[1] . ثم استعان أتاناخيلدو أحد زعماء القوط الغربيين في عهد الملك القوطي أخيلا (٥٤٩ ـ ٥٥٥) بالامبراطور البيزنطي جستنيان لضم القسم الجنوبي الشرقي من الاندلس ، وبفضل حلفائه البيزنطيين تمكن أتاناخيلدو من الارتقاء على العرش ، ولكنه دفع ثمن ذلك غاليا ، اذ ترك للبيزنطيين اقليم باطقة بمدنه الكبار أمثال مالقة وإشبيلية وقرطبة والبيرة وقرطاجنة ، وعندئذ فكر أتاناخيلدو في نقل عاصمة القوط الغربيين من إشبيلية الى طليطلة قاعدة اقليم كاربتانيا لأهميتها الجغرافية والاستراتيجية. أما قرطبة فظلت خاضعة للبيزنطيين الى أن نجح ليو فيخلدو في الاستيلاء عليها في سنة ٥٦٨ ، وجعلها مركزا أسقفيا[2] . ثم أخذت قرطبة تفقد من أهميتها شيئا فشيئا أمام طليطلة التي أصبحت مستقر ملوك القوط « المدينة الملكية » (La Ciudad Regia) [3] ، ومقر المجلس الكنسي القوطي .

ب ـ سقوط قرطبة في ايدي المسلمين :

ما ان انتصر طارق بن زياد وجيشه على جيوش القوط بقيادة لذريق في وادي لكة في ٦ شوال سنة ٩٢ هـ (٢٥ يوليو ٧١١ م) حتى زحف على مدينة شذونة فافتتحها عنوة ، ثم مضى الى مدور ، وعطف بعد ذلك على قرمونة فمر بعينه المنسوبة اليه ، ثم انحرف الى إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية وكان هدفه التالي مدينة استجة الواقعة بالقرب من قرطبة على وادي شنيل أحد روافد الوادي الكبير ، وكانت استجه تؤلف مركز المقاومة

---

(١) أخبار مجموعة في تاريخ الاندلس ، نشره دون لا فونتي القنطرة ، مدريد ١٨٦٧ ص ٩ ـ المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) R. Ramirez de Arellano, Historia de Cordoba, t. I, Ciudad Real, 1915, P. 184.

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، ما لا يعرفه المسلمون من حواضر الاندلس : طليطلة، مجلة الفكر الاسلامي، السنة الاولى عدد ٥، ١٩٧٠ ص٤١ .

الاول للقوط ، ففيها احتشدت فلول القوط بعد هزيمتهم في وادي لكة[1] ، وهناك اشتبك القوط مع قوات المسلمين في قتال عنيف ، أصيب فيه المسلمون بخسائر فادحة في الارواح[2] ، ومع ذلك فقد انجلت الواقعة عن هزيمة نكراء مني بها القوط ، فتراجعوا الى مدينتهم ، وتحصنوا بداخلها ، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربا مثلها[3] ، ثم أطبق طارق على المدينة من كل جانب ، وظل يحاصرها حتى ظفر بملكها وقد خرج وحده الى النهر لقضاء بعض حاجته ، فصالحه طارق على ما أحب ، ودخل المسلمون استجة صلحا .

وكان من الطبيعي أن يتقدم طارق بعد ذلك لافتتاح مدينة قرطبة قاعدة جنوب الاندلس ، ولكن الظروف أملت عليه المبادرة بالزحف نحو طليطلة عاصمة القوط ، حتى يتهيأ له الاستيلاء عليها قبل أن يتدارك القوط الامر ويحكموا الدفاع عنها ، فيصعب على طارق التغلب عليها بعد ذلك[4] .

ومع ذلك فقد حرص طارق بن زياد على أن يتم فتح قرطبة قبل أن يفتتح طليطلة ، فولي مغيثا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك على فرقة من

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٩ — المقري (نقلا عن الرازي) ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) يذكر صاحب اخبار مجموعة ان القوط قاتلوا طارق قتالا شديدا ، « حتى كثر القتل والجراح في المسلمين » (اخبار مجموعة ، ص ٦ — المقري ، ج ١ ص ٢٤٣) .

(٣) اخبار مجموعة ، ص ٩ — المقري ، ج ١ ص ٢٤٤ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٨٢ .

ويذكر الرازي أن فلول القوط تطايروا عن السهول الى المعاقل ، وان ذوي القوة منهم صعدوا الى دار مملكتهم طليطلة (المقري ، ج ١ ص ٢٤٤) . وفي موضع آخر يذكر أن بليان صاحب مدينة سبتة نصح طارق بالسير نحو طليطلة مع معظم جيشه ، فيشغل القوم هناك عن النظر في امرهم والاجتماع الى اولي رأيهم (نفس المصدر) .

الفرسان[1] قوامها سبعمائة فارس[2] ، وهو عدد قليل لا يمكن أن يقصد طارق من ورائه أن يدخل مغيث في معركة مكشوفة مع أهل المدينة ، ولذلك فاننا نرجح أن خطة مغيث الرومي كانت ترمي الى اصطناع الدهاء المقرون بعامل المفاجأة في اقتحام المدينة ، وهو أمر جرى عليه المسلمون في فتوحاتهم لعدد مـن المدن المغربية مثـل طرابلس وصبرة وسوسة وغيرها • وتدل الاحداث التالية على صحة ما ذهبنا اليه ، فقد سار مغيث على رأس فرقته حتى اقترب من قرطبة ، فكمن بقرية شقندة في غيضة أرز شامخة تقع بين قرية شقندة وقرية طرسيل[3] ، وحرص على كتمان وجوده عن أهل قرطبة حتى يتهيأ له ولفرقته مباغتة المدينة في وقت لا تتوقع فيه حاميتها هجوما من جانب المسلمين خاصة وقد بلغهم سير طارق بمعظم قواته نحو الشمال • ولذلك نرى مغيثا يبعث نفرا من أدلائه للاستطلاع أو لمجرد البحث عـن ثغرة مـا في سور المدينة تتيح للمسلمين النفاذ الى داخل المدينة ومفاجأة حاميتها بالقتال • ويبدو أن هؤلاء الادلاء لم يوفقوا في مهمتهم ، فليس من السهل الكشف عن ثغرة في سور المدينة الذي يحيط بها من كل جانب دون أن يقترب هؤلاء الادلاء من السور ويدرسوه عن كثب ، وهذا كفيل في حد ذاته بلفت أنظار المدافعين عنها ، مما يترتب عليه إفتضاح أمر مغيث وفرسانه الكامنين في الغيضة ، وقد ينتهي الامر بقتلهم جميعا •

ولكن هؤلاء الادلاء الذين سيرهم مغيث لهذه المهمة نجحوا في أسر

---

(١) وقيل ان طارق هو الذي زحف بنفسه الى قرطبة (المقري ، ج ١ ص ٢٤٤) ولكن هذا القول لا يستند علـى اي اساس من الصحة لان فتح قرطبة نسب الى مغيث الرومي ، بل ان بلاط قرطبة وقصرها الروماني القديم عرف بعد الفتح باسم بلاط مغيث نسبة اليه وهو دليل يؤكد قيام مغيث بمهمة فتحها .

(٢) كان المسلمون قد غنموا خيل القوط فركبوها ولم يبق فيهم راجل واحد (اخبار مجموعة ص ١٠ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤ ـ المقري ج ١ ص ٢٤٤) .

(٣) اخبار مجموعة ص ١٠ ـ ابـن عذارى ، ج ٢ ص ١٤ . واشـار ساندرا الى ان طرسيل هي Tercios (Saavedra, op. cit. P. 81)

راعي غنم من أهل قرطبة فأمسكوا به واقتادوه هو وغنمه[1] الى الغيضة التي يكمن فيها مغيث ، فسأله عن قرطبة وأحوال أهلها والقائمين بالدفاع عنها ، فأجابه بأنه قد رحل عنها عظماء أهلها الى طليطلة وأبقوا فيها بطريقا في أربع مائة من حماتهم مع ضعفاء أهلها ، ثـم سأله عن حصانة سورها ، فأجابه بأنه سور حصين ، الا أن فيه ثغرة تعلو باب الصورة وهو الباب المعروف بباب القنطرة ، ووصف لـه الثغرة[2] . وأقام مغيث في مكمنه بالغيضة بقية النهار ، فلما غابت الشمس وأرخى الليل سدوله ، اتخذ من ظلام الليل ستارا له ولجنوده ليفاجيء حامية المدينة ، وتحرك من الغيضة الى قبالة باب القنطرة وهيأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل ، كما أن حراس هذا الباب أغفلوا حراسته تلك الليلة لشدة البرد مع تساقط الرذاذ[3] . وكانت القنطرة التي تصل مدينة قرطبة بشقندة مهدمة[4] ، واقتضى الأمر عبـور الوادي سباحة ، فترجل فرسان المسلمين وعبروا النهر ، فلما توافوا على الضفة اليمنى مـن النهر تجمعوا في الفضاء الواقع بين النهر والسور وكان اتساع هـذا الفضاء لا يزيد على ثلاثين ذراعا ، وحاولوا تسلق السور ، فلم يجدوا متعلقا ، فتعذر عليهم تسلقه ، فأخذوا يدورون حوله بحثا عن الثغرة التي وصفها لهم راعي .

---

(1) كان من الممكن ان يسالوا راعي الغنم عن مواضع الضعف في البسور فيجيبهم الى ذلك وتنتهي مشكلة البحث عن الثغرة التي يمكنهم ان ينفذوا الى داخل المدينة منها ، ولكنهم خافوا أن يتركوا الراعي وشأنه ، فيمضي الى قومه ويخبرهم بخبر المسلمين وعندئذ يفتضح امرهم ، فحرصوا على حمله معهم هو وغنمه أيضا وهذا يؤكد رأينا السابق في ان خطة مغيث كانت تهدف الى دخول المدينة اثناء الليل عن طريق المباغتة ، فالراعي لا يرعى غنمه الا اثناء النهار ، واختفاء مغيث في الغيضة يعني حرصه الشديد على الاختفاء عن انظار العابرين من الرعاة أو ذوي المصالح من اهل هذه النواحي انتظارا لحلول الظلام واغتنامه الليل للتسلل الى داخل المدينة .

(2) اخبار مجموعة ، ص ١٠ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤ ــ المقري ، ج ١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(3) نفس المصدر ، ص ١١ ــ المقري ، نفح الطيب ص ٢٤٥ .

(4) نفسه ، ص ١١ .

الغنم ، وأتوا به ليدلهم على مكانه ، فدلهم عليها ، فاذا بها مجرد حفرة غير عميقة[1] ، غير سهلة التسنم[2] ، ولكن وقوعها بجوار بعض فروع لشجرة من أشجار التين مكن أحد أشداء المسلمين من التعلق بهـا والصعود الى أعلى السور . وكان مغيث قد نزع عمامته وناوله طرفها ، وبفضلها أعان هذا الرجل نفرا من المسلمين على ارتقاء السور ، وأعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور ، كل ذلك والحامية في غفلة مما يجري ، وقد ألهتهم الرغبة في طلب الدفء عن مراقبة السور . وركب مغيث فرسه ووقفه ازاء باب القنطرة وتأهب لدخول المدينة بعد أن أمر رجاله بالهجوم على حراس الباب المذكور ، ففعلوا وقتلوا نفرا منهم ، وكسروا أغلاق الباب وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه واستولوا على المدينة عنوة[3] .

وعلى هذا النحو نجحت خطة مغيث في مفاجأة حراس الباب نجاحا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، ودخل مغيث بمن معه من أصحابه وعيونه وأدلائه ، وصعد الى البلاط وهو قصر حاكم قرطبة الذي ما كاد يبلغه نبأ دخول المسلمين قرطبة حتى خرج في كماة أصحابه وهم نحو الاربعمائة[4] في قول والخمسمائة في قول آخر[5] « من باب المدينة الغربي يقال لـه باب إشبيلية ، فتحصن بكنيسة في غربي المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة هي شنت أجلح فدخلها »[6] .

غير أن الاستاذ مانويل أوكانيا خيمنث يشك في صحة مـا جـاء في الروايات العربية الخاصة بفتـح قرطبة ، ويذكر أن قرطبة عندما فتحهـا

---

(١) يذكر صاحب « اخبار مجموعة » انها « ثغرة ليست مستاصلة » (اخبار مجموعة ص ١١) .

(٢) المقري ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٣) اخبار مجموعة ، ص ١١ ـ ابـن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٤ ـ المقري ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٥ .

(٥) اخبار مجموعة ، ص ١٢ .

(٦) نفس المصدر ـ فتح الاندلس لمؤلف مجهول ، نشره دون خواكين جنثالث ، الجزائر ، ١٨٨٩ ص ٩ ، ١٠ .

المسلمون كانت في أشد حالات السوء ، فقنطرتها كانت مهدمة ، وسورها الغربي قد تثلم في بعض أجزائه[1] ، ويعتمد الاستاذ خيمنث فيما ذهب اليه على نص أورده صاحب أخبار مجموعة ، جاء فيــه أن السمح بــن مالك الخولاني الذي ولي الاندلس في سنة ١٠٠ هـ كتب الى الخليفة عمر بــن عبــد العزيز في العــام التالي « يستشيره ويعلمه أن مدينــة قرطبــة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة ، فــان أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم »[2] . كذلك يستند السيد خيمنث على نص آخر أورده ابن عذارى في البيان جاء فيه : « وكان المسلمون اذ فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثاق الاركان من تأسيس الامم الدائرة ، قد هدمها مدود النهر على مر الازمان ، فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز عندما اتصل به خبرها ، فأمر السمح بابتنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما بني عليه جسر من حجارة سور المدينة »[3] . وعلى أساس هذين النصين يعتقد الاستاذ خيمنث أن مغيث الرومي وأصحابه اقتحموا المدينة من سورها الغربي الذي

---

(١) Ocana Jimenez, La basilica de San Vicente y la gran mezquita de Cordoba, al-Andalus, 1942, PP. 347-366.

(٢) اخبار مجموعة ، ص ٢٤ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤ . ونضيف الى النص السابق نصا لابن عذارى اكد فيه ان قنطرة قرطبة كانت مهدومة في الوقت الذي صعد فيــه رجال مغيث سور قرطبة (ابن عذارى ، ص ١١) ، كما نضيف نصا اورده المقري نقلا عن ابن حيان ذكر فيه ان هذه القنطرة اثرت فيها الازمان بمكابدة المدود حتى سقطت حناياها ومحيت أعاليها وبقيت ارجلها واسافلها ، وعليها بني السمح في سنة احدى ومائة (المقري ، ج ٢ ص ٢٦) وبالاضافة الــى هذين النصين هناك نص ثالث ورد في الرسالة الشريفية في الاقطار الاندلسية جاء فيــه أن السمح خاطب الخليفة عمر بــن عبد العزيز يستاذنه في بنــاء القنطرة من صخر الســور ، فوافقه الخليفة على ذلك وأمره بأن تبنى القنطرة من صخر الســور ويجبر ما تثلم منه باللبن (ابن القوطية ، ص ٢٠٧) .

كان مهدما في ذلك الحين ، أي من جهة الربض الذي عرف فيما بعد بربض بلاط مغيث الواقع غربي المدينة[1] ، وفقا لما ذكره ابن بشكوال[2] ، وليس فوق باب الجزيرة كما يقول صاحب أخبار مجموعة « وهو باب القنطرة مقابل الثلمة التي دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة »[3] ، وفي ذلك يقول الاستاذ خيمنث : « اذا سلمنا بأن الجانب الغربي من أسوار قرطبة كان مهدما كذلك ، في ذلك الوقت ، وأن مغيثا دخل المدينة من هذا الموضع الضعيف ، فان ربض بلاط مغيث كان لا بد قائما غربي المدينة وليس فوق باب الجزيرة أو باب القنطرة على حد قول صاحب أخبار مجموعة » . ولا أختلف مع الاستاذ خيمنث في أن سور المدينة الغربي كانت تتخلله ثلمات ، ولكنني لا أعتقد أن ربض بلاط مغيث كان يقع بالضرورة في الجانب الغربي من قرطبة ، ذلك لأن هذا الربض لم يعرف بهذا الاسم الا لأن الدار التي اعتاضها له موسى بن نصير بعد قفوله من شمال الاندلس في أعقاب الفتح بدلا من البلاط الذي نزله مغيث منذ أن افتتح قرطبة ، كانت تقع في الجانب الغربي ، وليس لأن مغيثا اقتحم المدينة من هذا الجانب الغربي . وعلى هذا الاساس فانني أشك في دخول المسلمين مدينة قرطبة من جهة السور الغربي ، ولا أستبعد دخولهم من الباب الجنوبي المواجه لربض شقندة على الرغم من أن قصة استعانة المسلمين براعي الغنم تبدو الى حد كبير خيالية : فليس من المنطقي أن يدخل المسلمون من الجانب الغربي للسور ، فيخرج القوط المدافعون عن المدينة من هذا الجانب أيضا ليتحصنوا في كنيسة تقع خارج باب العطارين[4] . ثم ان البلاط أو القصر الذي صعد اليه مغيث بعد دخوله المدينة من باب القنطرة كان يقع غربي المدينة ، وكان متصلا « بسورها

---

(1) Ocana Jimenez, op. cit., P. 363

(2) ذكر ابن بشكوال أن « ربض بلاط مغيث كان يقع غربي المدينة » (المقري ج ٢ ص ١٣ — ابن الخطيب ، كتاب اعمال الاعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ ص ١٠٣) .

(3) اخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(4) فتح الاندلس ، ص ٩ .

القبلي والغربي »[1] بحيث أمكـن لحاكم المدينة ورجاله المدافعين عنهـا الخروج من أحد أبوابه الغربية فرارا من المسلمين . وأعتقد أن هذا القصر هو نفس القصر الذي نزله أيوب بن حبيب اللخمي بعد مصرع عبد العزيز ابن موسى بن نصير ونقل حاضرة المسلمين في الاندلس من إشبيلية الـى قرطبة[2] ، وأعتقد أيضا أنه نفس القصر الذي نزله أمراء بني أمية واتخذوه مقرا لهم في الحاضرة .

ج ـ تحصن القوط في كنيسة شنت اجلج خارج الاسوار
(St. Acicio hors les Murs)

استطاع مغيث الرومي أن يستولي على قرطبة دون مقاومة في الوقت الذي فر الحاكم القوطي بمن معه من الحماة والمدافعين الى كنيسة شنت أجلج الواقعة خارج باب اشبيلية المعروف بباب العطارين[3] ، فحاصرها المسلمون ، وكتب مغيث الـى طارق يبشره بالفتح[4] . وكانت الكنيسة التي امتنع فيها القوط حصينة ذات بنيان وتقانة[5] يأتيها الماء تحت الارض من عين في سفح جبل[6] ، لانه اذا لـم تكن هذه الكنيسة بهذه الحصانة لما بادر حاكم قرطبة ورجاله بالتحصن فيها ، ولما أمكن لهؤلاء القوط احتمال حصار طويل الامد امتد الى ثلاثة أشهر . ويبدو أن المسلمين اهتدوا الى مصدر المياه الـتي كانت تمد الكنيسة فقطعوها وسدوا منافذها ، فأيقن المحصورون بالهلاك . ويـذكر ابن عذارى أن حاكم المدينة تسلل مـن الكنيسة ذات يوم وحده وهـو ينوي التحصن في جبل قرطبة ليلحق به

---

(1) الحميري ، ص ١٥٦ .
(2) اخبار مجموعة ، ص ٢١ .
(3) نفس المصدر ص ١٢ ـ فتح الاندلس ص ٩ .
(4) نفس المصدر ص ١٢ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٥ .
(5) نفس المصدر .
(6) المقري ، ج ١ ص ٢٤٥ .

أصحابه (١) أو خوفا على نفسه عندما أيقن بالهلاك (٢) ، أو بهدف استقدام فرقة من جيوش القوط لتخليص رجاله . وأيا ما كان سبب فراره ، فقد أبصره مغيث ، فانطلق وراءه وقبض عليه بعد قرية قطلبرة Cutelobera فأسره مغيث وحبسه عنده ليقدم به على الخليفة الوليد ، ولم يؤسر من أمراء القوط غيره .

عاد مغيث بأسيره الى الكنيسة ، فدعا المحصورين الى الاسلام أو الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم ، فسميت الكنيسة لذلك بكنيسة الحرقى « والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء »(٣) ، وقيل انه استنزلهم أسرا ، وضرب أعناقهم ، فسميت لذلك بكنيسة الاسرى(٤) .

ويستبعد الدكتور حسين مؤنس حادث احراق الكنيسة بمن فيها ، ويستدل على ذلك بأن هذه الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زمانا طويلا ، وليس فيها للنار أثر(٥) . ولا أدري على أي مصدر اعتمد الدكتور مؤنس في دحضه للنص السابق ، فكل ما نعرفه عن هذه الكنيسة أنها هدمت زمن الفتح ، وظلت كذلك الى أن أذن الامير عبد الرحمن الداخل لنصارى قرطبة باعادة بنائها نظير تخليهم عن نصيبهم في كنيسة شنت بنجنت التي أقام عليها المسجد الجامع بقرطبة(٦) ، ويغلب على الظن أنه خلط بين كنيسة شنت أجلح خارج الاسوار وكنيسة شنت بنجنت التي أقيم الجامع الاعظم في بقعتها . ولا شك أن أطلال كنيسة شنت أجلح ظلت قائمة من الفتح الاسلامي لقرطبة حتى سنة ١٦٩ هـ عندما أعيد بناؤها ، فاليها يشير القاضي

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٥ .
(٢) المقري ، ج ١ ص ٢٤٦ .
(٣) نفس المرجع .
(٤) اخبار مجموعة ص ١٤ — ابن عذارى ، ص ١٥ .
(٥) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٨٢ .
(٦) E. Salem, Chronologia de la mezquita Mayor de Cordoba, al-Andalus, Vol. XIX, P. 399.

عياض عند تعرضه لذكر محاسن قرطبة ومشاهدها اذ يقول : « وبها الجامع الكبير الاسلامي وبها الكنيسة المعظمة بين النصارى » [1] .

(٢)

تاريخ قرطبة في عصر الولاة

١ — قرطبة حاضرة الاندلس :

قبل أن يقفل موسى بن نصير عائدا الى المشرق استخلف ابنه عبد العزيز في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ ، واختار له مدينة اشبيلية قاعدة لولايته [2] ويعبر هذا الاختيار عن بعد نظر موسى بن نصير ، فقد استبعد مدينة طليطلة العاصمة القديمة للقوط لانها بموقعها في وسط الاندلس تكون أكثر تعرضا للثورات ، وقد يصل الامر بالمتنزين فيها الى قطع الاتصال بينها وبين المغرب لتطرفها عن الساحل الجنوبي ، فيسبب ذلك كارثة كبرى للمسلمين . كذلك استبعد مدينة قرطبة لانها مدينة داخلية لا تصلها الامدادات بسهولة كأي مدينة ساحلية تربطها بالمغرب روابط بحرية ، ثم ان مدينة قرطبة كانت قد فقدت أهميتها منذ أن تفوقت عليها طليطلة في القرن السابع الميلادي فأهملها ملوك القوط ، ولم تعد من المدن الكبرى في جنوب الاندلس . أما اشبيلية فمدينة عظيمة تقع على الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير قرب مصبه ، في خليج عميق يهيؤها لان تكون ميناء بحريا من الدرجة الاولى في جنوبي الاندلس ، وبالاضافة الى هذا الموقع الممتاز فقد اختارها موسى بن نصير لحصانة أسوارها ومناعتها ، ولانها تتوسط سهلا فسيحا يعرف بالفحص ، ولانها ترتبط في يسر بسائر مدن الاندلس الاخرى وبلاد المغرب قاعدة

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٦١ .

(٢) ابن القوطية ، ص ١٠ — اخبار مجموعة ، ص ١٩ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٠ .

الجيوش الاسلامية في حالة قيام الاندلس بالثورات [1] . وفي تبرير اختيار موسى بن نصير لاشبيلية مقرا لـه وقاعدة للحكم يذكر صاحب أخبار مجموعة أنها « مدينة على نهر عظيم لا يخاض ، فأراد أن تكون فيه سفن المسلمين وتكون باب الاندلس » [2] . ويشير المقري الى هذا الموقع الممتاز بقوله : « وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر نظرا لقربه مـن مكاره المجاز » [3] . ولكن اشبيلية لم تتمتع بهذا المركز الاول الا أربع سنوات ، فقد حول ايوب بن حبيب اللخمي [4] العاصمة الى قرطبة في أول عام ٩٩ هـ على أثر مقتل عبد العزيز بن موسى بمسجد ربينة المشرف على مرج اشبيلية في عقب سنة ٩٨ هـ [5] .

نزل أيوب بن حبيب بقصر قرطبة أو البلاط الذي كان قد اختطه مغيث الرومي لنفسه بعد افتتاحه مدينة قرطبة [6] ، ثم أخرجه موسى بـن نصير عنه عند مروره بقرطبة أثناء قفوله الى دمشق ، بحجة أن هذا القصر لا يصلح لمغيث وانما يصلح للعامل الذي يتولى قرطبة ، واعتاضه دارا شريفة ذات سقي وزيتون وثمار يقال لها اليسانة كانت مـن أملاك الحاكم القوطي ، فتنحى مغيث عن القصر المذكور ونزل الدار التي عينها له موسى غربي مدينة قرطبة والتي عرفت فيما بعـد باسم بلاط مغيث [7] ، وكانت هـذه الدار النواة الرئيسية لقيام ربض بالجانب الغربي من قرطبة عرف فيما بعد بربض بلاط مغيث [8] .

---

(١) ارجع الى مقالي عـن اشبيلية بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦١ ص ٧٢ .
(٢) اخبار مجموعة ص ١٩ .
(٣) المقري ، ج ١ ص ٢٥٨ .
(٤) ابن القوطية ، ص ١١ .
(٥) ابن القوطية ص ١١ ــ اخبار مجموعة ص ٢٠ ، ٢١ . ويذكر ابن عذارى انه قتل في صدر رجب سنة ٩٧ هـ .
(٦) اخبار مجموعة ص ٢١ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٣ .
(٧) نفس المصدر .
(٨) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٠٣ ــ المقري ، ج ٢ ص ١٣ .

والواقع أن مدينة قرطبة كانت جديرة بالاختيار كعاصمة للاندلس بعد أن تم للمسلمين في ولاية عبد العزيز فتح اقليمي غرب وشرق الاندلس، فقد بادر عبد العزيز منذ توليه الامارة باستكمال فتح غرب الاندلس [١] ، ثم تطلع بعد ذلك الى فتح مالقة والبيرة ، ومن هناك اتجه نحو شرق الاندلس ، فدخل كورة تدمير واستولى على قاعدتها أوريولة . وعلى هذا الاساس لم تعد الاسباب التي من أجلها اختيرت اشبيلية بعد قائمة ، بل ان اختيار مدينة متوسطة بين الساحل والداخل بات ضرورة لازمة بعد أن ثبتت أقدام المسلمين في الاندلس، وأصبحت اشبيلية بحكم موقعها الجغرافي المتطرف لا تصلح لهذا الغرض . ومع ذلك فقد تناوبت قرطبة واشبيلية المركز الاول في الاندلس طوال الحكم الاسلامي .

وعندما أقيم الحر بن عبد الرحمن الثقفي واليا على الاندلس من قبل محمد بن يزيد عامل افريقية أقر هذا الاختيار ، وانتقلت العاصمة الاندلسية رسميا من اشبيلية الى قرطبة على يديه[٢] . ومنذ ذلك الحين ظلت قرطبة تحتل المكانة الاولى بين مدن الاندلس حتى سقوط الخلافة الاموية في قرطبـة .

ب ـ منشآت الولاة في قرطبة :

حظيت قرطبة بنصيب كبير مـن عنايـة ولاة الاندلس منذ الفتح الاسلامي ، على الرغم من اشتغال هؤلاء الولاة بالتوسع فيما وراء البرتات، وبالفتن الداخلية الناشئة من النزاع القائم بين العرب والبربر وتحوله الى نزاع بين البلديين والشاميين ثم الى صراع بين العصبيتين القيسية واليمنية على نحو ما سنفصله فيما بعد .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٠٩ ـ ١١٢ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٣ .

حرص المسلمون في قرطبة بادىء ذي بدء على المبادرة بتحويلها الى مدينة اسلامية ، وذلك بانشاء مسجد جامع في قلب المدينة ، ومن المعروف أن المساجد الجامعة كانت أساس التنظيم العمراني في المدن الاسلامية ، لان المسجد هو المركز الديني الذي يسيطر على حياة المدينة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، ومن حوله تلتف بقية مراكزها العمرانية ، فكانت تقام حول ساحته الاسواق والحوانيت ، كما كانت تعقد فيه الاجتماعات ، وتوزع ألوية الجيش وبنوده ، كما كانت له أهمية من الوجهة التعليمية بحكم قيامه بنفس وظيفة المدرسة [1] ، والمسجد أيضا هو الذي يطبع المدينة المفتوحة بطابعها الاسلامي .

ولما كان بناء مسجد جامع في قرطبة ضرورة ملحة أملتها ظروف الفتح الاسلامي في وقت كان المسلمون حديثي عهد بالاندلس فقد كان من الطبيعي — والامر يقتضي أن يتم بنـاء الجامع في أمد قصير للغاية — ألا يفكر المسلمون الفاتحون في بنائه بالحجر والرخام وغيرها من مواد البناء المعروفة، لان ذلك يستغرق حتما وقتا طويلا، ومن هنا اضطروا الى اتخاذ بناء مفروغ من بنيانه يكفيهم أو يغنيهم عن اقامة مسجد جديد ، ولم يكن هناك وفي تلك الآونة بالذات أصلح لهذا الغرض من كنيسة قرطبة ، يمكنهم اقتسامها دون حرج مع نصارى قرطبة أسوة بمـا حدث بالنسبة للمسجد الجامع بدمشق وجوامع أخرى . ومن المعروف أن الفاتحين في العصور القديمة والوسطى كانوا يؤثرون اختيار هياكلهم ودور عبادتهم في نفس المراكز الدينية السابقة على فتوحهم تمكينا لدينهم الغالب ، وعلى هذا النحو شارك المسلمون نصارى قرطبـة في كنيستهم الكبرى المعروفة بشنت بنجنت ، وأقاموا في هذا الشطر مسجدا ركز حنش الصنعاني التابعي قبلته ، فلمـا

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى ، مقال بمجلة المجلة ، العدد ٩ ، سبتمبر ١٩٥٧ — حسين أمين ، المسجد المعهد الاول للتعليم عند المسلمين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ١٧ .

كثر المسلمون بقرطبة وضاق عنهم مسجدها علقوا فيه سقائف متتالية يقل ارتفاعها تدريجيا تبعا لارتفاع مستوى سطح الارض كلما اتجهنا شمالا بعيدا عن نهر الوادي الكبير .

ويلي ذلك العمل الهام الذي كان شاغل المسلمين الاول بعد افتتاحهم قرطبة عمل ثاني هام تم الفراغ منه في زمن الولاة ، وهو ترميم قنطرة قرطبة في ولاية السمح بن مالك الخولاني . وكان المسلمون عندما افتتحوا قرطبة ألفوا القنطرة ــ وهي المجاز الذي تتخذه السكة العظمى أو المحجة العظمى المعروفة قديما باسم Via Augusta ودعامة التوسع العمراني بقرطبة نفسها ــ قد تهدمت بفعل مدود النهر على مر الازمان [١] حتى سقطت حناياها ، ومحيت أعاليها وبقيت أرجلها وأسافلها [٢] ، وفي نفس الوقت كان السور الغربي من قرطبة قد تهدم في أجزاء منه [٣] ، وأصبحت المدينة مفتوحة من هذه الناحية . فكتب السمح الى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستشيره في هذا الامر ، ويخبره بأن النهر لا يمكن خوضه في فصل الشتاء ، وأن هناك أحد أمرين : اما ترميم القنطرة من أحجار السور الغربي المتهدم ، وبناء القطاع المهدم من السور باللبن بعد ذلك ، أو بنيان السور المتثلم من جهة الغرب ، فتتحصن حاضرة الاندلس ويصبح في الامكان حماية قرطبة من أي غزو[٤] . فكتب اليه عمر بن عبد العزيز يأمره ببنيان القنطرة من حجارة السور وبناء السور باللبن، وتم الامر على هذا الاساس في سنة ١٠١هـ[٥].

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٢٦ .
(٣) اخبار مجموعة ، ص ٢٤ .
(٤) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٣٧ .
(٥) وفي ذلك يقول صاحب اخبار مجموعة : « فكتب الى عمر يستشيره ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة ، فان امرني امير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ، ونفقات الجهاد ، وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم، فيقال والله اعلم أن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور =

ولا أشك في أن ترميم القنطرة كان من المشاكل الاولى الملحة على ولاة قرطبة خاصة بعد أن أصبحت هذه المدينة حاضرة المسلمين في الاندلس، فقد كان من الضروري أن ترتبط مدينة قرطبة بربضها القبلي « شقندة » عن طريق القنطرة بعد أن ازداد حجم قرطبة وازداد عدد سكانها بوفود مزيد من الطلائع العربية واستقرار العرب فيها ، وأصبح من الصعب على سكان الربض القبلي العبور على المعادي لقضاء أعمالهم في المدينة او نواحيها الشرقية والغربية .

غير أن ما روته المصادر العربية خاصا ببناء القنطرة من صخر السور المتهدم أمر يثير الشك في صحة هذه الروايات ، لان توفير الاحجار اللازمة لبناء القنطرة أو ترميمها لم يكن مشكلة عويصة يواجهها العرب ، فاذا كانوا قد التمسوا الاحجار من السور المتثلم بحجة انهم كانوا حديثي عهد بمقاطع الحجر في جبل قرطبة ــ وهو ما لا نصدقه ــ فهناك من المباني القديمة المخربة في قرطبة ونواحيها مما يمكن معه الافادة من أحجارها في ترميم القنطرة والسور معا ، وهو تقليد كان وما زال شائعا في المدن الاسلامية ، ومع ذلك فليس في امكاننا التشكك في النصوص العربية ، ولا بد في الظروف الحاضرة من الاخذ بها ، وفي هذه الحالة علينا أن نلتمس للسمح ابن مالك العذر في ترميمه القنطرة بأحجار السور المتخرب بالرغبة في الفراغ السريع من أعمال الترميم لان موقع السور المتخرب كان قريبا من موقع القنطرة بحيث يسهل على القائمين بالترميم نقل الاحجار الضرورية لذلك بسهولة ، وفي ذلك توفير للجهد والنفقات في وقت كان المسلمون يشتغلون بالجهاد في بلاد غالة .

= وان يبني السور باللبن اذ لا يجد له صخرا » (اخبار مجموعة ص ٢٤) وفي ترميم القنطرة يقول ابن عذارى : « فامر (عمر) السمح بابتنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما بني عليه جسر من حجارة سور المدينة ... وفي سنة ١٠١ ورد كتاب امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على السمح بن مالك بالاندلس يأمره ببناء القنطرة بصخر السور وبناء السور باللبن » (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤ ، ٣٥) .

ج ـ موجة الشاميين :

تحرج موقف العرب في بلاد المغرب عند قيام خوارج البربر بقيادة ميسرة المدغري بالثورة على العرب ، وتغلبهم عليهم بالقرب من طنجة في الوقعة المعروفة بغزوة الاشراف[1] ، فاضطر الخليفة هشام بن عبد الملك الى ارسال جيش ضخم لمحاربة البربر عدته ٢٧ الفا من الشاميين[2] ، انضم اليهم ثلاثة آلاف من مصر فأصبح مجموع القوة التي أرسلها ثلاثين ألفا ، قدم عليهم كلثوم بن عياض القشيري . وانضم الـى هؤلاء الشاميين حشود العرب البلديين في المغرب بقيادة حبيب بن أبي عبدة ، فأصبح عدد أجناد العرب نحوا من سبعين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل[3] . ولكن هذا الجيش على كثرته لم يتمكن من الصمود أمام حشود البربر عند أول لقاء ، وانتهى الامر بهزيمة نكراء منى بها العرب في موقعة حدثت على وادي سبو عند بليدة بقدورة في سنة ١٢٤ هـ[4] قتل فيها العدد الاعظم منهم وعلى رأسهم أمير الجيش كلثوم بن عياض والقائد حبيب بن أبي عبدة ، ولم ينج من كبار قواد المسلمين سوى بلج بن بشر القشيري ومعه عشرة آلاف من الشاميين ، لاذوا بمدينة سبتة وتحصنوا بداخل أسوارها ، فحاصرهم البربر حصارا طويلا ، وقطعوا عنهم الميرة والاقوات حتى أشرفوا على الهلاك[5] . واضطر بلج بن بشر الـى الاستنجاد بعبد الملك بن قـطن الفهري والى الاندلس في قرطبة (١٢١ ـ ١٢٥ هـ) واستأذنه في العبور الى الاندلس هو وأصحابه ، وذكر له ما صاروا اليه من الجهد ، فتقاعس ابن قطن عن نجدتهم ومد يد العون اليهم ، لخوفه منهم على سلطانه ، ثم انه كان فهريا

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٥٣ ـ ١٥٥ ـ المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٢) اخبار مجموعة ، ص ٣١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣١ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٤ ـ ابن القوطية ، ص ١٥ ـ ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٨ ـ المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٠٦ ـ ٣١٢ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٧ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٢ .

من عرب الحجاز ، شهد في شبابه وقعة الحرة ورسخت ذكراها الاليمة في نفسه ولم تمح مذابح المدنيين من ذاكرته . غير أن حادثا وقع في هذه الاثناء غير الموقف تغييرا تاما لصالح الشاميين ، فقد ثار بربر الاندلس بقيادة زعيم لهم اسمه ابن هدين[1] ويقال له زقطرتق [2] ، تضامنا منهم مع بربر المغرب ، فطردوا عرب جليقية واسترقة من شمال الاندلس وقتلوهم في آفاق البلاد ، وقدمت فلول العرب الى قرطبة ، وبدا وضع العرب حرجا للغاية ، وخاف ابن قطن أن يتحول مصير عرب الاندلس وينتهي الى مثل ما انتهى اليه مصير عرب المغرب ، وأرغمته هذه الظروف الجديدة على مد يده الى جند الشاميين المحصورين في سبتة ، والاستعانة بهم للقضاء يدا واحدة على خطر الثورة البربرية في الاندلس . فأرسل اليهم السفن والاقوات للعبور الى الاندلس واشترط عليهم أن يعودوا الى سبتة بعد انقضاء مهمتهم ، ووجد الشاميون — وهم في موقفهم الحرج — في هذا العرض فرصتهم للنجاة ، فلم يترددوا في قبول ما اشترطه عليهم ، وامعانا في احترازه منهم أخذ منهم ابن قطن بعض الرهائن ضمانا لتنفيذ شروطه ، وأنزل هؤلاء الرهائن بجزيرة أم حكيم .

أما البربر فقد أقبلوا في حشود هائلة من جليقية واسترقة وماردة وقورية وطلبيرة متجهين نحو قرطبة ، واشتبكوا مع العرب الشاميين والاندلسيين مجتمعين في حوز طليطلة على وادي سليط ، فدارت عليهم الدائرة ، ومزق العرب صفوفهم ، وأذرعوا فيهم القتل ، وأطفأوا بذلك جمرة نقمتهم عليهم[3] . وبذلك الانتصار الذي أحرزه العرب على البربر انتهت مهمة بلج بن بشر ورفاقه الشاميين في الاندلس وفقا للاتفاق الذي عقده ابن قطن معهم ، وقدم جند الشاميين الى قرطبة حيث طالبهم ابن قطن

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٣٩ .

(٢) فتح الاندلس ، ص ٣١ .

(٣) راجع التفاصيل في كتابي : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٥٧ — ١٥٩ والمغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣١٥ — ٣١٨ .

بتنفيذ الشطر الآخر من الاتفاق والوفاء بالتزامهم معه ، ولكن بلج ورجاله لم يرضوا بترك الاندلس وخيراتها والعودة الى افريقية أو المغرب حيث تنتظرهم سيوف البربر • فأخذ الشاميون يبحثون عـن ذريعة للبقاء في الاندلس ، فلما ألح عليهم ابن قطن في الرحيل الـى المغرب من الجزيرة الخضراء ، طلبوا منه أن يتم الابحار مـن ناحية تدمير حتى يتمكنوا من النزول بأرض قريبة من القيروان ، وأصر ابن قطن على موقفه • وفي هذه الاثناء كان الشاميون يخططون في قرطبة انقلابا عسكريا ضده ، ولم تكن تعوزهم القوة على تنفيذ هذا الانقلاب • وتـم الانقلاب بسرعة مذهلة ، وبصورة مفاجئة ، اذ وثبوا بابن قطن في أول ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ وخلعوه من الامارة ، وأخرجوه من القصر ، وأقاموا على أنفسهم بلج بن بشر ، وبايعوا له في قصر قرطبة • أما ابن قطن فنزل داره « وهي التي يقال لها دار أبي أيوب »[١] • ونتج عن ذلك الانقلاب أن ساد الاضطراب قرطبة واختلط أمر الناس في الاندلس ، وفي غمرة هذه الفوضى أمسك والي الجزيرة الخضراء عن امداد الرهائن الشاميين بالطعام والشراب ، فمات منهم رجل غساني من أشراف الشام ، فاتهم عرب الشام ابن قطن بأنه المتسبب في موته ، وثار عرب اليمن لموت الغساني ، وطالبوا بلجا بأن يسلم لهم ابن قطن ليقتلوه ويشبعوا انتقامهم منه مقابل الغساني القتيل ، فحاول بلج أن يردهم عن ذلك عبثا ، فقد اتهموه بأنـه يحمي مضرا ، فخاف أن تتفرق كلمتهم ، وأمر باخراج ابن قطن من داره ، فأخرجوه وهو شيخ هرم تجاوز التسعين « كأنه فرخ نعامة من الكبر ، وهم ينادونه : يا فال !! فللت من سيوفنا يوم الحرة ، ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلبا بثأر الحرة ، ثم بعث جند أمير المؤمنين »[٢] ، ثم قتلوه عند رأس القنطرة وصلبوه، وصلبوا خنزيرا عن يمينه ، وكلبا عن شماله[٣] •

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٤١ •
(٢) اخبار مجموعة ، ص ٤٢ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٥ •
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٢ ــ ابن عذارى ، ص ٤٥ •

د ـ قرطبة مركز الصراع بين اليمنية والمضرية :

أثار مصرع ابن قطن الاحقاد الدفينة في نفوس المضريين والقيسيين من اليمنين ، ونبش ما كان كامنا في النفوس من خلافات ونزاعات عصبية ، فتحالف العرب البلديون بقيادة قطن وأمية ابني عبد الملك بن قطن المقتول مع البربر المغلوبين الذين كانوا يتلهفون لاشباع شهوة الانتقام من الشاميين وتضامنوا على مناهضة بلج وجنده ، وانضم الى هذا الحلف عبد الرحمن ابن علقمة اللخمي عامل عبد الملك في أربونة ومعه جيوشه المرابطة في سبتمانيا [1] . وتم الاشتباك الحربي بين الفريقين في موضع يقال له أقوة برطورة يقع على بعد بريدين من قرطبة ، واحتدمت نار الحرب ، وانتهى الأمر بهزيمة البلديين والبربر ، وأصيب بلج في هذه المعركة ولم يلبث أن توفى متأثرا باصابته ، فخلفه ثعلبة بن سلامة العاملي على الامارة في قرطبة[2] . ولما بلغ الخليفة هشام بن عبد الملك ما أصاب البلديين على أيدي الشاميين أقام على الاندلس أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ، ليضع حدا للفتنة التي اضطرمت نارها في قرطبة ، وكان ثعلبة قد أسر عددا كبيرا من العرب البلديين ، ونزل في المصارة من قرطبة في رجب سنة ١٢٥ هـ لبيعهم ، وبينما شبك في الحبائل الولد بالوالد[3] تمهيدا لبيعهم بأبخس الاثمان اذ أقبل أبو الخطار ، فأمر باطلاق الاسرى والسبي ، فسمى عسكره لذلك بعسكر العافية[4] ، وشرع عهده بازالة أسباب الفتنة من قرطبة ، فأمر باخراج ثعلبة وأصحابه من الاندلس ، فاستقامت الامور في الحاضرة ، واطمأن الناس الى معاشهم[5] ، ثم رأى أن يوزع الاجناد الشاميين على

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٤٣ .
(٢) راجع التفاصيل في كتابي تاريخ المسلمين ، ص١٦٠ والمغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣١٨ .
(٣) اخبار مجموعة ، ص ٤٦ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٨ .
(٤) نفس المصدر ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٩ .
(٥) ابن القوطية ، ص ٢٠ ــ اخبار مجموعة ، ص ٤٦ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ .

كور الاندلس حتى يأمن الناس شرهم ، ويقضي بذلك على مصدر الفتنة والنزاع .

وكان أبو الخطار رغم هذه البداية الطيبة يمنيا متعصبا ليمنيته ، فلم يلبث أن جرفه تيار العصبية فانحرف عن طريق الانصاف والعدل ، فقد حدث أن اختلف مضري في قرطبة مع يمني ، فشكاه اليمني الى أبي الخطار ، فجار هذا الاخير في حكمه على المضري مدفوعا بعصبيته ، فالتجأ المضري الى الصميل بن حاتم بن ذي الجوشن رئيس المضرية في الاندلس ، وأقبل الصميل الى قصر الامارة ليناقش أبا الخطار في الامر ويعاتبه على جوره تمهيدا لتسوية القضية ، ولكن أبا الخطار بدلا من أن يحسن استقباله ويبدي استعدادا للتفاهم بادر باهانة الصميل ، وكان ذلك التصرف الطائش من جانب أبي الخطار الشرارة الاولى التي أشعلت نيران الحرب الاهلية بين اليمنية بزعامة ابي الخطار ، والمضرية بزعامة الصميل ، وانتهت الحرب بهزيمة ابي الخطار ووقوعه في أسر الصميل . ثم أقيم ثوابة بن سلامة العاملي واليا على الاندلس بتدبير من الصميل في رجب سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ م) ، ودخل ثوابة قصر قرطبة ومعه أبو الخطار يرسف في قيوده[1] . ثم توفى ثوابة بعد عام من ولايته ، فعمل الصميل على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وكان طاعنا في السن ، ضعيف الارادة مما سهل على الصميل أن يصبح الموجه الحقيقي للسياسة الاندلسية . ولكن يحيي بن حريث الجذامي من جند الاردن دعا الى نفسه ، وعندئذ تم الاتفاق على أن يستأثر يوسف الفهري بولاية الاندلس في حين يترك كورة رية ليحيي ابن حريث . وفي هذه اللحظات المضطربة نجح أحد القضاعيين من اليمنية في اقتحام قصر قرطبة بالقوة ، وأخرج أبا الخطار من سجن القصر ، ثم هرب

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٥٧ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٠ .

به الى قبائل كلب فاكتنفوه ومنعوه[1] • وعلى الرغم مــن خلاص أبي الخطار من أسره ، فقد أصفقت اليمنية والمضرية عــلى يوسف الفهري ، فاستقام الامر ليوسف ، ولكنه لم يلبث أن نكث باتفاقه مع يحيي بن حريث وعزله عن كورة رية • فغضب ابن حريث وكان ذلك نذيرا بقيام الحرب من جديد بين العصبيتين اليمنية والمضرية ، فقد تضامنت اليمنية مع يحيي ابن حريث ، وكاتب ابن حريث أبا الخطار لكي ينضم الى صفوفه ، فطالبه أبو الخطار بالرئاسة لنفسه • ورأت قضاعة أخيرا أن تخضع لاجماع اليمنية على الدعوة لابن حريث حتى لا تختلف كلمة اليمنية ، فاجابوا ابن حريث وقدموه[2] ، وأصفقت يمن الاندلس : حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها على تقديمه ، بينما انضوت مضروربيعة تحت لواء يوسف والصميل • ثم زحفت جموع اليمنية بقيادة ابن حريث وأبي الخطار نحو قرطبة ، ونزلت على نهر قرطبة بقرية شقندة ، وعبرت المضرية الوادي[3] ، واشتبك الفريقان في قتال عنيف ، دام معظم اليوم • ويصف ابن عذاري هذا القتال بقوله : « فما تسمع الا صهيلا وصليلا، ولا ترى الا قتيلا، حتى تكسرت الخطيات، وتفللت المشرفيات ، والتفت الساق على الساق ، وانضمت الاعناق الى الاعناق ، فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين بعد حرب الجمل وصفين »[4] ، وأنهك القتال قوى الفريقين ، ولم يستطع أحدهما التغلب عــلى الآخر ، فاستقدم الصميل أهل السوق بقرطبة لنجدته ، فقدم اليه منهم ما يقرب من أربعمائة ومعهم العصي والسيوف والمزاريق ، وخرج الجزارون بسكاكينهم، ولم يكن باستطاعة اليمنية الصمود أمام هذه القوة الجديدة ، فانهزموا ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٨ . اجتمعت قضاعة علـى رجل يقال لــه عبد الرحمن بن نعيم الكلبي ، فجمع مائتي راجل واربعين فارسا ، وهاجم بهــم القصر بقرطبة ، فهــزم الاحراس ، وحمل ابا الخطار الاسير (اخبــار مجموعة ، ص ٥٨) .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٥٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٨ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٣ .

وقتل منهم عدد كبير ، وقبض على ابن حريث وأبي الخطار فقتلا ، واقتاد الصميل أسرى اليمنية الى كنيسة قرطبة الـتي أقيم الجامع على بقعتها ، فضرب أوساط سبعين منهم بالسيف[1] . وأصبح الصميل بعد هذه الواقعة صاحب السلطان الفعلي في قرطبة ، فكانت له الرئاسة والتدبير أو الرسم بينما لم يكن ليوسف الفهري سوى الاسم .

ثم اجتاحت الاندلس من سنة ١٣١ هـ مجاعة كبيرة ، لم يفلت مـن شرها سوى مدينة سرقسطة قاعدة الثغر ، فقد كان أهل هذا الاقليم بمزارعه وخيراته الوفيرة أفضل حالا مـن غيرهم ، وكان معظم هؤلاء الاهالي من اليمنيين ، الذين اعتزلوا الفتنة ولـم يخوضوا غمارها[2] . فعمل يوسف الفهري على اذلالهم بوال قيسي متعصب لقيسيته هو الصميل بن حاتم بنفسه ، فأقامه على ولاية سرقسطة في سنة ١٣٢ هـ ، مدفوعا في ذلك بعاملين : الاول أنه بذلك يستطيع أن يشبع شهوة انتقامه مـن اليمنية ، والثاني يتخلص من الصميل منافسه على السلطان في قرطبة . وفطن الصميل الى خطة الفهري ، فلم يعمل مـن جانبه على اذلال أهل سرقسطة ، ولم يتعصب ضدهم ، بل انه عمل على الضد من ذلك على اكتساب ثقتهم فيه ومحبتهم له[3] .

أما يوسف الفهري فقد انفرد بالسلطان في قرطبة بعـد أن أقصى الصميل عنه ، ونزل الفهري ببلاط الحر بن عبد الرحمن الثقفي[4] ، ولكنه رزيء بمنافس قوي آخر هو عامر بـن هاشم القرشي كان يطمع في ولاية الاندلس ، فكاتب أبا جعفر المنصور وسأله أن يبعث اليه بسجل الولاية ،

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٦١ .

(٢) راجع التفاصيل في كتابي تاريخ المسلمين ، ص ١٦٥ .

(٣) اخبار مجموعة ، ص ٦٣ .

(٤) ذكروا انه تجنى على ابن الحر فقتله ، واستولى على القصر ، وقيل انه اشتراه (المصدر السابق ص ٩٤) .

وأخذ يعد العدة للوثوب على يوسف الفهري[1] ، فأدرك يوسف خطته ، ودبـر مكيدة لقتله بالاتفاق مع الصميل . ففر عامر القرشي الـى قومه اليمنيين بسرقسطة، ودعاهم الى سجل أبي جعفر المنصور، فآزره اليمنيون، وحاصروا الصميل بسرقسطة حصارا امتد الى سبعة أشهر حتى أشرف على الاستنزال لولا أن بعث يستنجد قومه مـن القيسيين والمضريين ، فلبوا نداءه ، وخرجت قوة مضرية لنجدة الصميل وفك الحصار عنه ، واشترك معهم جماعة من موالي بني أمية في الاندلس على رأسهم أبو عثمان عبيدالله ابن عثمان ، وعبدالله بن خالد ، ولم يكن هؤلاء يفكرون في انقاذ الصميل بقدر ما كانوا يفكرون في تقديم سابقة يعتمدون عليها لادخال أميرهم عبد الرحمن بن معاوية الاندلس .

(1) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

الفصل الثاني

قرطبة في عصرها الذهبي : عصر دولة بني امية

(١) قرطبة في ظل امراء بني امية

أ ـ مظاهر الملك في دولة عبد الرحمن الداخل

ب ـ الطابع السوري في منشآت عبد الرحمن بقرطبة

ج ـ تدفق التأثيرات المشرقية على قرطبة منـذ عصر عبد الرحمن الاوسط

(٢) قرطبة في عصر خلفاء بني امية العظام

أ ـ تقدم الحركة العمرانية والعلمية في قرطبة الخلافية

ب ـ وصف كتاب العرب لقرطبة في عصر الخلافة

ج ـ السفارات السياسية الاجنبية الى قرطبة

١ ـ السفارات البيزنطية

٢ ـ وفود ملوك النصرانية في اسبانيا الى قرطبة

٣ ـ وصف تفصيلي لاستقبال الخليفة الحكم المستنصر للملك أردون الرابع

٤ ـ وفود أمراء المغرب الموالين للخلافة الاموية الى قرطبة

الفصل الثاني

قرطبة في عصرها الذهبي : عصر دولة بني امية

(١)

قرطبة في ظل امراء بني امية

أ ــ مظاهر الملك في دولة عبد الرحمن الداخل :

عندما اتصل موالي بني أمية بالصميل بقصد حمله على مساندة عبد الرحمن بن معاوية وتأييده له لم يجدوا منه الا اعراضا وتهديدا ، فانقطع رجاؤهم من المضرية بأسرها ، وتحولوا الى اليمنية الموتورين ، وكان هؤلاء يتلهفون للثأر من المضرية ، وينتظرون فرصة مواتيــة يثبون فيها عليهم ، فوجد موالي بني أمية منهم ترحيبا بالغا لاستقبال الامير المغامر ونصرته ، وتم الاتفاق بين موالي بني أمية وبين اليمنية على استقدام عبد الرحمن الى الاندلس . وبفضل هذا التحالف تمكن عبد الرحمن بن معاوية من ايقاع الهزيمة بجيش الصميل ويوسف الفهري في ٩ من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ في موقعة جرت بظاهر قرطبــة في المصارة[١] ، ودخل عبد الرحمن قصر الامارة ظافرا ، وأصبح أمير الاندلس بغير منازع[٢] .

وشهدت الاندلس صراعا متواصلا بين الامير الاموي وبين خصومه السياسيين والثائرين عليه من القيسية الموتورين ، واليمنية الذين انقلبوا عليه ، ومن أنصار العباسيين الذين كانوا يسعون للقضاء عليه . ولكن عبد الرحمن الداخل انتصر على أعدائه ومناوئيه بفضل دهائه وقوة شكيمته

---

(١) حدثت هــذه الواقعة في المخاضة الواقعة بادنى الناعورة (ابــن القوطية ، ص ٢٨) .

(٢) راجع التفاصيل في كتابي تاريخ المسلمين ، ص ١٧٦ ــ ١٩٠ .

ومضاء عزمه ، ومن العجيب أن يلقبه ألد خصومه أبو جعفر المنصور بصقر قريش[1] ، وكان يقول : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر فتى قريش الاحوذي الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لاهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم بعضا بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل لـه أبيهم ، فاستولى فيهـا على أريكته ملكا على قطيعته ، قاهرا لاعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ، ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه »[2] .

ويرجع الفضل الاول في تمصير قرطبـة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الادارة والحكم فيها الى الامير عبد الرحمن الداخل ، فقد كانت نظم الادارة والحكم قبل قيام الدولة الاموية مضطربة مزعزعة بسبب اختلاف الولاة عليها من قبل أمراء افريقية[3] ، وبسبب النزاع القائم بين اليمنية والمضرية ، فلما استقرت أركان دولة عبد الرحمن الداخل في قرطبة وتمهدت قواعد حكمه عمل عـلى تمكين النظم الادارية الـتي كانت سائدة في المشرق الاسلامي في زمن الدولة الاموية البائدة ، وتطبيقها تطبيقا عمليا ، وقد تم ذلك على نحو يثير الاعجاب ، وسرعان ما ارتقت الاندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الاموية الى مصاف الدول الكبرى المستقلة[4] . ويشير ابن حيان الى هذا التطور الكبير الذي طرأ على شؤون الادارة ونظم الحكم في ظل عبد الرحمن الداخل بقوله : « لما ألفى الداخل الاندلس ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك ، عاطلا ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحنكهم بالسيرة

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ١١٩ ــ ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٨ ، ٨٩ ــ ابن الخطيب ، كتاب اعمال الاعلام ، ص ٩ ــ المقري ، ج ١ ص ٣٠٩ .

(٢) المقري ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٩٨ .

(٤) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٦ .

الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الاواوين ، وفرض الاعطية ، وعقد الالوية ، وجند الاجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الاوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك، وحذروا جانبه، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الاندلس ، واستقل له الامر فيها »[1] .

ويرجع الفضل في نجاح سياسته وتوطيد ملكه الى وزرائه وحجابه الذين أحسن اختيارهم ، وانتقاهم من بين من أدخلوه الاندلس وأيدوه ونصروه وأخلصوا لـه ، أمثال عبد الله بـن عثمان ، وعبدالله بن خالد ، ويوسف بن بخت ، وتمام بن علقمة ، وحسان بن مالك[2] . وقد عمل عبد الرحمن الداخل على احاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء فزود حاضرته قرطبة بروائع المنشآت والعمائر ، وقامت فيهـا حركة معمارية وعمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، واتخذت قرطبة منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبيرة ، وأصبحت جديرة بـأن تكون عاصمة للامارة الاموية . ويذكر المقري نقلا عن بعض المؤرخين[3] : أنه لما « تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور[4] ، وابتنى قصر الامارة[5] والمسجد الجامع[6] ووسع فنـاءه وأصلح مساجـد

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧١ ، ٧٢ .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٨٤ .

(٤) فتح الاندلس ، تحقيق خواكين جنثالث ، ص ١٩ ـ ابو الفداء ، كتاب المختصر في اخبار البشر ، بيروت ١٩٥٩ ، ج ٣ ص ٩ ـ ابن خلدون ، طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ ، ج ٤ ص ١٢١ ـ المقري ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٥) هو قصر روماني قديم ، اقام فيه مغيث الرومي عند افتتاح قرطبة، الى ان امتاضه موسى بن نصير عنه قصرا بالربض الغربي من قرطبة ، عرف منذ ذلك الحين ببلاط مغيث . وفي قصر قرطبة نزل عبد الرحمن الداخل بعد انتصاره على يوسف الفهري والصميل . ولا شك انه اضاف الى هذا القصر بعض المجالس والقاعات وسع بها القصر وجعله لائقا بان يكون قصرا للامارة .

(٦) اقامه الامير عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٦ ـ المقري ، ج ٢ ص ٩٧) .

الكور[1] ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة ، نقل اليها غرائب الغراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الاقطار » . وفي موضع آخر يقول : « ان عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره ، وعظم ، بنى القصر بقرطبة ، وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى بقرطبة الرصافة تشبها برصافة جده هشام»[2]

ب — الطابع السوري في منشآت عبد الرحمن بقرطبة :

يستطيع الباحث في عصر عبد الرحمن الداخل أن يشاهد بوضوح اللون السوري في كل منشآته التي اقامها بقرطبة ، وليس ذلك بغريب على حفيد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك ، وقد ذكرنا أنه حاول أن يجدد ما طمس لبني أميه في المشرق من معالم الخلافة وما انقرض من آثارها[3] ، ويطعم الحضارة الاندلسية بالتقاليد السورية حتى تكون استمرارا للحضارة الاموية في بلاد الشام .

ما كاد الامير عبد الرحمن الداخل يتغلب على خصمه يوسف الفهري في وقعة المصارة حتى امتثل ما كان يفعله أجداده من بناء القصور خارج عاصمتهم اما للتمتع بهدوء الصحراء ، أو فرارا من الامراض المتفشية في البلاد ، أو التمتع بالحياة بعيدا عن انظار الرعية ، أو لقضاء فصل الشتاء في البوادي . ومعظم هذه القصور الاموية أقيم في أودية الاردن مثل قصير عمرة ، وحمام الصرخ الذي أسس في عصر الوليد بن عبد الملك ، وقصرا المشتي والطوبة في عصر يزيد الثاني أو الوليد الثاني[4] ، والقصر الذي

---

(١) ذكر المقري أن عدد مساجد قرطبة بلغ في ايام عبد الرحمن الداخل ٤٩٠ مسجدا (ج ٢ ص ٧٨) .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٨٣ .
(٣) المقري ، ج ١ ص ٣٠٨ .
(٤) زكي محمد حسن ، القصور الاموية في شرق الاردن ، مجلة الكتاب ، ديسمبر ١٩٤٥ ، ص ١٥٨ .

اكتشف منذ ما يقرب من عشر سنوات في عين الجار (عنجر) بلبنان ، ويرجح أنه من بناء الوليد الثاني ، والقصور التي أقامها هشام بن عبد الملك : مثل خربة المفجر الذي تقع آثاره اليوم على بعد ٣ أميال شمالي أريحا ، وكان قصرا شتويا تزدان جدرانه برسوم آدمية وحيوانية[1] ، وقصر الحير الغربي الواقع على بعد أربعين ميلا الى الجنوب الغربي من تدمر[2] ، وقصر الحير الشرقي الواقع على بعد ستين ميلا الى الشمال الشرقي من تدمر وأربعين ميلا من الرصافة[3] . وقد أشار الطبري الى نزول هشام في الرصافة، وابتنائه قصرين بها[4] لعلهما قصرا الحير الشرقي والغربي ، وأغلب الظن أن هذا الخليفة أتم بناء الحير الغربي في سنة ٧٣٠ م والشرقي في سنة ٧٢٨ م .

وعلى هذا النحو كان عبد الرحمن الداخل يحن الى قصور أجداده حنينا متواصلا ، وخاصة رصافة جده هشام ، فأقام المنية المعروفة بالرصافة الى الشمال الغربي من قرطبة لنزهه وسكناه أكثر أوقاته ، وذلك في أول سني امارته ، وسماها بهذا الاسم نسبة الى رصافة جده هشام الاثيرة لديه[5] ، « فاتخذ بها قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة ، ونقل اليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام من النوى المختارة ، والحبوب الغريبة حتى نمت

---

(1) Richard Ettinghausen, Arab painting, Collection Skira, P. 36, 38.

(٢) دانيال شلومبرجة ، قصر الحير الغربي ، ترجمة الياس ابو شبكة ، بيروت ، ١٩٤٥ .

(3) Creswell, a short account of early muslim architecture, 1958, P. 111.

(٤) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، مطبعة مصر ، ١٩٣٩ ، ج ٥ ص ٥١٩

(٥) المقري ، ج ٢ ص ١٤ . كذلك اقام عبدالله بن عبد الرحمن الداخل المعروف بالبلنسي ربضا ببلنسية سماه بالرصافة
(Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, Leiden, 1950, P. 136, Note 2).

ولعل هذه الرصافة هي الولجة التي ذكرها ابن الابار في الحلة السيراء . (راجع الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ص ١٢٧) .

يمن الجد وحسن التربية في المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه ، انتشرت عما قليل بأرض الاندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها »[1] . وكانت الرصافة في الاصل جنة تعرف باسم رينالش ، وهو اسم ما يزال يطلق على أبنية تقع على بعد خمس كيلومترات شمال شرقي قرطبة[2] . ويذكر ابن سعيد من فواكه منية الرصافة بقرطبة الرمان السفري ، ونقل عن ابن حيان أنه الرمان « الموصوف بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة العجم، وغزارة الماء ، وحسن الصورة »، كما يذكر من بين الطرائف التي استحضرها معه رسول عبد الرحمن الداخل الى أخته أم الاصبغ بالشام لتوصيلها الى الاندلس ، جلبه من رمان الرصافة المنسوبة الى هشام بن عبد الملك ، فعرضه الامير عبد الرحمن على خواص رجاله مزهوا به ، وكان ممن حضره منهم سفر بن يزيد الكلاعي من جند الاردن ، فأعطاه جزءا من ذلك الرمان ، « فراق حسنه وخبره ، فسار به الى قرية بكورة رية ، فعالج عجمه ، واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجرا أثمر وأينع ، فنزع الى عرقه ، وأغرب في حسنه »[3] ، ثم حمل بعض ثمراته الى الامير ، فوجد أنه لا يختلف عن الرمان الرصافي الشامي ، فسأله عن مصدره ، فأخبره سفر بحيلته في استنباطه ، فأعجب الامير ببراعته وهمته ، واغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من جناته ، وانتشر هذا الرمان ، وتوسع الناس في غراسه ، وأصبح يعرف بالرمان السفري الى أيام ابن سعيد[4] .

ومن بين الاشجار التي كانت ترسلها أم الاصبغ أخت الامير عبد الرحمن من الشام واهتم عبد الرحمن بغرسها في منية الرصافة[5] ، لتذكره

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٤ .
(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٣٨ .
(٣) المقري ، ج ٢ ص ١٥ .
(٤) نفس المرجع .
(٥) نفس المرجع ، ص ٨٤ .

برصافة جده بالشام أشجار النخيل . ويذكر الرازي أن عبد الرحمن عندما نزل أول مرة بمنية الرصافة شاهد نخلة أهاجت أشجانه ، فتذكر وطنه وقال مرتجلا :

تبدت لنـــا وسط الرصافة نخلــة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهـــي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بــأرض أنت فيهـــا غريبة فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلـــي
سقاك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل[1]

وفي هذه النخلة يقول أيضا :

يــا نخــل أنــت غريبــة مثلـــي في الغرب نائيــة عــن الاصل[2]

وكان الامير عبد الرحمن الداخل يؤثر الجلوس في علية بالرصافة ليمتع نظره بمشاهدة الجنان المحيطة بالقصر[3] . وكــان لقصر الرصافة سور يحيط به ينفتح فيه أبواب ، وصل الينا من أسمائها اسم باب يعرف بباب الجبل في أيــام الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط[4] . وظلت الرصافة من القصور الاثيرة لدى أمراء بني أميـــة ، فكان ينزلها الامير

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩٠ ـ ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٣٧ ـ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٠ .

(٢) ابن الابار ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) اخبار مجموعة ، ص ١١٥ . ونستنتج مـا ذكره صاحب اخبار مجموعة انه كان يلجأ الى قصر الرصافة عندما كان يقدم على اصدار احكامه بالقتل ، ففي هذا القصر امر بقتل وهب بن ميمون ، وفيه امر بقتل عيسون ابن سليمان الاعرابي ، وفيه ايضا امر بقتل ابن أخته مغيرة بن الوليد ، وهذيل ابن الصميل ، وكان مغيرة قد ثار على عبد الرحمن وساعده هذيل بن الصميل . وفي هذا القصر ايضا امر بحبس يحيى بن يزيد بن هشام اليزيدي وعبيد الله ابن أبان بن معاوية بن هشام الثائرين عليه ، ثم امر بالقبض على اعوانهما وهم ابن ديوان الحيشاني وابن يزيد بن يحيى التجيبي وابن أبي غريب . فلما تم له ذلك أمر بقتلهم جميعا في الرصافة ثم سحبت جيفهم من الرصافة الى الحصا وهو موضع يقع على رصيف نهـر قرطبة أمام القصر حيث صلبت جثثهم (اخبار مجموعة ، ص ١١٠ ، ١١٥) .

(٤) ابن القوطية ، ص ٨٤ .

عبدالله ، ويتناوب الاقامة في منيتي الرصافة ونصر • وفي قصر الرصافة أقام أردون الرابع ملك قشتالة المخلوع ، بعد أن وعده الخليفة الحكم المستنصر بنصرته ومساعدته على استرجاع عرشه[1] •

وقد آثر أمراء الاندلس بعد عبد الرحمن الداخل هذه المنية وزادوا في عمارتها ، وتنافس الشعراء في وصفها حتى أيام ابن سعيد[2] • وظلت الرصافة بعد انتثار عقد الخلافة منتدى الادباء وملتقى الشعراء ، يتبادلون فيها الاشعار ، من ذلك قول قاسم بن عبود الرياحي :

اسقنيها ازاء قصر الرصافة   واعتبر في مآل الخلافة
وانظر الافق كيف بدل أرضا   كي يطيل اللبيب فيه اعترافه[3]

وأصبحت منية الرصافة بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين مقرا للآباء الفرنسسكان ، وقد تبقى منها اليوم بعض آثار جدران وقاعات ، وفي جوف هذه الاطلال باب يؤدي الى طريق في باطن الارض يقال أنه كان يصل بين قرطبة والرصافة ، وأن هذا الطريق كان يرتاده الامير عبدالرحمن متى شاء لنفسه الراحة واللهو بعيدا عن أنظار رعيته بالحضرة ، وما زال اسم الرصافة يطلق اليوم على موضع المنية التي أقامها عبد الرحمن ، وهناك نخلة هرمة قدّم عليها العهد حتى تآكلت أجزاء منها وتداخلت فيها قطع الحجارة وبقايا أبنية قديمة ، وتذكر الروايات الاسبانية المعاصرة أنها نخلة عبد الرحمن[4] •

ولم يكن قصر الرصافة الذي أقامه عبد الرحمن القصر الوحيد في قرطبة الذي يشير الى انتقال التأثيرات السورية الى الاندلس ، فهناك قصر آخر أورد ذكره مؤرخو العرب يعرف بقصر الدمشق ، ويغلب على الظن

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٦٩ •
(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٥ •
(٣) نفس المرجع ، ص ١٦ •
(٤) ارجع الى مقالي عن العمارة المدنية بالاندلس ، من كتاب الشعب رقم ٦٤ ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١٢٧ •

أنه من بناء عبد الرحمن الداخل بقرطبة ، واتخذه بنو أمية بعد ذلك « ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم » ، وقلدوا به قصرهم بالمشرق ، وقد شيد هذا القصر بالصفاح والعمد ، وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحاته ، فقد كسيت سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة ، وأحيطت رياضه وجداوله في ساحاته وأفنيته بأرضيات مرخمة[1] . وظلت اطلال هذا القصر قائمة في عصر ملوك الطوائف وزاره الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار ، ومضى في هذه الاطلال ليلة مع لمة من أتباعه ، وأنشد فيه :

كل قصر بعد الدمشق يذم ... فيه طاب الجني ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير ... وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي ... عنبر أشهب ومسك أحم[2]

كذلك يعكس المسجد الجامع بقرطبة الذي أقامه الامير عبد الرحمن الداخل في سنة ١٦٩ هـ هذه التأثيرات السورية سواء في زخارفه المعمارية ونظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه ، أو في وضع مئذنة بالنسبة للجامع أو في تصميم مجنباته حول الصحن ، كما تذكرنا عقود جامع قرطبة المتعامدة على جدار القبلة بنظائرها في المسجد الاقصى[3] . ولا شك أن الامير عبد الرحمن الداخل استعان بعرفاء ومهندسين سوريين في بناء هذا المسجد الجامع كما فعل الامير عبد الرحمن الاوسط عندما استعان بعبدالله بن سنان أحد الموالي الشاميين في بناء سور اشبيلية بعد غزوة النورمان لها في سنة ٢٣٠ هـ[4] .

وهكذا كان لعبد الرحمن الداخل الفضل في تطعيم حضارة الاندلس

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٧ ، ١٩٠ .
(٣) E. Lambert, Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, Vol. XIV, 1949 — Creswell, a short account of early muslim architecture, PP. 226-227.
(٤) ابن القوطية القرطبي ، ص ٦٥ .

بالتقاليد السورية ، التي كان يحن اليها في غربته ، فطبقها على أبنيته ومنشآته . وتعد الابيات الآتية وهي من نظمه عن مدى هذا الحنين :

أيها الراكب الميمم أرضي | اقر من بعض السلام لبعضي
ان جسمي كما تراه بأرض | وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا | وطوى البين عن جفوني غمض
قد قضى الله بالبعاد علينا | فعسى باقترابنا سوف يقضي[1]

ج ـ تدفق التأثيرات المشرقية على قرطبة منذ عصر عبد الرحمن الاوسط :

تفتحت قرطبة منذ عصر الامير عبد الرحمن الداخل لتيارات حضارية مختلفة ، بعضها من الشام والحجاز ، والبعض الآخر من العراق في ظل الخلافة العباسية[2] ، ففي مجال الفقه يسجل دخول المذهب المالكي في الاندلس وانتشاره في قرطبة أهم أحداث عصر الامير هشام الرضا . وأول من أدخل مذهب مالك في الاندلس أبو عبدالله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون (ت ١٩٣ هـ) ، وكان قد رحل الى المشرق بعد عام واحد من امارة هشام ، وكان أهل الاندلس قبله يتفقهون على مذهب الامام الاوزاعيّ الشامي[3] ، ويفسر الاستاذ عبد الحميد العبادي انتشار

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) Charles Diehl & G. Marçais, Histoire du moyen âge, t. III, 1936, P. 404.

(٣) هو ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي إمام اهل الشام ، والاوزاع بطن من حمير من ذي كلاع ، وقيل قرية خارج باب الفراديس من دمشق . ولد الامام الاوزاعي ببعلبك في سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) وقيل سنة ٩٣ هـ ، ونشأ بالبقاع ثم رحل الى الكرك فدمشق وطاف باليمن والحجاز والبصرة ، واستقر به المقام ببيروت وتوفي بها في صفر سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) وقيل في شهر ربيع الاول ، ودفن في قرية قريبة من بيروت يقال لها حنتوس في قبلة مسجدها . وكان الاوزاعي كثير المناقب عرف بزهده وورعه وطول صمته وكان يقول بالجمع بين العمل والعلم والعبادة،ومن مأثور قوله =

هذا المذهب المالكي في الاندلس بعوامل سياسية ، فقـد كان النفور بين الدولتين العباسية والاموية في الاندلس من أسباب انتشار مذهب مالك في الاندلس ، لان العباسيين كانوا يتبعون المذهب الحنفي ، ولان مالك نفسه لم يكن يستريح الى سياسة العباسيين[1] ، في حين عبر عـن رضائه عن مذهب هشام وحسن سيرته عندما نقلها اليه شبطون ، فقال : « ليت الله زين موسمنا بمثل هذا »[2] . ومن المعروف أن المذهب المالكي يعتمد في استنباط أحكامه على القرآن والسنة ولم يلجأ الى الرأي الا في حالات الضرورة القصوى . كذلك رحل في عصر هشام عدد آخر من رواة الحديث أمثال فرغوس بن العباس ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبي هند ، ويحيي ابن يحيي الليثي ، فلما رجعوا الى الاندلس وصفوا ما رأوه من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالاندلس ، فانتشر يومئذ رأيه وعلمه في الاقطار الاندلسية[3] .

وفي مجال نظم الحكم امتثل أمراء الاندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل أبا جعفر المنصور ، واحتذوا حذوه في توطيد اركان الدولة ووثاقة السلطة : فالحكم الربضي أول من جند الاجناد المرتزقة بالاندلس على نحو ما فعـل المأمون والمعتصم بالنسبة للاتراك ، وجمـع الاسلحة والعدد ،

= في ذلك : « لا يستقيم الايمان الا بالقول ولا يستقيم القول الا بالعمل ولا يستقيم الايمان والقول والعمل الا بنية توافق السنة » . وقد بلغ الاوزاعي القمة في الاجتهاد وعرف عنه فصاحته وفقهه واتباعه السنة ومجانبته للبدعة. وكان قد اخذ عن عدد من التابعين أمثال عطاء بن أبي رباح ومكحول ومحمد بن ابراهيم التيمي المحدث ويحيى بـن أبي كثير وابن شهاب الزهري وقتادة (راجع في ترجمته : محاسن المساعي في مناقب الامام أبـي عمرو الاوزاعي ، نصوص جمعها زين الدين بن تقي الدين بن الخطيب ونشرها الامير شكيب ارسلان ، بيروت ١٩٦٧ ـ شفيق طبارة ، الامام الاوزاعي ، بيروت ١٩٦٥) .

(١) عبد الحميد العبادي ، المجمل في تاريخ الاندلس ، العدد الاول من المكتبة التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٩ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٤٣ ـ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢١٨ .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها .

واستكثر من الحشم والحواشي ، وارتبط الخيول على الباب الجنوبي من قصره المطل على النهر ، واتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف[1] ، وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس[2] ، فاذا أنمي اليه البريد عن ثائر عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر هذا الثائر حتى يحاط به[3] . وعبد الرحمن الاوسط هو أول من فخم السلطنة بالاندلس فنظم الشرطة وميز ولاية المدينة عن ولاية الاسواق ، وأحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب الدراهم باسمه لاول مرة منذ دخل المسلمون الاندلس ، وأول من اتخذ للوزراء بيتا للوزارة في قصره[4] ، واتخذ القصور والمتنزهات ، وكوسا الامارة أبهة الجلالة[5] ، وأحدث الطرز[6] .

وفي عهد عبد الرحمن الاوسط شهدت قرطبة سيلا من التأثيرات العراقية في الفنون والآداب ، فقد كان الامير عبد الرحمن رجلا على مستوى رفيع من الثقافة والعلم ، وكان عالما متبحرا في علوم الشريعة والفلسفة[7] ، كما كان شاعرا مطبوعا ذا همة عالية[8] احتضن العلماء والادباء ، ورفع قدر رجال العلم والادب والفن من ضاق المشرق الاسلامي بمواهبهم ، فأحسن استقبالهم ، وأكرم وفادتهم . وقد تأثر المجتمع القرطبي في عصره بالتقاليد العراقية التي أخذت تغزو الاندلس ، وتمتزج بالتقاليد الشامية ، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا اصيلا تميزت به الاندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط مملكة غرناطة ، ويكفي دليلا على

---

(١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٣٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٧ .
(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٧ .
(٣) أخبار مجموعة ، ص ١٣٠ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٨ — ابن الخطيب ، ص ١٤ — المقري ، ج ١ ص ٣٢٠ .
(٤) ابن القوطية ، ص ٦٢ — ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٦ .
(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ .
(٦) نفس المصدر ، ص ١٣٦ — ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٠ .
(٧) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣٠ — المقري ، ج ١ ص ٣٢٥ .
(٨) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٥ .

ذلك فيما يختص بالتحف والذخائر أنه استجلب الى الاندلس روائع الحلي ونفيس الجواهر مما كانت تحتويه قصور بغداد ، وذلك بعد مقتل الامين ، مثل عقد الشفاء ، وأعلاق زبيدة بنت جعفر[1] . وفي عهده قدم المغني الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب الى قرطبة في سنة ٢٠٦هـ. (٨٢١ م.) ، وكان مولى للمهدي العباسي ، وتلميذا لكبير الموسيقيين في بلاط الرشيد . وقد ركب الامير عبد الرحمن بنفسه لاستقباله وتلقيه ، وبالغ في اكرامه ، فانزله في دار من أعظم دور قرطبة حمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، ورتب له الاقطاعات والرواتب . ويعتبر زرياب المؤسس الحقيقي لمدرسة الغناء والموسيقى الاندلسية . وقد طعم الحياة الاجتماعية العامة في الاندلس وآداب المحادثة والمجالسة بكثير من التقاليد العراقية الفارسية[2] . وهكذا كان اقبال زرياب على بلاط الامير عبد الرحمن الاوسط نقطة تحول حاسمة في تاريخ وحضارة قرطبة . والفضل في هذا التحول يرجع بدون أدنى شك الى الامير عبد الرحمن الذي يعتبر أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة[3] ، ولم يتسم تفخيم البلاط الاموي في الاندلس وتحويله الى ترف قصور الخلفاء العباسيين ببغداد الا بفضل احتضان هذا الامير لرجال العلم والفن الوافدين من المشرق وتشجيعه لنثر بذور الحضارة الاسلامية الشرقية في الاندلس . فزرياب على حد قول آنخل جنثالث بالنثيا مثلا «لم يستهو أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بآدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته في ارسال شعره وولائمه البديعة التي كان يتفنن في ترتيبها ، فأخذ الناس عنه ذلك كله ، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لاهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه

---

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٦ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ — ابن الخطيب ، ص ٢٠ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٢٣٤ ، ومقالي عن فن الغناء والموسيقى بالاندلس ، دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ٩٩–١٠٥ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ .

النموذج الذي يحتذيه القرطبيون في اعداد ملابسهم ، ومن ذلك الحين اجهد حكام الاندلس في أن يكون لقصورهم مجد أدبي يحاكي ما كان لقصور خلفاء المشرق :. فاهتموا برعاية الآداب والعلوم والفنون ، حتى تصل قرطبة الى مستوى يضاهي ما وصلت اليـــه دمشق وبغداد »[1] .
كذلك اجتذب عبد الرحمن الاوسط بتشجيعه لوفود المشارقة المغني عبد الواحد الاسكندراني، وكان حدثا متظرفا أدناه الامير اليه ثم استندمه[2] .

وعمل الامير عبد الرحمن الاوسط على اقتناء الكتب النادرة ، فبعث عباس بن ناصح الجزيري الى المشرق للبحث عن الكتب القديمة النادرة ، فأتى له بالسند هند وغيره ، ويعتبر عباس بن ناصح المذكور أول من أدخلها الاندلس ، وعرف أهلها بها ، ونظر هو فيها[3] .

وتتجلى التأثيرات المشرقية العاسية في بلاط بنـــي حجاج بإشبيلية ، فقد كان بلاطهم في اشبيلية لا يقل عظمة عن بلاط بني أمية بقرطبة ، وكان ابراهيم بن حجاج يقلد أمراء بني أمية في احاطة نفسه بهالة مـــن العظمة والترف ، واستقدم الشعراء والعلماء ، فقصده العذوبي من الحجاز فأكرمه ورفع منزلته[4]، وقصده النحوي أبو محمد العذري من بغداد[5]. وذكروا انه سمع بجارية بغدادية اسمها قمر ، فوجــه بأموال عظيمة الى المشرق لابتياع هذه الجارية ، الـــى أن استقرت بدار مملكته اشبيلية ، وكانت كالبدر المنير ذات بيان وفصاحة ومعرفة بالالحان والغناء[6] .

---

(١) آنجل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٠ .
(٢) ابن القوطية ، ص ٧٤ .
(٣) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٥ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٩٣ .
(٥) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, Leiden, 1932, t. II, P. 89 — Georges Marçais, Histoire du moyen âge, t. III, P. 410.
(٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٩٤ .

وبالغ الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر في تطعيم حضارة الاندلس بالتقاليد المشرقية ، فسعى الى استقدام المغنين والمغنيات من المشرق ، فجلب عددا من الجواري والمغنيات من الاسكندرية في سنة ٣٤٤ هـ[١] ، واعتمد على فتيانه الصقالبة في القيادات العسكرية وفي المناصب الادارية . وعبد الرحمن الناصر هو الذي استقدم أبا علي اسماعيل بن القاسم القالي اللغوي من المشرق في سنة ٣٣٠ هـ ، وأمر ابنه وولي عهده الحكم باستقباله عند نزوله بالاندلس ، وباصطحابه الى قرطبة تكرمة له ، فسار معه الحكم في موكب جليل حتى وصلا قرطبة . واختص أبو علي القالي بالحكم المستنصر، وباسمه طرز كتاب الامالي ، وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالافراط في الاكرام[٢] .

والحكم أيضا هـو الذي بعث في طلب كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، ودفع فيه ألف دينار ، فأرسل اليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يصدر في بغداد نفسها ، كما ألف له كتابا في أنساب قومه بني أمية[٣] . وفي عصر المنصور بن أبي عامر استقدم سعيد البغدادي الشاعر من بغداد ، وعهد اليه باملاء كتاب على كتابه في جامع الزاهرة . ومن الناحية العمرانية حرص الخليفتان الناصر والحكم المستنصر على تجميل قرطبة بالمباني العظيمة حتى أصبحت تنافس بغداد كبر مساحة وبهاء عمارة .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ص ١٨٥ – أبو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ص ١٤٦ – المقري ، ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣١٤ .

(٢)

قرطبة في عصر خلفاء بني امية العظام

أ ـ تقدم الحركة العمرانية والعلمية في قرطبة الخلافية :

كان الامويون يخطبون لانفسهم بالامارة ، فلما تولى عبد الرحمن ابن محمد (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) واستقامت له الاندلس ، وأظل البلاد عهد من الاستقرار السياسي ، تلقب بألقاب الخلافة ، وتسمى بالناصر لدين الله ، وذلك في ٢٨ ذي القعدة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) ليوطد مركزه في داخل الاندلس وخارجه ، ويفرض هيبته في النفوس . وقد حرص الناصر على جعل حاضرته قرطبة جديرة بأن تكون حاضرة الخلافة ، فأخذ يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، وقامت في قرطبة حركة معمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، ونشطت هذه الحركة على وجه خاص منذ سنة ٣٢٥ هـ ، واستمرت في عهد ولده الحكم المستنصر بالله ، فأنشئت مدينة الزهراء ومنية الناعورة ، وأضيف الى قصر الخلافة بقرطبة مجالس وقاعات ، ثم أنشئت مدينة الزاهرة في خلافة هشام المؤيد ، واتصلت العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة ، بحيث كان يمشي فيهـا لضوء السرج الممتدة عشرة أميال[١] . كان الناصر شغوفا بالبنيان ، فخصص له ثلث أموال جبايته ، وبهذه الاموال « أسس الاسوس ، وغرس الغروس ، واتخـذ المصانع والقصور »[٢] ، ولم يبق له في القصر «الذي هو من مصانع أجداده ومعالم أوليته بنية الا وله فيها أثر محدث اما بتجديد أو بتزييد »[٣] .

وشهدت قرطبة في عهده عصرا من الرخاء والازدهار لم تشهده حاضرة

---

(١) ابن حوقل ، ص ١٠٧ ـ المقري (نقلا عن الشقندي) ج ٢ ص ٥ ، ٦ ، ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٣٥ .

من قبل ، ويرجع الفضل في كل ما أصابته قرطبة من ازدهار ورخاء بالاضافة الى تهمم الخليفة بحاضرته الى جهود وزرائه وعلى الاخص وزيره عبد الملك ابن جهور،وذي الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي يقول عنه ابن خاقان في المطمح : « مفخر الامامة وزهر تلك الكمامة ، وصاحب الناصر عبد الرحمن ، وحامل الوزارتين على سموهما في ذلك الزمان ، استقل بالوزارة على ثقلها ، وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها ، والتفات مقلها ، فظهر على أولئك الوزراء ، واشتهر مع كثرة النظراء ، وكانت امارة عبد الرحمن أسعد امارة ، بعد عنها كل نفس بالسوء أمارة ، فلم يطرقها صرف ، ولـم يرمقها محذور بطرف ، فقرع الناس فيهـا هضاب الاماني ورباها ، ورتعت ظباؤها في ظلال ظباها ، وهو أسد عـلى برائنه رابض ، وبطل أبدا على قائم سيفه قابض ، يروع الروم طيفه ، ويجوس خلال تلك الديار خوفه ، ويروي بل يحسم كل آونة سيفه ، وابن شهيد ينتج الاراء ويلقحها ، ويفقد تلك الانحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغنائه ، متجملة بسنائه ، وكرمه منتشر على الآمال ، ويكسو الاولياء بذلك الاجمال ، وكان له أدب تزخر لججه ، وتبهر حججه »[1] .

وكان عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ) عهد سلم واستقرار ، بلغت الحضارة الاسلامية في الاندلس فيه ذروتها ، ووصلت قرطبة حاضرة الخلافة الى قمة البهاء والعظمة ، وأصبحت تنافس مدن العالم الكبرى بغداد وروما والقسطنطينية في الاتساع والتخطيط وفي الحضارة ، وكان المستنصر محبا للعلوم ، جماعا للكتب على أنواعها ، جمع منها ما لم يجمعه أحد من ملوك الاندلس قبله ،وكان يشبه بالخليفة المأمون في معرفته بالطب والفلسفة والفلك بالاضافة الى العلوم الدينية واللغوية والادبية ، وكان يستجلب الى مكتبته المصنفات من شتى الاقاليم ، ويبذل في شرائها الاموال الكثيرة حتى ضاقت عنها خزائنه ، كما كان جماعا للتحف القديمة ، ويتجلى ذلك في بقايا

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

ناووسين كبيرين من الطراز اليوناني الروماني عثر عليهما في خزان صغير بقصره في مدينة الزهراء[1] ، وفي عهد هشـام المؤيد عرفت قرطبة للمرة الاخيرة ازدهارا يشبه الوهج المتألق الذي يغمر الافق عند الغروب ، ولكنه ما يلبث أن يختفي سريعا ، فقد أقام الحاجب محمد بن أبي عامر لنفسه مدينة عرفت بالزاهرة ، وأسس بالقرب منها منيـة عرفت بالمنية العامرية نسبة اليه ، ووصلت قرطبة في أيامه الى أقصى اتساع عمراني لها، وأصبحت تضاهي بغداد في الاتساع وضخامة الاعمال[2] .

ب ـ وصف كتاب العرب لقرطبة في عصر الخلافة :

وقد وصفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم أبـدع وصف ، فيقول الرازي[3] (ت ٣٢٤) : « قرطبة أم المدائن وسرة الاندلس ، وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والاسلام ، ونهرها أعظم أنهار الاندلس ، وبها القنطرة التي هي احدى غرائب الارض في الصنعة والاحكام ، والجامع الذي ليس في بلاد الاندلس أكبر منه »[4] ، ووصفها أحد العلماء فقال : « أما قرطبة فهي قاعدة الاندلس وقطبها وقطرها الاعظم ، وأم مدائنها ومساكنها ومستقر الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانية والاسلام ، ومدينة العلم ، ومستقر السنة والجماعة ، نزلها جملة من التابعين وتابعي التابعين ، ويقال نزلها بعض الصحابة ، وفيه كلام . وهي مدينة عظيمة أزلية من بنيان الاوائل ، طيبة المـاء والهواء ، أحدقت بهـا البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب ، وبها المحرث العظيم الذي ليس لـه في بلاد الاندلس نظير ولا أعظم منه بركة »[5] . وقال عنها المقدسي

(١) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٢١٣ .
(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٣ .
(٣) هو أحمد بن محمد بن موسى الرازي .
(٤) المقري ، ج ٢ ص ٨ .
(٥) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٨ .

(ت ٣٨٨) : « قرطبة هي مصر الاندلس ، سمعت بعض العثمانية يقول : هي أجمل من بغداد في صحراء يطل عليها جبل ••• ومن ثم ميرة قرطبة وثمارها كثيرة ، وصف ما شئت من طيبها ورحبها فانها جنة الاندلس على ما حكى له[1] » . ووصفها ابن حوقل فيما يقرب من سنة ٣٥٠ بقوله : « وأعظم مدينـة بالاندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب لهـا شبيه ولا بالجزيرة والشام ومصر مـا يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق ، ويزعم قوم من سافرتها الواصلين الى مدينة السلام ، أنها كأحد جانبي بغداد ، وذلك أن عبد الرحمن بن محمد صاحبها ، ابتنى في غربها مدينة وسماها بالزهراء في سفح جبل حجر أملس يعرف بجبل بطلش، وخط فيها الاسواق، وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات ، واجتلب اليها العامة بالرغبة ، وأمر مناديه بالنداء في جميع أقطار الاندلس ألا من أراد أن يبتني دارا أو يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله مـن المعونة أربع مائة درهم ، فتسارع الناس الى العمارة ، وتكاثفت الابنية وتزايدت فيها الرغبة، وكادت الابنية أن تتصل بين قرطبة والزهراء ، ونقل اليها بيت ماله وديوانه ومحبسه وخزائنه وذخائره ، ••• وقرطبة وان تلك كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به ، وهي مدينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ورحاب فسيحة »[2] . وقـال الحجاري (ت ٤٨٩) يصفها : « وكانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ، ومجتمع علماء الانام الاعلام ، وبها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، واليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ، اذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، ولـم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويبـاري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ، ولم تبرح ساحاتها بحر عوالي ، ومجرى

---

(١) المقدسي البشاري ، احسن التقاسيم ، ص ٢٢٣ .
(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١١١ ـ ١١٣ ، ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، بيروت ١٩٥٧ ص ٣٢٤ .

سوابق ، ومحط معالي وحمى حقائق ، وهي من بلاد الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد والزور من الإسد ، ولها الداخل الفسيح والخارج الذي يمتع البصر بامتداده ، فلا يزال مستريحا وهو من تردد النظر طليح[1] » . وقال الحجاري أيضا : « حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة هي كانت منتهى الغاية ومركز الراية ، وأم القرى وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقاليم وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام وحضرة الانام ، ودار صوب العقول وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الارض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط الا على البحث والطلب لانواع العلم والادب »[2] . ووصفها الشريف الادريسي في حدود سنة ٥٤٨ هـ فقال : « هي قاعدة بلاد الاندلس وأم مدنها ودار الخلافة الاسلامية ، وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، واليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزي في الملابس والمراكب وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجميل التخصص في المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق وحميد الطرائق ، ولم تخل قرطبة قط من أعلام العلماء وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة وهمم علية »[3] . ووصفها أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن الموحدي (ت ٥٨٠ هـ) لمحمد بن عبد الملك بن سعيد بقوله : « ان ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلى بصيرة ،

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٩ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٩ .

(٣) الادريسي ، وصف المغرب والاندلس من كتاب نزهة المشتاق ، نشره دوزي ودي غويه ، ليدن ١٨٦٦ ص ٢٠٨ ، الحميري ، صفة جزيرة العرب ، منتخبة من كتاب الروض المعطار ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ص ١٥٣ .

الديار الكثيرة المنفسحة ، والشوارع المتسعة ، والمباني الفخمة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحرث العظيم والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرقي الاندلس وغربها [1] » . كذلك وصفها أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (ت ٦٤٠) بقوله : « وهي من أحسن بلاد الاندلس مباني واوسعها مسالك وأبرعها ظاهرا وباطنا ، وتفضل اشبيلية بسلامتها في فصل الشتاء من كثرة الطين ، ولاهلها رياسة ووقار ، ولا تزال سمة العلم متوارثة فيهم الا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشنيعا وتشغيبا ، ويضرب بهم المثل ما بين أهل الاندلس في القيام على الملوك والتشنع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ... »[2] .

ج ــ السفارات السياسية الاجنبية الى قرطبة في عصر الدولة الاموية :

١ ــ السفارات البيزنطية :

يعتبر عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء بني أمية في الاندلس ، فقد اشتهرت أيامه ، وبعد صيته ، وانتشرت بالعدوة طاعته ، وعلت على منابر الاندلس كلمته ، وتوحدت البلاد بعد انقسامها وقضى على الثوار والمتمردين ، واستنزلهم بعد أن كان خطرهم قد استفحل في عهد المنذر بن محمد ، وبلغت الاندلس في عهده ذروة الازدهار السياسي والاقتصادي ، وهكذا تمهد ملك الناصر وعظم أمره ، وهابته ملوك المسيحية ، ومدت اليه الامم النصرانية من وراء الدروب يد الاذعان[3] ، وسعت الى مهادنته وكسب مرضاته ، وازدلفت اليه سعيا لموادعته ومتاحفته بعظيم الذخائر والهدايا . وتتمثل العظمة التي بلغتها قرطبة في الاحتفالات التي كان يقوم بها الخلفاء لاستقبال السفراء الاجانب بقصور الخلافة . وأولى السفارات السياسية التي قدمت الى قرطبة سفارة بيزنطية من قبل

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٠ .
(٢) نفسه ، ج ٢ ص ١٠ .
(٣) ويذكر المقري من بين تلك السفارات الاوروبية سفارة ملك الصقالبة سنة ٣٤٣ ، وسفارة ملك الالمان وسفارة ملك الفرنجة (المقري ج ١ ص ٣٤٢) .

الامبراطور تيوفيل Théophile (توفلس في المصادر العربيـة ٨٢٩ ـ ٨٤٢ م) برئاسة قراطيوس الرومي Karatiyus وذلك في سنة ٢٢٥ هـ (٨٣٩ ـ ٨٤٠) في عصر الامير عبـد الرحمن الاوسط ، وقـد وردت تفصيلات هذه السفارة كاملـة في كتاب المقتبس لابن حيان ، وفي هذه السفارة حمل رسول تيوفل الى عبد الرحمن الاوسط هدية ورسالة يطلب منه فيها مواصلته ، ويرغب في استرجاع الشام انتقاما من المأمون والمعتصم اللذين هاجما بلاده[1]، وعبر عنهما بابني مراجل وماردة . وفي هذه الرسالة يطلب الامبراطور أيضا لنفسه جزيرة اقريطش التي كان قد نزلها الربضيون واحتلوها في عهد ميشيل الثاني العموري بعد خروجهم من الاسكندرية في سنة ٢١٢ هـ ، وأنشأ فيها أبـو حفص عمـر البلوطي دولة ظلت تحكم اقريطش حتى استولى عليهـا البيزنطيون بقيـادة نقفور فوقاس في عهد الامبراطور رومانوس الثاني في سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ)[2] .

وقد رد الامير عبد الرحمن الاوسط على هذه السفارة بسفارة مماثلة مثله فيها يحيي الغزال مـن كبار رجال الدولة ، وكان مشهورا بشعره

---

(١) كانت هزيمة تيوفيل في ٢ اغسطس سنة ٨٣٨ هـ على يدي المعتصم في موقعة عمورية كارثة كبرى بالنسبة للدولـة البيزنطية ، وكانت السبب في توجهـه بطلب العون الـى الامـير عبـد الرحمن الاوسط (راجـع : Diehl, Histoire du moyen-âge, P. 312, 323) . ولم تكن سفارته الـى الاندلس السفارة الوحيدة الى غرب البحر المتوسط ، فقـد ارسل سفارة اخرى الى مدينة انجلهايم حيث كان بلاط لويس التقي في ١٧ يونيو ٨٣٩ ، وسفارة ثالثة الى البندقية في سنة ٨٤٠ م ، كانت الغاية منهما انشاء حلف مع الفرنجة ومع البنادقة ضد مسلمي المغرب ونعني بهم الاغالبة الذين هددوا الممتلكات البيزنطية في ايطاليـا بنزولهم علـى سواحل قلوريـة (كالابريا) وابوليا ، وباستيلائهم علـى طارنت (ليفي بروفنسـال ، الاسلام في المغـرب والاندلس ، ص ٩٩ ـ أسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج ١ بـيروت ١٩٥٥ ص ٣٢٦ ـ السيد عبد العزيز سالم ومختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥) .

(٢) تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، ص ٨٩ ـ ٩٤ .

وكياسته ، ويحيي صاحب المنيقلة ، وبعث معهما رسالة ناقش فيها ما جاء في رسالة الامبراطور فقرة فقرة[1] .

ثم كانت السفارة البيزنطية الثانية في عهـد الخليفة عبـد الرحمن الناصر ، اذ وفد عليه رسل الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع في صفر سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩) يحملون اليـه هدية رائعة بقصد الرغبـة في ايقاع المؤالفة واتصال المكاتبة ، وتأهب الناصر لاستقبالهم والاحتفال بقدومهم احتفالا فخما مهيبا يعبر عن عظمته ويليق بجلالة شأنه ، فأرسل لاستقبالهم ببجانة ممثلين له على رأسهم الفقيه يحيي بن محمد بن الليث رافقوهم من الميناء الى العاصمة ، فلما اقترب الموكب من قرطبة خرج الى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبئة ، فتلقوهم قائدا بعد قائد على نحو ما تفعل الدول المعاصرة عند استقبال شخصية دولية هامة ، ثم أرسل الناصر في تلقيهم الفتيين الكبيرين ياسرا وتماما أعظم قواد الناصر وأصحاب الحظوة معـه وحرمه مبالغة في الاحتفال بهم والاكرام لهم ، فرافقاهم الـى أحد قصور قرطبة التي خصصت لاقامتهم وهو منية ولي العهد الحكم المنسوبة الى نصير بعدوة قرطبة في ربض شقندة[2] . وقد أحيط هذا القصر بالحراسة المشددة ، ومنع الناس خاصتهم وعامتهم من الاقتراب منه ، ثم أفرد لخدمتهم والقيام بشؤونهم وحجابتهم رجال تخيروا مـن الموالى ووجوه الحشم ، وجعل على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا يمثل كل أربعة منهم سفيرا من سفراء الروم الاربعة . وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر مقيما يومئذ في قصره بمدينة الزهراء ، فلما مضى ما يقرب من الشهر على وفود هؤلاء الرسل ، تحرك الناصر من قصر الزهراء الى قصر قرطبة ليتلقى وفود الروم عليه ، وفي يوم السبت ١١ مـن ربيع الاول تأهب الناصر لاستقبالهم ، وفي ذلك اليوم ركبت العسكر بالسلاح في أكمل شكة،وزين القصر الخلافي

---

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، تعريب السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٠١ ـ تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٣١٦ .
(٢) المقري ، ج ١ ص ٣٤٣ .

بأنواع الزينة وصنوف الستور ، وحمل السرير الخلافي بمقاعد الابناء والاخوة والاعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة في مواقعهم[1] . وأعد بهو المجلس الزاهر لهذا الغرض ، فجلس الخليفة في صدر المجلس وجلس الى يمينه أبناؤه وهم بالترتيب : ولي العهد الحكم ثم عبيدالله ثم عبد العزيز ثم الاصبغ ثم مروان وجلس عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك لمرضه ، وتوزع الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ، والتف حولهم الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صحن القصر أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور[2] .
ثم تقدم السفراء وقد أبدوا هيبتهم من فخامة السلطان وروعة المكان ، وسلموا كتاب الامبراطور قسطنطين الى الخليفة مسطورا في رق أزرق اللون مكتوب عليه باليونانية بحروف الذهب ، وقد سجل في أعلاه في سطر منه « قسطنطين وروامانين (ابنه) المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم » وفي سطر آخر « الى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس أطال الله بقاءه » . وفي طيه مدرجة زرقاء اللون مكتوبة بالفضة تتضمن وصف هديته الى الخليفة، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل رسم على وجهه صورة المسيح، وعلى الوجه الاخر صورة قسطنطين وصورة ابنه ، وكان الكتاب موضوعا بداخل درج من الفضة وغطاؤه من الذهب ، نقشت عليه صورة تمثل الملك مزججة بألوان بديعة ويغطي الدرج جعبة ملبسة بالديباج[3] . ثم أمر الحكم الفقيه محمد بن عبد البر أحد أعلام الاندلس بأن يخطب خطبة تناسب هذا الاحتفال ، فلما حاول التكلم بهره هيبة الموقف فوجم ، وغشي عليه ثم سقط على الارض ، فتكلم أبو علي القالي ، ولكنه لم يكد يبدأ

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٤١ .
(٢) نفسه ، ص ٣٤٤ .
(٣) نفسه .

حتى توقف ، وارتج عليه ، فقام الفقيه المنذر بن سعيد البلوطي وألقى خطابا رائعا سحه سحا كأنما كان يحفظه من قبل بمدة[1] . ولما انتهى الحفل ، عاد السفراء الى القصر ، وتأهبوا للعودة الى بلادهم ، فسير معهم الناصر سفيرا الى بيزنطة يحمل الى الامبراطور هدية حافلة توكيدا للعلاقات الودية بينهما ، هو هشام بن هذيل، الذي نجح في مهمته وعاد الى قرطبة بعد سنتين ومعه سفراء جدد من قبل الامبراطور . وقد تجددت العلاقات بين بيزنطة وقرطبة مرة ثانية في حجابة عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر عندما تلقى سفارة من الامبراطور بسيل الثاني[2] .

٢ ـ سفارات ملوك اسبانيا المسيحية الى قرطبة .

استطاع عبد الرحمن الناصر أن يحقق وحدة الاندلس فاجتمع شمل المسلمين تحت لوائه ، وأصبحوا يؤلفون قوة كبرى ، كان لها أعظم الاثر في بث الرعب والهلع في نفوس سكان اسبانيا المسيحية ، وسجلت له الوقائع بينه وبين جيوش ليون ونبرة انتصارات هائلة اكتسح بعدها هاتين المملكتين حتى أذعن له أعداؤه بالطاعة ، وهادنوه ، وبثوا اليه السفارات والهدايا طالبين الصلح . فعندما توفي ردميره الثاني Ramiro II (٩٣١ ـ ٩٥١) خلفه ابنه أردون الثالث Ordono III (٩٥١ ـ ٩٥٦) على عرش مملكة ليون ، ولكن أخاه شانجة السمين Sancho el Grueso نازعه ملكه ، وكان فردلند Fernan Gonzalez قومس قشتالة يؤيد شانجة ، كما كانت تؤيده جدته الملك طوطة Dona Toda ملكة نبرة ، ولهذا السبب عقد أردون الثالث الصلح مع عبد الرحمن الناصر ، وألزم نفسه بأداء الجزية اليه ، فأرسل اليه رسولا من قبله في سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) يطلب منه

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٨ .
(٢) خالد الصوفي ، تاريخ العرب في اسبانيا ، نهاية الخلافة الاموية ، حلب ١٩٦٣ ص ٦٩ .

السلم فعقده له الناصر[1] . ثم خلف شانجة أخاه أردون بعد وفاته في سنة ٩٥٦ م ، فأقام عامين ولكن نبلاء ليون وقشتالة مـا لبثوا أن عزلوه عـن عرشه ، وولوا مكانه علـى عرش ليون أردون الرابع المعروف بأردونيو الشرير لانحطاط خلقه وذلك في سنة ٩٥٨ ، وقد أيـده قومس قشتالة ، وزوجه وابنته دنيا أراكة أرملة أردون الثالث .

اضطر شانجة المخلوع أن يلتمس الامن في حضرة جدته طوطة صاحبة نبرة ، فلجأ الى بنبلونة ليكون بجوارها وبعث من هناك الى الخليفة الناصر يطلب منه أن يرسل اليه طبيبا ليعالجه مـن سمنته المفرطة ، فأرسل اليه الناصر طبيبه الخاص حسداي بن شبروط اليهودي ، الذي نجح في تخفيف وزنه ، وكان لذلك أطيب الاثر في نفس الملكة طوطة وحفيدها ، فوفدا الى قرطبة في سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) على رأس سفارة كبرى يلتمسان مـن الخليفة عبـد الرحمن أن يساعد شانجة علـى استرجاع عـرش ليون ، فاستقبلهما الناصر استقبالا حافلا ، وأكرم وفادتهما ، وعقد الصلح لشانجة وجدته[2] ، وعقدت بين الطرفين معاهدة كسب الناصر من ورائها حصونا من مملكة شانجة مقابل مؤازرته له على استرجاع عرشه ، وبفضل المعونة العسكرية التي أنفذها الناصر استطاع شانجة أن يسترد عرش ليون في سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) . ولكن شانجة نكث بعهده بعد وفاة الخليفة الناصر . أما أردون الرابع بن الفونسو الراهب الذي خلع من العرش بعد استعادة شانجة له ، فقد اضطر الى الالتجاء الى اشتوريش ومن هناك رحل الى برغش . وفي هذه الاثناء هاجم البشكنس فردلند (فرنان جنثالث) قومس قشتالة وأسروه ، ولكن غرسية ملك بنبلونة أفرج عنه ، فبادر فردلند الى

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٤٢ . ارسل الناصر محمد بن حسين رسولا من قبله الى اردون بـن ردمير ومعه شبروط اليهودي ببعض شروط هـذا الصلح ، وقد عاد هذا السـفير الاندلسي في سنة ٣٤٥ ومعه رد الملك الليوني (ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٣٠) .
(٢) المقري ، ج ١ ص ٣٤٢ .

الاتصال في برغش بصهره أردون الرابع ، وأخذا من هناك يغيران على أراضي الاسلام ، واضطر الخليفة الحكم المستنصر الى اعداد حملة كبرى لوضع حد لهذه الاعمال العدائية ، فخشى أردون الرابع أن تكون هذه الحملة سببا في القضاء عليه ، وكان يطمع في استرداد عرش مملكة ليون من شانجة الذي نكث بعهوده للخليفة الناصر والحكم ، فأرسل يلتمس من الحكم أن يساعده على اعادته الى عرشه ، وعزم على السير الـى قرطبة لينتصر بالحكم ضد شانجة ابن عمه ، وبادر الى مدينة سالم حيث التمس من غالب الناصري صاحب هذه المدينة أن يسمح له بالذهاب الى قرطبة لمقابلة الحكم والاستعانة به ، فلما علم الحكم بذلك بعث في طلبه ، وفي ذلك يقول ابن حيان : « ومن آخر صفر من سنة احدى وخمسين ، أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليبه محمدا وزيادا ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقي غالب الناصري صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولـة ، المتملك على طوائف مـن أمم الجلالقة ، والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجة بن ردمير ، وتبرع هـذا اللعين أردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد، وذلك عندما بلغه عزم الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذه في التأهب له ، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتماء عليه ، وخرج قبل أمان يعقد لـه ، فجاء به نحو مولاه الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور ، فانزلاهم ، ثم تحركا بهم ثاني يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشاما المصحفي في جيش عظيم كامل التعبية ، وتقدموا الى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها ، فلما انتهى أردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله، فأشير الى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه ، وامر المستنصر

بانزال اردون في دار الناعورة ، وكان تقـدم في فرشـها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك الى الغاية ، وتوسع له في الكرامة ولاصحابه»[1]

ثم أذن له الحكم بالمثول بين يديه في قصر الزهراء ، واحتفل بذلك اليوم أجل احتفال[2] ، وقد وعده الحكم بمساعدته واعادته الى عرشه الذي اغتصبه شانجة السمين لقـاء تعهده له بالمحافظة على علاقات المودة بينهما وموالاة المسلمين . فلما علم شانجة بذلك خاف على ملكه ، وبادر في نفس هذه السنة بارسال سفافرة من قبله الى قرطبة ، فبعث ببيعته[3] وطاعته له مع قوامس أهل جليقية وسمورة (Zamora) وأساقفتهم يرغب في قبوله ، ويعاهده على أن ينفذ اتفاقيته مع عبد الرحمن الناصر[4] . ويرى الاستاذ ليفي بروفنسال أن قرطبة تحولت فجأة ضد أردون الرابع ، فلـم تحفل بوجوده ، ويرجح أنه لم يرحل قط عنها ، بل انه مات موتة يكتنفها الغموض في نهاية سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) ، وقد بدد موته المبكر مخاوف شانجة ملك ليون ، فوجد في ذلك فرصة للتراجع والنكث بوعده للحكم ، فبادر بعقد حلف مع قومس قشتالة وملك نبرة وقومس برشلونة وبوريل وميرون ، فلم يجد الحكم بدا من اعلان الحرب على شانجة بعد أن شاهد بنفسه مدى نكثه بوعده وتحالفه مع ملوك المسيحية ضده[5] ، وصمم على منازلة كل منهم عـلى حدة ، ونجحت خطته نجاحا تجـاوز كل تقدير في الحسبان ، ثم حالفه الحظ بوفاة شانجة مسموما في سنة ٩٦٦ م ، فخلفه ابنه ردمير الثالث (٩٦٦ ــ ٩٨٢) وكان طفلا في الخامسة من عمره ، فتولت الوصاية عليه عمته دنيا البيرة ، وكان لصغر سن هذا الملك وحداثته أعظم

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) طالع تفصيلات استقبال الحكم لأردون الرابع بالزهراء في المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٧ ــ ٣٦٩ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥١ ــ المقري ، ج ١ ص ٣٦٠ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Mus., t. II, P. 198
تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٩٠ .

(٥) Ibid.

الاثر في انتفاض الامراء عليه وانتشار الفوضى في مملكة ليون ، وانقسمت مملكة ليون على هذا النحو الى امارات صغيرة ، أخذ كل أمير من أمرائها يتوجه الى قرطبة للاستعانة بخليفتها ضد خصومه ، وتوالت السفارات على قرطبة منذ عام ٩٦٦ م ، ومن بين هذه السفارات سفارة ملكا برشلونة وطركونة يسألانه تجديد الصلح واقرارهما على ما كانا عليه . ويذكر المقري أنهما أرسلا اليه هدية تتألف من عشرين صبيا من الصقالبة وعشرين قنطارا من فراء السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أدراع صقلبية ، ومائتي سيف فرنجية ، فتقبل الحكم هذه الهدية ، ووافق على طلبهما بشرط أن يهدما الحصون التي تضر بالثغور الاسلامية وألا يظاهرا عليه ملوك النصرانية الآخرين[1] . كذلك وفد اليه سفراء غرسية بن شانجة ملك نبرة في جماعة من الاساقفة والقوامس رغبة في اقرار الصلح ، ووفود أم لذريق بن بلاشك أعظم قوامس جليقية ، وقد احتفل الحكم بقدومها احتفالا مشهودا[2] .

وفي عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور احتكمت اليه ملوك النصارى فيما شجر بينهم من خلاف ، فتوسط عبد الملك بين قومس قشتالة شانجة بن غرسية وبين قومس جليقية مندس بن غند شلب Menendo Gonzalez الوصي على الفونسو الخامس ملك ليون الصغير ، وكان شانجة خال الفونسو يسعى الى تنحية مندس عن الوصاية ، فأرسل عبد الملك بعض نصارى قرطبة ومنهم اصبغ بن عبدالله بن نبيل الذي احتكم لصالح مندس بن غند شلب[3] . فغضب شانجة لهذا القرار ، فنقض العهد بينه وبين عبد الملك ، فخرج اليه عبد الملك وحاربه ، فاضطر شانجة الى التماس السلم ، ووفد بنفسه الى قرطبة ، فأعظم عبد الملك وروده .

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٣٦١ .
(٢) نفسه .
(٣) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٩٤ – تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٣٤٠ .

٣ ـ وفود أمراء المغرب الموالين للخلافة الاموية الى قرطبة :

كان ظهور الفاطميين في بلاد المغرب يشكل خطرا على دولة الامويين في الاندلس فطن اليه الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فعمد الى محاربة الفاطميين بوسائل مختلفة ، منها تلقبه بالقاب الخلافة في ٢٨ ذي القعدة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) وبثه بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب ، فانضم اليه بنو ادريس أمراء العدوة ، وملوك زناته ، واستولى عبد الرحمن على معبري الاندلس : سبتة في سنة ٩٣١ وطنجة في سنة ٩٢٧ ، وبدأت وفود أمراء الادارسة والزناتيين الموالين له تصل الى قرطبة منذ سنة ٣٣٣هـ ففي هذه السنة دخل أبو العيش بن عمر بن ادريس في طاعة الناصر ، فأرسل ابنه محمد بن أبي العيش الى قرطبة مؤكدا له طاعته ، فاحتفل الخليفة بقدومه اليه احتفالا عظيما ، فبعث في استقباله القائد أحمد بن يعلي ، ثم استقبله الخليفة في قصر الزهراء ، وبالغ في تكريمه ، واستضافه في قرطبة بقية هذه السنة . وفي نفس السنة قدمت رسل الخير بن محمد بن خزر الزناتي ، وحميد بن يصل الزناتي لابلاغ الناصر دخولهما في مدينة تاهرت واقامتهما الدعوة له ، كما قدم رسولان من قبل أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الثائر بافريقية على أبي القاسم بن عبيد الله المهدي[1] . وفي سنة ٣٣٥ وصل الى قرطبة أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الاباضي رسولا من والده ابي يزيد ، فتلقاه الخليفة الناصر بالاكرام ، وأمر بانزاله في قصر الرصافة ، وأعد له فيه من الفرش والغطاء والانية والآلة ما يليق بأمثاله . وفي العام التالي وصل الى قرطبة حميد بن يصل المكناسي فاستقبل في قرطبة بالزينة والعساكر ، واستقبله الناصر في منتصف المحرم سنة ٣٣٧ بقصر الزهراء استقبالا حافلا ، كما استقبل في ذلك اليوم منصورا وأبا

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٨ ــ ٣٢٠ . ومن الملاحظ ان الخليفة الناصر حارب الفاطميين بأن شجع الثوار عليهم في المغرب وكانت ثورة ابي يزيد تلك اخطر الثورات جميعا على الدولة الفاطمية نفسها ، واستغرقت سنين طويلة .

العيش ابني أبي العيش الادريسي ، ودخل معهما حمزة بن ابراهيم صاحب جزائر بني مزغنا ، فخلع عليهم الخليفة خلعا سنية ، وأذن لهم في الانصراف الى بلادهم[1] . وفي سنة ٣٣٨ توالت رسل أمراء المغرب من الادارسة وأبناء أبي العيش ورسل البوري بن موسى بن أبي العافية[2] . وفي جمادي الآخرة من نفس السنة وفد الى قرطبة فتوح بن الخير بن محمد بن خزر كبير أمراء زناتة بالمغرب وافدا الى الحضرة ومعه وجوه أهل تاهرت ووهران ، وفي عام ٣٤٤ قدم الى قرطبة ابن عم حميد بن يصل ومعه ٣٦ من وجوه كتامة ومن انحاز اليه من عسكر افريقية ، الخارجين على خلفاء الفاطميين ، فأمر الناصر بانزالهم ، وجلس لهم على سريره بقصر الزهراء ، وخلع عليهم وغمرهم بكرمه وصلاته[3] .

وكثر وفود أمراء المغرب الى قرطبة في عصر الخليفة الحكم ، ففي سنة ٣٦٠ تلقى المستنصر يحيي وجعفر ابني علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسي صاحب المسيلة اللذين قدما برأس زيري بن مناد الصنهاجي قائد معد بن اسماعيل الفاطمي وبرؤوس أعيان أصحابه ، وفي ١١ من ذي القعدة عهد الحكم الى محمد بن أبي عامر صاحب السكة والمواريث وقاضي اشبيلية بالخروج لاستقبال جعفر بن علي ويحيي أخيه ، فخرج ومعه أربعة من عتاق الخيل وبغل أشهب منتقاة من دواب الخليفة بسروج الخلافة ولجمها ، ومعه الاخبية الديباجية وغير ذلك فاحتل ابن أبي عامر بالمرسى الذي خرج فيه جعفر قريبا من مالقة ، واتجه الموكب نحو قرطبة ، فازينت لقدومهم مدينة قرطبة ، وخرج أهلها لمشاهدة هذا الموكب ، وقد استقبلهما الحكم في ٢٨ من ذي القعدة استقبالا مهيبا[4] ، كما وفد الى قرطبة في تلك الآونة حسن

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٢٢ .
(٢) نفسه ، ص ٣٢٤ .
(٣) نفسه ، ص ٣٣٠ .
(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

ابن قنون الحسني وشيعته من الادارسة بعد استنزالهم واستقروا في الدور التي أعدها الحكم لهم[1] .

وواصل المنصور بن أبي عامر وابنه من بعده عبد الملك سياسة اصطناع أمراء المغرب ، فوفد الى قرطبة في عهدهما أعيان البربر ، ونخص بالذكر منهم زاوي بن زيري بن مناد واخوته الذين نزلوا قرطبة في حجابة عبد الملك ، فاستقبلهم أروع استقبال ، ووصلهم بصلات سنية[2] .

---

(1) ابن عذارى ، ص ٢٧٠ .
(2) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٣٧ .

الفصل الثالث

سقوط الخلافة الاموية واثره في اضمحلال قرطبة

(١) الفتنة البربرية

أ ــ التفوق العددي للعنصر البربري على العنصر العربي في الاندلس

ب ــ غلبة العنصر البربري في عهد سليمان المستعين ونتائجه

ج ــ نهاية عصر سليمان المستعين .

(٢) سقوط الخلافة الاموية بقرطبة

أ ــ انهيار حزب المروانية

ب ــ الصراع بين بني حمود للظفر بالخلافة

ج ــ السنين الثمانية الاخيرة للخلافة الاموية

(٣) دثور قرطبة

أ ــ المرحلة الاولى

ب ــ المرحلة الثانية

ج ــ المرحلة الثالثة

د ــ المرحلة الرابعة

(٤) المسؤولون عن نكبة قرطبة

الفصل الثالث

سقوط الخلافة الاموية وأثره في اضمحلال قرطبة

(١)

الفتنـــة البربريـــة

١ ـ التفوق العددي للعنصر البربري على العنصر العربي في الاندلس :

هناك حقيقة تاريخية ثابتة أن العرب الذين دخلوا الاندلس على طوالع ثلاثة[١] كانوا قليلي العدد بالنسبة الى جموع البربر الهائلة التي استقرت في الاندلس منذ أن افتتحه طارق بن زياد . وسبب هذا التفوق العددي يرجع الى ثلاثة عوامل رئيسية ، الاول : سهولة المجاز مـن العدوة الى الاندلس ، والثاني توافر الثروات الاقتصادية في الاندلس وتضاؤلها في المغرب لكثرة سكانه وقلة خيراته[٢] ، والثالث استخدام البربر في الجيش

---

(١) هذه الطوالع الثلاثة هي : طالعة موسى بن نصير في سنة ٩٣ هـ ، ثم طالعة الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٧ ، ومعظم هاتين الطالعتين من اليمنيين ، وعرفوا في الاندلس بالبلديين ، ثم طالعة بلج بن بشر سنة ١٢٤ ، ومعظمهم مـن القيسيين وعرف أصحاب هـذه الطالعة الثالثـة بالشاميين ، وبخلاف هذه الطوالع لـم تفـد الى الاندلس طوالع أخرى (Isidro de las Cagigas, Andalucia musulmana, Madrid, 1950, PP. 15 - 16 وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ١٢٠) .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire de l'Esp. Mus, t. III, P. 168
ويؤكد ذلك ما ذكره المقري نقلا عن الرازي من تهافت أهل العدوة من البربر على نزول الاندلس بعد انتصار طارق بـن زياد على جيوش القوط في وادي لكة ، بغية التماس الغنائم او الاستقرار في هذه البلاد الغنية . يقول الرازي « وتسامع الناس من أهل بـر العدوة بالفتح على طارق بالاندلس ، وسعة المغانم فيها ، فاقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل مـا قدروا من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق . وأرتفع اهل الاندلس عند ذلك الى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السـهل ، ولحقوا بالجبال » (المقري ، ج ١ ص ٢٤٣) .

الاندلسي في خدمة أمراء بني أمية وخلفائهم منذ أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الاندلس . ويهمنا من هذه العوامل الثلاثة العامل الثالث ، فقد كان الامير عبد الرحمن ابنا لامرأة بربرية من نفزة ، وربما كان ذلك سببا في الجهود التي بذلها البربر لحمايته من بطش عبد الرحمن بن حبيب الفهري به طوال السنين الاربعة التي قضاها عبد الرحمن في أرض المغرب ، وربما كان انتسابه لنفزة او ثقته في البربر الذين عاشرهم في خلال هذه السنين الطويلة سببا آخر يفسر اعتماده على قائد من قواد البربر في واقعة المصارة[1] الى جانب رؤساء المروانية واليمنية ، ومحاولته الدائمة انشاء مراكز بربرية لتواجه جماعات العرب الثائرة على حكمه[2] .

واتبع أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل هذه السياسة ، فأصبح هناك تياران بربريان الى الاندلس : تيار الهجرة من المغرب الجدب الى الاندلس الخصب ، وتيار الخدمة في الجيش الاندلسي ، وكلاهما سار جنبا الى جنب في عهد أمراء بني أمية حتى بداية عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، بحيث أصبح عدد البربر والمولدين يؤلفون الاغلبية العظمى لسكان

---

(1) هو ابراهيم بن شجرة الاودي ، جعله عبد الرحمن قائدا على فرسان من صحبه من البربر (تاريخ المسلمين في الاندلس ص ١٩٠) .

(2) Isidro de las Cagigas, op. cit., P. 20 . ويقول المقري نقلا عن ابن خلدون : « وكثرت ثورة رؤساء العرب بالاندلس على عبد الرحمن الداخل ونافسوه ملكه ، ولقي منهم خطوبا عظيمة ، فكانت العاقبة له ، واستراب في آخر امره بالعرب لكثرة من قاد عليه منهم ، فرجع الى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي » (المقري ، ج ١ ص ٣١٢) . وفي موضع آخر يقول المقري : « ولما اوقع عبد الرحمن باليمانية الذين خرجوا في طلب ثار رئيسهم ابي الصباح اليحصبي ، وأكثر القتل فيهم ، استوحش من العرب قاطبة ، وعلم أنهم على دغل وحقد ، فانحرف عنهم الى اتخاذ المماليك ، فوضع يده في الابتياع ، فابتاع موالي الناس بكل ناحية ، واعتضد أيضا بالبرابر ووجه عنهم الى بر العدوة ، فأحسن لمن وفد عليه احسانا رغب من خلفه في المتابعة ، قال ابن حيان : واستكثر منهم ومن العبيد ، فاتخذ اربعين ألف رجل صار بهم غالبا على أهل الاندلس من العرب ، فاستقامت مملكته وتوطدت » (المقري ، ج ٤ ص ٣٦) .

الاندلس المسلمين[1] ، ومنذ ذلك الحين أصبحت السياسة الخلافية ترمي الى اصطناع البربر ، والاستكثار منهم في الجيش لهدفين : الاول اضعاف العصبية العربية حسما لحركات الانتزاء ، والثاني مواجهة الخطر الفاطمي[2] ولم يقنع ساسة قرطبة الخلافية بهذه السياسة القائمة على اجتذاب البربر الى الاندلس ، واتجهوا الى تنفيذ سياسة توسعية في المغرب : فواصلوا سياسة التواصل الودي التي انتهجها الامير محمد مع الرستميين أصحاب تاهرت وبني مدرار أصحاب سجلماسة وبني صالح أصحاب ناكور[3] ، ووطدوا العلاقات مع بقايا الرستميين وبني صالح الـذين ظلوا يناوئون الفاطميين حتى بعد سقوط تاهرت وناكور في أيديهم ، بل ان الابناء الثلاثة لسعيد بن صالح صاحب ناكور التي دخلتها القوات الفاطمية بقيادة مصالة ابن حبوس في ٣ من المحرم سنة ٣٠٥ هـ فروا الى الاندلس قبل أن تقـع ناكور في أيدي عسكر مصالة ، ولجئوا الى عبد الرحمن الناصر[4] ، الذي

---

(١) Lévi-Provençal, op. cit., t. III, P. 169.

ويذكر الاستاذ ليفي بروفنسال ان القرن الثامن الميلادي كلـه شهد سيـلا متواصلا مـن الهجرة البربرية قلب نظام التعمير الاسباني ومراكزه السكنية التقليدية ، وفي نفس الوقت شجع على اسلام قسم كبير من الكتلات السكانية الاصلية وطبقة الملاك الاسبان أو القوط تدريجيا
(Lévi-Provençal, op. cit., t. III, P. 168).

(٢) Ibid. t. III, P. 173 — تاريـخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

استولى الفاطميون على المغربين الادنى والاوسط ، أما المغرب الاقصى ، فقـد كان مقـسما الـى امارات مستقلة منهـا امارة بنـي مدرار الخوارج بسجلماسة ، وامارة برغواطة الهراطقة علـى المحيط ، وامارة بنـي صالح السنيين بناكور علـى ساحل البحر المتوسط ، وامـارة الادارسة الشيعة الحسنيين بفاس .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦١ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤
Lévi-Provençal, La Politica africana de Ábd al-Rahman III, al-Andalus, Vol. XI, 1946, PP. 355, 362.

(٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٩٤ — ابـن عذارى ج ١ ص ٢٤٤
Lévi-Provençal, La Politica africana, P. 362.
Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, Casablanca, 1949, P. 132.

استقبلهم في مالقة وبجانة أحسن استقبال ، وقد نجح أحدهم وهو صالح ابن سعيد بن صالح في نفس السنة في استرجاع ناكور ، واعتبر عبد الرحمن الناصر هذا الفتح نصرا شخصيا له ، كما أن صالح بدوره أعلن تبعيته لعبد الرحمن الناصر ، « وهادي أمير المؤمنين بالخيل والجمال »[1] . وأمام الخطر الفاطمي عمل عبد الرحمن الناصر على تحصين مدينة طريف ، فأقام لها حصنا ما زال قائما حتى اليوم[2] ، ثم انه اجتذب قبائل زناتة الذين أخذوا يعملون له ضد الفاطميين ، واضطر أخيرا الى الاستيلاء على معبري الاندلس سبتة وطنجة ، وأتبعهما بمليلة ، واتخذ هذه المدن قاعدة لعملياته الحربية في المغرب الاقصى . وبفضل استيلائه عليهما أصبح في امكانه التحالف مع أعداء الفاطميين ، والسيطرة على القيادة السياسية لكل منطقة الريف ، والتدخل الحربي في المغرب الاقصى ، ولم يلبث القسم الاعظم من شمال المغرب الاقصى ومناطق واسعة من المغرب الاوسط أن دخلت في فلك الخلافة الاموية بقرطبة[3] .

ومنذ ذلك الحين أخذ المغرب الاسلامي من عناية الخليفة الاموي نصيبا وافرا ، وأخذت وفود البربر من زناتة والادارسة وبني خزر وبني أبي العافية ، تتوافد موجة بعد موجة على قرطبة حاضرة الخلافة[4] على نحو ما رأيناه في الفصل السابق . وقد أدت هذه السياسة الى تشجيع البربر على الخروج في جماعات كبيرة الى الاندلس حيث استخدموا في الجيش .

وباعتلاء الحكم المستنصر بالله عرش الخلافة كانت بداية استخدام البربر في الجيش كعنصر أساسي ، ومنذ خلافته يمكننا تأريخ بداية حركة تبربر Berbérisation القوات الخلافية على حد قول الاستاذ ليفي

---

(1) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(2) Terrasse, op. cit., t. I, P. 156.

(3) Lévi-Provençal, La Politica africana, P. 366, 367

(4) المقري ، ج ١ ص ٣٦١ .

بروفنسال[١] ، وازدادت هذه الحركة دفعا في عهد سيطرة الحاجب محمد ابن أبي عامر الذي عمل على الاستكثار من البربر في جيشه واهمال رجال العرب ، ويذكر ابن خلدون : « انه استدعى أهل العدوة من رجال زناته والبرابرة ، فرتب منهم جندا ، واصطنع أولياء ، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم ... وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم »[٢] . ويوضح لنا الامير عبدالله الزيري ملك غرناطة في مذكراته سر هذه السياسة الجديدة التي إتبعها المنصور في بربرة الجيش ، ويفسر لنا جدوى اتباعه لها ، فيقول : « وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته اذ كانوا صنفا واحدا ، وتألبهم على معصية أمره متى أمر بما أحبوا او كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة : ان هم أحد الطوائف بخروج على الطاعة ، غلبها بسائر الفئات مع احتياجه الى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدته ، وتسامع الناس بالجهاد فبادر اليه من شرق العدوة من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ، وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء[٣] » .

والواقع أن هذه السياسة الحكيمة التي ارتسمها المنصور بن أبي عامر على الرغم من عواقبها السيئة كانت لها آثار طيبة ، اذ تمكن بفضلها من ازالـة العصبية الجنسية مـن الجيش ، وانحسمت بذلك مـادة الفتن والاعتزاء[٤] . ولا شك أن تفضيل ابن أبي عامر للبربر على العرب أسفر

---

(١) Lévi-Provençal, Histoire de l'Esp. mus. t. III, P. 80

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤٨ ــ المقري ، ج ١ ص ١٧٤ .

(٣) مذكرات الامير عبدالله الزيري المسماة بكتاب التبيين ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٤) المقري ، ج ١ ص ٢٧٤
Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 83, 174.

عن نتيجتين : الاولى أنه أوجد أختلالا خطيرا في الميزان العنصري ، فقد رجحت كفة البربر على العرب ، وبذلك أفسح المجال لايغار صدور العرب على البربر وغرس الاحقاد عليهم في نفوسهم . والثانية أن العصبية العربية القديمة القائمة على العنصرية الجنسية تحولت الى نوع من التضامن أو التكتل القومي ، أو بمعنى آخر تحولت الى عصبية أندلسية ، هدفها الاول مواجهة العناصر الجديدة الطارئة علـى الاندلس ، وتتمثل في الصقالبة والبربر المرتزقة[1] .

أما عبد الملك بن المنصور فقد اتبع خطة أبيه في اصطناع البربر من العدوة ، وكان أعظم مـن قدم منهم زاوي بن زيري بن منـاد الصنهاجي المعروف بدهائه ومكره[2] ، على رأس حشود كبيرة مـن بربر صنهاجة . وكان المنصور بن أبي عامر قد عزف عن الاذن له بالدخول الى الاندلس خوفا منه، ولكن عبد الملك أدخله بمن اصطحبهم معه من اخوته، واستقبلهم عبد الملك أحسن استقبال ، ووصلهم بصلاته الكثيرة ، ولكنهم استصغروا مـا وصلهم بـه على كثرتـه ، وابتذلوا الخلـع التي خلعهـا عليهـم ، ولـم يعلنوا عن اغتباطهم بالمقـام في الاندلس ، وانمـا كانوا يلتمسون التسريح جهلا وأنفة[3] . ويعلق ابن بسام الشنتريني على عدم اقدام عبد الملك على تسريح زاوي بن زيري عندما طلب ذلك بقوله: « والاقدار موكلة بثني عزم عبد الملك عن اسعافهم بسراحهم لما كان قدره ـ عز وجهه ـ من الفتنة ، وتفريق شمل الاندلس بأشباههم ، فلم يخرجوا عنها الى أن قاموا على الجماعة ، وشغبوا عليها بعد عبد الملك[4] » .

---

(1) Lévi-Provençal, op. cit., t. III, P. 175.

(2) مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٧ .

(3) ابن بسام الشنتريني ، كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٦١ .

(4) نفس المصدر .

ب ـ غلبة العنصر البربري في عهد سليمان المستعين ونتائجه :

رأينا كيف اعتمد خلفاء بني أمية في قرطبة على الموالي والبربر دون العرب في تدعيم سلطانهم بالاندلس، واخماد الحركات الانفصالية، والقضاء على المؤامرات الانقلابية التي كان يقوم بها أشراف العرب والمولدون ، وكيف هيأوا بذلك المجال لتقديم هذين العنصرين على العناصر العربية . ولقد أسرفت الدولة العامرية في الاعتماد على البربر والفتيان الصقالبة ، ووزعت عليهم أرفع مناصب الدولة ، وجعلت منهم حزبا قويا عرف بالحزب العامري أو العامرية ، الا أن هذا الحزب لم يلبث أن انهارت دعائمه بعد قيام الحزب الاموي بالثورة التي أطاحت بعبد الرحمن شنجول بن المنصور، وانتهت باسترجاع الحزب الاموي لسلطاته القديمة ، ولكن هذه الثورة كانت شرا ووبيلا على الاندلس ، فقد حركت جميع طبقات المجتمع ورؤساء البربر والصقالبة ، وسرعان ما تحولت هذه الثورة الى حرب أهلية عاتية[1]، وكان انتصار البربر وهم القوة التي اعتمد عليها سليمان بن حكم الملقب بالمستعين بالله في التغلب على غريمه محمد بن هشام الملقب بالمهدي وأنصاره من أهل قرطبة ، في سنة ٤٠٣ بداية للفتنة ، « وسببا في تمريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف »[2] ، فقد قسم سليمان المستعين بعض كور الاندلس بين أنصاره من رؤساء القبائل البربرية ارضاء لهم ، فوهب البيرة لبني زيري ابن مناد الصنهاجيين ، وأعطى جوفي البلاد لمغراوة ووهب جيان لبني برزال، وريدة لبني يفرن ، وشذونة ومورور لبني دمر وأزداجة ، في حين آلت سبتة لعلي بـن حمود ، وطنجة وآصيلا والجزيرة للقاسم بن حمود[3] ،

---

(1) Prieto Y Vives, Los Reyes de Taifas, estudio historico numismatico de los Musulmanes espanoles, Madrid, 1926, P. 14. Mariano Gaspar Remiro, Historia de Murcia musulmana, Zaragoza, 1905, P. 90.

(٢) ابن بسام ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١١٩ .

وبذلك غلب العنصر البربري على دولة سليمان المستعين ، مما حمل الفتيان العامريين على الفرار الى شرق الاندلس خوفا على أنفسهم من بطش البربر بهم ، وقد عمل هؤلاء الفتيان على تكوين دويلات لهم بشرق الاندلس . كذلك يسجل انتصار البربر بداية اعتماد الاطراف المتخاصمة على القوى المسيحية في اسبانيا في صراعها فيما بينها ، فقد اعتمد سليمان المستعين هو وأنصاره من البربر بعد هروبه من قرطبة الى الثغر الاعلى على القوة المسيحية التي زوده بها قومس قشتالة شانجة بن غرسية بن فردلند[1] Sancho Garcia في صراعه مع محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي وواضح الفتى ، وبفضل هذه المساعدة تمكن المستعين من ايقاع الهزيمة بغريمه المهدي في واقعة قنتيش في ١٣ ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ[2] ، ودخل قرطبة ظافرا ، ووضع البرابرة والنصارى السيوف في رقاب أهل قرطبة ، ويذكر ابن حيان أن النصارى مالوا يومئذ على المنهزمين من المسلمين ، « فقتلوا منهم في صعيد واحد نيفا على ثلاثة آلاف رجل »[3] . وعندما التجأ المهدي الى طليطلة استنجد بقومس برشلونة ريموند بوريل الثالث Raymond (ويسميه العرب ارمقند[4]) وأخيه أرمنجول Armengol ، وفي مقابل ذلك يتخلى لهما عن مدينة سالم ، فزوداه بتسعة آلاف من الجنود القطلانيين ، وبفضل هذه المساعدة تمكن من استرجاع قرطبة بعد أن أوقع بقوات المستعين في موقعة عقبة البقر[5] . ولم يقنع المهدي بهذا الانتصار ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ١١٣ . ويسميه ابن ادفونش (ج ١ ص ٤٠٣) بينما يسميه ابن عذارى ابن مامه دونه (ابن عذارى ، ج ٣ ص ٨٦) .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٨٩ .

(٣) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٠ . ويذكر ابن عذارى ، ان النصارى قتلوا يومئذ من اهل قرطبة ما يزيد على ثلاثين ألفا ، ويعتبر هذا العمل أول ثارات المشركين على المسلمين (ابن عذارى ، ج ٣ ص ٨٣ — ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١١٣) .

(٤) ابن عذارى، ج ٣ ص ٩٥ — ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ١١٥

(٥) راجع التفاصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٣٥٤ .

بل عمد الى مطاردة المستعين وجيشه البربري ، ولكنه مني هو وواضح ومن معهما من الفرقة القطلانية بهزيمة نكراء في وادي آره أو وادي يارو من أحواز مربلة، وتقهقر هو وواضح الى قرطبة أمام قوات البربر بقيادة المستعين وفي قرطبة وثب واضح بالمهدي فقتله ، وجدد البيعة لهشام المؤيد ترضية للبربر ، ولكنه اضطر الى الاستنجاد بملك قشتالة شانجة بن غرسية مرة ثانية[1] . ويبدو أن سليمان المستعين قد راسل الملك القشتالي مستمدا نظير أن يتنازل له عن عدد من الحصون الاسلامية ، كان المنصور بن أبي عامر قد انتزعها من القشتاليين ، وهكذا أراد شانجة أن يفيد من الطرفين المتنازعين ، ويضمن بذلك لنفسه الغنيمة دون أن يبذل لهما أي مساعدة[2] ، « فأرسل الى هشام المؤيد يعرفه الحال ، ويطلب منه تسليم هذه الحصون لئلا يمد سليمان بالعساكر »[3] ، فاستشار هشام أهل قرطبة في ذلك ، فأشاروا عليه بتسليم هذه الحصون الى شانجة حتى لا ينجد سليمان ، فاتفق هشام مع رسل شانجة في قرطبة على أن يسلم لملكهم ما يزيد على مائتي حصن لقاء تخليهم عن نصرة سليمان، وتم ذلك في المحرم سنة ٤٠١[4] .

كذلك اشترك القشتاليون في النزاع القائم بين الحزب الاموي يؤيده الصقالبة ، وبين البربر ، وذلك عندما بايع خيران العامري المرتضى من بني أمية[5] .

أما الظاهرة الثالثة التي نتجت عن انتصار البربر على قوى المهدي ، فهي تعرض قرطبة حاضرة الخلافة الاموية في الاندلس لنقمة المستعين وأنصاره البربر الذين استباحوا دماء أهلها ، وعاثوا فسادا في جنباتها ، ونثروا الخراب في عمرانها على نحو ما سنفصله فيما بعد .

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٤٠٤ .
(٢) Prieto Y Vives, op. cit., P. 15
(٣) ابن الاثير ، ج ٧ (طبعة مصر ١٣٥٣ هـ) ، ص ٢٤٨ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٨ — ابن الخطيب، اعمال الاعلام ، ص ١١٧ .
(٥) المقري ، ج ٢ ص ٣٠ .

ج – نهاية عهد سليمان المستعين :

دخل سليمان المستعين قصر قرطبة في ٢٧ من شوال سنة ٤٠٣ هـ بفضل جهود زاوي بن زيري وأتباعه من بربر صنهاجة ، وفر العامريون وأتباعهم الى بلاد شرق الاندلس ، وقد امتلأت قلوبهم بكراهية المستعين وأتباعه البربر[1]،فأخذ رؤساؤهم يتآمرون من هناك لتقويض دولة المستعين والقضاء عليه ، أما المستعين فقد خلع هشاما وعهد به الى ابنه محمد ليخفيه عن الاعين، وأوصاه بأن يحسن معاملته، فأقام هشام أياما في كنف المستعين، ثم اخفى شخصه الى الابد . وذكر ابن الخطيب أنه شاع يومئذ أن محمدا أعجل عليه دون اذن والده سليمان ، فاغتاله خنقا منفردا بذلك مع بطانته : ابن حدير وغيره ، وذلك في ٥ من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ ، « وأشاعوا أنه فر لوجهه مأذونا له ، فتعيش زمانا سقاء بالمرية »[2] .

أما المتآمرون من العامرية وعلى رأسهم خيران ومجاهد العامريين ، فقد أخذوا يبحثون عن سلاح يشهرونه في وجه المستعين اذ كان يحدوهم الامل في أن يتمكنوا يوما من دخول قرطبة والعثور على هشام المؤيد ، واستلزم الامر البحث عن خليفة أموي يلتفون حوله ، فأقام مجاهد عليه خليفة رجلا يعرف بالفقيه المعيطي في سنة ٤٠٥ هـ سماه المنتصر بالله ، وأثبت اسمه في السكة وفي أعلامه[3] . غير أن وضع هذا الخليفة كان

---

(١) كان هذا الحزب العامري يؤيد هشاما المؤيد بالله ، ويعادي سليمان لاعتماده على البربر ، ويذكر ابن الاثير أنه لما تغلب سليمان المستعين على قرطبة « انهزم خيران في جماعة كثيرة من الفتيان العامريين ، فتبعهم البربر ، وواقعهم ، فاشتد القتال بينهم ، وجرح خيران عدة جراحات ، ونزل على أنه ميت ، فلما فارقوه قام يمشي ، فأخذه رجل من البربر الى داره بقرطبة وعالجه ، فبرا ، وأعطاه مالا ، وخرج منها سرا الى شرق الاندلس ، فكثر جمعه » (ابن الاثير ، ص ٢٨٤) .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٢٠ .

(٣) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٢٨ – ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

والمعيطي المذكور هو الفقيه ابو عبدالله بن الوليد المعيطي المديني ، احد من ازعجته الفتنة ، من اشراف قرطبة .

حرجا للغاية لعدم استناده على نسب أموي ، واقتضى الامر البحث عن خليفة آخر يدعمه نسب أموي أصيل[1] ، فلم يجد العامرية أصلح لهذا الغرض من علي بن حمود الذي ينتسب الى شرفاء الادارسة الحسنيين ، ولم يكن علي بن حمود يزهد في محاربة المستعين لانه كان يتطلع الى الظفر بالخلافة دون منافس ، وكان البربر قد بدأوا يسأمون حكم المستعين ، ثم ان المستعين مهما كانت الاحوال لم يكن بربريا منهم ، وكانوا يتطلعون الى السيطرة والسلطان ، وعلى هذا النحو اجتمعت أهداف العامرية والبربر ، فتم التحالف بينهما ، واتفق الفريقان على الاتصال بعلي بن حمود أمير سبتة المتبربر ، فأطمعوه في تقلد الخلافة ، وذللوا مهمة الظفر بها دون أصحابها الشرعيين ، وأرسلوا اليه وثيقة منسوبة الى هشام المؤيد ، مكتوب فيها : « انقذني من أسر البربر والمستعين وأنت ولي عهدي »[2] . وكان علي ابن حمود وحلفاؤه البربر يعلمون حق العلم المصير التعس الذي آل اليه هشام المؤيد ، ومع ذلك فقد تظاهروا أمام الصقالبة بالحماس في الخروج ضد سليمان بهدف الافراج عن هشام ، وبدأ علي وهو في سبتة بشق عصا الطاعة على المستعين سنة ٤٠٤ هـ ، وقتل قاضي المدينة محمد بن عيسى ، وعميدها الفقيه ابن يربوع بعد أن اتهمهما بانحيازهما الى جانب سليمان وقيامهما بالتجسس لصالحه ، ثم تأهب للمجاز الى الجزيرة الخضراء قاعدة أخيه القاسم في جيوش كثيفة تمكن من جمعها[3] .

وكان خيران العامري في هذه الاثناء يكاتب رؤساء الاندلس الجنوبي، ويحرضهم على الخروج ضد سليمان الذي اغتصب الخلافة من هشام المؤيد

---

(١) ذكروا أن مجاهد العامري ، اثر عودته مهزوما من غزوته لجزيرة سردانية ، خلعه من الخلافة ، وقبض عليه ، ثم نفاه الى ارض العدوة بعد أن اتهمه «بالعبث بالناس والاستئثار بالفيء والمجاهرة بالمعاصي» (ابن الخطيب ، ص ١٢٠) .

(٢) يذكر ابن عذارى ان بعض العامريين ارسلوا الى علي بن حمود وثيقة منسوبة الى هشام المؤيد وبخطه عهد فيها بالامر من بعده الى علي بن حمود (ابن عذارى ، ج ٣ ص ١١٦ ـ ابن الخطيب ، ص ١٢١) .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٢١

الخليفة الاموي الشرعي ، فأيده في ذلك جماعة ، منهم عامر بن فتوح بمالقة ، وكان وزيرا للمؤيد[1] ، فلما تم لخيران تأليب أهل الاندلس على سليمان المستعين ، كتب الى علي بن حمود يطلب منه العبور اليهم ، فتنضم جيوشهم الى جيوشه ، ثم تزحف الجيوش المشتركة نحو قرطبة . وتم عبور علي بن حمود من سبتة الى ساحل مالقة في سنة ٤٠٥ هـ ؛ فسلمها اليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية العهد ، وفي نفس الوقت خرج خيران العامري ومن أجابه الى دعوته من المرية متجها نحو مالقة ، والتقى بعلي بن حمود في بلدة المنكب في سنة ٤٠٦ هـ[2] ، حيث عقدا عدة اجتماعات بحثا خلالها الخطة التي يمكن أن يتبعاها للقضاء على سليمان ، ثم تأهب الحليفان للسير نحو غرناطة ، لتنضم قواتهما الى قوات حبوس بن ماكسن الصنهاجي ، ومن غرناطة زحفت حشود علي بن حمود وخيران العامري بعد أن انضمت اليها عساكر حبوس نحو قرطبة .

ولم يكن ميزان القوى بين سليمان وخصومه متكافئا بأي حال من الاحوال ، فقد خرج سليمان على رأس جيش من البربر لم تلتق أهدافه ، وكان العدد الاعظم منهم يؤثرون عليه عليا بن حمود لانه وان كان ينتسب الى الادارسة الحسنيين كان متبربرا أقرب ما يكون الى البربر ، ثم انه كان قد بلغهم أن المستعين كان ينوي بهم شرا ، فقد ذكر المقري أنه أنشد لبعض خواصه أبياتا تكشف عن نواياه السيئة نحو البربر جاء فيها :

حلفت بمن صلى وصام وكبرا	لأغمدها فيمن طغى وتجبرا
وأبصر دين الله تحيا رسومه	فيبدل ما قد كان منه وغيرا
فواعجبا من عبشمي مملك	برغم العوالي والمعالي تبربرا
فلو أن أمري بالخيار نبذتهم	وحاكمتهم للسيف حكما محررا[3]

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٥ . ويذكر ابن بسام نقلا عن ابن حيان أن عليا اجتمع مع خيران وغيره من الفتيان في مدينة المرية (ابن بسام ، مجلد ١ ، قسم ١ ص ٢٨) .
(٣) المقري ، ج ١ ص ٤٠٥ .

وتم الاشتباك بين الطرفين المتنازعين في موضع يبعد عن قرطبة بنحو عشرة فراسخ[1] ، وذلك في شهر المحرم سنة ٤٠٧ هـ ، ونشب القتال ، فاعصوصب البربر على سليمان وأصحابه من أهل قرطبة[2] ، ودارت الدائرة عليه ، فانهزم هزيمة شنعاء ، وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه ، وسيقوا أسارى الى علي بن حمود . أما خيران وعلي بن حمود فقد دخلا قصر قرطبة طمعا في أن يجدا هشاما على قيد الحياة ، ولكنهما لم يعثرا له على أثر ، وقيل لهما أنه قتل ، وعرض عليهما قبره ، فأمر ابن حمود بنبشه ، فأخرجت الجثة ، وأجمع بعض الشهود على أنها لهشام المؤيد . ويذكر ابن بسام أنهم فحصوا جسده ، فلم يجدوا فيه شيئا من أثر السلاح ، فتوهم ابن حمود فيه الخنق ، وأمر بالصلاة عليه ثم دفنه بجوار قبر أبيه الحكم المستنصر[3] . بينما ذكر ابن الاثير أن الشهود كانوا يعلمون بوجود هشام حيا ، وأنهم زوروا شهادتهم خوفا على أنفسهم من علي بن حمود الذي كان يطمع في الخلافة لنفسه[4] . ثم ان عليا استقدم سليمان وأباه وأخاه ، وأمر بضرب عنق سليمان ثم أتبعه بأخيه فأبيه ، وبويع لعلي بن حمود بالاجماع في باب السدة من قصر قرطبة في ٢٣ من المحرم سنة ٤٠٧ هـ وتلقب بالناصر لدين الله[5] . أما خيران العامري فقد أظهر الخلاف عليه لاسباب ذكر ابن الاثير منها أنه كان يأمل في العثور على هشام حيا ، فلم يجده كذلك ، ومنها أنه نقل اليه أن عليا يسعى الى قتله ، فرحل من قرطبة بعد أن أعلن خروجه علي ابن حمود[6] .

---

(١) ابن الاثير ، ص ٢٨٥ .
(٢) المقري ، ج ١ ص ٤٠٦ .
(٣) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٢٩ .
(٤) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٥ .
(٥) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٧٩ . ويختلف ابن الاثير مع ابن حيان في اللقب الخلافي الذي تلقب به علي بن حمود ، فابن الاثير يذكر أنه تلقب بالمتوكل على الله ، بينما يذكر ابن حيان وهو اكثر ثقة في تاريخ الاندلس في عصر الطوائف انه تلقب بالناصر لدين الله ، وأن هذا هو لقب أبو احمد بن المتوكل العباسي .
(٦) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٥ .

(٢)

سقوط الخلافة الاموية بقرطبة

ا ــ انهيار حزب المروانية :

افتتح علي بن حمود خلافته بانصاف المظلومين وكسر شوكة البربر المتغلبين ، فأذل رؤساءهم ، وكان يجلس بنفسه لمظالم الناس ، ويتشدد مع المجرمين في أحكامه ، وأحس الناس لاول مرة منذ قيام الفتنة بالامن والنظام في ظله . وعلى هذا النحو تمكن علي بن حمود من غرس محبته في قلوب أهل قرطبة ، وفرض هيبته في نفوس عسكره البربر ، ومن أمثلة صرامته مع أجناده البربر أنه خرج يوما على باب عامر من أبواب قرطبة ، فالتقى بفارس من البرابر قدامه حمل عنب ، فاستوقفه ، وقال له : « من أين لك هذا العنب ؟ قال : أخذته كما يأخذ الناس » ، فأمر بضرب عنقه ، ووضع رأسه وسط الحمل ، ثم طيف به البلد كله[1] . ولكن أهل قرطبة كانوا شديدي التقلب ، وقد عُرفوا بميلهم الى السخط على الحكام ، وكانوا على حد قول ابن سعيد المغربي : « يضرب بهم بين أهل الاندلس في القيام على الملوك ، والتشنيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم حتى ان السيد أبا يحيى بن يعقوب بن عبد المؤمن لما انفصل عن ولايتها قيل له : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الجمل ، ان خففت عنه الحمل صاح ، وان أثقلته به صاح ، ما ندري أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنتجنبه ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق ، وان العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندي ولاية ، واني ان كلفت العود اليها لقائل : لا يلدغ المؤمن مرتين »[2] . فلم تمض ثمانية أشهر على مبايعة أهل

---

(١) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ص ٨٠ ــ المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٠ .

قرطبة له بالخلافة حتى أنس منهم بالكراهية لدولته[1] ، وفي نفس الوقت بلغه قيام الاندلسيين بالمرتضى المرواني في شرق الاندلس بايعاز من خيران العامري الذي ما فتىء يكيد له المكائد منذ عودته الى المرية ، وهنا أدرك فساد سياسته الاولى ، فقد ضحى بشعبيته ضد عسكره البربر ارضاء لاهل قرطبة وتزلفا اليهم ، فما ان وجد منهم ميلا للمرتضى حتى بـادر بتغيير سياسته ازاءهم ، وأسرع بجمع شـمل برابرته ، « وانصرف الى حزبه البربري فآثره ، وأغضى على سوء ما كانوا عليه من الظلم والحيف ، فوقع أهل قرطبة وغيرهم في حالتهم مدة سليمان ، من استطالتهم عليهم ، وصب على أهل قرطبة ضروبا من التنكيل والمغارم ، وانتزع السلاح منهم ، وهدم دورهم ، وقبض على أيدي الحكام عن انصافهم ، وأغرم عامتهم »[2] . وهكذا فقد ابن حمود محبة الاهالي ، وأجمع الناس على مقته وكراهيته خاصة بعد أن أساء الى جماعة من أعيان قرطبة ممن خدموا في عهد سليمان المستعين ، ونخص بالذكر منهم أبو الحزم بن جهور ، والكاتب أحمد بن برد الاكبر ، فاعتقلهم، وصادر أموالهم، واعتدى على جماعة منهم بالضرب.

وكان خيران العامري قد بايع عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، الملقب بالمرتضى ، واستخدم دهاءه وبراعته في الاقناع في حث ملوك الطوائف بشرق الاندلس والثغر الاعلى على مبايعة المرتضى ، فأصفق على مبايعته منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة والثغر الاعلى، كما بايعه أهـل شاطبة وبلنسية وطرطوشة والبونت[3] . وبفضل خيران أيضا تمكن المرتضى من تأليف جيش خرج على رأسه نحو غرناطة لمواجهة زاوي بن زيري الصنهاجي صاحب غرناطة وأحد حلفاء علي بن حمود ، وفي

---

(1) ابن بسام ، مجلد 1 قسم 1 ص ٨٠ .
(2) ابن بسام ، مجلد 1 قسم 1 ، ص ٨١ ــ ابن عذارى ج ٣ ص ١٢١ ، ١٢٣ ــ المقري ، ج ٢ ص ٢٨ .
(3) ابن الاثير، ج ٧ ص ٢٨٥ ــ ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ١٣٠ .

نفس الوقت تأهب ابن حمود للسير لمصادمة جيش المرتضى ، ومن العجيب أن ينتهي أمر هذا الطاغية ابن حمود بالقتل على أيدي خدمه ، وأقرب الناس اليه ، وهم ثلاثة فتيان من صقالبة بني مروان : منجح ولبيب وعجيب ، ساءهم استبداده بأهل قرطبة وتعصبه لبني قومه ، فقتلوه في حمامه في غرة ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ[١] . وكان من الطبيعي أن يستدعي جنده الزناتيون ابنه يحيى ، وكان يلي سبتة من قبل أبيه ، الا أن العدد الاعظم منهم آثر استدعاء أخيه القاسم بن حمود من اشبيلية التي كان يتولى أمرها من قبل أخيه ، وذلك لعاملين : الاول أنه كان يكبر عليا في عمره عشر سنوات وكان أجدر من أخيه علي باعتلاء دست الخلافة لهذا السبب ، وكان بعض رؤساء البربر يعتبرون تقديم علي على أخيه القاسم غبنا له واغتصابا لحقه . والعامل الثاني أنه كان عند وفاة أخيه على مقربة من قرطبة ، بينما كان يحيى ابن أخيه في سبتة بعيدا عن مسرح الاحداث[٢] . وهكذا كانت مبايعة القاسم بالخلافة بعد وفاة أخيه ايذانا بالصراع العنيف الذي قام بعد ذلك بين بني حمود من أجل الظفر بالخلافة ، وبداية لتصدع الجبهة البربرية في الاندلس .

ما كاد القاسم يظفر بالخلافة حتى شرع في اصلاح أمور الدولة ، وتنسم الناس في بداية عهده روح الرفق ، وباشروا ظل الامن ، واطمأنت بهم الدار[٣] . ولكنه اتجه الى اقتناء السودان ، وابتاع منهم عددا كبيرا قودهم على أعماله ، فأساء بذلك الى زعماء البربر ، فأخذوا ينحرفون عنه ، ولما أحس منهم ميلا[٤] الى يحيى بن علي ابن أخيه[٥] ، أخذ يكاتب منذر

---

(١) ابن بسام ، ج ١ قسم ١ ص ٨٢ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٢٢ — ابن الخطيب ، ص ١٢٩ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٢٩ .
(٣) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ص ١٢ .
(٤) نفسه ، ص ١٣ — المقري ، ج ٢ ص ٢٩ .
(٥) المقري ، ج ٢ ص ٢٩ .

ابن يحيى في السر يثه شأنهم ويستنهضه لتقويمهم[1] ، كما كاتب العامريين واستمالهم ، وأقطع زهيرا جيان وقلعة رباح وبياسة ، وكاتب خيران واستعطفه ، فلجأ اليه ، واجتمع به[2] . ويبدو أن هذه السياسة الجديدة التي اتبعها القاسم حولت خيران والحزب العامري عن تعضيد الحزب المروالي ، خاصة وأن المرتضى أظهر الجفاء لمنذر بن يحيى وخيران ، فندما على تأييدهما لقضيته[3] ، وأضمرا الكيد له وخذلانه في معركته المقبلة مع البربر المتغلبين في قرطبة وأعمالها[4] . خرج المرتضى على رأس جيش كثيف من الموالي العامرية ، وصحبه في جملة من جاء معه منذر التجيبي وخيران وعدد من فرسان الفرنج ، فعمدوا الى استدراج المرتضى الى غرناطة بحجة أنه لا يمكنه غزو قرطبة قبل أن يقضي على عدو يتربص بهم في غرناطة ويهدد مؤخرتهم[5] ، فاقتنع المرتضى بذلك ، ولم يجد ما يمنع من البدء بزاوي ابن زيري أكبر سند للقاسم بن حمود[6] . فنزل المرتضى بفحص غرناطة وكتب الى أميرها زاوي بن زيري مهددا وطالبه بالدخول في طاعته ، ولكن زاوي لم يعبأ بكثرة جيش المرتضى وقلة جيشه[7] ، وكتب على ظهر رقعة المرتضى : « ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » لم يزده حرفا . فغضب المرتضى وناشبه القتال في نهاية سنة ٤٠٩ هـ ، ولكن أنصاره خذلوه في المعركة ، فانهزم هزيمة شنعاء عند أول لقاء ، على الرغم من كثافة جيشه وانتظام كراديسه ، وتفرق عنه جنده

---

(١) ابن بسام ، ص ١٣ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٣) ابن الاثير ، ص ٢٨٦ .

(٤) يعلل ابن حيان سبب غدر خيران ومنذر بالمرتضى بأنهما طلبا منه ان يخرج مبارك صاحب بلنسية معهم في غزو قرطبة فلم يجبهما المرتضى الى ذلك ، وأقر مبارك على التخلف لجمع الاموال ، فحقد كل من خيران ومنذر عليه ، وتظاهرا على الغدر به (ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٤٠٠) .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٠٠ .

(٦) خالد الصوفي ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ٢٦٩ .

(٧) كان جيش المرتضى في نحو اربعة آلاف فارس بينما كان عدد جند زاوي دون الالف (عبدالله الزيري ، كتاب التبيان ص ٢٢) .

مسلمهم وافرنجهم، وأول من انهزم عنه من عسكره منذر بن يحيى، وخيران الصقلبي ، وسليمان بن هود ، ولما رأى المرتضى هذه الهزيمة فر بنفسه ، فوضع عليه خيران عيونا قبضوا عليه قريبا من وادي آش ، وقتلوه .

وأغلب الظن أن خيران ومنذر غدرا بالمرتضى وأنهما دبرا هذه الهزيمة بالاتفاق مع زاوي بن زيري ، والا فكيف نفسر خذلانهما للمرتضى في المعركة على الرغم من كثافة عسكره ووفرة عددهم ، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن بسام اذ أشار الى أنهما « دسا الى زاوي وأسرا عليه بالغدر بالمرتضى »[1] . ويذكر المقري أن خيران لما اقترب من غرناطة كتب الى ابن زيري الصنهاجي المتغلب على غرناطة ، « وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه الى قرطبة خذل عن نصرته الموالي العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور »[2] . وعلى هذا الاساس لم يعبأ زاوي بكثافة جيش المرتضى ، ورد على كتابه ردا ضمنه من التحدي ما أثار عليه غيظه . وأورد المقري أيضا نصا نقله عن ابن حيان جاء فيه أن زاوي قال لقومه بعد انهزام المرتضى : « ان انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا ، انما جره مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا ، فاني عرفت ذلك من يوم نزولهم »[3] .

وبهزيمة المرتضى ومقتله ركدت ريح المروانية ، وتشردوا في أرض الاندلس ، واستهينوا ، فلم تقم لهم قائمة[4] وقد كانت تلك الواقعة على حد قول الامير عبدالله الزيري : « أول ظفر ثبتوا به في أوطانهم (يقصد غرناطة) وهابهم الناس ، وانقادت لهم الرعايا ، وتوطد ملكهم بغرناطة ، وطاعت لهم أكثر بلاد أعدائهم المهزومين »[5] .

---

(١) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٤٠٠ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٣٠ .
(٣) ابن بسام ، ص ٤٠٢ .
(٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٣١ .
(٥) عبدالله الزيري ، كتاب التبيان ، ص ٢٣ .

ب ــ الصراع بين بني حمود للظفر بالخلافة :

كانت هزيمة المرتضى هزيمــة للمروانية ولاهل الاندلس جميعا ، وانتصارا للبربر وتمكينا لهم في الاندلس، وقد اغتبط القاسم بهذا الانتصار لانه أنقذ عرشه من السقوط ، ولكن ذلك الانتصار يسجل مع ذلك بداية مرحلة ضعفه وتسلط البربر عليه ، فقد انتهز يحيى ابن أخيه هذه الفرصة وأجاز البحر الى مالقة فتغلب عليها، بينما أقام أخوه ادريس بسبتة ، وتمكن يحيى من تكوين جيش ضخم ممن انضم اليه بمالقة ومن أعانه من جيرانه البربر ، وبهذا الجيش زحف يحيى نحــو قرطبة . فلما علم عمه القاسم بقدومه استجار برؤساء البربر ، فقعدوا عن نصرته ، ويرجع سبب خذلانه بقدومه استجار برؤساء البربر ، فقعدوا عن نصرته ، ويرجع سبب خذلان المقري أن يحيى بن حمود كتب من سبتة الى رؤساء البربر بقرطبة : « ان عمي أخذ ميراثي من أبي ، ثم انه قدم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان ، وأنا أطلب ميراثي وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس ، فأجابوه الى ذلك »[١] . ولما أدرك القاسم عجزه عن مواجهة قوات ابن أخيه فر الى عمله باشبيلية وذلك في ٨ ربيع الآخر سنة ٤١٢[٢] وبصحبته خمس فوارس فضبط البربر قصر قرطبة الى أن قدم يحيى ، وبايعه البربر والسودان وأهل المدينة في مستهل جمادي الآخرة وتلقب بالمعتلي بالله . وعلى هذا النحو أصبح في الاندلس خليفتان من بني حمود : أحدهما في قرطبة والثاني في اشبيلية . واستهل المعتلي بالله حكمه بتجنب أخطاء أبيه وعمه ، فجانب العصبية ، وآثر العدل ، ولكنه لم يلبث أن ارتكب ما عابه الناس على عمه ، فقد داخله الغرور والعجب ، واصطنع سفلة الناس وأراذلهم في المناصب الكبرى كالوزارة والكتابة .

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٣١ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١٣ ــ ابن الخطيب ، ص ١٣٢ . ويختلف المقري في تحديد تاريخ رحيله الى اشبيلية فيجعله في ٢٨ ربيع الآخر سنة ٤١٣ (المقري ، ج ٢ ص ٣١) .

ثم أخذ يخضع لرغبات كبار البربر ، فطلبوا منه اسقاط مراتب السودان فبذل لهم ذلك ، فلم يقنعوا منه ، وأصبحوا يعملون عـلى اسقاط هيبته والقضاء على نفوذ ، بل ان عددا مـن الامراء الموالين له تحولوا عنه ، وخطبوا باسم عمه القاسم[1] .

واختلت الامور في قرطبة اختلالا ينذر بالخطر ، وتحرج موقف يحيى في قرطبة بحيث أصبح مهددا بالقبض عليه ، فعزم على الفرار الى مدينة مالقة التي كان قد تغلب عليها عند مجازه الى الاندلس ، فقد بلغه أن أهلها كاتبوا خيران العامري ، وأن خيران يتأهب للاستيلاء عليها ، فرأى يحيى أن يلوذ بها قبل أن تخرج من يديه ، في الوقت الذي تضاءل سلطانه في قرطبة ، وانحسر ظله عنها ، فخرج في ليلة ١٢ من ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ مع بعض خواصه الى مالقة . أما البربر في قرطبة فقد استقدموا القاسم بن حمود فأجلسوه على عرش الخلافة للمرة الثانية ، ولكن قدوم القاسم لم يحل الازمة ، بل على الضد من ذلك تحرج الموقف ، ووقع الاختلاف بين مختلف الاجناس ، وانقسم الناس الى ثلاثة أحزاب : حزب يعضد القاسم ويتألف معظمه من السودان ، وحزب يؤيد يحيى ومعظمهم من البربر ، والحزب الثالث وكان أقوى هذه الاحزاب جميعا ينادي بخليفة من بني أمية ، ويتألف هذا الحزب من أهل قرطبة أي من البلديين[2] . وازداد الخلاف بين هذه الاحزاب ، وتوسعت دائرته اتساعا خطيرا ، وضاق اهل قرطبة بهذا الوضع، فأعلنوا الثورة على القاسم ، وخلعوه بالاجماع ، وأرغموه على الخروج من قصر الخلافة بقرطبة في ٢١ جمادي الآخرة سنة ٤١٤ هـ بعد أن حاصروه في القصر أياما يراوحونه القتال ويغادونه ، فانتقل القاسم الى الربض الغربي من قرطبة ، وعسكر بمن معه من جنود البربر والسودان ، خارج أحـد أبواب السور الغربي[3] ، لعلـه باب العطارين ، وهو الباب المؤدي الـى

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٣٢ .
(٢) نفسـه .
(٣) ابن الخطيب ، ص ١٣٣ ــ المقري ، ج ٢ ص ٣٢ .

مدينة اشبيلية ، اذ كان يزمع قصدها بعد أن يفشل في قهر أهل قرطبة ، أغلق أهل قرطبة أبواب مدينتهم ، فحاصرها القاسم بقواته البربرية نحو شهرين ، فلما طال عليهم الحصار فتحوا بابا من أبواب قرطبة الغربية ، وخرجوا خرجة رجل واحد[1] ، واستماتوا في مقاتلة البربر في موقعة حدثت في المرج[2] ، وكادت الدائرة تدور على أهل قرطبة لولا تمسكهم بالصبر على عدوهم ، « فانصرفت الكرة على البرابرة ، فقتلوا قتلا ذريعا ، وارتحلوا عن قرطبة »[3] ، وذلك في ١٢ من شعبان سنة ٤١٤ هـ ، ففر السودان مع القاسم بن حمود الى اشبيلية ، وفر البربر الى يحيى بن علي بمالقة[4] .

وكان القاسم عندما استدعاه بربر قرطبة بعد فرار يحيى بن علي الى مالقة قد ترك باشبيلية ولديه محمد والحسن على أن يتولى محمد أمر اشبيلية ، ويكون ثقته المدبر لامره محمد بن زيري وقاضيها محمد بن اسماعيل بن عباد . فلما قدم القاسم ومعه جموع هائلة من السودان والبربر كتب الى أهلها في اخلاء الف دار ليسكنها البربر[5] ، فعظم على أهل اشبيلية ذلك ، وعز على ابن عباد ان يتملك خصومهم البربر مدينتهم ، فعمد الى الحيلة لانقاذ اشبيلية من قبضة البربر ، فأطمع ابن زيري بن دوناس في تملك اشبيلية[6] ، ولم يتردد ابن زيري في الوقوف أمام القاسم ما دام يظفر في نهاية الامر بالامامة ، فأغلق الابواب في وجه القاسم ورجاله وحاربه ، فقتل من البرابر والسودان خلق كثير ، واضطر القاسم في النهاية الى أن يطالب أهل اشبيلية بولديه وأصحابه ، فأخرجوهم اليه ، فرحل بمن معه الى قرمونة ، ومنها الى شريش بعد أن يئس في التغلب على اشبيلية . وهكذا

---

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٧ — المقري ، ج ٢ ص ٣٢ .
(٢) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١٧ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) المقري ، ج ٢ ص ٣٢ .
(٥) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٧ — ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٣
(٦) المقري ، ج ٢ ص ٣٢ .

تخلص أهل اشبيلية من القاسم وولديه ، ثم طردوا ابن زيري بعد ذلك[1] وقدموا على أنفسهم ثلاثا من شيوخهم وكبرائهم اضبط مدينتهم وحمايتها من عيث البربر هم : القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمي، ومحمد بن يريم الالهاني[2] ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي[3] .

أما القاسم فقد رحل الى قرمونة ولجأ عند واليها من قبله محمد بن عبدالله البرزالي ، ولكن هذا لم يلبث أن استبد بقرمونة بايعاز من القاضي أبي القاسم ، بعد أن خلع القاسم بن حمود ، فاضطر القاسم الى السير الى شريش[4] ، حيث استقر بها مع من بقي من رجاله ، ولكن يحيى بن علي لم يتركه يهنأ بما بقي له من نفوذ ، فقد زحف اليه ، ونازله بمدينة شريش ، وافتتحها ، وقبض عليه مع بنيه ، وسار بهم الى مالقة حيث أودعهم في حصن من حصونها ، وقضى القاسم في سجنه ثلاث عشرة سنة ثم قتله يحيى خنقا في سنة ٤٢٧ هـ[5] بعد أن بلغه أنــه قــد خاطب حامية الحصن في القيام عليه[6] .

ج ــ السنوات الثمانية الاخيرة للخلافة الاموية :

تخلص أهل قرطبة من الحكم البربري الغاشم بانتصارهم على القاسم ابن حمود في ١٢ شعبان سنة ٤١٤ هـ ، ثم قضوا ثلاثة أسابيع يتباحثون في مصير مدينتهم ، وأحسوا بالبون الشاسع بين عظمة قرطبة في عصر الخلافة الاموية ، واضمحلالها ودثورها على أيام البربر ، فندموا على ما فعلوه ببني

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٦ .
(٢) يسميه ابن خلدون محمد بــن برمخ الالهاني (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٦) .
(٣) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٧ .
(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٦ .
(٥) المقري ، ج ١ ص ٤٠٧ ، ج ٢ ص ٣٣ . وقيل قتلــه سـنة ٤٣١ (ابن الاثير ، ص ٢٨٧) .
(٦) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣٣ .

مروان ، ونادي شيوخهم بجعل قرطبة من جديد مقرا للخلافة الاموية في الاندلس ، وأجمعوا على جبر الدعوة المروانية[1] ، وأخذوا يقلبون الرأي فيمن يصلح للخلافة ، واتفقوا على أن يقدموا لهذا الامر ثلاثا من أمراء بني أمية هم أمثل من بقي في ذلك الوقت مـن البيت الاموي : سليمان ابن عبد الرحمن المرتضى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخي المهدي ، ومحمد بن العراقي ، وقرروا الاجتماع في المسجد الجامع بقرطبة في يوم ٤ من رمضان سنة ٤١٤ لاختيار من يبايعونه بالخلافة من بينهم[2] . ولمع بين هذه الاسماء الثلاثة اسمان هما سليمان بن عبد الرحمن المرتضى وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، فأما سليمان فكان محبوبا عند الخاصة ، وكان شيوخ قرطبة وعلى رأسهم الكاتب أحمد بن برد يؤثرونه على الاميرين الآخرين ، لانه ابن الخليفة عبد الرحمن المرتضى الذي قتل غدرا نتيجة لخيانة خيران العامري ومنذر التجيبي ، فأعدوا رق البيعة وقد سجل عليه اسمه ، ولذلك كان سليمان لا يشك في الظفر بالخلافة . أما عبد الرحمن بن هشام ، فقد كان في جملة مـن دخل قرطبة مستخفيا في عهد القاسم بن حمود وعاصر الفتنة القائمة بين أهل قرطبة والبربر ، وكان له نصيب كبير فيها ، اذ بث دعاته الى أهل قرطبة ، ولكن شيوخ قرطبة المدبرين لامرها أنكروا أمره ، وطاردوه ، وشتتوا دعاته ، وقبضوا على الكثير منهم ، فاضطر الى الاستخفاء من جديد ، على أن ذلك لم يعقه قط عن الدعوة لنفسه ، ولذلك « أعلنوه بالشورى عنـد ايقاعها في ذلك الوقت لظهور

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٣٤ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٥ . ويذكر ابن الخطيب ان هذا الاجتماع عقد في ١٦ من رمضان (أعمال الاعلام ص ١٣٤) ، ويجعله المقري في النصف مـن رمضان (نفح الطيب ، ص ٣٢) ، بينما يجعله ابن الاثير في ١٣ من رمضان (الكامل في التاريخ ، ج ٧ ص ٢٨٧) . ونعتقد أن التاريخ الذي أورده ابن حيان أولى بالثقة لأن ابن حيان عاصر تلك الاحداث .

براعته ، وأجمعوا عليـه وعـلى سليمان بن المرتضى وعـلى محمد بن العراقي »[1] .

وفي اليوم الموعود اجتمع الخاصة والجند والعامة على اختلاف طبقاتهم بالمسجد الجامع بقرطبة ، لشهود بيعة من يقع الاختيار عليه من بين هؤلاء الامراء الثلاثة خليفة بقرطبة ، وتقرر أن يتم الانتخاب في مقصورة الجامع . وكان سليمان أول من دخل من المرشحين للخلافة ، وكان دخوله من باب الوزراء الغربي المقابل للقصر[2] ، وأقبل سليمان وهو لا يشك في الظفر بالخلافة ، « في أبهة وشارة دلت على المراد فيه »[3] ، فاستقبله أصحابه وأنصاره وقعموه الى بهو الساباط[4] ، فأجلس هنالك على مرتبة لا تليق الا بالخلفاء ، فأيقن بتمام الامر له دون منازع ، وكان من بين الحاضرين في ذلك اليوم المؤرخ الاندلسي الكبير ابن حيان ، ويروي لنا ابن حيان مـا شاهده في تلك اللحظة فيقول : « فبينما نحن على ذلك ، والقلق على القوم باد ، اذ غشيتنا ضجة وزعقة هائلـة ، ارتج لها الجامع واضطرب لها من بالمقصورة ، فاذا عبد الرحمن بن هشام قد وافى شرقي الجامع في خلق عظيم من الجند والعامة ،وقد تكنفه أميرا الدائرة محمود وعمير[5] في رجالهما شاهرين سيفيهما أمامه ، لهجين باسمه ، فراع الوزراء ذلك ، وألقوا للوقت بأيديهم ، وخذلتهم حيلهم ، ودخل المقصورة عبد الرحمن فبويع لوقته »[6]

---

(١) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٥ .

(٢) هـو الباب المعروف بباب الامير محمد او بوابة سان استيبان في الوقت الحاضر (راجع : Torres Balbas, La Portada de San Esteban, al-Andalus, Vol. XII, P. 127 ــ تاريخ المسلمين في الاندلس ص ٣٨٨) .

(٣) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٥ .

(٤) وبهو الساباط هو المشرع المؤدي الى الساباط الذي يصل بـين المسجد والقصر (السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الاندلس ، ص ٣٧ ــ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٩٥) .

(٥) ورد ذكرهما في أعمال الاعلام لابن الخطيب محمود وعنبر .

(٦) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٥ .

ثم أزيل اسم سليمان بن عبد الرحمن المرتضى من الرق وسجل مكانه اسم عبد الرحمن[1] المستظهر بالله ، وجيء بسليمان بن المرتضى ومحمد بن العراقي ، فقبلا يد عبد الرحمن المستظهر بالله ، وبايعاه بالخلافة ، وما ان استكملت مراسيم عقد البيعة حتى أمر الخليفة الجديد بوضعهما في المطبق وهو سجن قرطبة المشهور ، تجنبا لما قد يثيرانه من قلاقل لو تركهما طلقاء . وعلى الرغم من شجاعة المستظهر وقوة بأسه ، فقد كانت تنقصه الحنكة السياسية وحسن التصرف ، في وقت كانت النفوس فيه تغلي بالسخط على المروانية وفي ظروف حرجة ، بلغ فيها التوتر السياسي في قرطبة ذروته ، وازدادت حساسية الناس ونزوعهم الى الثورة والانتزاء ، فقد أساء الى أهل بيته من أعقاب عبد الرحمن الناصر ، فسجن سليمان بن المرتضى ، وابن العراقي المنافسين له في الخلافة ، وتجاوزهما الى نفر غيرهما[2] ، ورفع جماعة من الاتباع الاغمار الى مشيخة الوزراء ، وقدمهم على سائر رجاله، فأحقد بذلك التصرف الارعن أهل السياسة بقرطبة . ثم انه أقر مراتب للخدمة ووظائف لا تعدو أن تكون على حد قول ابن بسام : « زخرفا من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتبا نصبت بغير طائل »[3] ، وليس من المعقول أن يقوم خليفة في فقر المستظهر ، لا مورد مالي له الا ما يصيبه من نهب أو مستغل أو ضريبة ظالمة يفرضها على رعيته ، بالانفاق على مثل هذه المراتب والخدمات ، ولذلك عجل هذا التصرف بالثورة عليه . ويذكر بعض المؤرخين أنه قبض على جماعة من الوزراء القدامى والشيوخ والاعيان بقرطبة ، فسجنهم بالمطبق لميلهم الى سليمان بن المرتضى ، فسموا عليه من السجن ، وألبوا الناس للثورة عليه ، فاستجاب الناس لهم ، وكسروا المطبق ، وأعلنوا ثورتهم على القصر[4] . ويذكر ابن حيان سببا

---

(١) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٣٦ — ابن الخطيب ، ص ١٣٤ . واشار ابن الخطيب انه تلقب بالظافر بالله .

(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٧ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٧ — ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٣٤

آخر غير هـذه الاسباب السابقة لعلـه كان الدافع المباشر للثورة على المستظهر ، وذلك أنه أفرج عن ابن عمران أحد جماعة من الاشرار كان قد سجنهم بقرطبة ، فنصحه بعض أتباعه بعدم الافراج عنه لان في ذلك تعجيل بالقضاء عليه ، ولكنه لم يقبل النصيحة ، وكان قد ورد عليه قبل اطلاقه بيومين « فوارس من البربر ، فكرم مثواهم ، وأنزلهم معه في دار الملك ، فاهتاج لذلك الدائرة ، وقالوا للعامة : نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة ، وهذا الرجل يسعى في ردهم الينا وتمكينهم من نواصينا »[1] ، فهاج العامة ، وصاحوا : « عاد شر البرابر جدعا »[2] . وانطلق العامـة في موجات عاتية نحـو القصر فهاجموه وقتلوا البربر ، وتسلقوا مجلس الخلافة ، « ولم يشعر عبد الرحمن الا والرجالة قـد استشروا على سقف القصر ، وسمع المسجونون عنده هتـاف الناس ، فاستغاثوهم ، فدقـوا الاغلاق دونهـم ، واختلط بالحرم »[3] . وأدرك المستظهر نهاية أمره ، فقد أحاط به الثوار مـن كل مكان ، فاستغاث بالوزراء ، فانصرفوا عنه ، وتخلى عنه أخص أصحابه وأتباعه ، فاستخفى في أتون حمام القصر ، وفي هذه الاثناء بايع القوم ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن الناصر ، أحد المشتركين في الثورة عليه في ٣ من ذي القعدة سنة ٤١٤ ، وذلك في المجلس القبلي من مجالس القصر ، ولقبوه بالمستكفي بالله . وفي هذا اليوم عثر العامة على المستظهر ، فجاءوا به الى المستكفي ، وقتلوه أمامه .

لم يكن المستكفي جديرا بالخلافة ، اذ كان على نقيض المستظهر سيء الخلق عاهرا ، عاطلا مـن الخصال والفضائل ، معروفا بالتخلف والركاكة[4] . ويذكر ابن بسام أن الله أرسله علـى أهل قرطبة محنـة

---

(١) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٣٨ .
(٢) ابن الخطيب ، ص ١٣٥ .
(٣) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٣٨ .
(٤) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٨ ـ ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .

وبلية[1] ، وكان الغدر من صفاته ، فهو الذي سعى على ابن عمه المستظهر ، وتهلل وجهه بقتله ، وهو الذي عاجل ابن عمه ابن العراقي بالقتل خنقا[2] ، وهو الذي سجن ابن حزم ، وابن عمه أبا المغيرة[3] ، واستؤصلت في عهده قصور عبد الرحمن الناصر بالهدم[4] والخراب ، وطمست أعـلام قصر الزهراء ، واقتلع نحاس الابواب ورصاص القنى ، وغير ذلك من الآلات[5] وفي أيامه عاد خطر البربر يهدد قرطبة من جديد ، فقد عزم يحيى بن علي ابن حمود على الاستيلاء على قرطبة ، وزحف لهـذا الغرض من مالقة ، ولكن المستكفي جبن عن لقاء البربر ففر من قرطبة في ٢٥ من ربيع الاول سنـة ٤١٦ ، فقتله بعض رجاله في بلـدة أقليج (أو أقليش) بالثغر[6] . ثم تمكن يحيى بن علي من استرجاع قرطبة ، ودخل القصر في ١٤ من رمضان سنة ٤١٦ هـ ، وأقام بها مـا يقرب من أربعة أشهر ، ثم عاد الى مالقة حاضرته في ٨ من المحرم بعد أن ترك في قرطبة وزيريه أبا جعفر أحمد ابن موسى ، ودوناس بن أبي روح[7] ، ولكن بعض المؤرخين يذكرون أن جماعة من أهل قرطبة خاطبوا يحيى بن علي بالخلافة ، فوافقهم ، وأرسل اليهم نائبا عنه لولاية قرطبة يدعى عبد الرحمن بن عطاف اليفرني ولـم يحضر هو باختياره[8] ، وانتهز حبوس بـن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة فرصة غياب يحيى بن علي عن قرطبة ، وحرض مجاهد وخيران

---

(١) ابن بسام ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٣٨٠ — ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .

(٣) ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥ .

(٤) ابـن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٨٠ ــ ابـن عذارى ، ج ٢ ص ١٤٢ ــ ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥ ــ ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .

(٥) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٨٢ .

(٦) نفسه ــ ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٤٢ ــ ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .

(٧) ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .

(٨) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٨ ــ عبـد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، نشره الاستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٥٢ ــ المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٠٨ .

العامريين على دخول قرطبة ، فقدمت جيوش خيران ومجاهد بالفعل الى قرطبة ، وكان أهل المدينة يبغضون البربر ويمقتونهم ، فلما علموا بقدوم جيوش شرق الاندلس وجدوا في ذلك فرصتهم المواتية للتخلص من الحكم البربري البغيض الذي ورطهم فيه بعض المفسدين منهم ، فوثب أهل قرطبة على من كان في مدينتهم من جنود البربر في ٢٠ من ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ ، فقتلوا منهم ما يقرب من ألف رجل ، ودخلت قوات خيران ومجاهد المدينة .

أقام خيران ومجاهد في قرطبة ما يقرب من شهر ، ثم دب بينهما الخلاف ، وبدأ كل منهما يشك في نية صاحبه نحوه ، فبادر خيران بالانسحاب من قرطبة ، وعاد الى المرية في أواخر ربيع الآخر سنة ٤١٧ هـ أما مجاهد ، فآثر أن يبقى بقرطبة بعض الوقت ، ولم يلبث أن قفل بدوره عائدا الى دانية مقر مملكته[1] .

★ ★ ★

ومضى عام كامل منذ أن تخلص أهل قرطبة للمرة الثانية من حكم الحموديين ، وفي خلال هذا العام قنعوا بحكم جمهوري مؤقت ، تركزت السلطات في مجلس من رؤساء المدينة ، اتفق أهل قرطبة على اختيارهم ، عرفوا باسم « الجماعة » ، وكان يترأس هذا المجلس « عميد الجماعة » ، وكبير قرطبة أبو محمد جهور بن محمد بن جهور[2] ، ويتولى هذا المجلس تصريف أمور المدينة وضبطها مؤقتا حتى يتم الاتفاق على اعادة رسوم الخلافة الاموية . ثم عقدت الجماعة اجتماعا للنظر فيمن يبايعونه من بقايا البيت الاموي ، وتم الاتفاق في ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٤١٨ على مبايعة أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وكان أخا

---

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٨ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤٥ — ابن الخطيب ، ص ١٣٧ .
(٢) المقري ، ج ١ ص ٤١٢ .

للمرتضى الذي غدر به العامريون في غرناطة وقتلوه في وادي آش قبل ذلك بتسع سنوات . وكان هشام هذا قد استقر بعد مصرع أخيه المرتضى عند عبدالله بن قاسم الفهري صاحب حصن البنت ، فبويع غيابيا ولقب بالمعتد بالله ، وظل أهل قرطبة يخطبون له بالخلافة وهو غائب عن قرطبة اما قائم في موضعه بالبنت أو متنقل في الثغور[1] زهاء سنتين وسبعة أشهر . وحدث أن وقعت بين الرؤساء المتغلبين فتن كثيرة في الاندلس ، فاضطر أهل قرطبة الى استدعائه[2] ، فدخل قرطبة في ٨ ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ غير أنه لم يقم بها الا عامين ، ثم خلعه وزراء قرطبة وشيوخها في ١٢ من ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، وكان سبب خلعه أن أحد وزرائه واسمه حكم بن سعيد ويدعى بالقزاز[3] أساء معاملة الوزراء ؛ واستبد بأهل المدينة ، بينما كان يكرم البربر ويحسن اليهم ، فثار أهل قرطبة على حكم وقتلوه ، واستغل أمية بن عبد الرحمن العراقي بن هشام بن سليمان بن الناصر فرصة الشغب والهيج الذي أدى الى مقتل القزاز وأثار العامة على ابن عمه المعتد ، طمعا في أن يتولى الخلافة من بعده حتى ولو دفع هو أعني أمية في ذلك حياته ثمنا لهذا المنصب[4] ، ونجح أمية في تنفيذ خطته ، فقد كان عوام قرطبة معروفين بجرأتهم على الوثوب ، وشذوذهم عن ضبط السياسة[5] ، فلم يكد أمية يحرضهم على اسقاط ابن عمه حتى استجابوا سريعا لتحريضه ، واحتشدوا حول القصر وحاصروه ، وكان

(١) ابن الاثير ، ص ٢٩٠ — ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥ — المراكشي ، ص ٥٨ — ابن الخطيب ، ص ١٣٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩٠ — المراكشي ، ص ٥٨ .

(٣) ابن الاثير ، ص ٢٩٠ — ابن الخطيب ، ص ١٣٨ . ويسميه ابن حيان بابن الحائك (ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٤) .

(٤) نصحه جماعة من اهل قرطبة بعدم التطلع الى الخلافة في تلك الآونة لما يتهدده من خطر التعرض للقتل ، فأجابهم بقوله : « بايعوني اليوم واقتلوني غدا » (ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٠ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٥٠) .

(٥) ابن الخطيب ، ص ١٣٨ .

المعتد أثناء ذلك غافلا بين نسائه ، فلما بلغه الخبر تحصن في العلية[1] ، وهي غرفة عليا بالقصر . أما أمية ، فقد أيقن بتمام الامر له ، فتبوأ مجلس هشام ، ووزع أوامره على النهابة من أتباعه بالقبض على هشام المعتد بالله . وفي تلك الاثناء اجتمع وزراء قرطبة وشيوخها ، واتفقوا برئاسة عميد الجماعة الشيخ أبي الحزم جهور على خلع هشام المعتد ، و « محو رسم الخلافة لعدم الصلوح من أهل بيتها ، وسوء الجوار وفناء الاموال التي يرزق منها من يقهر به السلطان كواف الناس »[2] ، كما اتفقوا بعد الغاء الخلافة على اسناد الامور بالحضرة الى شيخ الجماعة أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وكان معروفا عندهم بكفايته لتقلد السلطة والاضطلاع بالحكم ، ولكنه أبدى زهده عن قبول هذا المنصب ، فما زالوا به حتى قبله بشرط أن يؤازره في الحكم زميلان لـه في مجلس الجماعة هما محمود بن عباس ، وعبد العزيز بـن حسن من آل بيته[3] ، وقرر مجلس الجماعة أيضا نفي المروانية واجلائهم من قرطبة . وعلى أثر ذلك القرار أخرج هشام المعتد بالله وولده ونسائه من العلية ، وأنزل في ساباط الجامع المفضي الى المقصورة حيث قضى يوما وليلة أسيرا خائفا ، يترقب الموت ، الى أن صدر أمر الوزراء بنفيه الى حصن ابن الشرف[4] ، وأعلن في الاسواق والارباض قرار الوزراء بنفي جميع أمراء بني أمية من قرطبة . أما هشام المعتد فقد التجأ عند سليمان بن هود المتغلب على الثغر الاعلى[5] ، فأقام في كنفه بسرقسطة حتى وفاته في صفر سنة ٤٢٨ هـ .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفسه ، ص ١٤٧ .

(٣) دوزي ، ملـوك الطوائف ، ترجمة كامل كيلاني ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٠ .

(٤) ابن الخطيب ، ص ١٣٩ . ويذكر ابن الاثير انه حصن محمد بـن الشق بجبل قرطبة (ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٠) .

(٥) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٠ .

(٣)

دثور قرطبة

تعرضت قرطبة منذ اشتعال نار الفتنة في ١٦ جمادي الآخرة سنة ٣٩٩ الى سقوط الخلافة الاموية في ١٢ ذي الحجة سنة ٤٢٢ لنقمة الثائرين من سفال أهلها ومن البربر الذين انقلبوا على أهلها ، فاستباحوا دماءهم، وعاثوا فسادا في جنباتها الى أن شمل الخراب والدمار معظم عمائرها على أيام سليمان المستعين بعد انتصاره على المهدي في موقعة وادي آره . وقد مر تخريب قرطبة بعدة مراحل :

المرحلة الاولى : عند بداية الفتنة في سنة ٣٩٩ هـ ، ويسجل تدمير مدينة الزاهرة .

المرحلة الثانية : بعد انتهاب محلات البربر

المرحلة الثالثة : عند اقتحام البربر لمدينة الزهراء في سنة ٤٠١ هـ وتخريبهم لعمائرها .

المرحلة الرابعة : عند دخول المستعين في قرطبة للمرة الثانية في سنة ٤٠٣ هـ

المرحلة الخامسة : بعد الفتنة .

١ ــ المرحلة الاولى :

استغل المروانية فرصة غياب عبد الرحمن شنجول بن المنصور بن أبي عامر أثناء غزوته في جليقية ، واعلنوا الثورة في ١٦ جمادي الآخرة سنة ٣٩٩، وتمكن محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي من الوثوب، يؤيده أقاربه من بني مروان وأنصاره من العامة والغوغاء وسفلة القوم ممن وجدوا في تلك الفتنة فرصة مواتية للسلب والنهب . وانطلق الثوار من

العامة ، ومن انضم اليهم من أرباب الجرائم واللصوص ، من سجن العامة المعروف بالعامرية الى قصر الخلافة بقرطبة . ولم يكد هشام المؤيد يعلم بذلك حتى أمر باغلاق أبواب القصر ، وارتقى الى السطح ، محاولا تهدئة خواطر الثوار ، الا أنـهم هتفوا بسقوطه ، فتوارى في داخـل القصر الخلافي[1] . ولما كان من العسير اقتحام القصر بعد أن أغلقت أبوابه ، فقد كان لا بد من ثغرة في جدرانه ينفذ منها الثوار الى داخله ، ولذلك أمر محمد بن هشام أصحابه « بنقب القصر والدق لابوابه »[2] ، فشرع في ذلك ، وجلبت السلالم الخشبية تمهيدا لتسلق أسوار القصر . ولم يجد الخليفة هشام المؤيد بدا من التسليم بالامر الواقع عندما اتضح له عجز فرقة الزاهرة عن نصرته ، فاستدعى محمدا بن عبد الجبار ، وتنازل له عن الخلافة .

وفي ذلك الاثناء انصب غضب العامة عـلى العامريين وعلى مدينة الزاهرة التي أسسها المنصور بن أبي عامر في سنة ٣٦٨ وانتقل اليها ونزلها في سنة ٣٧٠ هـ ، فقصدتها عشية ذلك اليوم حشود هائلة مـن أخلاط الناس بأمر من محمد بن عبد الجبار ، لأنها حصن العامرية المنيع ومعقلها الاعظم ، وحاول الثوار اقتحام المدينة ، ولكن رجال حاميتها ردوهم عن أسوارها . وفي صباح اليوم التالي أرسل ابن عبد الجبار ابن عمه مع فرقة من رجاله لمخاطبة أهل الزاهرة في الاستسلام ، وانضم اليه من العامة النهابة حشود لا حصر لها ولا عد ، تدفقت على المدينة كالسيل الجارف ؛ واجتاحوا سورها ، فنقبوا فيه ثغرات مـن جانب بـاب السباع وباب الجنان[3] ، وانتشروا في قصورها ينهبون ما يقع بأيديهم في قاعاتها مـن مال وتحف وروائع وعدة وسلاح وذخائر ، « وتقسمت الايدي كل مـ

(١) ابن الخطيب ، ص ١١٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ;anchez-Albornoz, Historia de la Espana musulmana, :uenos Aires, 1946, t. I, 379.

اشتملت عليه من مخزون وآلة ومتاع وعدد سلطانية ، وفرش وآنية ، حتى اقتلعت الابواب الوثيقة والخشب الضخمة »[1] . ثم أمر ابن عبد الجبار بنقل ما بقى بعد النهب من أموال وذخائر الزاهرة ، وأصدر أمره بعد ذلك « بهدمها ، وحط أسوارها ، وقلع أبوابها ، وتشعيث قصورها ، وطمس آثارها ، وتعجيل ذلك توقعا لتدارك عبد الرحمن بن أبي عامر ومن لديه من الجيوش أمره ، وسوغ الناس انقاضها ، فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا يبلغه الدهور المتعاقبة ، فأصبحت بلقعا كأن لم تغن بالامس »[2] . ويذكر المقري عن المطمح : « وخربت الزاهرة ومضت كأمس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح ، وتلاشى أمرها ، فلم يرج لفسادها صلاح ، وصارت قاعا صفصفا وأبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفاء »[3] . ولقد توزع أهل قرطبة خاصة والاندلس عامة أسلاب الزاهرة ، فلم تبق دار في الاندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وقيل أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية[4] .

لقد كانت الزاهرة على حد قول الاستاذ ليفي بروفنسال أكثر المنشآت الخلافية زوالا ، اذ لم يكن قد مضى على بنائها أكثر من ثلاثين عاما ، وكان زوالها شاملا لدرجة أنه لم يترك صدى في التقاليد المحلية ودعا بالتالي الى توليد الشكوك والمتناقضات حول موضعها الافتراضي[5]

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ١٢٢ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, Paris 1932, PP. 330-331.

Garcia Gomez, Ruina de Cordoba omeya, al-Andalus, Vol. XII, 1947, P. 278.

ب ـ المرحلة الثانية :

تبع تخريب الزاهرة قيام طائفة من أهل قرطبة على البربر ، فهاجموا دور البربر بالرصافة ، وهي دور بني ماكسن بن زيري ، وزاوي بن زيري، وانتهبتها[1] ، وقد كان هذا العمل الاجرامي سببا في انحراف البربر عن المهدي وكراهيتهم له خاصة بعد أن أسقط منهم نحو سبعة آلاف ، وقد حملهم هذا التصرف الاهوج الى الانضمام الى الحزب المعارض للمهدي ويرأسه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، ويضم صنائع ابن ابي عامر مـن الفتيـان العامرية والبلديين . وحاول هشام بن سليمان قلب حكومة المهدي ولكنه انهزم هزيمة نكراء ، وقبض عليه المهدي وقتله ، وتحول غضب المهدي الى البربر الذين آزروا هشام بن سليمان ، فأمر العامة بتقتيلهم أينما وجدوا ، فتسارع عامة أهل قرطبة بالوثوب على البربر وقاموا بمذابح بشعة قتلوا فيها عددا كبيرا من البربر ، ونهبوا دورهم ، ففر معظم بربر قرطبة الى أرملاط خارجها ، واتجهوا الى الثغر ، وبايعوا أحد أمراء بني أمية الموتورين من المهدي واسمه سليمان بن الحكم بن سليمان ، فتسمى بالمستعين بالله وذلك في شعبان سنة ٣٩٩ .

وكان مـن الطبيعي أن تتأثر منازل البربر بحومة بلاط مغيث من الارباض الغربية فيستولي عليها الخراب بعد خروج أهلها منها ، وقد أشار ابن حيان الى ذلك في قوله : « وممن رثى قرطبة أيضا من وجوه أهلها وأرباب النعم المؤثلة بها ، وأكثر التفجع على دياره منها لما استولى الخراب عليها عند فرار البرابر عنها ، الفقيه الاديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، ابن وزير آل عامر الاكبر ، فاني وجدت بخطه في خبر ذكره قال : وقفت على اطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الارباض الغربية ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد امحت رسومها ، وطمست اعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، فصارت

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١١٢ .

صحاري مجدبة بعـد العمران ، وفيافي موحشة بعـد الانس ، وآكاما مشوهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعـد الامن ، ومآوي للذئاب ، وملاعب للجان، ومغاني للغيلان ، ومكامن للوحوش ، ومخابيء للصوص، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث ، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية ، وتغص منهم بكثرة القطين الحاشية ، وتكنس في مقاصيرهم ظباء الانس الفاتنة ، تحت زبرج من غضارة الدنيا ، تذكر نعيم الآخرة ، حال الدهر عليهم بعد طول النضرة ، فبدد شملهم ، حتى ساروا في البلاد أيادي سـبا ، تنطق عنهم الموعظة ، فكأن تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المرشقة التي كانت في تلك الديار كبروق السماء اشراقا وبهجة ، يقيد حسنها الابصار ، ويجلي منظرها الهموم ؛ كأن لـم تغـن بالامس ، ولا حلتها سادة الانس ، قد عبث بها الخراب ، وعمها الهدم ، فأصبحت أوحش مـن أفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير اليه كل ما قد بقي ماثلا فيها ، وتزهدك فيها ... »[1] .

وفي هذه المرحلة أمر واضح الفتي عندما حاصره البربر بهدم مدينة الرصافة واحراقها خوفا من أن يتمكن البربر من الدخول الى قرطبة من هذه الناحية . وفي أثناء هذا الحصار احتاج الخليفة هشام المؤيد للمال ، فاضطر الى بيع ما في قصره من تحف ومتاع ، فأخرج ما في قصره من حلي ثمينة وذخائر وأواني فضية وذهبية وأثواب وأمتعة وكتب ، حتى الادوية الطبية والعقاقير المجلوبة[2] . وهكذا فرط الخليفة في تحف القصر وفي مكتبة الخلافة المشهورة ، وقـد أشار المقري أيضا الـى بيع أكثر هذه

---

(١) راجع النص في : Lévi-Provençal, En relisant le collier de Colombe, al-Andalus, Vol. XV, 1950, Appendice I, P. 361
ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠٢ — Garcia Gomez, Algunas precisiones sobre la ruina de la Cordoba omeya, al-Andalus, Vol. XII, 1947, PP. 280, 281.

الكتب ، فقال نقلا عن ابن خلدون : « ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وأمر باخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر ، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم ديارها عنوة »[1] .

ج ـ المرحلة الثالثة :

كانت أيام سليمان المستعين على حد قول ابن حيان « شدادا نكدات، صعابا مشؤومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ؛ لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الامن ، وحلول المخافة »[2] . ففي ٢٣ ربيع الاول سنة ٤٠١ هـ دخل البربر بقيادة المستعين مدينة الزهراء وفتكوا بحراسها ، وملكوا المدينة ، وقتلوا أكثر من كان يتولى الدفاع عنها من الجند ، كما ذبحوا من التجأ من أهل الزهراء الى مسجدها الجامع رجالا ونساء وصبيانا ، وأضرموا النار في الجامع والقصر والديار ، فاحترق أكثر ذلك، ونهبت الاموال[3] .

وفي ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ اقتحم البربر أرباض قرطبة عنوة بعد حصار دام شهرا ونصف الشهر ، وأعملوا السيوف في رقاب أهل المدينة ، ونثروا الدمار والخراب أينما حلوا بساحاتها ، وهكذا اقترن دخولهم قرطبة بالقهر والفتك واستباحة الدماء ، « فأفرط في ذلك ارهابا للناس بذكره ، وتخويفا لهم من مثله ، فكان أجلب لنفار القلوب وقرف الندوب ، وبعد الشرود ، ونبش الحقود ، لما وتر جميعهم بالحادثة في قرطبتهم »[4] ، فقتلوا

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٦٢ .
(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٢٥ .
(٣) ابن الاثير ، ص ٢٤٩ .
(٤) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٢٥ .

ما شاء لهم أن يقتلوا من أهل قرطبة ، ونهبوا من قصور المدينة ما استطاعت أيديهم أن تصل اليه . ويصف ابن الخطيب الفظائع التي ارتكبها البربر عند دخولهم قرطبة فيقول : « فكان الامر في هول يومها يجل عن الوصف ويشذ عن العبارة من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب »[1] .

وتتابعت على قرطبة منذ ذلك الحين النوائب والفتن ، واعتورتها المصائب والمحن ، وطحنتها النكبات ، فمحيت رسوم قراها ، ودثرت معالمها البارزة ، وتبدلت آثار عماراتها ، وقد كتب بعض شعرائها فيها فقال :

بـك على قرطبة الزين ... فقد دهمتها نظرة العين[2]

ورثاها الوزير الشاعر أبو عامر بن شهيد فقال :

ما في الطلول من الاحبة مخبر ... فمن الذي عن حالها نستخبر
لا تسألن سوى الفراق فانه ... ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا ... في كل ناحية وباد الاكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم ... وعليهم فتغيرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم ... نورا تكاد له القلوب تنور
فلمثل قرطبة يقل بكاء من ... يبكي بعين دمعها متفجر
دار ، أقال الله عثرة أهلها ... فتبربروا وتغربوا وتمصروا
في كل ناحية فريق منهم ... متفطر لفراقها متحير[3]

ورثاها ابن حزم بقوله :

سلام على دار رحلنا وغودرت ... خلاء من الاهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تغن بالامس بلقعا ... ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا

---

(1) ابن الخطيب ، ص ١١٨ .
(2) ابن غالب الاندلسي ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، نشرها الدكتور لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٨٣ .
(3) راجع بقية القصيدة في : ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

فيا دار لـم يقفرك منا اختيارنا ولو أننا نسطيع كنت لنـا قبرا
ولكن أقدارا مـن الله أنفذت تدمرنا طوعا لمـا حل أو قهرا
ويا خير دار قـد تركت حميدة . سقتك الغوادي ما أجل ومأسرا[1]

د ـ المرحلة الرابعة :

استؤصلت قصور عبد الرحمن الناصر في أيام المستكفي بالله بالهدم والتخريب[2] ، وطمست أعـلام قصر الزهراء ، واقتلع نحاس الابواب ، ورصاص القنى وغير ذلك من الآلات[3] . وفي أيام المعتد بالله أرغم الحكم ابـن سعيد القزاز كبار التجار في قرطبة علـى شراء الرصاص والحديد المجلوب من القصور الاموية المتخربة[4] ، غير أن الهدم لم يشـمل هـذه القصور الا في عهد أبي الوليد محمد بن جهور ، فقد عهد ابن السقاء ، مدبر دولة بني جهور بقرطبة ، الى ابن باشة المعروف بالاصفر بجمع أدوات البناء من أطلال هذه القصور ، وفي ذلك يقول ابن حيان : « وانكدر باثر وفاته ابن باشة المعروف بالاصفر هدام القصور ومبور المعمور ، وكان من التبجج في اللؤم والاتحاف للشؤم ، مع دناءة الاصل والفرع ، وتنكب السداد وتقيل الفساد على ثبج عظيم ، بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيعة ، قدمه ابـن السقاء مدبر قرطبة لجمع ما تهدم من القصور المعطلة ، فاغتدى عليها أعظم آفة ، يبيع أشياء جليلة القدر ، رفيعة القيمة في طريق الامانة ، ولم يك مأمونا على باقة بقل ، فعاث فيها عياث النار في يبيس العرفج ، وباع آلاتها مـن رفيع المرمر ،

---

(1) ابن الخطيب ، ص ١٠٨ .
(2) ابـن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ٣٨٠ ـ ابـن عذارى ، ج ٣ ص ١٤٢ ـ ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥ ـ ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .
(3) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ٣٨٢ .
(4) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, éd. Lévi-Provençal, t. II, P. 340.
Garcia Gomez, la ruina de la Cordoba omeya, P. 282.

ومثمن العمـد ، ونضار الخشب ، وخـالص النحاس ، وصافي الحديـد والرصاص ، بيع الادبار ، ولم يزل ينفق مـا غل بمرأى وسمع في أبواب الباطل ، حملت عنه في التبذير نوادر تشهد بأن الدار ليست بدار مثوبة ولا جزاء ، وكانت رسل الاملاك تأتيه لشراء تلك الآلات بأغلى الاثمان ، فيبذلها هو في أنواع الضلالات ، وأغيظ من ذلك لأولي الالباب تسليطه على هدم قصور بني أمية المبتناة علـى أساس العلا المسخر فيها أصناف الورى ، المكتملة الاستواء في حقب من السنين تترى ، حتى اغتدت بجزيرة الاندلس كإرم ذات العماد ، لا يخشى على أركانها انهدام . فلما أذن الله تعالى بحط أعلامها وطمس آثارها ، أتاح لها هذا الانيسيان الضعيف، القوي ، القصير المدى . كالتاحة الجرذ المهين لسد مأرب ذي الانباء البديعة ، فدكدكها حتى عادت كوم رماد ، ومصائد صباب ، ولـم يقلع عنها حتى أوقع النار على صخورها ، وصيرها كلما لكل مرتاد ، فيا لها موعظة لمن بقي على الارض ممن لحق هذه البقعة السعيدة بدولة أملاكها ، فتبارك منزل الآيات ومصرف الدولات ومعدل البقعات[1] .

وأغلب الظن أن المقصود بالقصور « المكتملة الاستواء في حقب من السنين تترى » مجموعة قصر الخلافة القديم بقرطبة[2] ، والمقصود بقصور « بني أمية الرفيعة » قصور الزهراء ، التي أصبحت وفقا لهذا النص محاجر يستخرج منها الرخام والمرمر والحجر ، ثم يعاد استخدامه في مباني قرطبة وغيرها من مدن الاندلس ، وهذا يفسر قلة ما كشف عنه البحث الاثري من السواري الرخام في موقع الزهراء ، في الوقت الذي عثر فيه على رؤوس أعمـدة وسواري صغيرة بأعلى مئذنة جامـع الموحدين باشبيلية أعيـد

---

(١) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١١ .

(٢) مما يدل على أن قصر الخلافة تخرب في أيام الفتنة ان عبد الملك ابن جهور الذي تلقب بالقاب الخلافة اقام في داره ، كما أن الامير سراج الدولة عباد بـن المعتمد اقام اثناء ولايته لقرطبة نائبا عـن أبيه في دار ابـن جهور (ابن الخطيب ، ص ١٥٨) .

استخدامها من أطلال الزهراء[1] . وقد وصف الوزير أبو الحزم بن جهور قصور الامويين وقد تخربت فقال :

قلت يوما لدار قوم تفانوا	أيـن سكانك العزاز علينا
فأجابت هنـا أقاموا قليلا	ثم ساروا ولست أعلم أينا[2]

هـ ـ المرحلة الخامسة :

وفي عصر الطوائف كانت مدينة قرطبة قد انكمشت رقعتها بنقص عدد سكانها أيام الفتنة ، وتخريب معظم ديارها ومنشآتها ، وأصبحت قصورها أطلالا دارسة يبكيها الشعراء ويندب عليهـا وينوح الادباء ، فالسميسر الشاعر يقف بالزهراء مستعبرا يبكي آثارها[3] ، وأبو بكر محمد بن أحمد ابن جعفر يتحسر على قصر جده المعروف بالمصحفية[4] ، ووزراء المعتمد بن عباد وكتابه يجوسون بين أطلال الزهراء ، ويتنقلون بـين غرف وقاعات قصورها الدارسة ، ويزورون قصر البستان من مجالس قصر الخلافة بباب العطارين[5] . ويصف الشريف الادريسي ما أصاب قرطبة فيقول : «ومدينة قرطبة في حـين تأليفنا لهذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة ، وغيّرها حلول المصايب والاحداث ، مع اتصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن الا الخلق اليسير ، ولا بلد أكبر اسما منها في بلاد الاندلس »[6] .

وفي عصر الموحدين يصفها الشقندي على أساس ما كانت عليه في عصر الخلافة الاموية ، ويستخدم صيغة الماضي في وصفه لحاضرها ، ويذكر ما

---

(1) Garcia Gomez, Ruina de la Cordoba, P. 288.

(2) الفتح بـن خاقان ، مطمح الانفس ومسرح التانس في ملح اهـل الاندلس ، قسنطينة ، ١٣٠٢ هـ ، ص ١٥ ـ المقري ، ج ٢ ص ٦٦ .

(3) المقري ، ج ٢ ص ٦٨ .

(4) نفس المصدر ، ص ١٧

(5) نفسه ، ص ١٥٣ .

(6) الادريسي ، وصف المغرب والاندلس ، ص ٢١٢ ـ الحميري ، ص ١٥٨

سمعه عن قنطرتها المظمى وكثرة أرحاء واديها وعن كتبانيتها[1] • ويزور الشيخ الزاهد محيي الدين بن عربي مدينة الزهراء ، فيلقاها خرابا ، ويصف أطلالها بأبيات شعرية نطالع فيها الابيات الآتية :

ديـار بأكناف الملاعب تلمـع ... وما ان بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب ... فيصمت أحيانـا وحينا يرجـع
فخاطبت منهـا طائـرا متفردا ... له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ... فقال على دهر مضى ليس يرجع[2]

(٤)

المسؤولون عن نكبة قرطبة

يعبر ابن خلدون عن الكارثة التي أصابت الاسلام في الاندلس بقوله : « وكذا دولة بني أمية بالاندلس ، لما فسدت عصبيتها من العرب ، استولى ملوك الطوائف على أمرها ، واقتسموا خطتها ، وتنافسوا بينهم ، وتوزعوا ممالك الدولة ، وانتزى كل واحد منهم على مـا كان في ولايته ، وشمخ بأنفه ، وبلغهم شأن العجم مـع الدولة العباسية ، فتلقبوا بألقاب الملك ، ولبسوا شارته ، وأمنوا ممن ينقض ذلـك عليهم أو يغيره ، لأن الاندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره ، واستمر لهم ذلك ، كما قـال ابن شرف :

ممـا يزهدنـي في أرض أندلس ... أسمـاء معتصم فيهـا ومعتضـد
ألقـاب مملكة في غـير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الاندلس ،

---

(١) المقري ، ج ٤ ص ٢٠٠ •
(٢) نفسه ، ج ٢ ص ٦٤ •

من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم ، اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم ، حين ضعفت عصبية العرب ، واستبد ابن أبي عامر على الدولة »[1] . والعبارة الاخيرة التي ذكرها المؤرخ الكبير ابن خلدون تلخص أسباب الكارثة التي حلت بالاندلس بسقوط الخلافة بقرطبة وقيام الفتنة ، فالعنصر البربري الذي كان متفوقا في العدد على العنصر العربي هو المسؤول الاول عن النكبة التي أصابت قرطبة خاصة والاندلس بقيام الطوائف عامة ، وعلى هذا العنصر تقع تبعة سقوط الخلافة بقرطبة . ومما يدل على أن البربر هم أصحاب الفتنة أن أبا مروان بن حيان ، شيخ مؤرخي الاندلس الذي عاصر الفتنة ينعتها بفتنة البرابر[2] ، وبالفتنة « البربرية الشنعاء المدلهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للمملكة المؤثلة ، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الاسلامية »[3] ، ويرجع سبب الفتنة الى زاوي بن زيري الذي دخل الاندلس في عهد المظفر عبد الملك بن المنصور[4]، فيقول في احدى رسائله عندما بلغه نبأ وفاة زاوي : « ونعي الينا عدو نفسه زاوي بن زيري ،موقد الفتنة بعد الدولة العامرية »[5] .

والواقع أن البربر هم الذين أشعلوا نار الفتنة في قرطبة ، وهم الذين أفادوا منها أكبر فائدة بعد أن عجلوا بسقوط الخلافة الاموية ، اذ تمكنوا من تأسيس دويلات بربرية في القسم الجنوبي من الاندلس حيث كان يسود العنصر البربري ، الذي استقر به منذ الفتح الاسلامي . واذاقمنا بدراسة الكتلات السكانية في الاندلس ، نجد أن الكتلة البربرية اختصت بهذا القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من الاندلس منذ قيام دولة بني أمية . وعندما بدأت الممالك المسيحية في شمال اسبانيا حركاتها التوسعية في أراضي

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ١٩٦١ ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٤٥٠ .
(٣) نفس المصدر ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٨٧ ، ٨٨
(٤) نفسه ، قسم رابع مجلد ١ ، ص ٦٤ .
(٥) نفسه ، قسم ١ مجلد ٢ ، ص ٩٩ .

الاسلام الشمالية ، أخذت جماعات من البربر تستقر في المناطق الجبلية التي تمتد بين منطقتي غرب الاندلس ووسطه وجنوبي الاندلس[1] . أما العرب فكانوا أقلية بالقياس الى البربر ، اذ أن الصراع المرير بين العصبيتين اليمنية والقيسية استنزف جانبا كبيرا من قواهم ، حتى اذا ما قامت الدولة الاموية أجهز أمراء بني أمية على البقية الباقية من هذه القوة ، بسبب اتباعهم مع العرب سياسة تقوم على اسقاط منازلهم وكسر شوكتهم والحد من سلطانهم ، واعتمدوا على عناصر جديدة طارئة ، فاصطنعوا البربر والموالي والصقالبة على النحو الذي أوضحناه عند حديثنا عن التفوق العددي للبربر ، ولم يسع العناصر العربية الا أن تكف عن ممارسة نشاطها السياسي والعسكري وينتهي بها الامر الى الاندماج مع أهل البلاد من المسالمة والمولدين ، وأصبح هؤلاء يكونون مع الطوائف العربية حزبا يمثل التيار البلدي أو القومي في الاندلس الذي كان من أهم أهدافه تطهير البلاد من العناصر الطارئة الدخيلة بربرية أو صقلبية ، وقد تولى بنو عباد أصحاب اشبيلية زعامة هذا الحزب في عصر الطوائف .

ولا ينبغي أن نغفل مسؤولية محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي في اصطناع أراذل العامة واستظهاره بسفلة القوم من محترفي الاجرام واللصوصية ، الذين كان ظهورهم في المجتمع القرطبي وبالا على الدولة ، فقد نتج عن ذلك أن استبد هؤلاء العامة وداخلهم الغرور ، واستغلوا الظروف الحرجة التي كانت تجتازها البلاد لتحقيق مآربهم ، فهاجموا دور البربر بالرصافة وانتهبوها ، ودفعوهم الى محاربتهم والانتقام منهم عند دخولهم قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ ، ولذلك تقع عليهم مسؤولية ما حل بقرطبة من كوارث ونكبات ، وما انتهت اليه الفتنة من الاطاحة بالخلافة الاموية .

---

(1) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, P. 88 — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٢٥ .

الفصل الرابع

عصر التخلف: من قيام دولة بني جهور حتى سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين

(١) طبيعة الصراع بين العصبيتين الاندلسية والبربرية في عصر الطوائف

(٢) قرطبة في عصر الطوائف

أ ـ في ظل بني جهور

ب ـ في ظل المعتمد بن عباد

ج ـ وصف القصور الدارسة بقرطبة والزهراء

(٣) قرطبة في عصر دولة المرابطين

(٤) نهاية قرطبة الاسلامية

أ ـ قرطبة منذ عهد الموحدين حتى سقوطها في أيدي القشتاليين

ب ـ ما بعد سقوط قرطبة



الفصل الرابع

عصر التخلف: من قيام دولة بني جهور حتى سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين

(١)

طبيعة الصراع بين العصبيتين الاندلسية والبربرية في عصر الطوائف

بينما كانت الفتنة تغلي في قرطبة ، وبينما كان النزاع قائما في الحضرة (قرطبة) بين الحموديين والمروانيين للظفر بالخلافة على النحو الذي أوضحناه ، كان بعض رؤساء الاندلس وقادتها يعلنون انفصالهم في مختلف أنحاء البلاد عن السلطة المركزية التي كانت قد فقدت ظلها على الاقاليم منذ قيام الفتنة . فقد كان من الطبيعي بعد انهيار سلطان الخلافة الاموية بقرطبة ، واختلال ميزان النظام والامن في البلاد ، وضياع هيبة الخلفاء بسبب تهافتهم على الخلافة وترامیهم على أعتابها ، ومؤامراتهم الدنيئة للاطاحة بعروش من سبقوهم ، واستظهارهم في ذلك كله بالاشرار والفاسدين من أحط طبقات أهل قرطبة وسفلة القوم فيها ، أن ينتهي الامر بالفرقة بعد الجماعة ، فينتزي الرؤساء والقواد والولاة على اختلاف أجناسهم في سائر أنحاء الاندلس ، ويقتسموا خططه ، ويستبد كل منهم بتدبير ما تغلب عليه من النواحي ، وينتحل لنفسه لقبا ملوكيا . وعلى هذا النحو « أشبهت حال ملوك الاندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا »[١] . ويعتقد الاستاذ هنري بيريس أن المقصود بملوك الطوائف ملوك الاحزاب[٢] . والواقع أن حوادث القرن الخامس الهجري ، الذي اصطلح على تسميته بعصر ملوك الطوائف ، كانت

---

(١) المراكشي ، ص ٩٣ .

(٢) Henri Pérès, La Poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle, Paris, 1937, P. 15.

تعتبر صراعا بين أهل الاندلس من البلديين أي أهل البلد سواء من العرب أو البربر القدامى الذين تأسبنوا بمرور الزمن أو العناصر المحلية التي تعربت ، وبين العناصر الطارئة على الاندلس من البربر والصقالبة ، وبذلك نستبعد قيام صراع بين العرب وحدهم وبين البربر لأن العصبية العربية كانت قد تحولت في عهود الاستبداد العامري الى عصبية أندلسية اتضح هدفها في أيام عبدالرحمن شنجول، وأصبح يقوم أساسا على مناهضة البربر والصقالبة ، وأصبحت هذه العصبية الاندلسية بمثابة الشعور القومي الذي تعبر عنه مختلف العناصر السكانية التي يتألف منها شعب الاندلس . ويؤكد الاستاذ ليفي بروفنسال أنه قامت طائفة بربرية وطائفة أندلسية ولم تقم طائفة عربية[1] ، على أن الاستاذ هنري بيريس يؤكد قيام طائفة صقلبية ، وذلك منذ أن اضطرمت نار الفتنة ، كما يؤكد أن هذه الطائفة الصقلبية كانت تتحالف تارة مع الطائفة الاندلسية ، وتمثلها العناصر العربية الاندلسية والعناصر المحلية المتعربة،وتارة مع الطائفة البربرية وفقا لمصلحتها الخاصة ، وأن هذا التذبذب بين الطائفتين الاندلسية والبربرية ظل واضحا حتى سقوط الخلافة الاموية ، ومنذ ذلك الحين اتخذت الطائفة الصقلبية جانبا في هذا الصراع ، فمالت الى جانب الطائفة الاندلسية واتبعت سياستها ودخلت بذلك في فلك الطائفة الاندلسية[2] .

انتهزت العناصر البربرية فرصة سقوط الخلافة الاموية بقرطبة واقتطع رؤساؤها في الاندلس لأنفسهم دويلات مستقلة ، فاستقل بنو زيري الصنهاجيون بغرناطة، وبنو برزال الزناتيون بقرمونة ، وبنو دمر الاباضيون بمورور ، وبنو خزرون بأركش ، وبنو أبي قرة برندة . كذلك استقلت

---

(1) Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, PP. 19-20 — Henri Pérès, op. cit., PP. 5-15 — Isidro de las Cagigas, Andalucia musulmana, Madrid, 1950, P. 34 — Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, P. 175.

(2) Henri Pérès, op. cit., P. 15.

أسرات أندلسية بربرية الاصل ببعض النواحي مثل بنو الافطس ببطليوس ، وبنو ذي النون بطليطلة ، وبنو الادلع أو بنو رزين بالسهلة . ولكن هذا الوضع لم يلبث أن تغير بعد ذلك ، اذ أن ملوك الدويلات الاندلسية التي قامت بعد سقوط الخلافة مثل بنو عباد باشبيلية ، وبنو هود بسرقسطة تولوا مهمة جمع شتات أهل الاندلس ، ولم شعثهم ، وتنظيم حزب قوي يضم الاسرات العربية والمستعربة ، ونجح هؤلاء الملوك في توحيد القوى ، وتأليف جبهة أندلسية متحدة تهدف الى القضاء على الجبهة البربرية المعادية لها ، وتولى بنو عباد زعامة هذه الجبهة الاندلسية . وبالفعل لم تأت سنة ٤٣٥ حتى كانت خريطة الاندلس قد تغيرت تغيرا محسوسا ، فقد رأى القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد مؤسس الاسرة العبادية باشبيلية ، ضرورة الالتفاف حول زعيم روحي ، وذلك عندما ضاق ذرعا بمزاحمة بني حمود من كل جهة ، وما كان لهم في الناس من نداء مسموع ، « فدعا الى تجديد بيعة الخليفة هشام المؤيد المشكوك في موته ، المدعي كثير من الناس أنه فر لوجهه ، وزعم أنه عثر عليه سائحا في الارض »[1] ، وأنه استقر في قرية من قرى اشبيلية ، فاستقدمه ابن عباد وبايعه بالخلافة ، واستحجبه ابنه اسماعيل شأن المنصور مع هشام المؤيد ، ثم خاطب الناس بكل جهة في شأنه ، فخطب له بعض الملوك ، وأبى بعضهم أن يفعل ، فمن هؤلاء ابن جهور بقرطبة وابن ذي النون بطليطلة ، وعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية وأعمالها ، والموفق صاحب دانية والجزائر الشرقية ، وصاحب طرطوشة . ولم يجد ابن عباد بدا من اصطناع العنف وقوة السلاح ، فغزا قرطبة ، وأرغم ابن جهور على الخطبة لهشام . أما يحيي بن اسماعيل بن ذي النون فقد دعته الضرورة الى محالفة المعتضد بن عباد والدخول في دعوته الهشامية التي أنكرها أبوه قديما ، وذلك طمعا في

---

(١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٠٠ — ٢٠٢ ، المراكشي ، ص ٩٦ — ابن الخطيب ، ص ١٥٤ .

نصرته علــى سليمان بـن هود ، وخطب باسم هشام المؤيد علــى منابر طليطلة[1] .

ولم يمض عهد طويل حتى كانت مملكة ابن عباد باشبيلية قد اتسعت اتساعا كبيرا ، أولا على حساب أمراء زناتة في الجنوب والجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، وهم بنو برزال بقرمونة ، وبنو إفرن برندة ، وبنو دمر بمورور ، وبنو خزرون بأركش ، وبنو يحيي بلبلة ، وبنو بكر بولبة ، وبنو مزين بشلطيش وشلب ، وبنو هارون بشنتبرية ، ثم على حساب بني حمود في مالقة والجزيرة ، وبني صمادح بالمرية ، وبني جهور بقرطبة ، وبني طيفور بمرتلة ، وبني طاهر بمرسية[2] . ومما يؤكد هذه السياسة الاندلسية قبول ملوك الطوائف الاندلسيين لمبدأ التحالف بين المسلمين والنصارى استمرارا للتقليد المتبع في الاندلس منذ قيام الفتنة ، وهو تقليد يتفق مـــع الاماني العميقة للشعب الاندلسي ، وان كانت له نتائج خطيرة للغاية في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، واذا كان تدخل هؤلاء النصارى الاسبان قد أصبح أمرا ضروريا الا أنه لم يمنح بدون مقابل ، فقد اشترطوا نظير تقديم خدماتهم بأن يتنازل لهم الاندلسيون عن أراضي وحصون ، وأن يدفعوا لهم جزيات سنوية . هذه التبعية لملوك النصارى وقوامسهم وأمرائهم في الشمال وضعت ملوك الطوائف في مأزق خطير ، اذ أرغمتهم الاحداث على اختيار أحد أمرين : قبول سياسة اسبانية ، أو التصرف وفقا للمصالح العليا للاسلام[3] ، وذلك باستدعاء المرابطين من المغرب ، وكره أهل الاندلس أن « يكونوا بـــين

---

(1) ابن عذارى ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(2) H. Pérès, op. cit., P. 10.

(3) Ibid. P. 11 . وكان الفونسو السادس يطمع في امتلاك قرطبـــة حاضرة الخلافة نفسها ، ويذكر ابن بسام أنهم اشاروا عليه بلبس التاج ، فأبى حتى يطأ ذروة الملك ويستولي على قرطبة واسطة السلك (ابن بسام ، قسم ٤ مجلد ١ ، ص ١٣١) وكان قد أعد لمسجدها الجامع ناقوسا تانق في ابداعه وتجاوز الحد في استنباطه .

عدوين : الفرنج عن شمالهم والمسلمين عن جنوبهم »[1] ، بل ان هؤلاء الملوك كانوا ينوون قبل أن يكتبوا الى ابن تاشفين يدعونه للجواز لنجدتهم ، دعوة عرب افريقية الهلالية[2] ، فنهاهم القاضي عبدالله بن محمد عن هذا القصد خشية « أن يخربوا الاندلس كما فعلوا بافريقية ويتركوا الافرنج ويبدأوا بالاندلسيين »[3] . ويذكر صاحب الحلل الموشية ان المعتمد بن عباد ايستشار اوليـاءه في دعوة ابن تاشفين أمير المرابطين ، « فقال له ولده الرشيد ما معناه : حاول الامر بجهدك مع النصراني (يقصد الفونسو السادس) ، ولا تستعجل بادخال من يسلبنا الملك ويشتت الشمل ، فالناس من علمت . فقال المعتمد : يا ولدي ، لأن أموت راعيا بالمغرب خير عندي من أن أرد الاندلس داركفر »[4] .

---

(١) المقري ، ج ٦ ص ٨٦ .

(٢) هي قبائل عربية بدوية تميل الى التدمير والنهب ، اشتركت مع القرامطة في غزو الشام في بداية العصر الفاطمي ، ثم انتقلت الى مصر في عهد العزيز بالله الفاطمي ، ونزلوا بالجانب الشرقي من الصعيد ، واقاموا هناك الى ان قطع المعز بن باديس الدعوة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في سنة ٤٤٠هـ ، ودعا للخليفة القائم ابي جعفر العباسي ، فأشار اليازوري وزير المستنصر بتهجير القبائل الهلالية الى المغرب لتعيث فسادا في العمران المغربي ، فارسلهم المستنصر الى المغرب في سنة ٤٤١ ، وسارت هذه القبائل وتتألف من بني هلال وبني زغبة وبني سليم وبني رياح وبني الاثبج وبني عدي وبني ربيعة ، ونجحوا في غزو برقة وافريقية حيث نثروا بذور الدمار والخراب في عمران هذه البلاد ، فاضطر المعز بن باديس الى الانسحاب الى المهدية ، ودخل العرب القيروان ، فاستباحوا المدينة وخربوا ابنيتها ، وقضوا على معالم حضارتها ، وعاثوا في البلاد ينهبون ويأسرون ويقتلون . حتى تغلب عليهم عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين ، وصيرهم جندا له ، واستنفر بعضهم الى الاندلس (راجع : المراكشي ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، Georges Marçais, La Bérberie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946, P. 193 et s. 79. — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ج ٢ ص ١٢٣ — ١٢٥ ، المغرب الكبير ، العصر الاسلامي ، مجلد ٢ ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٦٦٦ — ٦٧٣ .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٩٣ .

(٤) ابن الخطيب، ص ٢٤٥ — الحلل الموشية، ص ٢٧ — الحميري، ص ٨٥

فاستنجاد الاندلسيين بالمرابطين كان أمرا اضطراريا أرغمتهم الظروف الحرجة عليه لانقاذ الاسلام في الاندلس ، لا سيما بعد أن تسمى الفونسو السادس بالامبراطور « صاحب الملتين » في المصادر العربية[1] ، ثم ادى استنصار أهل الاندلس بالمرابطين الى تفوق العنصر البربري وتمكينه في الاندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين .

والامثلة عديدة على العداء المتأصل بين ملوك الاندلس وبين البربر[2] ، فعندما بلغ المعتصم بن صمادح ان الشاعر خلف بن فرج السميسر قد هجاه احتال في طلبه حتى قبض عليه وأمره بان ينشد له ما قاله فيه ، فقال له الشاعر : « وحق من حصلني في يدك ما قلت شرا فيك ، وانما قلت :

رأيت آدم في نومي فقلت له : أبا البرية ان الناس قد حكموا
ان البرابر نسل منك قال اذن حواء طالقة ان كان ما زعموا

فأباح ابن بلقين صاحب غرناطة دمي ، فخرجت الى بلادك هاربا ، فوضع (ابن بلقين) على من اشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت ، فيدرك ثأره بك ، ويكون الاثم عليك . فقال : وما قلت فيه خاصة مضافا الى ما قلته في عامة قومه ؟ فقال : لما رأيته مشغوفا بتشييد قلعته التي يتحصن فيها بغرناطة ، قلت :

يبني على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير

فقال له المعتصم : لقد أحسنت في الاساءة اليه ، فاختر هل أحسن اليك وأخلي سبيلك أم أجيرك منه »[3] .

---

(1) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٤٩ .

(2) H. Pérès, op.cit., PP. 12-15

(3) المقري ، ج ٤ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

وهكذا ظهرت النعرة الاندليسية واضحة في عصر الطوائف ، وكانت معالمها قد بدأت تتضح في عصر الفتنة . فبالنسبة للعرب لم نعد نسمع شيئا عن عصبيتيهم المضرية واليمنية اللتين فقدتا مدلوليهما الجنسي والسياسي ، كما اننا لم نعد نسمع شيئا عن حركات ثورية يقوم بها المولدون او المستعربون ، وانما اصبحنا نسمع عن تعبير جديد هو « أهل الاندلس » ، او « العصبية الاندلسية »[1] ، استخدمه كتاب الاندلس في كتاباتهم ، وكان هذا التعبير في بدايته مبهما ، ولكنه لم يلبث أن ازداد وضوحا عندما قام الصراع بين أهل قرطبة والبربر . وكان مصرع هشام بن سليمان على يدي المهدي بداية لقيام طائفتين او حزبين عدوين : حزب البربر وحزب الاندلسيين[2] ، واتخذ كل من الحزبين خليفة ، فالحزب البربري أيد المستعين ومن بعده خلفاء بني حمود ، أما الحزب الاندلسي فعضد بالتتابع هشاما المؤيد ثم المهدي ، ثم المرتضى ، ثم المستظهر ، فالمستكفي ، واخيرا المعتد . ثم اطلق على اصحاب العصبية الاندلسية اسم « الجماعة » ، ونعت هشام المؤيد بن الحكم المستنصر باسم « صاحب الجماعة » بينما عرف سليمان المستعين بأمير البرابرة[3] .

---

(1) ورد هذا التعبير في المصادر العربية في صور شتى ، فمرة يرد في صورة « أهل الاندلس » (ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٤٠١) أو « الاندلسيون » (ابن بسام ، ص ٣٩٨ ـ ابن الخطيب ، ص ١٣١) ومرة في صورة « العصبية الاندلسية » (ابن الخطيب ، ص ٨٧) أو « العصائب الاندلسية » (نفس المصدر ص ١٢٨) . ويشير ابن عذارى الى البرابر والاندلسيين كفرقتين ادناهما عبد الرحمن شنجول بن المنصور (ابن عذارى ، ج ٣ ص ٤٧) .

(2) ابن الخطيب ، ص ١٢٥ .

(3) نفس المصدر ، ص ١١٦ .

(٢)

قرطبـة في عصر الطوائف

١ ــ في ظل بني جهور :

في منتصف شهر ذي الحجة من سنة ٤٢٢ اجتمع الملا من أهل قرطبة بعد خلع المعتد بالله على تقديم شيخ الجماعة وأمينها أبي الحزم بن محمد ابن جهور ، لما عرف عنه من حسن التدبير وبراعة السياسة ، وما اتصف به من الحكمة والدهاء وبعد البصيرة . فلما استولى على ازمة الامور لـم ينتقل من داره بالربض الشرقي الى قصر الخلافة[1] ، وظل مقيما بداره حتى توفي في سنة ٤٣٥ ودفن فيها ، كذلك لم يتظاهر بالامارة والسلطان وانما تمسك بالجماعة ، ودبر امور قرطبة تدبيرا لم يسبق اليه ، فكان يجعل الفائض من الاموال بعد صرف رواتب الجند والخدم في أيدي ثقاة من رجاله رتبهم لذلك ، مع قيامه بالاشراف عليهم ، وكان متى سئل عن مال ، قال : « ليس لي عطاء ولا منع هـو للجماعة ، وأنا أمينهم »[2] ، وكان لا يقدم على اجراء الا اذا شاور فيه الوزراء ، ولذلك شهدت قرطبة في ظله عهدا من الاطمئنان والاصلاح والامن « فأنجح سعيه بصلاحها ، ولم شعثها في المدة القريبة[3] ، وأثمر الثمرة الزكية ، ودب دبيب الشفاء في السقام ، فنعش منها الرفات ، وألحفها رداء الامن ، ومانع عنها من كان يطلبها من امراء البرابرة المتوزعين أسلابها ، بخفض الجنـاح والرفق في

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩١ ــ ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٥ ــ ابن عذارى : ج ٣ ص ١٨٦

(٣) بذل ابن جهور كل جهوده لتيسير الحياة على اهل قرطبة ، وتوفير الرخاء فيها ، كمـا عمل علـى توثيق الروابط بينها وبـين جاراتها ، فلـم تلبث قرطبة ان عمرت بطوائف كثيرة من السـكان وفدوا اليها واعادوا بنـاء الأحياء التي كان قد احرقها البربر في الفتنة (دوزي ، ص ١٥) .

المعاملة ، حتى حصل على سلمهم واستدراز مرافق بلادهم ، ودرأ القاسطين عليه من ملوك الفتنة حتى حفظوا حضرته ، وأوجبوا لها حرمة ، بمكابدته الشدائد حتى ألانها بضروب احتياله »[1] . وكان من نتائج هذه السياسة الاصلاحية الحكيمة ان دبت الحياة في قرطبة ، وشاع فيها نوع من الرخاء ، ونعمت هذه المدينة التي شقيت فترة طويلة بالفتن وعانت مصائب الحروب الاهلية بنعم السلام في ظل حكومة عادلة ، وازدهرت فيها العلوم والآداب ، كما ازدهرت الحياة الاقتصادية سواء فيما يختص بالتجارة أم الصناعة ، وقامت فوق الاطلال الدارسة والميادين الخربة مرة اخرى ابنية شامخة يعمرها قوم سعداء[2] ، وأقبل الناس الى قرطبة وانتجعوها من سائر اقاليم الاندلس بعد ان هجروها ايام الفتنة ، وانتعش الاقتصاد القرطبي وتحركت الاسواق بعد ان رخت الاسعار ، وارتفعت اثمان الدور لكثرة من قصدها[3] .

ولما توفي أبو الحزم جهور في ٦ من المحرم سنة ٤٣٥ خلفه في الرئاسة ابنه ابو الوليد محمد بن جهور ، فاقتفى آثار أبيه في اصطناع ذوي الفضل من أهل العلم والادب كل في اختصاصه ، وكان المؤرخ الكبير ابن حيان ممن أفاد بهم أبو الوليد[4] ، كما نهج نهج أبيه في حسن التصرف والمحافظة على الامن ومراعاة الانصاف ، ثم انه ارخى حبال الحكم ، فأحس الناس في ايامه براحة واطمئنان بعد « الضبط الشديد ، وتجاوز الحدود بأيدي جبابرة الشرطة أيام الجماعة » ، وعمل أبو الوليد ايضا على رد الحقوق الى أصحابها ، وفك العقل السلطانية ، واطلاق عقارات الغيب على

---

(١) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١٢٦ ، ١١٧ .

(٢) دوزي ، ملوك الطوائف ، ص ١٥ — اشباخ ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٥ .

(٣) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٧ — ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩١ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٨٧ — ابن الخطيب ، ص ١٤٨ .

(٤) نفس المصدر ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

اربابها[1] ، وفي ايامه بدأ شيعة المروانية وبقايا أشراف الامويين يلتفون حول شاب من البيت الاموي يدعى ابن المرتضى ، كان يطمع في الاستيلاء على السلطان والقيام بفتنة جديدة ، فعمل ابو الوليد على ابعاده من قرطبة ، فاستقر بشرق الاندلس ، وبطل الارجاف بعد خروجه[2] . ويرجع الفضل في توجيه سياسة أبي الوليد الى ابن السقاء مدبر دولته الذي ضبط أمور الدولة كلها أحسن ضبط ، وساسها احسن سياسة وحافظ على استقلالها امام العواصف السياسية التي تجتاح الاندلس ، حتى غص به المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية ، وتضاءلت مطامعه بسببه في ضم قرطبة الى مملكته الاشبيلية[3] .

ولكن أبا الوليد ارتكب خطأ فاحشا كان العامل الاساسي في سقوط دولة بني جهور بقرطبة ، فقد قدم ولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، وبسط ايديهما في السلطان ، وقسم الرئاسة بينهما في حياته دون ان يخص احدهما بالامر ، فأخذ كل منهما يستميل طائفة من الجند ، ويصطنع لنفسه من الرعية انصارا ، وتوترت العلاقات بين الاخوين ، واصبح كل منهما يتربص بالآخر ، فخاف ابو الوليد ان يؤدي ذلك الى قيام الحرب بينهما ، فجعل الى عبد الرحمن النظر في أمر الجباية ، والاشراف على اهل الخدمة ، والتوقيع على الصكوك السلطانية وجميع ابواب النفقات ، وجعل الى عبد الملك (الاصغر) النظر في الجند ، والاشراف على اعطياتهم ، والنظر في أمور الدفاع والبعوث[4] . ويبدو أن أبا الوليد آثر ابنه عبد الملك ، فقدمه على الناس ، وأخذ عليهم العهد له ، فاستبد وطغى ، وزادت مطامعه في السلطان ، وبعدت آماله ، حتى فاق أخاه وغلبه على الامر ، واستبد دونه بالسلطان ، وحجر عليه وسجنه في بيته[5] ، والتفت حول عبد الملك

(١) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٩ — ابن الخطيب ، ص ١٤٨ .
(٢) نفسه ، ص ١٢٠ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٥٦ .
(٤) ابن بسام ، ص ١٢٢ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٥٦ .
(٥) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٥٨ — ابن الخطيب ، ص ١٤٩ .

بطانة من اصحاب السوء والمفسدين وسفال الناس تظاهر بهم في تحقيق اهدافه ، وامعانا في التظاهر بالعظمة والفخامة رأى عبدالملك ان يتقرب من المعتضد عباد[1] أعظم ملوك الطوائف في عصره ، فوالى مكاتبته ومداخلته ، وزاره بنفسه[2] . فدس عباد الى عبد الملك بن جهور من جرأه على الفتك بابن السقاء مدبر الدولة الجهورية ، وكان شجا في حلق عباد ، فقد كان المعتضد عباد يعلم تمام العلم أنه اذا ازاح ابن السقاء من طريقه انفسح له المجال للاستيلاء على قرطبة بسبب ما يعرفه من سوء تدبير عبد الملك وضعف رأيه . ونجح عباد في خطته ، وأوهم عبد الملك بما يمثله ابن السقاء من خطر على نفوذه ، فعمد الى التخلص منه وازالته ، فأرصد له بعض رجاله في بعض الفصلان عندما قدم لزيارة ابيه ذات يوم ، فوثبوا عليه واحتزوا رأسه في سنة ٤٥٥ ووضعوها في طرف رمح وطافوا به في الاسواق[3] ، وبرر عبد الملك هذه الجريمة بأن اتهم ابن السقاء بتدبير ثورة في قرطبة على بني جهور . وبمقتل ابن السقاء خلا الجو لعبد الملك وتهيأت له الفرصة في الاستئثار بالسلطان ، فتجاسر على التلقب بألقاب السلطان وهو أمر أحجم عنه ابوه وجده فتلقب « بذي السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله ، وخطب له على المنبر باسمه ، ولم يكن ابوه ولا جده انتقلا عن رسم الوزارة ، ولا تلبسا لشيء من أمور الاموية »[4] من التلقب بالالقاب الخلافية ولا الجلوس بمقصورة مصلى الخلفاء بالجامع[5] . وحركت هذه السياسة العرجاء أطماع المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة في امتلاك قرطبة ، فوضع نصب عينيه التغلب عليها ،

---

(١) هو ابو عمرو عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد ، ولي أمور اشبيلية وأعمالها بعد وفاة أبيه في سنة ٤٣٩ ، وجرى على نهج أبيه في الحكم الجماعي والاستشاري فترة من الوقت ثم استبد دون شركائه بالسلطان وتلقب بالمعتضد بالله ، وتوفي في جمادى الآخر سنة ٤٦١ هـ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٥٨ .

(٣) نفسه ، ج ٣ ص ٢٥٦ .

(٤) نفسه ، ص ٢٣٢ — ابن الخطيب ، ص ١٤٩ .

(٥) نفسه ، ص ٢٣٣ .

واستهان في ذلك بالمال والرجال ، وانتهز فرصة وفاة المعتضد في سنة ٤٦١ وزحف بجيوشه نحـو قرطبة في سنة ٤٦٢ هـ[1] ، واستولى على حصن المدور من حصون قرطبة ، ثم أقدم على حصار قرطبة نفسها[2] . واذ أحس عبد الملك بعجزه عن مقاومة ابن ذي النون وحـده ، استغاث بحليفـه المعتمد بن عباد ، فأمده المعتمد بكتيبة تتألف مـن ٣٠٠ فارس ، واتبعها بفرقة من الفرسان تتكون من ألف فارس بقيادة قائديه الكبيرين خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين[3] ، وكان المعتمد قد أسر اليهما بالتحايل علـى التغلب على قرطبة اذ كانت هذه المدينة منتهى أملـه ، ورسم لهما الخطة لتحقيق ذلـك . فنزلت قوات المعتمد بالربض الشرقي مـن قرطبة[4] ، وأقامت أياما تحمي حماها ، الى ان اضطر المأمون بن ذي النون الى رفع الحصار والعودة من حيث أتى ، وأدرك قائدا المعتمد بن عباد ، بعد ان اقاما بالمدينة عدة أيام ، تفاهة عبد الملك بن جهور ، « وقلة رجاله ، وكراهية رعيته فيه »[5] . ويذكر ابن حيان أن العباديين قضوا ليلة رحيل ابن ذي النون يتحدثون في القفول الى اشبيلية ، وتظاهروا بالتأهب للرحيل بعد ان انتهت مهمتهم ، وعزم عبد الملك الى البكور لتوديعهم بما يليق بهم ، « فلم يرع الا احداقهم بقصره ، وارتفاع اصواتهم بالبراءة من امره ، واصمات الافواه عن ذكره ... وقبض للحين عليه وعلى اخوانه وسائر أهل بيته وأسرته »[6] . ويذكر ابن عذارى أنه لما رحل ابن ذي النون عن

---

(١) ابن بسام ، ج ٢ قسم ١ ، ص ١٢٤ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٥٧ — ابن الخطيب ، ص ١٤٩ .

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٣٣ ، ٢٦٧ .

(٣) نفسه ، ص ٢٦٧ — ابن الخطيب ، ص ١٥٠ .

(٤) ابن بسام ، ج ٢ قسم ١ ، ص ١٢٥ — ابن عذارى ، ص ٢٥٧ — ابن الخطيب ، ص ١٥٠ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٦٠ .

(٦) ابن بسام ، ص ١٢٥ — ابن عذارى ، ص ٢٥٨ . ويذكر ابن الخطيب ان وثوب القائدين العباديين تم في يوم ٢١ من شعبان سنة ٤٦١ ، وهو تاريخ لا يتفق مع ما ذكره ابن حيان .

قرطبة ، اجمع اهلها سرا على خلع عبد الملك ، لجوره وتعديه هو وحاشيته السفلة على الناس ، والدعوة للمعتمد[1] . ويصف لنا ابن عذاری نقلا عن كتاب الانباء في سياسة الرؤساء ، كيف سقطت دولة الجهاورة . فيذكر ان اهل قرطبة اخذوا يبثون عسكر ابن عباد شجوهم ، ويطالعونهم على سوء حالهم ، « ويناشدونهم الله ألا يبرحوا حتى يقبضوا على الغوي الظالم اميرهم عبد الملك بن جهور ، ويحبسوا البلد على سلطانهم ابن عباد ، فأصبحوا عشي يوم الاحد المؤرخ على تعبية سفرهم ، ثم قدم القائدان على الباب من ضبطه ، واسرعا التقدم في الجند والعامة الى دار عبد الملك ابن جهور ، فاستوى هو وخويصته فوق غرفة داره ، وتكاثر الجند عليهم ، فأتوه من كل جهة ، وتوصلوا الى داره من السقف المتصل به ، ونزلوا منه الى قعرها ، وغشيها جموع من الناس أعلاها واسفلها كالجراد المنتشر ، فتقدمت العامة على النهب ، فصيروا جميع ما احتوى عليه كحريق سريع وفضوا أقاصي مخازنه على نفيس أعلاقها »[2] . أما أبوه الشيخ أبو الوليد محمد فقد لجأ الى مقصورة المسجد الجامع ترافقه نساؤه وبناته ، فاقتحمها عليه طائفة من نصارى جند ابن عباد ، وجردوهم مما كانوا يحملونه معهم[3] . أما عبد الملك فقد ذكرنا انه صعد الى علية بأعلى داره أغلقها على نفسه وعلى نسائه ، واضطر الى التسليم بالامان عندما صعد اليه الجند لاقتحامها عليه ، ثم امر القائد ابن مرتين الناس بالكف عن النهب ، وامر بارسال عبد الملك واخوته الى اشبيلية ، في حين اعتقل الشيخ ابا الوليد في دار صغرى ، وظل معتقلا بها الى ان وصل كتاب المعتمد بنفيه الى جزيرة شلطيش ليلحق هناك بجميع أبنائه[4] .

---

(1) ابن عذاری ، ج ٣ ص ٢٥٩ . ونحن نؤيد ما ذهب اليه ابن عذاری ، لان فرسان ابن عباد لا يمكنهم ان يقوموا بانقلاب داخلي في قرطبة بعيدا عن مدينتهم اشبيلية ما لم تساندهم قوة شعبية نابعة من ارادة جمهور قرطبة .

(٢) ابن عذاری ، ج ٣ ص ٢٦٠ .

(٣) نفسه ، ص ٢٦١ ــ ابن الخطيب ، ص ١٥٠ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦١ ــ ابن الخطيب ، ص ١٥٠ .

ب ـ قرطبة في ظل المعتمد بن عباد :

تحقق أمل المعتمد بن عباد في التغلب على قرطبة[1] ، فانتظمت في سلكه ، وانضوت في فلكه ، وقدم اليها بنفسه ، فأنس اهلها له ، فأحسن معاملتهم ، وولى عليها ابنه سراج الدولة عباد الملقب بالظافر بالله ، فقدم اليها[2] ، ودخلها دخولا حافلا اغتبط به ابوه[3] . ثم عـاد المعتمد الى اشبيلية بعد أن ترك عليها ابنه الظافر بالله وأبقى معه القائد ابن مرتين في فرقة من الفرسان ، فأفاض الظافر فيها نداه ، وخصها بكثير من عنايته . وكان ابن ذي النون يتابع احداث قرطبة ، ويطلع على اخبارها ، فساءه ما شاهده من دخول قرطبة في فلك دولة ابن عباد ، فحرض على الوثوب بقرطبة قائدا من قواد الحصون المجاورة لقرطبة كان تابعا له يدعى حكم ابن عكاشة[4]، وأكد له ابن عكاشة أن باستطاعته التغرير بابن عباد فقدم ابن عكاشة الى قرطبة مع جماعة من اتباعه ، واقام بها متحينا الفرصـة المواتية للوثوب ، وجاءت اللحظة التي كان يترقبها للقيام بالانقلاب ، في في ليلة شديدة الرياح والرعد والبرق ، فتسلل دون ان يشعر به احد في شرذمة من فرسانه ورجاله[5] ، واتجه الى دار ابن جهور حيث يقيم الظافر ابن عباد ، فلما علم الظافر بذلك خرج من فوره وحده لمدافعتهم ، وحمل عليهم بسيفه ، فدفعهم عن باب داره ، ولكنه عثر في بعض كراته ، فسقط

---

(١) اغتبط المعتمد اغتباطا شديدا بضم قرطبة، وقد عبر عن ذلك بقوله :

من للملوك بشأو الاصيد البطل ؟	هيهات جاءتكم مهديـة الـدول
خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت	من جاء يخطبها بالبيض والاسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها	فاصبحت في سرى الحلي والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس	كـل الملوك بهـا في مأتم الوجل

(المقري ، ج ٢ ص ١٥٣)

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٩ . ويذكر ابن خلدون انه قدمها مـن بلنسية ، ولكن بلنسية لـم تكن تابعة لابن عباد ، وانما كانت تابعة لابن ذي النون ، ولذلك نعتقد أن ابـن خلدون خلط بـين المامون بن ذي النون وبين الظافر بن عباد .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٥٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٥٨ . ويسميه ابن الاثير جرير بن عكاشة .

(٥) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٢ ـ ابن الخطيب ، ص ١٥٨ .

على الارض ، فوثب عليه أحدهم ، وقتله ، وجرده من ثيابه ، وتركوه مضرجا في دمائه عاريا ، فمر احد أئمة الجامع بجثته وقت السحر ، فخلع رداءه عن منكبيه ، وستره به ، وفي الصباح احتز جند ابن عكاشه رأسه ، ورفعوه على سن رمح، وطافوا به في قرطبة[1] . اما ابن مرتين ، فقد قبضوا عليه ، وسيق مكبلا بالاغلال الى حصن ابن عكاشة .

وعلى هذا النحو تغلب ابن ذي النون على قرطبة عن طريق صنيعته ابن عكاشة ، فأقيمت فيها الدعوة الذنونية[2] وخوطب ابن ذي النون بذلك ، فقدم الى قرطبة من بلنسية في ٢٥ جمادي الآخرة سنة ٤٦٧، ودخلها في احتفال كبير ، وبايعه اهلها . واقام بها ما يقرب من خمسة اشهر ، ولم يلبث ان توفى بها مسموما في ١٨ ذي القعدة سنة ٤٦٧ هـ ، وحمل الى طليطلة حيث دفن بها[3] . وانتهز أهل قرطبة الذين تغلب عليهم العصبية الاندلسية فرصة وفاة ابن ذي النون ، وخاطبوا المعتمد بن عباد في القدوم اليهم ، فلم يتردد في اجابتهم ، وكان يتلهف شوقا لطلب ثأر ابنه المقتول من قتلته ، فدخلها في ٢٧ ذي القعدة سنة ٤٦٧[4] . أما ابن عكاشة فقد حاول الفرار ، ولكنه قتل على يدي رجل يهودي من اهل قرطبة .

ثم ولى المعتمد بن عباد ولده المأمون على قرطبة ، وظلت قرطبة تابعة لمملكة ابن عباد باشبيلية ما يزيد على ١٦ سنة ، الى أن نزلها يوسف بن تاشفين بعد مجازه للمرة الثالثة الى الاندلس في سنة ٤٨٣ بقصد خلع رؤساء الاندلس ، فنزل قرطبة ، واجتمع هناك بالمعتمد بن عباد[5] ، ومن هناك تحرك الى غرناطة حيث استنزل الامير عبد الله بن بلقين ملك غرناطة ثم نفاه الى مكناسة . وفي العام التالي أمر ابن تاشفين قائده الامير أبا عبدالله

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٥٤ .
(٢) ابن الخطيب ، ص ١٥٨ .
(٣) ابن خلدون ، ص ١٥٩ .
(٤) يذكر ابن خلدون أن ابن عباد دخلها في سنة ٤٦٩ هـ .
(٥) مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٤٧ .

محمد بن الحاج بالاستيلاء على قرطبة ، ونجح هذا القائد في افتتاحها في الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ[١] . ويذكر صاحب روض القرطاس أن بطى ابن اسماعيل قائد سير بن أبي بكر اللمتوني هو الذي افتتحها ، وافتتح بعدها مدينة بياسة وأبدة وحصن البلاط والمادون والصخيرة وشقوبية[٢] . ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لـم يبق للمعتمد بن عباد من مملكته الواسعة سوى قرمونـة واشبيلية ، واستشهد ابنـه المأمون ووزيراه ابن زيدون وابن بكر بمداخلة من أهل قرطبة عندما دخلها المرابطون[٣] . وكان المعتمد قـد أوصى ابنه بتحصين قرطبة والدفاع عنها بكل امكانياته[٤] . ويبدو أن زايدة زوجة المأمون وكنة المعتمد، وقد امتلأ قلبها حقدا على قتلة زوجها وسجاني أبيه بعـد قليل ، آثرت الالتجاء الـى مملكة الفونسو السادس ، وأصبحت زوجـة غير شرعية لملك قشتالة بعد أن ارتدت عن الاسلام واعتنقت المسيحية حتى تستطيع أن تدفعه الى محاربة المرابطين ، وقد أنجبت منه ولدها الامير شانجه الذي قتل في المعركة التي خاضها ضد المرابطين في أقليش سنة ٥٠١ هـ[٥] .

وأقام القائد بطى بن اسماعيل بقرطبة حتى سكنها ، ومهد الامر فيها للمرابطين ، ورم ثغورها[٦] .

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ،ص ١٦٠ .

(٢) ابن أبي زرع ، كتاب روض القرطاس ، نشره تورنبرج ، ابساله ١٨٣٩ ، ص ١٠٠ .

(٣) مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٧٠ .

(٤) ذكر عبدالله الزيري انه كان حريصا على الابقاء على قرطبة ، وكان يرجو بقاء حاله بثبوتها ، ويوصي ابنه بالصبر ويقول له : « لا تجزع فالموت أهون من الذل ، وليس السلطان الا من القصر الى القبر » (مذكرات الامير عبدالله ، ص ١٧٠) وكان المعتمد يتقوى بطول مقاومتها ، فلما سقطت بعد مقتل ابنه انقطع رجاؤه .

(٥) ليفي بروفنسال ، الاسـلام في المغـرب والاندلس ، ص ١٦٢ — الونشريشي ، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ١٩٥٧ ص ١٨٩ .

(٦) ابن ابي زرع ، ص ١٠٠ .

ج ـ وصف القصور الدارسة بقرطبة والزهراء في عصر الطوائف :

تحولت قرطبة في عصر ملوك الطوائف الى مدينة تاريخية ، يقصد آثارها الاموية الوزراء والكتاب فيقفون عليها ويجوسون بين أطلالها ، ويعتبرون برسومها الدارسة ، من هؤلاء الوزير أبو الحزم بن جهور الذي وقف على أطلال قصور بني أمية وأنشد قائلا :

قلت يوما لـدار قوم تفانوا	أين سكانك الـعزاز علينا ؟
فأجابت : هنـا أقاموا قليـلا	ثم ساروا ولست أعلم أينـا[1]

ووقف الشاعر السميسر على أطلال الزهراء ، فاستعبر وبكى وقال :

وقـفت بالزهراء مسـتعبرا	معـتبرا أنـدب أشـتاتا
فقلت : يا زهرا ألا فـارجعي	قـالت : وهل يرجع من ماتا ؟
فـلم أزل أبكي وأبكي بهـا	هيهات يغني الـدمع هيهـاتا
كأنما آثـار مـن قـد مضى	نـوادب ينـدبـن أمواتـا[2]

وزار بعض وزراء المعتمد آثار مدينة الزهراء ، وجاسوا بين اطلالها ، ويصف الفتح بن خاقان هذه الزيارة عند ترجمته لسيرة المعتمد بـن عباد فيذكر ، أن الوزير أبا الحسين بن سراج أخبره أنه « حضر مـع الوزراء والكتاب بالزهراء في يوم غفل عنه الدهر ، فلم يرمقه بطرف ، ولم يطرقه بصرف ، أرخت به المسرات عهدها ، وأبرزت له الاماني خدها ونهدها ، وأرشفت فيه لماها ، وأباحت للزائرين حماها ، وما زالوا ينتقلون من قصر الى قصر ، ويبتذلون الغصون بجنى وهصر ، ويتوقلون في تلك الغرفات ، ويتعاطون الكؤوس بين تلك الشرفات ، حتى استقروا بالروض من بعدما قضوا من تلك الآثار أوطـارا ، ووفروا بالاعتبار قطارا ، فحلوا منها في درانك ربيع مفوفة بالازهار ، مطرزة بالجداول والانهار ، والغصون تختال

---

(۱) المقري ، ج ۲ ص ٦٦ .
(۲) نفس المصدر ، ص ٦٨ .

في أدواحها ، وتتثنى في أكف أرواحها ، وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها ، وانقراض أترابها وأطرابها ، والوهي بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وتأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيئوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث في آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها الا نؤى وأحجار ، قد دهت قبابها ، وهرم شبابها ، وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد ، فبينما هم يتعاطونها صغارا وكبارا ، ويديرونها أنسا واعتبارا ، اذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة فيها :

حسد القصر منكم الزهراء ... ولعمري وعمركم ما أساء
قد طلعتم بها شموسا صباحا ... فاطلعوا عندنا بدورا مساء

فساروا الى قصر البستان بباب العطارين ، فألفوا مجلسا قد حار فيه الوصف ، واحتشد فيه اللهو والقصف ... »[1] .

(٣)

قرطبة في عصر المرابطين

جاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس للمرة الرابعة في سنة ٤٩٦ برسم النظر في مصالحها ، وصحبه ولداه الاميران أبو الطاهر تميم وأبو الحسن علي ، وكان أبو الحسن علي أصغر سنا من تميم . وفي قرطبة دعا ابن تاشفين جميع أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهائها وقادة الرأي ، وتلا عليهم

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، طبعة القاهرة ١٣٢٠ هـ — المقري ، ج ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

عقد البيعة لابنه علي ، وضمنه الاسباب التي حملته على اختياره وليا للعهد، ثم أخذ البيعة له من جميع الحاضرين ، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء ، ثم وقعوا على عقد البيعة ، وقام علي على أثر ذلك ، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وترسم السياسة التي رسمها أبوه ، ثم أشهد الكتاب، ووقع على الوثيقة[1] .

وعلى الرغم من أن غرناطة كانت الحاضرة الاثيرة لدى المرابطين ، فان قرطبة على الرغم مما أصابها من نكبات منذ أن طحنتها رحى الفتنة احتفظت في عصر المرابطين بمكانتها القديمة كحاضرة للاندلس ، باعتبارها القاعدة القديمة للبلاد منذ الفتح الاسلامي حتى سقوط الخلافة الاموية ، ففيها كان يقيم ولـي العهد حتى اذا مـات أبوه انتقل الـى مراكش وبويع أميرا للمسلمين[2] . وكانت بقرطبة دار للسكة كالشأن في غيرها مـن حواضر الاندلس الاخرى كاشبيلية وغرناطة وبلنسية ومالقة وسرقسطة ، كما كانت المركز الرئيسي لقاضي الجماعة الذي يتولى الاشراف على نظام القضاء في الاندلس قاطبة ، كالفقيه أبي الوليد بن رشد عميد فقهاء قرطبة[3] .

وظلت قرطبة موالية للمرابطين حتى سنة ٥١٥ هـ عندما شهدت من جديد ثورة قام بها الاهالي[4] على واليهم المرابطي أبي بكر يحيى بن رواده، سببها أن أحد عبيد أبي بكر يحيى بن روادة مد يده الى امرأة فأمسكها ، فاستغاثت بالمسلمين ، فأغاثوها ، فقامت الفتنة . ولما طالب الفقهاء من الامير المرابطي أن يقتل العبد الذي سبب تلك الفتنة أنكر ذلك ، وغضب وأظهر السلاح والعدد بقصد التأهب لمنع احتجاجهم بقوة السلاح ، فقاتله أهل قرطبة وهزموه ، فلاذ بالقصر وتحصن فيه ، فحاصروه وتسلقوا اليه ، فهرب منهم ، فنهبوا الـقصر وأحرقوا جميع دور المرابـطين ، ونهبوا أموالهم

---

(١) روض القرطاس ، ص ١٠١ — الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٤٧ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٣٦٧ .
(٤) ويجعلها ابن الاثير في سنة ٥١٤ (ج ٨ ص ٢٩٠) .

وأخرجوهم من قرطبة على أسوأ حال[1] . ويبدو أن هذه الثورة كانت من الخطورة على مركز المرابطين في الاندلس كله بحيث دعت الامير علي بن يوسف الى الحضور بنفسه الى قرطبة ، فبادر الامير بتجنيد الاجناد وحشد الجيوش من صنهاجة وزناتة والمصامدة وأخلاط البربر ، وجاز الى الاندلس في عسكر لم يجتمع مثله للمرابطين قبله، فاحتل بخارج قرطبة[2] وحاصرها، ولكن أهل قرطبة أغلقوا أبواب مدينتهم وتأهبوا لمقاتلته ، الا أن علماء قرطبة وكبار شيوخها لم يلبثوا أن توسطوا عند أمير المرابطين ، واعتذروا له بأن ما قام به القرطبيون كان بقصد الذب عن الحرم والدماء والاموال[3] وتم الصلح على أن يغرم أهل قرطبة ما نهبوه من أموال المرابطين .

وفي سنة ٥١٩ هـ كانت الحملة الكبرى التي قام بها الفونسو المحارب (ابن ردمير) ملك أرغون بايعاز من المعاهدين بغرناطة الذي استثاروا طمعه ، وفي هذه الغارة اخترق بلاد المسلمين مخربا ومدمرا كل ما قابله من قرى وحصون اسلامية من سرقسطة الى بلنسية الى جزيرة شقر فدانية وشاطبة ومرسية ثم برشانة وبسطة ووادي آش وبيانة واستجة حتى وصل الى غرناطة ، ويبدو أنه شن غاراته أيضا على نواحي قرطبة وخاصة مدينة الزهراء ، وان كنا لا نملك الدليل على ذلك[4] . وعلى أثر تلك الغارة جاز قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رشد الى مراكش حيث قابل الامير علي ابن يوسف ، « وبين له القاضي أمر الاندلس وما أصيبت به من النصارى المعاهدين بها ، وما جروه اليها ، وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير ،

---

(١) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٩٠ .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٣ .

(٣) نفس المصدر . واشار ابن الخطيب ايضا الى جواز علي بن يوسف الى الاندلس « لاصلاح الامور بقرطبة » (ابن الخطيب ، ص ٢٤٧) .

(٤) Garcia Gomez, la Ruina de la Cordoba omeya, P. 291
ويذكر ابن الاثير انه خرج في عساكره وجاس في بلاد الاسلام وخاضها حتى وصل الى قريب قرطبة وأكثر النهب والسبي والقتل ؛ ابن الاثير ، ج ٨ ص ٣١٩) .

وتقويته على المسلمين ، وامداده ، وما في ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة . فلقى نظره بالقبول ، وأفتاه بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به في عقابهم . ونفذ عهده الى جميع بلاد الاندلس بازعاج المعاهدين الى ناحية مكناسة وسلا وغيرهما من بلاد العدوة »[1] .

وفي سنة ٥٣٤ ثار العامة بقرطبة مرة ثانية لضعف قاضيها ابن رشد ، فاضطر ابو جعفر احمد بن محمد بن حمدين الى الخروج للناس لتسكين ثائرتهم ، وانتهى الامر باستعفاء ابن رشد عن القضاء ، فاضطر أمير قرطبة أبو عمر اللمتوني الى تعطيل الاحكام بها ما يزيد على عام كامل تأديبا لاهل قرطبة ، ثم اذن لهم في اختيار قاض لهم ، فأجمعوا على اختيار ابن حمدين في سنة ٥٣٦ هـ . وكانت أحوال المرابطين قد ساءت كثيرا في المغرب بسبب الهزائم التي توالت عليهم على ايدي الموحدين اتباع المهدي ابن تومرت ، وذلك في عهد الامير المرابطي تاشفين بن علي بن يوسف (٥٣٣ ــ ٥٣٩) ، واستغل اهل الاندلس هذه الفرصة وثاروا في مدنهم على المرابطين . وكان منبع هذه الثورات ومصدرها الرئيسي جماعة من المريدين ببلدة شلب كان يرأسهم أبو القاسم بن قسي الذي يعزون اليه اشعال نار الثورة ضد المرابطين في مرتلة بغرب الاندلس ، ومن هنالك امتدت نار الثورة على المرابطين الى يابرة وباجة وشلب ولبلة ، ووصل لهيبها الى قرطبة وشرق الاندلس .

وكان نفوذ الفقهاء قد ازداد زيادة ملموسة في حياة الامير علي بن يوسف ، وهم الذين كانوا قد أفتوا في أيام ابيه بخلع ملوك الطوائف ، واستنزلوا عليهم اللعنات ، وهم الذين املوا على علي بن يوسف مشيئتهم باحراق كتب الغزالي واهمها كتاب احياء علوم الدين الذي فضح نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا[2] ، وابن حمدين ،

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٦ .

(٢) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٥٢ .

قاضي قرطبة ، الذي تولى القضاء على أهل قرطبة في سنة ٥٣٦ ، هو نفسه الذي تقدم قبل ذلك بنحو ٣٣ سنة الى الامير علي بن يوسف بطلب احراق كتب الغزالي بقرطبة ، وتم احراق نسخة من كتاب الاحياء في الميدان الصغير الممتد أمام الباب الغربي لجامع قرطبة ، في محضر من الفقهاء[1] .

ظل ابن حمدين يتولى منصبه القضائي بقرطبة حتى سنة ٥٣٩ ، عندما امتدت نيران الثورة الصوفية الى قرطبة ، ورحب اهل قرطبة بهذه الثورة لا بقصد التخلص من حكم المرابطين فحسب ، وانما اشباعا لطبيعتهم الثائرة المتقلبة ، فقد كان اهل قرطبة معروفين منذ ايام بني امية بالتقلب والولوع بالفتن والقلاقل ، فهم الذين ثاروا على الامير الاموي الحكم الربضي في عامي ١٨٠ ، ٢٠٢ هـ ، وهم الذين حركوا الفتنة الكبرى التي أطاحت بالخلافة الاموية ، وهم الذين انقلبوا على بني جهور وأيدوا المعتمد بن عباد ، ثم انقلبوا عليه بعد ذلك ، وهللوا لابن ذي النون ، ثم اعلنوا من جديد ولاءهم للمعتمد بن عباد ، ثم رحبوا بالمرابطين . ففي رمضان سنة ٥٣٩هـ ثار العامة في قرطبة على الامير أبي عمر اللمتوني ، وخلعوا دعوة الملثمين بمجرد خروج أبي زكريا يحيي بن غانية المسوفي كبير قواد المرابطين في الاندلس لمواجهة الثوار على الحكم المرابطي في النواحي الاخرى ، واتفقوا على مبايعة القاضي احمد بن حمدين رئيس الثوار في بلدهم ، فنادى بنفسه في المسجد الجامع اميرا على قرطبة وتلقب بالقاضي الخليفة[2] ، وأقام في قصر الخلافة بهذه المدينة ، وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين المنصور بالله . ولكن أهل قرطبة لم يألفوا قط حياة الاستقرار والتمسك بالولاء لامير او حاكم عليهم ، فلم يمض اثني عشر يوما على قيام ابن حمدين بثورته حتى قامت ثورة اخرى بقرطبة حمل لواءها انصار سيف الدولة احمد بن عبد الملك بن هود الذي ينتمي

---

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٥٢ .
(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٥١ .

الى اسرة بني هود امراء سرقسطة ، وكان هذا الامير مقيما بثغر روطة متعلقا بأذيال ملك قشتالة[1] ، فانتهز فرصة قيام أهل قرطبة بالثورة على المرابطين ، وقـدم الى قرطبة في قوة من القشتاليين[2] ودخلها بمساعدة انصاره الذين عمدوا الى مداخلة اهل قرطبة واغرائهم بالوعود والعطايا . ولم يتردد هؤلاء في تأييده ، وقد بهرتهم نسبته الملوكية ، ونودي بسيف الدولة اميرا باسم المستنصر بالله . ومع ذلك فلم يطل تمتعه بهذا المنصب ، لان أهل قرطبة ضاقوا ذرعا باستبداد وزيره ابن شماخ،فثارت نفوسهم غضبا لمجرد رؤية اجناده النصارى في شوارع قرطبة ، فانقلبوا عليه بعد ثمانية ايام فقط من توليه الامارة ، وقتلوا وزيره ، فاضطر سيف الدولة الى الفرار الى جيان[3] ، وانتزعها من صاحبها ابن جزي ، ثم لم يلبث أن مد نفوذه على غرناطة ، ولكنه فر منها بعد ان اقبلت جيوش المرابطين لمحاربته ، ورحل الى مرسية وتمكن من دخولها في ١١ من جمادي الآخرة سنة ٥٤٠ هـ ، وهناك قتل في معركة وقعت بين المسلمين والنصارى في ٢٠ من شعبان من نفس السنة[4] . أمـا ابن حمدين فقد عـاد الى قرطبة في ١٠ ذي الحجة سنة ٥٣٩ ونودي به للمرة الثانيـة اميرا على قرطبة باجمـاع اهلها ، « فاستقام له الامر فيها ، ودون الدواوين ، وجند الاجناد ، ورسم الخطط »[5] .

ولم يكد يمضي ١١ شهرا على توليه الامارة حتى تبرم به أهل قرطبة ، فاتصلوا بيحيى بن غانية في اشبيلية وطلبوا منه ان يعمل على تخليصهم من حكم ابن حمدين ، فزحف ابن غانية الى قرطبة في جمادي الآخرة من سنة ٥٤٠ هـ على رأس فرقة من النصارى ، ونجح في ايقاع الهزيمة بجيش ابن

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١٧٦ .
(٢) اشباخ ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٢١١ .
(٣) ابن الخطيب ، ص ٢٥٣ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٦ .
(٥) نفسه ، ص ٢٥٣ .

حمدين في أحواز استجة[1] ، ثـم دخل قرطبة في ١٢ شعبان سنة ٥٤٠ ، بينمـا فر ابن حمدين الى بطليوس . ودخل النصارى قرطبـة ، وعاثوا في مسجدها الجامع ، وربطوا خيولهم في اروقتـه ، واقاموا قداسا حافـلا ، وتناولوا بأيديهم المصحف العثماني[2] ، فأثاروا بذلك غضب أهل قرطبة ، ويبدو أن السبب في ذلك أن السليطين الفونسو السابع ريموندس طالب ابن غانية بمدينة قرطبة كتعويض لمساعدته له ، ولكن ابن غانية صالحه على ان يعطيه بياسة وتحفا كثيرة ، ويرسل اليه جزية سنوية ، فخرجوا منها بعد عشرة أيام من دخولها[3] .ثم بحث ابن غانية مع أهل قرطبة عن شخص يتولى رئاسة المدينة ، فاختاروا عليهم محمد بن عامر صاحب شلب ، ولكن هـذا الوالي الجديد اضطر الى التخلي عن الامارة ، فأقام ابن غانية يحيي بن علي ابن عائشة واليا على قرطبة بينما سار هـو الى غرناطة . وكانت جيوش الموحدين بقيادة ابراهيم بن براز المسوفي قد اقتربت من قرطبة وحاصرتها ، فسلمها واليهـا المرابطي يحيي بن علي بن عائشة اليهـم في سنة ٥٤٣ هـ ، فدخلتها جيوش الموحدين[4] .

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٥٣ .

(٢) يشير المراكشي الى هذه الحادثة ، ولكنه يؤرخها خطئا في سنة ٥٠٣ فيقول « وحكم غير واحد ان الاذفنش لعنه الله لما دخلها في شهور سنة ٥٠٣ دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم ، فاقاموا به يومين لم تبل دوابهم ولم تروث حتى خرجوا منه ، وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة » (المعجب» ص ٢٧٣) . اما ابن غالب فيذكر دخول النصارى في الجامع سنة ٥٤٠ فيقول : «ودخلت النصارى هذا الجامع المكرم عند دخولها قرطبة سنة اربعين وخمسمائة عندما هاجت الفتنة الثانية ، ثـم من الله تعالى بخروجهم بعـد تسعة أيـام او نحوها ، وحملت التفافيح التي كانت في المنار من الذهب والفضة ، وحمل من المنبر نحو نصفه وبقي الباقي ، ونهبت أوصاله وثريات الفضة عند دخولهم ، واما باب الذهب الذي كان للمقصورة فانه نهب مـع بيت مال الجامع في الفتنة الاولى » (ابن غالب ، ص ٣٠) .

(٣) أشباخ ، ص ٢٢١ .

(٤) ابن ابي زرع ، ص ١٢٥ .

(٤)

نهاية قرطبة الاسلامية

أ ـ قرطبة منذ عهد الموحدين حتى سقوطها في ايدي القشتاليين :

لما تبين لالفونسو السابع نجاح الموحدين في الاستيلاء على اشبيلية وقرطبة وجيان وغيرها من مدن الاندلس الكبار ، أعد جيشا ضخما عدته أربعون الفا من الفرسان ، وزحف على رأس هذا الجيش الى قرطبة ، فحاصرها وكان يتولى الدفاع عنها القائد الاندلسي ابو الغمر السائب من ولد القائد ابن غلبون[١] ، فلما بلغ الخبر عبد المؤمن بن علي بمراكش وجه حملة بقيادة ابي زكريا يحيي بن يغمور[٢] بقصد الدفاع عن قرطبة ورد جيش القشتاليين ، وأقام الفونسو على حصارها ثلاثة اشهر ، واضطر امام مقاومة حامية المدينة ومناعة حصونها ، وقرب وصول المدد الموحدي الى رفع الحصار عنها والرحيل الى بلاده[٣] .

وتولى يحيي بن يغمور امارة اشبيلية وقرطبة ، ولكن عبد المؤمن عزله عنهما في سنة ٥٤٩ بسبب استبداده ، واقام على ولاية قرطبة أبا زيد بن بكيت[٤] ، وصحتها ابن تيجبيت[٥] ، وفي ولايته هاجم محمد بن سعد بن مردنيش قرطبة سنة ٥٥٤ وحاصرها فترة ، كذلك هاجمها صهره ابراهيم بن همشك ، ودمر زروعها ، واستشهد ابن تيجبيت وهو يدافع عنها في موضع يسمى الدارات[٦] .

---

(١) ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٨ . ولعله ابا الغمر بن عزون الذي كان قد زحف اليها من اشبيلية (ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٤٨ ، طبعة بيروت) .

(٢) ورد هذا الاسم في الكامل لابن الاثير مختلفا ، فنقراه يحيى بن يرموز (ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٨) .

(٣) أشباخ ، ص ٢٢٩ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٢ (ط. بيروت) .

(٥) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ١٢٦ .

(٦) نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

وفي عصر الموحدين تنازلت قرطبة عن مكانتها السياسية لاشبيلية ، واصبحت اشبيلية على هذا النحو حاضرة الموحدين في الاندلس . ومع ذلك فقد ظلت تحتفظ بمكانتها الادبية والروحية باعتبارها القاعدة القديمة لدولة الاسلام في الاندلس ، ولكونها تضم المسجد الجامع أعظم المساجد الجامعة في بلاد المغرب والاندلس . ويبدو ان عبد المؤمن أبدى رغبته في استقدام المصحف العثماني المحفوظ في جامع قرطبة من موضعه القديم بالجامع الى مراكش ، فحمله اليه ولداه السيدان ابو سعيد وابو يعقوب في ١١ شوال سنة ٥٥٢ هـ ، واعتنى به عبد المؤمن بن علي غاية الاعتناء ، فصنعت له كسوة تأنق الفنانون في تنميقها ، وصنع له محمل بديع مغشى بضروب من الترصيع والنقش في قطع الابنوس والخشب الرفيع ، وجعل لهذا المحمل كرسي مماثل في الزخرفة ، وأحيط الكرسي بتابوت رائع به باب تنفتح دفتاه بحركات هندسية يخرج على أثرها الكرسي[1] . كذلك ولي قرطبة واشبيلية وجميع مدن غرب الاندلس السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في حياة أبيه سنة ٥٥٣ هـ[2] . وقد تأثر أبو يعقوب وهو بعد وال على المدن المذكورة بالحياة العلمية والثقافية بقرطبة ، فزالت عنه جفوة البربر واكتسب رقة أهل الاندلس ، وكان قد درس على الكثير من علماء قرطبة واشبيلية علوم اللغة وعلوم الدين ، كما شارك في الادب والفلسفة والطب ، واصطحب من الفلاسفة أبا بكر بن رشد . وفي خلافته عقد على قرطبة للسيد أبي اسحق[3] ، وعلى اشبيلية لاخيه السيد أبي ابراهيم . ثم عقد على قرطبة بعد مضي وقت قصير من خلافته لاخيه السيد أبي الحسن ، وعلى اشبيلية لاخيه أبي علي وذلك في سنة ٥٧١[4] . وفي سنة ٥٧٨ عقد أبو يعقوب يوسف لابنيه السيد أبي يحيى على قرطبة والسيد أبي اسحق

---

(١) الحلل الوشية ، ص ١١٥ — ١١٦ ، المقري ، ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٤

(٢) القرطاس ، ص ١٢٩ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٧ (ط. بيروت)

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٠١ .

على اشبيلية ، وقد عانى السيد أبو يحيىٰ من أهل قرطبة الكثير حتى اضطر الى أن يطلب الانفصال عن ولايتها لكثرة شغب أهلها وميلهم الى الثورة . وعلى الرغم من انحراف السيد أبي يحيى عن أهل قرطبة ، فقد أقام قصرا خارج المدينة على متن نهر قرطبة يقوم على أقواس حتى يذكره به أهل هذه المدينة رغما عنهم[1] . ولما انفصل أبو يحيى عن ولايتها تولاها السيد أبو يوسف بن أبي حفص وذلك في خلافة أبي يوسف يعقوب ، ثم خلفه عليها السيد أبو زيد بن أبي يوسف يعقوب . وفي خلافة محمد الناصر ، تولى السيد أبو ابراهيم بن أبي يعقوب يوسف على اشبيلية وقرطبة ، وتولاها في خلافة المستنصر بن الناصر مع اشبيلية السيد أبو اسحق الاحول ، ثم عمه السيد أبو العلاء . ولما توفى المستنصر الموحدي سنة ٦٢٠ ، انبعثت الفتن والثورات في أنحاء البلاد ، واضطربت الامور في الاندلس وتهيأ الناس للخلاف ، واجتمع شيوخ المغرب على تقديم عبد الواحد بن يوسف على الخلافة . وفي عهده تفرق أمر الموحدين ، وازداد تهافتهم على الخلافة ، فاستقل ابو محمد عبدالله بن يعقوب بالاندلس ، وتلقب بالعادل ، وعندما قتل العادل في سنة ٦٢٤ هـ خلفه أخوه أبو العلاء ابن المنصور ، وبويع في اشبيلية مقر ولايته في حياة أخيه العادل ، وتلقب بالمأمون . وفي نفس الوقت بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر في مراكش وتلقب بالمعتصم ، ونشب صراع عنيف بين المأمون والمعتصم ، وانتقل هذا الصراع الى أرض المغرب حيث قضى المأمون بقية عهده في معارك ضارية مع المعتصم . وبينما كان المأمون مشتغلا بمحاربة ابن أخيه في المغرب ، كان النصارى يستولون على مدن الاندلس ، واشتعلت نيران الفتن في البلاد . وترجع أسباب التدهور الذي أصاب دولة الموحدين في الاندلس الى الضعف السياسي الذي منيت به على أثر هزيمة المسلمين بقيادة الناصر الموحدي في واقعة العقاب Las Navas de Tolosa ، في سنة ٦٠٩(١٢١٢م)،

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٧ . ويعرف هذا القصر في المصادر العربية بقصر السيد،وسنعود الى ذكره عند حديثنا عن طبوغرافية قرطبة التاريخية.

وفوضى الادارة ، وتفكك وحدة القبائل الموحدية ، ومـا سببته القبائل الهلالية في بلاد المغرب من اضطرابات ، بالاضافة الـى التوسع المسيحي المتواصل في قلب الاندلس عقب هزيمة المسلمين في العقاب ، وضياع معظم مدن الاندلس العظمى من أيدي المسلمين كجزر البليار التي استولى عليها ملك أرغون في سنة ٦٢٧ ، وماردة وبطليوس التي استولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة في سنة ٦٢٨ ، وبياسة وبسطة في سنة ٦٣٠ ، وأبدة في سنة ٦٣١ هـ ، والعدد الاعظم من مدن غرب الاندلس التي التهمتها مملكة البرتغال الفتية . ثم ظهر في الاندلس أمير مـن سلالة بني هود أصحاب سرقسطة يسمى أبو عبـد الله محمد بن يوسف بن هود ويلقب بسيف الدولة ، ويعرف في المدونات الاسبانية باسم Zafadola استقل بمرسية ونواحيها ، وتلقب بالمتوكل على الله ، ودعا للعباسيين ، وبسط نفوذه على جيان وقرطبة ومالقة وبطليوس وماردة وغرناطة . وفي سنة ٦٢٩ هـ ضم اليه اشبيلية ، ثم دخلت قرطبة في هذه السنة في ملك قائد عربي آخر هو محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أرجونة الذي بويع له على الدعاء للامير أبي زكريا الحفصي صاحب افريقية ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من دائرة نفوذه وأعلنت تبعيتها لابن هود .

وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون (ويعرف في المصادر العربية باسم هرانده) قد استولى في سنة ٦٣١ على أبده ، ثم زحفت جيوشه الى أندوجار ، وعاث القشتاليون في ساحتها ونواحيها ، وأسروا عددا كبيرا من المسلمين ، وتبين لهم عن طريق هؤلاء الاسرى سوء ما آلت اليه قرطبة ، كما عرفوا منهم أيضا اهمال أهل قرطبة لوسائل الدفاع عنها . وتطوع بعض الخونة من بين هؤلاء الاسرى لمعاونة النصارى على افتتاحها ، فسارت فرقة من القشتاليين ليلا حتى وصلت الى قصبة قرطبة الامامية المسماة بالشرقية في جمادي الاخرة سنة ٦٣٢ هـ ، ومـن عجيب الاتفاق أن يتم استيلاء القشتاليين على قرطبة بنفس الطريقة التي تم بها افتتاح للمسلمين لها على يدي مغيث الرومي ، فالقشتاليون استعانوا ببعض المسلمين ، كما استعان

المسلمون بأحد الاسبان ، كذلك يتشابه الفتحان في قلة عدد الجند الذين أسهموا في الفتح ، وفي اتخاذ الليل وهطول الامطار ستارا لاخفاء ما يصدر من أصوات تحركات الجند ، وفي الصعود على سور المدينة ومفاجأة رجال الحـامية .

تمكن القشتاليون من الاستيلاء على قسم من السور ودخلوا المدينة من جانبها الشرقي ، ولكنهم اصطدموا بمقاومة المسلمين ، فاضطروا الى التحصن في بعض أبراج السور ، وبعثوا رسولا الى قائد المنطقة الفار بيريث دي كاستروس Alvar Perez de Castros والى الملك القشتالي فرناندو الثالث يستمدونهما[1] ، أما أهل قرطبة فكتبوا الى محمد بن هود يستنصرونه ويطلبون منه الاسراع لنجدتهم . ولكن ابن هود تـلقى في الوقت ذاته استغاثة من أبي جميل زيان أمير بلنسية يدعوه فيها الى المبادرة بانقاذها من الغزو الارغوني ، وآثر ابن هود أن ينقذ بلنسية خاصة وقد بلغته الانباء بسقوط جانب منهـا ، وقـدوم الملك القشتالي بنفسه في جيش كثيـف لاستكمال فتحها ، فترك ابن هود قرطبة لمصيرها التعس ، آملا في أن يقوم أهلها بالدفاع عنها . واستبسل أهل قرطبة في الحق في الدفاع عن مدينتهم وتفانوا في الذود عنها ، ومنعها ، وقاتلوا عن كل شبر منها ولكن اليأس لم يلبث أن دب في قلوبهم عندما ضيق فرناندو عليهم ، فاضطروا الى مفاوضته في التسليم ، وسقطت قرطبة بذلك في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ بعدما يقرب من أربعة شهور من بداية حصارهم لها،وأثار سقوطها في أيدي النصارى الحزن والاسى في نفوس المسلمين،فقد كانت رغم اضمحلالها رمزا لسيادة الاسلام في الاندلس، وكان سقوطها نذيرا بالنهاية المحتومة لدولة الاسلام، وقد علق المؤرخ الاشبيلي دي ثونييغا على سقوطها بقوله:«سقطت مدينة قرطبة أنبل مدن الاسلام وأعظمها بعد رومة والقسطنطينية فاشبيلية[2] » . وما كاد

---

(١) اشباخ ، ص ٤٢٩ — ٤٣٢ .

(٢) De Zuniga. (Diego Ortiz), Anales Eclesiasticas y seculares, Madrid, 1796, t. I, P. 131.

القشتاليون يدخلون قرطبة حتى رفعوا الصليب على مسجدها الجامع ايذانا بتحويله الى كنيسة كبرى ، ورفعوا علم قشتالة على القصر الخلافي . وبدخول القشتاليين قرطبة هجرها العدد الاعظم من أهلها مرغمين ، وتفرقوا في أنحاء مملكة غرناطة ، فاستبدل فرناندو بهم سكانا آخرين من قشتالة وليون وقطالونية وغيرها من ممالك اسبانيا المسيحية .

ب ـ ما بعد سقوط قرطبة :

شهدت قرطبة في عصرها المسيحي محاولات اسلامية متتالية لغزوها ، فقد آل أمر ما بقي من ملك المسلمين في الاندلس الى محمد بن يوسف ابن نصر ، الذي نجح في تأسيس جبهة قوية أمام الخطر المسيحي الجاثم ، وقامت مملكته بغرناطة بين مظاهر الاضطراب الذي اجتاح الاندلس بعد سقوط قرطبة في ٦٣٣ واشبيلية في ٦٤٦ ، وغيرهما مـن كبار مدن شرق الاندلس ، ومع ذلك فقد قدر لهذه المملكة الصغيرة أن تصارع دول اسبانيا المسيحية نحو قرنين ونصف مـن الزمان ، ويرجع الفضل في بقاء مملكة غرناطة رغم الانواء والعواصف السياسية التي كانت تجتاحها في الداخل والخارج ، الى أنه احتشد فيها خلاصة العناصر الاسلامية التي تشردت بعد سقوط حواضر الاسلام الكبرى في الاندلس أمثال قرطبة واشبيلية وجيان وبلنسية ومرسية وبياسة وغيرها ، ولم يكن هؤلاء المسلمون يحجمون عن الاشتراك في الحملات الحربية التي كان يوجهها سلاطين بني الاحمر بغرناطة وسلاطين بني مرين في فـاس بقصد الاغارة عـلى تلك المدن ، ومحاولة استردادها . ومن أهم تلك الحملات الحملة التي قادها عامر بن ادريس في مطوعة بني مرين من قبل السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني في سنة ٦٧٢ هـ ، وجاز بها الى الاندلس ، فاكتسح بجيوشه الفحوص والزروع ، ووزع كتائبه في البسائط والوديان تنتسف الزروع وتدمر العمران . وفي غزوة ثانية تمكن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني سنة ٦٧٤ في أيام محمد الفقيه سلطان غرناطة من محاصرة اشبيلية ، ودخل بجيوشه حصنا

قطنيانة وجليانة والقليعة عنوة ، كما غزا شريش ، واكتسح بسائط حصن روطة ، ثم حاصر قرطبة ، وأوقع بالجيش القشتالي بقيادة دون نونيو دي لارا الذي يسميه العرب دننة في استجة قتل فيها القائد القشتالي[1] . وفي المحرم سنة ٦٧٦ جاز السلطان يعقوب المريني اجازته الثانية الى طريف ، وانضم اليه أبو اسحق بن أشقيلولة صاحب قمارش ، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه ، فغزوا اشبيلية ، واقتحموا الـوادي يخربون العمران ويضرمون النيران في ساحة المدينة ، ويدمرون القرى والحصون المجاورة ، « فدخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة وأثخن بالقتل والسبي[2] » . واقام السلطان المريني في الجزيرة الخضراء بعض الوقت للراحة وتوزيع الغنائم ، ثم استنفر جيشه لغزو قرطبة ، ورغب رجاله في عمرانها ، وثروة أهلها ، وخصب أراضيها ، فسارعوا الى اجابته ، ووافاه السلطان ابن الاحمر بناحية ارشذونة ، وانضم جيشه الى الجيش المريني ، ثم نازلت الجيوش الاسلامية مجتمعة حصن بني بشير فدخلوه عنوة، وقتلوا من فيه من المقاتلة ، وسبوا النساء ، وخربوا الحصن ، وبثوا الغارات في البسائط حتى وصلوا الى قرطبة ، فنازلوها ، « فانحجزت حامية العدو من وراء أسوارها ، وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها ، فنسفوا آثارها ، وخربوا عمرانها ، واكتسحوا قراها وضياعها ، وتردد (السلطان المريني) عـلى جهاتها ، فـدخل حصن بركونة عنوة ثـم حصن أرجونة كذلك[3] » .

ومن الغزوات الكبرى التي قام بها المسلمون في عصر الدولة النصرية الغزوة التي قام بها السلطان الغني بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد اسماعيل بالتعاون مع دون بطره[4] لفتح قرطبة فيما بين عامي

---

(١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٩٧ (ط. بيروت) ـ المغرب الاسلامي ، ج ٢ ص ١٦٣ .
(٢) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٠٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٠٥ .
(٤) هودون بيدرو القاسي ملك قشتالة .

٧٦٦ ــ ٧٦٨ هـ (١٣٦٤ــ ١٣٦٦ م) ، ثم تنازل دون بطره عنها للغني بالله محمد انتقاما من نبلائها الثائرين فيهـا بزعامة دون هنريكي دي تراستمارا[1] (القمط الريق) . ويذكر ابن الخطيب في احدى رسائله التي كتبها على لسان الغني بالله محمد الـى سلطان بني مرين أن الجيوش الاسلامية أوقعت الهزيمة بالقوات القشتالية التي برزت للقائها ،« فتركهم المسلمون « حصيدا ، وأذاقوهم وبالاشديدا ، وجدلوا منهم جملة وافرة وأمة كافرة ، وملكوا بعض تلك الاسوار ، فارتفعت بها راياتهم الخافقة ، وظهرت عليها عزماتهم الصادقة ، واقتحم المسلمون الوادي سيسا في غمره ، واستهانة في سبيل الله بأمره ، وخالطوا حامية العدو في ضفته ، فاقتلعوها ، وتعلقوا بأوائل الاسوار ففرعوها » . ثـم يذكر أن المسلمين أقاموا علـى حصار قرطبة خمسة أيـام أحدثوا خلالها في الاسوار أنقابا ، وقتلوا من حامية قرطبة أعدادا كبيرة ، ثـم عمدوا الـى « تخريب العمران وتسليط النيران ، وعقر الاشجار ، وتعفية الآثار » . ثم رحل عنها المسلمون وقد ارتفعت أعمدة الدخان فـوق أسوارها[2] . وفي رسالة أخرى كتبها على لسان السلطان الغني بالله كتب يصف هذه الغزوة : « ثم كان الغزو الى أم البلاد ومثوى الطارف والتلاد قرطبة ، وما قرطبة المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الاقليم كان العمل والكرسي للذي بعصاه رعي الهمل ، والمصر الذي في خطة المعمور الناقة والجمل ، والافق الذي هو لشمس الخلافة العبشمية[3] الحمل ، فخيم الاسلام في عقرتها المستباحة ، وأجاز نهرها المعيي على السباحة، وعم دوحها الاشب بوارا، وأدار الكماة بسورها سوارا ، واخذ بمخنقها حصارا ، وأعمل النصل بشجر نصلها اجتناء مـا شاءوا واهتصارا » . ثـم يذكر كيف أضرم المسلمون النيران في المزارع

---

(١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٦٧٩ ــ

Castejon, Guia de Cordoba, Madrid, 1930, P. 14.

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٤٩ ــ ٥٣ .

(٣) أي المنسوبة الى عبد شمس الجد الاول للامويين .

المتدة بظاهرها فيقول : « فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ، ومفارق الهضاب بالهشيم قد شابت ، والغلات المستغلات قد دعا بها الفضل فما ارتابت ، وكأن صحيفة نهرها لما أضرمت النار حافي ظهرها ذابت ... وتخلفت لغمائم الدخان عمائم تلويها برؤوس الجبال أيدي الرياح ، وتنشرها بعد الركود أيدي الاجتياح »[1] .

(1) المقري ، ج ٩ ، ص ٧٧ — ٧٨ .

القسم الثاني

التخطيط والعمران

الفصل الخامس : التطور العمراني والتخطيط منذ الفتح الاسلامي حتى انتهاء قرطبة في التوسع

الفصل السادس : معالم قرطبة ومتنزهاتها في العصر الاسلامي



* الفصل الخامس

التطور العمراني والتخطيط منذ الفتح الاسلامي حتى انتهاء قرطبة في التوسع

(١) اتساع العمران في قرطبة في عصر الامارة

أ ــ المدينة العتيقة والفيض السكاني خارج الاسوار

ب ــ تخطيط المدينة في العصر الاسلامي وأسوارها المحدثة

(٢) التطور العمراني في عصر الخلافة وقيام الارباض

أ ــ المدينة الوسطى وجوانبها الاربعة

ب ــ أرباض قرطبة والحومات ٠

ج ــ الاسواق القرطبية في المصادر العربية والوثائق القشتالية

د ــ احصائيات المؤرخين بالدور والحوانيت والمساجد والحمامات

الفصل الخامس

التطور العمراني والتخطيط منذ الفتح الاسلامي حتى انتهاء قرطبة في التوسع

(١)

اتساع العمران في قرطبة في عصر الامارة

ا ـ المدينة العتيقة والفيض السكاني خارج الاسوار :

كانت قرطبة عند الفتح الاسلامي تتألف من مركزين عمرانيين يفصل بينهما سور حاجز ، كان الغرض من اقامته فصل الاهالي الذين يسكنون القسم الشرقي عن القسم الغربي ، الذي يشتمل على المؤسسات الحكومية وثكنات الجند[١] . أما القسم الشرقي فكان يقوم على جانب من الربض الشرقي الذي عرف في العصر الاسلامي بالشرقية ، وكان يشغل ما يعرف بالمدينة العتيقة[٢] ، أو المدينة[٣] ، أما القسم الغربي فكان يشغل القصبة[٤] ، أو المدينة العليا[٥] ، أو المدينة الوسطى[٦] ، أو قبة قرطبة[٧] كما كانت تعرف في العصر الاسلامي نفسه . وكانت هذه المدينة العتيقة مسورة عند الفتح الاسلامي ، ولعل السور الغربي منها كان مثلما في بعض أجزائه ، بحيث استلزم الامر ترميمه في ولاية السمح بن مالك الخولاني . وعلى هذا النحو يكون المركز العمراني الشرقي من قرطبة السابقة على الفتح الاسلامي

---

(١) Saavedra, op. cit., P. 83 ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٨٦ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٣ .
(٣) ابن الخطيب ، ص ١٠٣ .
(٤) المقري ، ج ٢ ص ١٣ .
(٥) ابن غالب ، ص ٢٧ .
(٦) الادريسي ، ص ٢٠٨ ـ الحميري ، ص ١٥٣ .
(٧) المقري ، ج ٢ ص ٧٩ .

هو نفس ربض المدينة العتيقة من مجموع ارباض الجانب الشرقي لقرطبة في عصر الخلافة ، ويشغل القسم الغربي من الشرقية الذي يلي سور قرطبة الشرقي مباشرة . أما القسم الغربي فيقع في نفس الموقع الذي تقوم عليه المدينة الوسطى أو القصبة العتيقة . وكان يشق المدينة العتيقة من وسطها طريق فسيح مرصوف يعرف بالسكة العظمى أو المحجة العظمى (Via Augusta أو طريق أغسطس قيصر) ، وكان يبتدىء مـن مدينة قادس Cadiz وينتهي بأربونة Narbonne ، مارا باشبيلية Sevilla وأستجة Ecija وقرطبة Cordoba وقسطلونة Cazlona وجنجالة Chinchilla وشاطبة Jativa وبلنسية Valencia وطركونه Tarragona وبرشلونة Barcelona ، ومن أربونة يرتبط هذا الطريق بطريق آخر يصل الى رومة[1] .

(1) كان بأيبريا (إبارية في المصادر العربية) طريق قديم يعرف بطريق هرقل لعله مـن أصل قرطاجني يربط اربونـة بقرطاجنة مـارا بامبوراس وبرشلونة وطركونة وبلنسية وشاطبة ، ثـم اوصله الامبراطور أوغسطس بطريق آخر يمتد من شاطبة الى جنجالة وقسطلونة . ومن هذه المدينة الى قرطبة كان يتفرع الى فرعين : احدهما على الضفة اليمنى والآخر على الضفة اليسرى من نهر بيطي (الوادي الكبير) ، ثم يواصل طريق اوغسطس سيره بعد ذلك من قرطبة الى استجة ومنها الى اشبيلية وينتهي اخيرا بقادس . فلما إفتتح المسلمون الاندلس استخدموا هذه الجادة الرومانية في تحركاتهم وتنقلاتهم في داخل شبه الجزيرة ، ولكنهم اضطروا الى اهمال اجزاء منها ، واجروا فيها بعض تعديلات تتفق مع مصالحهم الاقتصادية والسياسية ، فان قادس التي كانت تبدأ منها هذه الجادة لـم تعد في العصر الاسلامي تحتل مكانتها القديمة البارزة ، وحلت محلها في الاهمية مدينـة الجزيرة الخضراء بسبب اتصالها الباشر بالمغرب الذي ارتبط بالاندلس طوال العصر الاسلامي ، وعلى هـذا النحو اشتدت حركة المرور على الطريق الممتد مـن قرطبة الى الجزيرة ، وهو ايضا طريق روماني كان يربط قرطبة بقرطاجنة ولهذا سمي الباب الجنوبي المطل على مخرج هذا الطريق المار بها بباب الجزيرة نسبة الى وجهة هذا الطريق الى الجزيرة . اما الطريق المؤدي الى قادس فقد أهمل بعض الشيء . وكانت قرطبة من ناحية أخرى تتصل بطليطلة العاصمة القوطية القديمة عبر الطريق الروماني الممتد من الحمراء في منطقة لا مانشا (وتقع على طريق اغسطس فيما بين شاطبة وقسطلونة) الى طليطلة . ويستمر الطريق الروماني بعد ذلك من طليطلة الـى الشمال الشرقي حيث يصل الى وادي الحجارة Guadalajarra ومنها الـى مدينة سالم Medinaceli فقلعـة أيـوب Calatayud ثـم الى سرقـسطة Zaragoza . ويعبر الطريق في =

وكان يحيط بالقصبة القديمة سور من الحجارة حصين تنفتح فيه عدة أبواب ، منها باب القنطرة الجنوبي وباب اشبيلية في الجنوب الغربي وباب رومية في الشرق ، وما يزال باب اشبيلية القديم قائما حتى يومنا هذا[1] مع قسم من السور الروماني يتوزع على جانبيه الايمن والايسر .

ولم تستطع الاسوار الرومانية التي كانت تحيط بقرطبة القديمة أن تقف أمام الدفع العمراني في عصر الولاة على الرغم من قيام السمح بن مالك بترميم السور الغربي الذي تثلم في أجزاء منه ، واضطرت الاسوار الى الانحناء أمام الطلائع العربية التي اكتظت بهـا المدينة منذ الفتح العربي الاسلامي ، فتفتحت هذه الاسوار من الشرق والغرب والشمال بعد أن

= سرقسطة نهر ابره من جسره القديم،ويواصل سيره الى برشلونة عبر لاردة وطركونة ، ويتحد بذلك مع طريق اوغسطس الذي ذكرناه آنفا . ولقد حرص المسلمون على الاتصال المباشر بطليطلة قاعدة الثغر الاوسط ، فاتخذوا طريقا مستقيما يمتد مـن الجزيرة الى طليطلة مارا بقرطبة . هـذا الطريق عرف بالرصيف . والى هـذا الرصيف يشير الرازي عنـد حديثه عـن قرمونة (Lévi-Provençal, La Description de l'Espagne d'Ahmad al Razi, P. 95) كما يشير اليه الحميري عند حديثه عن بيارة اذ يقول : « وكان ميناها على النهر الاعظم معقودا بالرصيف ، وكانت المحجة العظمى عليها مـن باب نربونة الى بابها الى باب قرطبة » (الحميري ، ص ٥٦) ، كما أشار الى هذا الرصيف عند حديثه عن استجة ، فيقول : « والمدينة مبنية على الرصيف الاعظم المسلوك عليه من البحر الى البحر » (الحميري ، ص ١٥) . وبقرطبة باب يذكر بهذا الرصيف او الطريق الروماني هو باب طليطلة أو رومية المفتوح بسورها الشرقي ، كما ان باب القنطرة القبلي يذكر بالطريق الموصل من قرطبة الى الجزيرة . اما باب اشبيلية الغربي المعروف بباب العطارين فهو الذي كـان يصـل قرطبـة باشبيلية عبـر الطريـق المعروف باغسطس قيصر (Torres Balbas, la via augusta y el Arrecife musulman, al-Andalus, Vol. XXIV, 1959, PP. 441-448).

(١) يعتقد الاستاذ جومث مورينو ان باب اشبيلية-الحالي هو الباب الروماني القديم بعقديه المتجاوزين وحجارته المسنمة التي تتوزع على النحو الشائـع في الابنيـة الرومانية (Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 12 والترجمـة العربيـة للمؤلف ، ص ٢١) . ويعتقـد كامبـس اي كاثـورلا Camps y Cazorla أن هذا الباب من عصر القوط (Camps Y Cazorla, Modulo, Proporciones y Composicion, en la arquitectura califal, Madrid, 1953, P. 22)

أصبحت قرطبة قاعدة للاندلس في عصر الولاة ، وانتجعها العرب والبربر من البلديين ثم العرب الشاميون . ويبدو أن السور الغربي الذي رممه السمح ابن مالك كان أول قطاع مـن سور قرطبة التي جرفها العمران واكتسحها التوسع ، بسبب ضعفه وقلة تماسك بنيانه بالنسبة للاسوار الاخرى[1] .
ولما أصبحت قرطبة حاضرة للدولة الاموية على أيام الامير عبد الرحمن الداخل ، استلزمت الضرورة تحويطها بسور حصين مـانع ، يقيها خطر الطامعين في الامارة من المنتزين والثوار ، فقد كانت قرطبة مفتوحة للداخلين اليها والخارجين منها ، والحوادث الـتي وقعت عند دخول عبد الرحمن قرطبة تدل على ذلك ، فمـا أن انتصر عبد الرحمن الداخل على يوسف الفهري والصميل في موقعة المصارة[2] في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ حتى « سار ابن معاوية حتى أتى القصر ، فلـم يجد دونه أحدا »[3] ، كذلك استطاع أبو زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهري أن يغير على قرطبة ويحصر أبا عثمان عبيدالله بن عثمان في صومعة الجامع التي في القصر أثناء غياب الامير عبـد الرحمن دون عائق[4] . لذلك رأى عبد الرحمن الداخل أن يحيط قرطبة بسور مانع ، فبنى سورا حصينا يدور حول المدينة[5] في سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) . وأغلب الظن أن أعمال عبد الرحمن اقتصرت على اعادة بناء الجزء الذي تهدم منـذ الفتح الاسلامي لقرطبة والذي تولى السمح ترميمه باللبن ، فبناه عبد الرحمن بالحجارة[6] .

---

(١) يدل على ذلك أن عبد الرحمن الداخل بنى في سنة ١٥٠ هـ سورا لقرطبة .

(٢) ابن القوطية ، ص ٢٨ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٩٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٩٣ .

(٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ ج ٣ ص ٢٩ — ابن خلدون، ج ٤ ص ١٢١ — المقري، ج ١ ص ٣١٣، ج ٢ ص ٨٤

(٦) شاهد ابن حوقل هذا السور ، وذكر أن قرطبة « مدينة ذات سور من حجارة » (صورة الارض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٠٨) . وفي موضع آخر يقول : « وهي نفسها حصينة السور ، وسورها من حجر » (ابن حوقل ، ص ١٠ — المقري ، ج ٢ ص ٨) .

وفي عهد الحكم بن هشام جددت هذه الاسوار ، وأتقن بناؤها ، وحفر حولها خندق في سنة ١٨٩ هـ ، أما شقندة الواقعة على الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير فكانت مسورة ، واعتبرت ربضا من أرباض المدينة[١] فيما بعد في عصر الخلافة[٢] .

وكان من الطبيعي وقد ازداد عدد سكان قرطبة هذه الزيادة المطردة منذ الفتح حتى سقوط الخلافة أن يفيض العمران خارج نطاق سورها القديم، فتنشأ المنيات في ظاهرها دون أن تلتصق بأسوارها ، بحيث أصبحت المدينة واضحة المعالم بين العمران الممتد خارج أسوارها ، وقد لاحظ الرحالة ابن حوقل هذه الظاهرة فقال : « وأبنيتها مشتبكة على البلد من شرقه وشماله وغربه ... وقرطبة هذه بائنة بذاتها عن مساكن أرباضها غير ملاصقة لها »[٣] .

وكانت مدينة قرطبة صغيرة المساحة ، فمحيط أسوارها لا يزيد على أربعة كيلومترات[٤] بحيث استطاع ابن حوقل أن يطوف حولها في قدر ساعة[٥] . وكان هذا السور على شكل يقرب من متوازي أضلاع يمتد أحد جانبيه الصغيرين على الضفة اليمنى للوادي مسافة تصل الى ٨٠٠ مترا (١٦٠٠ ذراعا)[٦] . ومن بين المنيات التي أقيمت في ظاهر قرطبة منذ الفتح وأصبحت بمضي الزمن بؤرا التفت حولها مراكز عمرانية جديدة : منية عامر ابن هاشم القرشي من بني عبد الدار، وكان يلي الصوائف قبل ولاية يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ، فابتنى هذه المنية غربي سور مدينة قرطبة[٧] ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠٧ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٤ .
(٣) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .
(٤) ابن غالب ، ص ٢٧ — المقري ، ج ٢ ص ٧
Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. III, P. 367.
(٥) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .
(٦) المقري ، ج ٢ ص ٦ . ويذكر الادريسي ان عرضها من باب القنطرة جنوبا الى باب اليهود شمالا ميل واحد (الادريسي ، ص ٢٠٨) .
(٧) أخبار مجموعة ، ص ١٣ .

وعرفت بقناة عامر ، ومنها بلاط مغيث الذي أهداه موسى بن نصير لمغيث الرومي بدلا من قصر قرطبة ، ومنها أيضا منية الرصافة التي اتخذها الامير عبد الرحمن الداخل الى الشمال من قرطبة ، ومنية نصر التي اتخذها الفتى نصر الخصي أثير الامير عبد الرحمن الاوسط بن الحكم ، وكانت تقع على شاطىء الوادي الكبير بعدوة الربض الجنوبي شقندة ، وكانت في الاصل بيتا للرحى ، وفيها اختبأ أبو الخطار بعد هزيمته على يد الصميل بن حاتم ، وقد تطورت هذه المنية في عهد الامير عبدالله ، ومنها منية الناعورة التي أسسها الامير عبد الله في حياة والده الامير محمد ، وكانت تقع على نهر الوادي الكبير جنوبي قرطبة لصق مصلي فحص المصارة العتيق[1] ، ومنها فحص المطرف بن عبد الرحمن الاوسط ، ويقع خارج السور الشرقي ، ومنية عبدالله في الشرقية ، ومنيـة عجب جارية الحكم بـن هشام[2] في شقندة ، ومنيـة المغيرة[3] في الشرقية ، ومنية أرحاء ناصح[4] ، ومنيـة البنتي[5] ، ومنية دري الاصغر بوادي الرمان[6] ، ومنية نجدة[7] . وقد أصبحت جميع هذه المنيات ارباضا بعد أن ازدادت قرطبة في الاتساع بمن قصدها من البربر والصقالبة في عصر الخلافة وعصر الدولة العامرية .

---

(١) ابن حيان ، القسم الخاص بالامير عبدالله من المقتبس ، تحقيق الاب انطونية ملشور ، ص ٣٨ .

(٢) اخبار مجموعة ، ص ١٢٦ .

(٣) ذكر ابن الخطيب موضع هذا الربض في جنوب قرطبة بينما ذكره ابن بشكوال في الشرقية ، وقول ابن بشكوال أولى بالثقة ، ولعل هذه المنية كانت تشغل ما يعرف بـ Huerta de San Pablo أو Huerta de San Agustin المشار اليهما في خريطة قرطبة سنة ١٨١١ .

(٤) ابن حيان ، المقتبس في أخبار بلد الاندلس ، القسم الخاص بعصر المستنصر (٣٦٠ ـ ٣٦٤) ، تحقيق الاستاذ عبد الرحمن الحجي ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٦٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٧٢ .

(٦) نفسه ، ص ١٠٦ .

(٧) نفسه ، ص ٩٦ .

ب ـ تخطيط المدينة في العصر الاسلامي ، واسوارها المحدثة :

وكان يشق مدينة قرطبة السكة العظمى أو المحجة العظمى من باب القنطرة الجنوبي الى باب عبد الجبار في الشمال الشرقي، وكان هذا الشارع يسمى بعد خروجه من باب عبد الجبار ودخوله في فحص المطرف بشارع المبطلة وذلك في أيام الامير عبدالله ، وكثيرا ما سلك الامير عبدالله هذا الشارع عند زياراته للفقيه بقي بن مخلد[1] . وكان هذا الطريق بعد خروجه من باب القنطرة الجنوبي الى الربض القبلي يطلق عليه اسم فج المائدة[2] . كذلك وصل الينا اسم شارع يعرف بالزقاق الكبير يمتد من الباب الجديد من أبواب الجانب الشرقي الى الرملة[3] ، في حين كان يمتد على شط الوادي الكبير من الجهة الشرقية طريق يعرف بطريق الرملة[4] .

أما محجة قرطبة العظمى التي تشق المدينة وتخترق سوقها ، فكانت ضيقة بادىء ذي بدء ، فأمر الحكم المستنصر بتوسعتها بهدم الحوانيت المعترضة لها في ٨ من جمادى الاولى سنة ٣٦١ هـ[5] وكان يتفرع من هذه المحجة العظمى شوارع رئيسية تؤدي الى أبواب المدينة المختلفة ، تتشعب منها دروب وأزقة ، وقد وصلت الينا أسماء بعض هذه الدروب ، نذكر منها درب ابن شراحيل ، نسبة الى محمد بن شراحيل المعافري قاضي قرطبة في عهد عبد الرحمن الاوسط ، واليه أيضا ينسب مسجد كان يقوم في هذا الدرب نفسه[6] ، ومنها درب الزجالي[7]، ولعله كان يقع في القسم الشمالي من قرطبة حيث يقوم حير الزجالي ، وهو منية خاصة بأحد أفراد هذه

---

(١) ابن حيان ، تحقيق الاب انطونية ملشور ، ص ٣٨ .
(٢) اخبار مجموعة ، ص ١٥١ ـ ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٩٤ ، ١٠٢ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٤ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣٥ .
(٥) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الاستاذ الحجي ، ص ٧١ .
(٦) ابن القوطية ، ص ٥٨ .
(٧) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ١٧٢ .

الاسرة ، ومنها درب الفضل بن كامل ، وذكر الخشن أنه كان يقع في أيام عبد الرحمن الداخل قبلي مسجد أبي عثمان[١] ، الواقع الى الشمال من قصر قرطبة[٢]،ومنها درب أبي الاشهب [٣] ، ودرب بني فطيس[٤] ، ودرب ابن زيدون[٥] . وكانت لهذه الدروب والشوارع رحبات أي ميادين نذكر منها رحبة أبان ، ورحبة خولان ، ورحبة ابن درهمين ، وسويقة القومس ، وسويقة ابن نصير ، وسويقة ابن أبي سفيان[٦] .

ويجمع مؤرخو العرب وجغرافيوهم على أنه كان ينفتح في سور قرطبة أو المدينة المسورة سبعة أبواب[٧] موزعة على النحو الذي سنشير اليه بعد قليل ، ويغلب على الظن أن أبواب مدينة قرطبة كانت خمسا في عصر الامارة ثم أصبحت سبعا منذ عصر عبد الرحمن الناصر . وتشير المصادر العربية الى أنه أمر في شعبان من سنة ٣٠٢ بفتح باب عامر القرشي في السور الغربي لتيسير الانتقال الى مقبرة قريش أو مقبرة عامر القرشي[٨] ، ولم يكن هذا الباب موجودا من قبل عندما قام النزاع بين يوسف الفهري وعامر القرشي[٩] . وقد يكون الباب الثاني الزائد الباب المسمى باب الجديد أو

---

(١) الخشني ، تاريخ قضاة قرطبة ، تحقيق خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩١٤ ، ص ٤٠ ، ٥٥ .
(٢) المقري ، ج ١ ص ٣٥٤ .
(٣) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ، تحقيق كوديره ، ج ١ مدريد ١٨٩١ ، ص ١٨١ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٩ .
(٥) ابن سعيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٤ .
(٦) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, P. 383 Note 2.
(٧) Ocana Jimenez, Las Puertas de la Medina de Cordoba, al-Andalus, Vol. III, 1935, P. 146.
(٨) Una Cronica anonima de Abd al-Rahman III, publicada por Lévi-Provençal y Garcia Gomez, Madrid, 1950, P. 51 . وقد سمي هذا الباب بعد الاسترداد الاسباني بباب الجلالقة de los Gallegos وتهدم في سنة ١٧١١ م .
(٩) اخبار مجموعة ، ص ٦٣ .

باب سرقسطة في السور الشرقي من جهة الجنوب ، ويعتقد ليفي بروفنسال أنه فتح في السور المذكور في عصر الامير الحكم الربضي[1] . وتشير المصادر العربية الى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر عمل على تحصين أبواب مدينة قرطبة ، فابتنى لها أبوابا داخلية توازيها سنة ٣٠١ هـ[2] لتيسير الدفاع عنها واتاحة الفرصة للحراس لمضاعفة الحراسة ؛ فقد كانت أبواب قرطبة القديمة تتألف من فتحة واحدة في السور[3] ، فأصبح لها بذلك فتحتان أو مدخلان وكانت لهذه الابواب مصاريع حديدية تغلق بها[4] . وفي أيام الفتنة التي أعقبت مصرع عبد الرحمن شنجول أمر ابن عبد الجبار وواضح الفتى باقامة سور يدور حول أرباض قرطبة حتى لا تتعرض للهجوم ، كما أمر باحاطة هذا السور الجديد بخندق[5] ، وكان ينفتح في هذا السور الخاص بالارباض من الجهة الشرقية ثلاثة أبواب ورد ذكر أسمائها في المصادر العربية متناثرة في كتب التراجم ، منها على سبيل المثال باب الحديد وكان يقع جنوبي السور الشرقي للشرقية قريبا من الرملة[6] ، وباب الفرج الواقع بين السكة العظمى وطريق الرملة ، وأخيرا باب عباس الذي تمر منه السكة العظمى بعد خروجها من باب عبد الجبار[7] .

---

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٦٠ .

(٢) العذري ، ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ١٢٢ — Una Cronica, P. 48

(٣) Una Cronica anonima, P. 48

(٤) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٩٩ — ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٣٥

(٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٤ .

(٧) ابن الابار ، كتاب التكملة لكتاب الصلة ، نشره جنثالث بلنسية ، مدريد ١٩١٥ ، ص ٥٦١ .

أبواب قرطبة

أولا ـ الجانب القبلي : (باب واحد)

باب القنطرة[1] وسمى كذلك نسبة لقنطرة قرطبة القائمة على الوادي الكبير ، وهو أكبر أبواب قرطبة .

أو باب الجسر[2] وسمى كذلك نسبة لقنطرة قرطبة القائمة على الوادي الكبير .

أو الباب القبلي[3] وسمى كذلك بسبب وقوعه الى جنوب قرطبة .

أو باب الجزيرة[4] وسمى كذلك لانه ينفتح على الطريق المؤدية الى الجزيرة الخضراء .

أو باب الصورة[5] وسمى كذلك بسبب تمثال قديم يمثل العذراء صاحبة قرطبة .

أو باب الشكال[6] وسمى كذلك بسبب تمثال قديم يمثل العذراء صاحبة قرطبة كان قائما على هذا الباب .

أو باب الوادي[7] وسمى كذلك بسبب اشرافه على الوادي الكبير .

أو باب المحجة[8] وسمى كذلك بسبب مرور المحجة من هذا الباب .

---

(١) ابن القوطية ، ص ٧٩ ، ٨١ ـ ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢٠٩ ـ أخبار مجموعة ، ص ١٠ ، ١١ ، ٢١ ـ الادريسي ، ص ٢٠٨ ـ الحميري ، ص ١٥٣ ، ١٥٦ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٣ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٤ .

(٣) العذري ، ص ١٢٢ .

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١١ . وقد ظلت الصورة (او التمثال) قائمة في موضعها الى ان قذفها عمر بن حفصون برمحه فاصابها في بداية عهد عبدالله (أخبار مجموعة ، ص ١٥١) .

(٦) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٥٦ ، ٨٩ .

(٧) ابن غالب ، ص ٢٧ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٣ .

(٨) ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢٠٩ .

ثانيا ـ الجانب الشرقي : (بابان)

(١) الباب الجديد[1] وسمي كذلك لانه افتتح في العصر الاسلامي .

أو باب سرقسطة[2] لانه ينفتح على الطريق المتجهة الى تلك المدينة .

(٢) باب عبد الجبار[3] وسمي كذلك نسبة لنزول عبد الجبار بن الخطاب بن نذير مولي معاوية بن هارون ، وقيل مولي مروان بن الحكم بالقرب من هذا الباب[4] . وكان هذا الباب مغلقا زمن العذري ابن الدلائي المتوفي سنة ٤٧٨ هـ ، فقد طمس أيام الفتنة .

أو باب طليطلة[5] بسبب مرور السكة العظمى المؤدية الى طليطلة عبر هذا الباب .

أو باب رومية[6] وسمي بهذا الاسم لوقوعه على السكة العظمى التي تنتهي برومة ، وكانت تتشعب منه الرصف الثلاثة التي تخترق اسبانيا من قادس الى أربونة ثم الى رومة[7] .

ثالثا ـ الجانب الشمالي : (باب واحد)

الباب الجوفي[8] وسمي كذلك لوقوعه بجوف قرطبة أي في السور الشمالي منها .

---

(١) ابن حيان ، نفس المصدر ، ص ٢٠٩ ـ الحميري ، ص ١٥٦ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٣ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٣ .
(٣) ابن حيان، المقتبس، نشر انطونية ملشور، ص ٢٧ ـ المقري، ص ١٣
(٤) العذري ، ص ١٢٢ .
(٥) المقري ، ج ٢ ص ١٣ .
(٦) نفس المصدر .
(٧) نفسه .
(٨) العذري ، ص ١٢٢ .

أو باب ليون[1] وسمي كذلك نسبة الى شخصية يهودية بهذا الاسم .

أو باب طليرة[2] وسمي كذلك لانه ينفتح على الطريق المؤدي الى طليرة .

أو باب اليهود[3] وسمي بهذه التسمية نسبة الى وقوعه بالقرب من حي اليهود .

أو باب الهدى[4] وسمي كذلك تحريفا من كلمة اليهود اذ استقبح الناس أن يقولوا باب اليهود

رابعا ـ الجانب الغربي : (ثلاثة ابواب)

(١) باب عامر القرشي[5] وسمي بهذا الاسم نسبة الى عامر بن عمرو القرشي الذي نزل في منية تقع في غرب قرطبة قريبا من هذا الباب .

(٢) باب الجوز[6] وسمي بهذا الاسم نسبة الى شجرة جوز كانت

---

(١) المقري ، ج ١ ص ١٤٨ ، ج٢ ص ١٦١ .

(٢) نفسه .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ١٣ ، ص ١٦١ .

(٤) العذري ، ص ١٢٢ ـ المقري ، ج ١ ص ١٤٨ ، ج ٢ ص ١٣ ، ١٦١ وقد ظل باب اليهود او الهدى قائما في العصر المسيحي، وسمي بباب اوساريو نسبة الى مقبرة كان يؤدي اليها تسمى بمقبرة ام سلمة ، ثم تحولت بعد سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين الى جبانة لليهود

(Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 369).

(٥) هو عامر بن عمرو بن وهب بن مصعب بن ابي عزيز بن زرارة بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، فنسب اليه هذا الباب ، اذ كان ينزل بالقرب منه (العذري ، ص ١٢٢) وورد اسم هذا الباب ايضا في المصادر الآتية : اخبار مجموعة ، ص ٦٣ ـ الحميري ، ص ١٥٦ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٣ . ونلاحظ أن هذا الباب استحدث في أيام عبد الرحمن الناصر تسهيلا للاتصال بين مدينة قرطبة وبين المقبرة الواقعة خلف السور الغربي من تلك الجهة كانت تعرف بمقبرة قريش ، سبق ان اشرنا اليها فيما سبق .

(٦) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٧٣ .

مغروسة في خارجه ، وكان هذا الباب قد طمس زمن الفتنة ، وشاهده العذري مسدودا .

أو باب بطليوس[1] وعرف بهذا الاسم لانفتاحه على الطريق المتجهة الى مدينة بطليوس .

(٣) باب اشبيلية[2] وعرف بهذا الاسم لانفتاحه على الطريق المتجهة الى مدينة اشبيلية .

أو باب العطارين[3] وعرف بهذا الاسم لوقوعه في منطقة سوق العطارين .

(٢)

التطور العمراني في عصر الخلافة وقيام الارباض

ا ـ المدينة الوسطى وجوانبها الاربعة :

يذكر المقري أن قرطبة « لم تزل في الزيادة منذ الفتح الاسلامي الى سنة أربعمائة ، فانحطت واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن »[4] ، ويذكر المؤرخون أن العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة اتصلت فيما بينها، وكان الناس يسيرون على حد قول الشقندي بضوء السرج المتصلة عشرة أميال[5] ، وقد شاهد ابن حوقل مدى زيادة العمران بقرطبة ، فأشار الى

---

(١) ويتفق موضعه مع موضع الباب الحالي المسمى بباب الدور Almodovar ، ولعله كان يسمى بهذه التسمية أيضا لانفتاحه على الطريق المارة ببلدة الدور Castejon, Cordoba Califal, P. 274 — Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 368.

(٢) فتح الاندلس لمؤرخ مجهول ، ص ٩ ـ اخبار مجموعة ، ص ١٢ .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ١٣ — Ocana Jimenez, op. cit., P. 146

(٤) المقري ، ج ٢ ص ٦ .

(٥) المقري ، ج ٢ ص ٥ ، ج ٤ ص ٢٠٣ .

أن الابنية كادت تتصل بين قرطبة والزهراء[1] . وقد بلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عصورها ما يقرب من مائة ألف من السكان وفقا لاحصاء تقديري قام به المهندس الاستاذ توريس بلباس[2] ، وهو رقم كبير للغاية بالنسبة لسكان المدن في العصور الوسطى . ويمكن تحديد هذه الزيادة في العمران القرطبي في جوانبها الشرقي والغربي والشمالي والقبلي ، بحيث أصبحت تتألف بعد انتهائها في التوسع والعمران على حد قول الادريسي من « مدن خمسة يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكفيها من الاسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات »[3]. وكانت كل مدينة من هذه المدن الخمسة التي تؤلف في مجموعها مدينة قرطبة تضم أرباضا يختلف عددها ونسبة اتساع كل منها ، ولم يكن مسورا من هذه المدن الخمسة في أول الامر سوى المدينــة الوسطى أو القصبة ، فابن بشكوال يذكر أن قصبة قرطبة التي تقع في وسط هذه المدن الخمسة هي وحدها « التي تختص بالسور دونها » الا أنه في أيام الفتنة عندما تعرضت قرطبة لاخطار الحرب الاهلية ، « صنع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع »[4]. وذكر ابن غالب أن هذا الخندق كان يحيط بجميع أرباض قرطبة ومساكنها ، وذرع دوره من جهاته الاربع ثلاثة وعشرون ميلا[5] . وأشار ابن حيان الى هذا الخندق ، فذكر أنه كان بالشرقية خندق يحف بالمحجة ، فأمر الخليفة المستنصر بتوسعة المحجة[6]، وذلك بابتياع الحوانيت المصاقبة لها وهدمها . كذلك لاحظ ابن حوقل أن مدينة قرطبة في خلافة عبد الرحمن الناصر كانت مسورة وحدها دون ما يحيط بها من مبان أقيمت خارجها ،

---

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٧ .

(٢) Leopoldo Torres Balbas, Extension y demografia de las ciudades hispano-musulmanas, Revista de Studia Islamica, vol. III, 1955, P. 54.

(٣) الادريسي ، ص ٢٠٨ .

(٤) المقري ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٥) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، ص ٢٧ .

(٦) ابن حيان ، المقتبس ، (القسم الخاص بالمستنصر) نشر الحجي ، ص ٦٨ .

كما ذكر أن هذه المباني متصلة من الرصافة الى شقندة ، فهي « مشتبكة مستديرة على البلد من شرقه وشماله وغربه[1] » .

ب ـ ارباض قرطبة والحومات :

وكانت أرباض المدينتين الشرقية والغربية تزيد كثيرا على أرباض المدينتين الشمالية والجنوبية : فالشرقية كانت تضم سبعة أرباض ، والغربية تسعة ، أما الشمالية فكانت تشتمل على ثلاثة فقط ، والجنوبية على ربضين . ونستدل من توزيع هذه الارباض حول المدينة العتيقة أو القصبة على أن قرطبة كانت تنقسم في القرن الرابع الهجري الى جانبين كبيرين : جانب شرقي كان يعرف بالشرقية ، وما زال يطلق عليه حتى اليوم اسم الشرقية Ajarquia ، وجانب غربي[2] . وأغلب الظن أن المدينة تجاوزت نطاقها القديم شرقا فيما وراء باب رومية والباب المستحدث في عصر الخلافة؛ ويسمى الباب الجديد ، كما تجاوزت نطاقها غربا فيما وراء أبواب عامر القرشي والجوز والعطارين ، ويتفق كل من ابن بشكوال وابن الخطيب[3]،

---

(١) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

(٢) Lévi-Provençal, las ciudades y las instituciones urbanas, Tetuan, 1950, P. 17. — Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 376. — Torres Balbas, La Medina, los Arrabales y los Barrios, Al-Andalus, 1952, P. 154. — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٢٩٨ .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٠٣ ـ المقري ، ج ٢ ص ٧ ؛ ١٣ . وذكر المقري في نص نقله عن بعض المؤرخين ان عدد أرباض قرطبة بلغ ٢٨ ربضا (ج ٢ ص ٧٨) كذلك يذكر ابن عذارى ما يشير الى ان عدد ارباض قرطبة بلغ في زمن عبد الرحمن الناصر نفس هذا الرقم ، ويتضمن الرقم مدينتي الزهراء والزاهرة (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٦) ، اما ابن غالب فيجعلها عشرين ربضا (ابن غالب ، ص ٢٧) . ونستبعد هذين الرقمين ٢٨ ؛ ٢٠ فالاول مبالغ فيه والثاني اقل ربضا واحدا من مجموع ارباض قرطبة التي اوردها ابن بشكوال ونعتقد ان ما اورده ابن بشكوال وابن الخطيب اصدق واولى بالثقة مما ذكره ابن عذارى . واذا كان ابن غالب قد جعل مجموع ارباض قرطبة عشرين فلعله استثنى منها المدينة الوسطى ، وبذلك يكون رقمه اقرب الى الرقم الذي اورده كل من ابن بشكوال وابن الخطيب . واحصائية الارباض التي اوردها ابن =

على أن عدد أرباض قرطبة يبلغ عند نهايتها في الاتساع ٢١ ربضا ، ولكنهما يختلفان في بعض الاسماء ، وفي تحديد المواقع . وفيما يلي عرض لهذه الارباض كما أوردها ابن بشكوال مع مقارنته بالاسماء الواردة في المصادر العربية الاخرى :

اولا — المدينة الغربية :

١ — حوانيت الريحان (وردت في احصائية ابن الخطيب « حوانيت الريحاني » محرفة)

٢ — الرقاقين

٣ — مسجد الكهف

٤ — بلاط مغيث

٥ — مسجد الشفاء

٦ — حمام الالبيري (وردت في المقتبس لابن حيان «حمام اللبدي»)

٧ — مسجد السرور[1] (وردت في احصائية ابن الخطيب « مسجد مسرور »)

= بشكوال كاملة مستوفاة ولذلك آثرنا الاخذ بما جاء بها ، أما احصائية ابن الخطيب فناقصة غير دقيقة في ذكر الاسماء وتحديدها ، فهو يخطيء مثلا في جعل ربض فحص الناعورة في الجانب الشرقي من قرطبة بينما يقع هذا الربض في الحقيقة بالجهة الغربية قريبا من مصلى فحص المصارة العتيق . (ابن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ٣٨ — المقري ، ج ٢ ص ١٠١) .

(١) اغلب الظن ان الاسم الصحيح لهذا الربض هو مسجد مسرور كما ورد في احصائية ابن الخطيب، لان مسرور اسم لكبير فتيان الامير عبد الرحمن الاوسط وابنه محمد ، وقد سجل اسم مسرور على عقد بوابة سان استيبان من الابواب الغربية بجامع قرطبة بتاريخ سنة ٢٤١ ، كما ورد هذا الاسم في المقتبس لابن حيان عندما اشار الى قيام الفتى نصر وصاحبه مسرور ببنيان الزيادة التي امر بها الامير عبد الرحمن الاوسط في جامع قرطبة (ابن حيان ، تحقيق انطونية ، ص ٢٩٧ — Arabica, P. 90) . اما اسم السرور الوارد في احصائية ابن بشكوال فالظاهر انه اسم لمنية بالزاهرة (المقري ، ج ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٦) .

٨ ــ مسجد الروضة (وردت في احصائية ابن الخطيب « الروض المحدث »)

٩ ــ السجن القديم

ثانيا ــ المدينة الشرقية :

١ ــ شبلار (وردت كذلك في المقتبس ، ولكن ذكرها ابن الخطيب تحت اسم فحص الناعورة)

٢ ــ فرن بريل (وردت في المقتبس باسم قرن مرمل)

٣ ــ البرج (غير موجود في ابن الخطيب)

٤ ــ منية عبدالله .

٥ ــ منية المغيرة (غير موجودة في ابن الخطيب ولكنه أوردها خطئا في المدينة الجنوبية)

٦ ــ الزاهرة (غير موجودة في ابن الخطيب)

٧ ــ المدينة العتيقة (وردت في ابن الخطيب المدينة فقط)

ويضيف ابن حيان الى هذه الارباض اسم ربض مسجد متعة .

ثالثا ــ المدينة الوسطى :

وتضم القصبة العتيقة أو قصبة قرطبة ومركزها .

رابعا ــ المدينة الجنوبية :

١ ــ شقندة

٢ ــ منية عجب (أورد ابن الخطيب مكانها منية المغيرة خطئا)

خامسا ــ المدينة الشمالية :

١ ــ باب اليهود

٢ ــ مسجد أم سلمة (ويسميه ابن الخطيب ربض قوت راشة المنسوب الى أم سلمة)

٣ ــ الرصافة

وكانت المدينة وأرباضها تنقسم الى حومات او حارات(أي أحياء) نذكر منها حومة باب الفرج، وحومة النجارين أو النشارين[١]، وحومة عين فرقد، وكلها بالمدينة الشرقية[٢] ، كذلك ورد اسم حومة غدير بني ثعلبة بقرطبة[٣] ونلاحظ في جدول توزيع الارباض سالف الذكر أن خمسا من أرباض قرطبة كانت تتسمى بأسماء مساجد هي : مسجد الشفاء ، وكانت أم ولد وجارية للامير عبد الرحمن الاوسط ، ومسجد الكهف ، ومسجد مسرور ، وكان فتى من فتيان عبد الرحمن الاوسط ، ومسجد الروضة ، ومسجد أم سلمة، وكلها تقع في الجانب الغربي من قرطبة باستثناء مسجد أم سلمة فيقع في شمالها ، كما أن هناك أرباضا تتسمى بأسماء تجارية أو صناعية مثل ربض حوانيت الريحان والرقاقين بالغربية . وبالاضافة الى المساجد التي أشرنا اليها كان بالجانب الغربي أيضا مساجد أخرى أقامتها جاريات لامراء بني أمية نذكر من بينها ، مسجد السيدة الكبرى الواقع قريبا من مقبرة عامر القرشي وبجوار دار منذر بن سعيد البلوطي[٤] ، ومسجد متعة ، ومسجد طروب ، ومسجد عجب[٥] .

---

(١) ابن خاقان . مطمح الانفس ومسرح التانس في ملح أهل الاندلس . قسنطينة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) ص ٤٣ .
(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس. ج ١، مدريد، ١٨٩١. ص ٢٨٨
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .
(٤) المقري ، ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس . ص ٢٩٩ .

ج ـ الاسواق القرطبية في المصادر العربية والوثائق القشتالية :

وهناك مواضع أخرى لم يرد ذكرها في المصادر العربية ولكن أسماءها وصلت الينا في الوثائق القشتالية التي ترجع الى الفترة التي أعقبت حركة الاسترداد المسيحي لقرطبة ، كذلك وصلتنا خريطة لقرطبة يرجع تاريخها الى سنة ١٨١١ تحدد لنا بعض المواضع القديمة تحديدا دقيقا يمكننا على هديه أن نحدد مواقعها الاسلامية، مثل القيسارية وتقع في الخريطة المذكورة الى الجنوب الشرقي من المسجد الجامع ، وحولها نجد أسماء شوارع لاسواق مختلفة ، منها شارع القصابين أو اللحامين Carniceros ، وقد ورد ذكر نفس هـذا الاسم « القصابين » في تاريـخ افتتاح الاندلس لابن القوطية[1]،ومنها شارع الخياطين Calle de los Alfayates ٠وكثرت في الشرقية أسماء شوارع يمكن أن تكون مترجمة من العربية مما يدل على أنها تحتفظ اليوم بصلاتها بالنشاطات التجارية أو الصناعية في المدينة الاسلامية مثل شارع السراجين Silleria الذي يتفق مع اسم ورد ذكره في كل من المقتبس والبيان المغرب باسم حوانيت السراجين بقرطبة[2] ٠ ومن أمثال هذه الاسماء أيضا أسماء الشوارع الآتية : الخلالين Vinagreros ، والوراقين أو الكتبية Librero وسوق الخيط Cordoneros والحصارين Esparteria وقد ورد ذكر اسم هذا السوق الاخير في تاريخ ابن القوطية[3] ، وسوق الجيارين Calle del Yeso ٠ كذلك وصلت الينا في قرطبة الحديثة أسماء شوارع تحتفظ بأصولها العربية مثل شارع الزنيقة وشارع المونة (أي الصابون) ورحبة المغرة ٠ وبقرطبة شارع يعرف اليوم بشـارع السبع لفات أو ليات Calle de las siete vueltas ،وهو اسم كان شائعا في شوارع المدن الاسلامية في المغرب والاندلس مثل اشبيلية وقرمونة ومالقة[4] ٠

---

(١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٠ ٠

(٢) ابن حيان، نشر الحجي،ص ٢٠٧ ـ ابن عذارى،ج ٢ ص ٣٧٠،وكان الحكم المستنصر قد حبسها على المعلمين لاولاد الفقراء ، والظاهر ان حوانيت السراجين كانت تقع بالشرقية في نفس الموضع الوضح في خريطة سنة ١٨١١ ٠

(٣) ابن القوطية ، ص ٧٠ ٠

(٤) Lévi-Provençal, Histoire de l'Esp. musulmane, t. III, P. 368

وكان بقرطبة سوق للدواب لعله كان يقع خارج الاسوار[1] ، ولا نعرف على وجه الدقة مكان انعقاده . أما أسواق العطارين فكانت تقع قريبا من باب اشبيلية الذي كان يعرف أيضا بالعطارين . وذكر ابن عذارى اسمي سوقين أحدهما للصاغة والآخر للبيازرة[2] ، كما أورد اسمي سوقين آخرين أحدهما يقال له سوق الخشابين لعله هو نفس سوق النشارين[3] الذي سبق أن أشرنا اليه ، والآخر سوق السرادق الذي نستنتج من قول ابن عذارى أنه كان يقع قريبا من قنطرة قرطبة[4] .

د ـ احصائيات المؤرخين بالدور والحوانيت والمساجد والحمامات :

ويصور مؤرخو العرب اتساع قرطبة عمرانيا باحصائيات للدور والمساجد والحمامات والحوانيت التي اكتظت داخل نطاقها . أما المساجد فقد بلغ عددها في أيام عبد الرحمن الداخل ٤٩١ مسجدا وفقا لما ذكره الحميري نقلا عن البكري[5] ، ثم زادت بعد ذلك زيادة كبرى ، فوصل هذا الرقم ، وفقا لما ذكره ابن حيان ، في عهد المنصور بن أبي عامر الى ١٦٠٠ مسجدا في قول[6] ، و ٣٨٧٧ مسجدا في قول[7] ، و ٣٨٣٧ مسجدا في قول آخر[8] ، بينما ذكر ابن غالب نقلا عن ابن حيان أن مساجد قرطبة وصلت عند انتهاء كمالها الى ١٨٣٦ مسجدا[9] ، وأيا ما كان الرقم الصحيح فالظاهر أنها تجاوزت الالف مسجد . أما الحمامات فذكر المقري نقلا عن

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٦٢ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٨٧ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٧ ، ١٠٧ .
(٤) نفسه ، ج ٣ ص ٨٠ .
(٥) الحميري ، نقلا عن البكري ، ص ١٥٧ ـ المقري ، ج ٢ ص ٧٨ .
(٦) المقري ، ج ٢ ص ٧٩ .
(٧) نفسه ، ص ٧٩ .
(٨) نفسه .
(٩) ابن غالب ، ص ٢٧ .

ابن حيان أن عددها وصل في أيام المنصور بن أبي عامر الى ٩٠٠ حمام[١] وقيل ٧٠٠ حمام[٢] ، وقيل ٩١١ حماما[٣] . أما ابن غالب فيجعل عـدد حمامات قرطبة في ذروة تألقها ٧٠٠ حمام[٤] . أما عدد دور الرعية فقد وصل وفقا لرواية المقري وابن غالب في أيام المرابطين والموحدين الى ثلاثة عشر ومائة ألف دار في حين وصل عدد دور الخاصة والكبراء الى ٦٣٠٠[٥] ويذكر لنا المقري في موضع آخر أن عدد دور الرعية وصل في أيام المنصور ابن ابي عامر أي في أوج عظمة قرطبة الى ٢١٣٠٧٧ دارا وأن عـدد دور الخاصة والكبراء وصل في نفس الفترة الى ٦٠٣٠٠[٦] دار سوى مصاري الكراء أي الغرف المعدة للايجار ، والحمامات والخانات . أما الحوانيت فيجعل ابن غالب عددها في أيام ابن أبي عامر ٨٠٤٥٥ حانوتا . وفيما يلي جدول بهذه الاحصائيات :

(١) المقري ، ص ٧٩ .
(٢) نفس المرجع .
(٣) نفســه .
(٤) ابن غالب ، ص ٢٧ .
(٥) المقري ، ص ٧٩ .
(٦) نفســه .

المصدر التاريخي	عصر الانشاء	عدد دور الخاصة	عدد دور العامة	عدد المساجد	عدد الحمامات	عدد الحوانيت
ابن الفرضي	في عصر الخلافة			٤٧١		
العذري والحميري (نقلا عن البكري)	في عصر الخلافة			٤٩١		
ابن غالب (نقلا عن ابن حيان)	في عصر الخلافة		١١٣٠٠٠	١٨٣٦	ما يزيد على ٧٠٠	
ابن عذاري	؟		١١٣٠٠٠	٣٠٠٠		
المقري (نقلا عن ابن حيان)	ابن ابي عامر			١٦٠٠	٩٠٠	
المقري (نقلا عن بعض المؤرخين)	ابن ابي عامر	٦٠٣٠٠	٢١٣٠٧٧			٨٠٤٥٥
المقري (نقلا عن بعض المؤرخين)	عبد الرحمن الداخل			٤٩٠		
المقري (نقلا عن بعض المؤرخين)	عصر دولتي المرابطين والموحدين	٦٣٠٠	١١٣٠٠٠			

الفصل السادس

معالم قرطبة ومنتزهاتها في العصر الاسلامي

(١) في عصر الدولة الاموية والطوائف

القصر الخلافي ـ المسجد الجامع ـ القنطرة ـ الرصيف والسد والمنبر (الارحاء) ـ منية الناعورة ـ سوق قرطبة ـ مصليا المصارة والربض ـ منية نصر ومنية عجب ـ فحص السرادق ـ حير الزجالى ـ دور السكة والطراز والصناعة ـ برج الجانب الشرقي ـ سجن قرطبة ـ دور الخاصة والامراء وبعض الدور الهامة ـ مواضع أخرى من قرطبة ـ المقابر ـ الوادي ـ المنية المصحفية ـ القصر الفارسي ـ المنية العامرية .

(٢) في عصري المرابطين والموحدين

(٣) قرطا قرطبة : الزهراء والزاهرة

أ ـ مدينة الزهراء

ب ـ مدينة الزاهرة

الفصل السادس

معالم قرطبة ومنتزهاتها في العصر الاسلامي

(١)

في عصر الدولة الاموية والطوائف

تميزت قرطبة الاسلامية بوجود بعض أبنية أو مواضع تردد ذكرها في المصادر التاريخية أو الجغرافية أو الادبية ، واستطعنا أن نحدد مواقعها على وجه التقريب ، اما استنادا على آثار تبقت منها ، أو لان أسماءها وصلت الينا مقترنة بأسماء معروفة مواقعها .

(١) القصر الخلافي :

يقع القصر في داخل المدينة ، ولهذا السبب سميت المدينة الداخلية بالقصبة ، وهذا القصر بناء روماني قديم توارثه الملوك من العصر الروماني حتى الفتح العربي ، ثم اتخذه الولاة منذ ولاية أيوب بن حبيب اللخمي مقرا لهم الى أن قامت الدولة الاموية ، فوسع فيه أمراء بني أمية ، وشيدوا به قاعات جديدة ومجالس وقصور تأنقوا في تزيينها حتى بلغت الغاية في الفخامة والبهاء ، وساقوا اليها المياه من جبال قرطبة ، وأجروها في ساحاته في برك وأحواض من الرخام ، وأطلقوها من تماثيل معدنية تمج الماء من أفواهها . وقد وصفه ابن بشكوال هذا القصر فقال : « هو قصر أولي تداولته ملوك الامم من لدن عهد موسى النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، وفيه من المباني الاولية والاثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والامم السالفة ما يعجز الوصف ، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتح الله عليهم الاندلس بما فيها في قصرها البدائع الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الانيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال

قرطبة على المسافات البعيدة ، وتموّنوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم ، وأجروها في كل ساحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة ، والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة[1] » . وعندما افتتح مغيث الرومي قرطبة احتل هذه القصر الى أن أجلاه عنه موسى بن نصير واعتاضه عنه قصرا غربي قرطبة خارج أسوارها يعرف ببلاط مغيث باعتبار ان هذا القصر القديم لا يصلح الا لمن يتولى امارة قرطبة ، وكان هذا القصر من الاتساع بحيث كان متصلا بسورها القبلي والغربي في آن واحد[2] . وظل هذا القصر مركزا للولاة حتى كانت أيام عبد الرحمن الداخل ، الذي استقر فيه كذلك بعد انتصاره على يوسف الفهري والصميل في واقعة المصارة . ولما تمهد ملكه أخذ في تجميل قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الامارة[3] . وأغلب الظن أنه أعاد بعض ما تهدم منه ، أو اضاف فيه اضافات جديدة حتى يكون جديرا بقصر للامارة الاموية . ولا شك أن أعمال عبد الرحمن الداخل كانت داخل نطاق سور القصر المرتفع بأبراجه العالية السمو ، المنيفة العلو ، والتي اتخذ أحدها ليكون مئذنة للجامع ظلت تؤدي هذه الوظيفة حتى بعد أن أتم الداخل بناءه للمسجد الجامع الجديد في سنة ١٧٠ هـ[4] ، لمجاورته للجامع . وظل هذا البرج يؤدي هذه الوظيفة الى أن شيد الامير هشام بن عبد الرحمن الداخل المئذنة الجديدة[5] . ويبدو أن القصر كانت له منظرات تطل على النهر والربض الجنوبي ، فان هشام كان يجلس عادة في علية تطل على النهر والربض الجنوبي . ويبدو

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٢ .
(٢) الحميري ، ص ١٥٦ .
(٣) المقري ، ج ٢ ص ٨٤ ، ج ١ ص ٣٠٨ .
(٤) اخبار مجموعة ، ص ٩٣ .
(٥) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٤٢ .

أن القصر أضيف اليه في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط الذي اتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب اليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعا اتخذه الناس شريعة[1] ، ولعله بنى القصر المسمى بالكامل[2] . ويذكر ابن خلدون أن الامير الحكم بن هشام وعبد الرحمن الاوسط والامير محمد اهتموا بتشييد المجالس بقصر قرطبة ، فأسسوا فيه المجلس الزاهر والبهو الكامل والمنيف[3] . وفي المجلس الكامل جلس عبد الرحمن الناصر لاخذ البيعة[4]. وفي المجلس الزاهر استقبل الناصر سفير بيزنطة في سنة ٣٣٨هـ. ومن أضاف الى القصر الامير عبدالله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) عندما فتح بابا في القصر عند ركنه القبلي سماه باب العدل[5] ، وكان يجلس فيه للناس يوما في الاسبوع ليباشر أحوال المظلومين بنفسه عندما يرفعون اليه فيه الظلامات ، وتصل اليه كتبهم على باب من الحديد[6] . كما أقام ساباطا يصل بين القصر والباب المعروف بباب سان استبان من أبواب جامع قرطبة الغربية المواجهة للقصر[7] . أما الناصر ، فانه لولعه بالبنيان لم يترك في قصر الامارة بنية الا وترك فيها أثرا محدثا اما بتجديد أو بتزييد[8] ، ومن الابنية التي أضافها في القصر قصر بناه عرف بدار الروضة[9] بجوار قصره الزاهر، ولعله سمي كذلك لانه كان يطل على تربة الخلفاء المعروفة بالروضة داخل القصر[10] ، كما أسس الدار المسماة بدار الرخام[11]. وأغلب الظن أن هذه القصور أو المجالس التي أقامها هؤلاء الامراء في قصر قرطبة القديم كانت

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٢٥ .
(٢) ابن القوطية ، ص ٧٧ .
(٣) المقري ، ج ٢ ص ١١٢ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٣٦ .
(٥) ابن حيان ، نشر ملشور ، ص ٣٤ ، ٣٧ .
(٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
(٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٨) نفسه ، ج ٢ ص ٢٣٦ .
(٩) المقري ، ج ٢ ص ١١٢ .
(١٠) ابن حيان ، نشر ملشور ، ص ٣ .
(١١) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ١٩٣ .

أبنية جديدة أقيمت على أنقاض القصر القديم أو أجزاء منه . ومــع أن المصادر العربية لم تشر الى أعمال الحكم المستنصر في القصر الخلافي ، فاننا نستدل من تيجان الاعمدة الست التي عثر عليها في القصر القديم على أن الحكم اضاف بنية جديدة في القصر : فعلى ثلاثة من هذه التيجان نقش يبين أنها عملت بأمر الحكم لغرف القصر ، وعلى واحد رابع نقش نصه : « عمل صفر لمصلى مولاه » ، وأربع من هذه التيجان يحمل تاريخ سنة ٣٥٣ هـ[١]، ويعتقد ليفي بروفنسال أن هذه التيجان قد تكون من القصر ، ويرجح أنها كانت في واجهته ، وقد تكون اللوحة الموجودة في الجامع والتي عثر عليها في سنة ١٨٩٦ أثناء أعمال الاصلاح التي أجريت في أرضية المسجد اللوحة التذكارية لبنيته التي أضافها الى قصر الخلافة ، ونص هذه الكتابة ما يلي :

« بسمله شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم . ما شاء الله كان ولا حول ولا قوة الا بالله وصلى الله على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وسلم عليه في العالمين . أمر الامام عبدالله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين ولي عهده وخليفته على عباده ، الحافظ لحرمه ، والواقف عند حدوده ، والشاكر لنعمته أطال الله بقاه في أتم كرامة وأعم سلامة ، وأكمل سرور وغبطة بهذه البنية ، فتمت بعون الله وقوته على يد مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضى الله عنه بنظر معقل وتمام فتنيه في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة والحمد لله رب العالمين[٢] . ولكنني أعتقد أن العثور على هذه اللوحة داخل المسجد يدل على أنها تنتمي الى أحد أبنية الجامع أو ملحقاته ، ولعلها تشير الـى قيامه

---

(١) Ocana Jimenez, Capiteles epigrafiados del Alcazar de Cordoba, en la Revista al-Andalus, Vol. III, 1935, PP. 155-167. Ocana Jimenez, Capiteles fechados del siglo X, al-Andalus, V, 1940, PP. 443-449 — Torres Balbas, Arte Hispano Musulman, en la coleccion Historia de Espana, Madrid, 1957, P. 591.

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, Paris, 1931, texte 14, P. 19.

ببناء دار الصدقة التي كانت تقع غربي الجامع ، أو الى المكاتب التي أقامها حول ساحة الجامع ، أو البيوت التي ابتناها للفقراء قبالة الباب الغربي الكبير ، أو لبناء خزانات الجامع أو أحواضه وسقاياته .

وكان قصر قرطبة يضم قصورا داخلية نذكر منها بالاضافة الى الاسماء التي سبق أن ذكرتها المجدد والحائر وقصر الوزراء والمعشوق والمبارك والرشيق والسرور والتاج والبديع[1]. كما وصلنا اسم قصر البستان ويقع بجوار باب العطارين لعله كان مجلسا من مجالس القصر الخلافي بقرطبة لقربه منه[2] ، كما وصلنا اسم دار يقال لها دار الخيل . ونلاحظ أن بعض أسماء هذه القصور تماثل أسماء قصور أموية وعباسية بالمشرق ، فقصر الحائر يذكرنا بقصري الحير الشرقي والغربي ، وقصر التاج يذكرنا بنظيره العباسي الذي اقامه الخليفة العباسي المتضد في بغداد ، وقصر المعشوق وقصر المختار وقصر البديع تذكرنا بأسماء مماثلة في قصور العباسيين بسامراء ومن أبواب قصر الخلافة بقرطبة الابواب التالية :

الابواب القبلية :

باب السطح المشرف (باب السدة) : وقد فتحه الامير عبد الرحمن الاوسط في سور يمتد من سور المدينة لاغلاق الرصيف ، وكانت دفته من الحديد ، وبها حلق لاطون (من الصفر) ، على شكل رأس رجل يفتح فمه ، وكان في الاصل يزين باب مدينة أربونه ، فلما افتتحها الامير هشام في ١٧٧ جلب حلقها الى هذا الباب[3] واشترط على المعاهدين من

---

(١) ابن حيان، المقتبس نشر الحجي، ص ٢٣٠ — المقري، ج ٢ ص ١٢ . وكان يجلس فيها الحكم المستنصر ايام مرضه للتسلي بمشاهدة البربر وهم يلعبون (Emilio Garcia Gomez, al-Hakam II Y los Berberes, al-Andalus, Vol. XIII, P. 211).

(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٢ .

أهل جليقية نقل عدد من أحمال التر ب من سور أربونة المفتتحة يحملونها الى باب قصره بقرطبة حيث بنى المسجد الواقع أمـام باب الجنان[1] وكان باب السدة أو السطح المشرف ينفتح على رصيف قرطبة ، ويعتبر احد الابواب الرئيسية بالقصر ، وكان الامير يشرف مـن السطح على اعدام الثوار امام الباب[2] ، وتعليق جثثهم أو صلبها على شرفاته[3] ، وعلى هذا الباب صلبت جثة عمر بن حفصون في سنة ٣١٦ هـ ، بعد أن رفعت في جذوع عالية ، بجانب جثة ابنه سليمان[4] ، وعلى هذا الباب أيضا صلب الرامي المعروف بأبي نصر في سنة ٣١٢[5] ، وكان قـد اشتهر بالرماية والاصابة أيام عمر بن حفصون، فصلب ورمي بالنبال حتى اصيبت جوارحه، وبقي في الجذع أياما ثم أحرق . وعلى الباب نفسه سمرت رأسا شنجول ابن المنصور محمد بن ابي عامر وصاحبه غرسية غومس على خشبة طويلة[6] ويبدو أن باب السطح المشرف أو السدة كان يعرف كذلك بباب الجنان ، لان هذا الباب الاخير كان يقع بدوره على الوادي ، كما عرف أيضا باسم رابع هو باب الوادي ، مما يقطع بأن هذه الاسماء جميعا أسماء مختلفـة لباب واحد هو الباب القبلي المطل عـلى الوادي . وكان يقوم أمام هذا الباب على الرصيف المشرف على النهر مسجدان كان الامير هشام يستعمل الحكم في المظالم فيهما ، وقد بنى أحدهما بتراب سور أربونة ، بعد أن افتتحها الامير هشام . وبجوار المسجدين المذكورين كانت تمتـد رحبة تعرف بالحصا تقع أدنى القصر وتشرف على النهر حيث كان يصلب الثوار في زمن عبد الرحمن الداخل[7] .

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٩٥ ـ المقري . ج ١ ص ٣١٦ .
(٢) ابن القوطية ، ص ١١٢ .
(٣) ابن القوطية ، ص ٩٧ ، ٩٨ ـ ابن عذارى . ج ٢ ص ٧٤ . ٢٨٧ . ٢٨٨ ، ٢٩٤ .
(٤) ابن عذارى . ج ٢ ص ٢٩٤ . وكانت جثة سليمان قد صلبت في سنة ٣١٤ (ابن القوطية ، ص ١١٥ .
(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٨٦ .
(٦) ابن عذارى . ج ٢ ص ٧٠ .
(٧) اخبار مجموعة . ص ١١٥ .

ومنها باب يقال له باب العدل فتحه الامير عبدالله ، وأقام الناصر أمامه فوارة في سنة ٣٠٧[١] . وكان هذا الباب يفضي مباشرة الى الرصيف ، وقد تهدم في سنة ١٨٢٢،وكان ظاهرا في تخطيط قرطبة سنة ١٨٥١[٢].ويبدو أنه كان القصر قرطبة باب قبلي ثالث يقال له باب الحديد ذكر ابن عذاري أن المنصور بن أبي عامر أمر بسده بالحجر في سنة ٣٦٦ ،وقصر دخول الناس وخروجهم على باب السدة حتى يراقب الداخلين الى القصر ويمنع المتآمرين من الصقالبة[٣] .

الابواب الشمالية :

وصلنا منها اسمان فقط هما باب قورية ، وباب الصناعة ، وكان هذا الباب الاخير مغلقا ، وسمي بباب الصناعة لمجاورته لدار الصناعة القريبة من مسجد أبي عثمان[٤] . ويضيف العذري بابا يقال له باب الملك[٥] .

الابواب الشرقية :

أهمها جميعا باب الجامع ، وهو الباب الذي كان يدخل منه الامراء على الساباط الى المسجد[٦] ، وقد فتح لهذا الساباط باب في جدار المسجد تجاهه من الجهة الغربية ، ويعرف هذا الباب الغربي بالمسجد اليوم بباب سان ميجل[٧] .

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٦١ .
(٢) Torres Balbas, las Norias fluviales en Espana, al-Andalus, Vol. V, 1940, P. 202.
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٩١ .
(٤) المقري ، ج ١ ص ٣٥٤ .
(٥) العذري ، ص ١٢٣ .
(٦) المقري ، ج ٢ ص ١٢ .
(٧) Gomez Moreno, op. cit., P. 56 والترجمة العربية ص ٦٣ — Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 416.

أما الجهة الغربية من القصر فكانت كلها بساتين وجنات وروضات .

وقد تعرض القصر لاعمال النهب والسلب والتخريب عقب دخول البربر قرطبة في سنة ٤٠٣ ، فطمست أبوابه في هذه الفتنة البربرية[1] ولم يعد يقيم فيه الخلفاء والامراء والعمال ، فبنو جهور كانوا يتولون أمر قرطبة من ديارهم ، وعندما نزل المعتمد بن عباد قرطبة أقام في قصر البستان الواقع عند باب العطارين ، كذلك لم ينزل فيه الخليفة يعقوب المنصور عند مروره بقرطبة ، وانما نزل بقصر السيد أبي يحيى الذي شيده على الوادي الكبير[2] .

ومع ذلك فقد ظل قصر قرطبة قائما حتى سنة ١٢٣٦ التي تسجل سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين ، فكان قصر قرطبة من نصيب اسقفها ، وعرف منذ ذلك الحين بالقصر الاسقفي Palacio Episcopal . وأصيب هذا القصر باضرار جسيمة على مر العصور ، فقد احرق عدة مرات ، ثم حوله الاسقف دون سانشو دي روخاس (١٤٤٠ — ١٤٥٤) الى قصر من الطراز القوطي ، ثم احرق في سنة ١٤٥٦ ، وهدمت واجهته الجنوبية المطلة على الوادي في السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، كما تهدم الساباط الذي كان يربط بين القصر وبين المسجد الجامع . وفي سنة ١٧٤٥ احرق القصر للمرة الثانية وفقد كل معالمه القديمة ، ولم يبق منه في الوقت الحاضر سوى الجدار المقابل لجدار الجامع وقسم من جداره الشمالي ، اذ ما زالا يحتفظان بنظام البناء في جامع قرطبة نفسه بما في ذلك الركائز التي تدعم الجدران وتدفع عنها الضغط[3] .

وفي قصر قرطبة يقول احمد بن سليمان الكاتب المعروف بالبياني

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٣ .

(٢) Torres Balbas, arte hispano-musulman, P. 592.

(٣) Castejon, Cordoba Califal, P. 74 — السيد عبد العزيز سالم ، مقال عن العمارة المدنية في الاندلس ، كتاب الشعب ، رقم ٦٤ ، ص ١٢٦ .

احد شعراء الحكم المستنصر ، عندما نزله الخليفة بعد اقامة طويلة في مدينة الزهراء :

يا قصر حلك للاله سلام	عطفت عليه زيادة وتمام
ظلت تخايل في مصانعك العلى	فيها على تلك السجوف زحام
قد كنت مهجورا مضاعا برهة	فالآن حين أظلك الإكرام
والآن جد الملك في غلوائه	فعلت له فوق النجوم خيام[1]

٢ - المسجد الجامع بقرطبة :

يقع هذا المسجد على امتداد الواجهة الشرقية للقصر الخلافي ، والى شمال قنطرة قرطبة ، ويفصل بينه وبين القصر الطريق الاعظم المسمى بالمحجة العظمى . وجامع قرطبة من أجل أبنية قرطبة « كبر مساحة ، واحكام صنعة ، وجمال هيئة ، واتقان بنية ، تهمم به الخلفاء المروانيون ، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتتميما اثر تتميم ، حتى بلغ الغاية في الاتقان ، فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن حسنه الوصف »[2] . وكان جامع قرطبة لذلك من اشهر مساجد الاسلام الجامعة في المغرب والاندلس وكان مفخرة من مفاخر قرطبة الاربعة ، وفي ذلك يقول القاضي ابو محمد بن عطية :

بأربع فاقت الامصار قرطبة	منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة	والعلم أكبر شيء وهو رابعها[3]

وقد كان هذا المسجد موضع تعظيم واجلال اهل الاندلس ، لان حنش بن عبدالله الصنعاني وأبا عبد الرحمن الحبلي توليا تأسيسه

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢١٤ .
(٢) الحميري ، ص ١٥٥ .
(٣) المقري ، ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ١٤٦ .

بأيديهما ، وقوما محرابه، فنعتوه لذلك بالجامع الاعظم[1] ، وهي تسمية نطالعها في قول ابن عطية بن عبد الحق :

استودع الله أهل قرطبة حيث وجدت الحياء والكرما
والجامع الأعظم العتيق ولا زال مدى الدهر مأمنا حرما[2]

كما سموه بالجامع المبارك[3] ، والجامع المكرم[4] . وقد بلغ من اجلال أهل الاندلس وتعظيمهم لهذا الجامع أن اعتبروه مركزا دينيا هاما يحج اليه الناس ، ويتجلى ذلك في قول ابن المثنى شاعر الامير عبد الرحمن الاوسط :

بنيت لله خير بيت يخرس عن وصفه الانام
حج اليه بكل أوب كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه اذا ما حف به الركن والمقام[5]

وفي هذا الجامع كانت تعقد مشاهد ليلة القدر من كل عام[6] ، فكان المسلمون يقصدون من سائر أنحاء الاندلس لحضور الاحتفال الديني بليلة القدر ، وقد وصل الينا نص وصفي دقيق لجامع قرطبة في أحد هذه الاحتفالات ، للكاتب الفقيه أبي محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبني ، قال فيه : « ... اني شخصت الى حضرة قرطبة — حرسها الله — منشرح الصدر لحضور ليلة القدر ، والجامع قدس الله بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه ، قد كسي ببردة الازدهاء ، وجلي في معرض البهاء... »[7]

---

(1) المراكشي ، ص ٢٧٢ — ابن الخطيب ، ص ٤٣ ، ٤٨ — المقري ، ج ٢ ص ١٠ ، ٩٩ .
(2) المقري ، ج ٢ ص ١٤٦ .
(3) ابن حيان ، المقتبس ، نصوص نشرها ليفي بروفنسال في مجلة Arabica مجلد ١ قسم ١ ، ليدن ١٩٥٤ ، ص ٨٩ ، ونفس النص في القسم الذي نشره الاستاذ الحجي ، ص ٢٤٣ .
(4) ابن غالب ، ص ٣٠ .
(5) المقري ، ج ١ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .
(6) نفسه ، ج ١ ص ١٦٠ .
(7) نفسه ، ج ٢ ص ٨٩ — ٩٢

وقد تعرض جامع قرطبة للزيادة فيه منذ أن أسسه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ حتى سقوط الخلافة بقرطبة ثلاث مرات : الاولى في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط سنة ٢٣٤ هـ ، والثانية في عهد الحكم المستنصر في سنة ٣٥٤ هـ ، وكانت كلتا الزيادتين من الجهة القبلية ، والثالثة في عهد المنصور بن ابي عامر في سنة ٣٧٧ هـ من الجهة الشرقية ، لتعذر الزيارة فيه من الجانب الغربي لوجود السكة العظمى ، وتعذرها من الجهة القبلية لوجود السور وباب القنطرة والوادي . وكانت تشغل الموضع الذي أقيمت عليه زيارة المنصور دور ومستغلات ، اشتراها المنصور من أصحابها بثمن عادل وهدمها لتوسعة الجامع[1] . وسنعود الى دراسة هذا الجامع تفصيليا من الناحيتين التاريخية والاثرية .

٣ ـ قنطرة قرطبة :

وتقع شمالي باب قرطبة الجنوبي ، وهو الباب الوحيد الذي ينفتح في سور قرطبة من هذه الجهة القبلية ويصل بين مدينة قرطبة وبين ربضها القبلي المعروف بشقندة، وكانت هذه القنطرة من بناء الامبراطور أوغسطس قيصر ، وظلت قائمة تؤدي وظيفتها حتى أواخر أيام دولة القوط الغربيين ثم تهدمت قبل الفتح الاسلامي بقليل ، وسقطت حناياها ولم يبق منها سوى دعائمها الراكبة في النهر[2] . ويذكر ابن عذارى أن المسلمين « اذ فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثائق الاركان من تأسيس الامم الدائرة ، قد هدمها مدود النهر على مر الازمان »[3] . وظلت هذه القنطرة كذلك الى أن كانت ولاية السمح بن مالك الخولاني ، فكتب الى الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز يستشيره ويعلمه « بأن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٢٩ ـ المقري ، ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٧ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٢٦ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤ ـ المقري ، ج ٢ ص ٢٦ .

وامتناعه من الخوض الشتاء عامة،فان أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد، وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم[1] » ، فأمر عمر بن عبد العزيز ببنيان القنطرة بأحجار السور المتخرب ، فرمم القنطرة في سنة ١٠١هـ[2] ترميما حسنا حتى أصبحت بحق احدى مفاخر قرطبة، وقد وصفها الادريسي بقولـه : « ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخرا في بنائهـا واتقانها وعدد قسيها ١٧ قوسا[3] بـين القوس والقوس خمسون شبرا (١٠ امتار تقريبا) ، وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرا (نحو ستة أمتار) ، ولها ستائر (أي جدران) من كل جهة تستر القامة ، وارتفاع القنطرة من موضع المشي الى وجه الماء في أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعا (نحو ١٥ مترا)، واذا كان السيل بلغ الماء منها الى نحو حلوقها[4] » ويذكر صاحب مناهج الفكر أن طولها ٨٠٠ ذراعـا وعرضها ٢٠ باعـا ، وارتفاعها ستون ذراعا[5] . ولكن هذه الارقام التي يوردها هذا المؤلف خيالية مبالغ فيها ، فان طول القنطرة اليوم لا يتجاوز ٢٢٣ مترا . وقـد تعرضت القنطرة لاصلاحات عديدة ، بسبب مدود النهر وعنف السيول ، ففي سنة ١٦١ « حمل نهر قرطبة حملا عظيما حتى سد حنايا القنطرة ، وهدم بعضها ، وزلزلها[6] » ولم يتهيأ لـلامير عبد الرحمن الداخل أن يرممها لانشغاله باستنزال الثوار في الاندلس ، فتولى الامير هشام مهمة ترميمها

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٢٤ .

(٢) نفس المصدر ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥ .

(٣) تقوم القنطرة اليوم على ١٦ قوسا ، وكانت هذه الاقواس ترتكز على ارجل ضخمة (اكتاف او ركائز) نصف اسطوانية تتوجها من أعلى كسوة زخرفية نصف مخروطية . وقد ذكر صاحب مناهج الفكر أن عدد أقواسها ١٨ قوسا ، وعدد ابراجها تسعة عشر برجا (المقري ، ج ٢ ص ٢٦) بينما ذكر الحميري أن عدد أقواسها ١٩ قوسا (الحميري ، ص ١٥٨) .

(٤) الادريسي ، ص ٢١٢ .

(٥) المقري ، ج ٢ ص ٢٦ .

(٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

بنفسه ، وأنفق في اصلاحها اموالا عظيمة[1] . وفي سنة ١٨٢ اصيبت القنطرة مرة ثانية بسبب سيل عظيم جرف ربض القنطرة ، فلم يبق فيه دارا الا هدمها ، وبلغ السيل شقندة[2] . وفي سنة ٢٨٨ وافى بنهر قرطبة سيل جارف اغتصت به حلاقيم القنطرة ، وتثلمت بعض أرجلها[3] ، وفي سنة ٢٩٦ تعرض النهر من جديد لمد هائل[4] وفي عصر عبد الرحمن الناصر تثلمت قنطرة قرطبة بسبب مد نهر قرطبة في سنة ٣٣١[5] ، وفي سنة ٣٣٤ « كان السيل العظيم بقرطبة وبلغ الماء في البرج المعروف ببرج الاسد فهدم من آخر القنطرة ، وثلم الرصيف[6] » . وقد قام الناصر باصلاحها ، ولكن القنطرة لم تلبث ان اصيبت من جديد بعد وفاته بعام واحد[7] بسبب المد الطامي بنهر قرطبة في سنة ٣٥١ فرممها الحكم المستنصر في ٥ ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ[8] ، وذلك بأن أمر بعمل سد محكم الصناعة استخدم في بنائه صم الصخور والرمال والطفل ، وذلك على حاشية نهر قرطبة لصق الجسر ليصرف جريان الماء في هذه الجهة ، ويتهيأ لـه أن يكشف عـن الارجل (الدعائم) التي أثر فيها الماء على تطاول الامد، فكشط جبسها، ورممها[9] وفي ١٥ ذي الحجة تم عمل سد المنعة المعقود أسفل نهر قرطبة ، في الشرق منها لمنع جريان الماء عن أصول أرجل الحنايا التي ظهر وهيها من أرجل القنطرة ، واقتلمت حجارة قنوات الرحى المصاقبة للرصيف بغربي القنطرة حتى يتحول الماء عن الدعائم المذكورة ، فيتمكن من التوصل الى اصلاح أسسها وتقوية ضعفها ، فتقوت الدعائم المذكورة بتوابيت الخشب الضخمة

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩٨ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٤ .
(٣) ابن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ١٣٩ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢١١ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٤ .
(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٦ .
(٦) نفس المصدر ، ص ٣٢٠ .
(٧) نفسه ، ص ٣٥٢ .
(٨) ابن حيان ، نشرة الحجي ، ص ٥٨ .
(٩) نفس المصدر .

وأوتاد الحديد السميكة الضخمة والصخر الصلب ، وكان الخليفة يتولى الاشراف بنفسه على هذه الاعمال ، أو يطل على القائمين به من أعلى باب السدة من قصر قرطبة . وتم البناء في ٢٦ مـن المحرم سنة ٣٦١ هـ ، ثم أصلحت الرحى في شهر صفر التالي[١] .

وكان الاتصال بين قرطبة وربضها القبلي في الاوقات التي تصاب فيها القنطرة بسبب المدود والسيول يتم عن طريق مراكب أو معديات ، فقد حدث في سنة ٤٣٩ أن تعطلت القنطرة ، وحدث أن توفى أحد الفقهاء ، فحمل جثمانه على معدية الى الربض[٢] .

وتعرضت القنطرة بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين لاصابات عديدة ، فرممت في النصف الثاني من القرن ١٣ ، ثم رممت في اسنوات التالية : ١٥٤٥ ، ١٥٩٩ ، ١٦٠٢ ، ١٦٢٦ ، ١٦٨٦ ، ١٧٠٣ ، ١٧٠٥ ، ١٧٨٠ ١٨٣٧ ، ١٨٧٥ ، ١٩١٢ ، بحيث أصبحت تؤلف مجموعة من الابنية التي لا تربطها أي وحدة ، أو أي طابع معين ، ولكن أكثر أجزاء القنطرة احتفاظا بالعناصر الرومانية القديمة الجزء الواقع ما بين العقد الثاني والثالث من جهة القلعة[٣] .

وتنتهي القنطرة من الناحية الجنوبية عند عدوة الربض القبلي بقلعة تحمي القنطرة ومدخل شقندة ، بناها الملك انريكي الثاني سنة ١٣٦٩ على أساس برج اسلامي كان يعرف ببرج الاسد[٤] . وتتألف القلعة الحالية من برجين كبيرين الشرقي منهما من بناء الملك خوان الثاني ، أما الغربي فيرجع تاريخ بنائه الى سنة بناء القلعة[٥] .

---

(١) ابن حيان ، نشرة الحجي ، ص ٦٥ .
(٢) ابن بشكوال ، كتاب الصلة في تاريخ ائمة الاندلس ، تحقيق كوديرة، مدريد ١٨٨٣ ص ٣٤٥ .
(٣) Gomez Moreno, op. cit., P. 21. والترجمة العربية ص ١٩ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .
(٥) راجع التفاصيل في : Castejon, Guia de Cordoba, P. 77.

والى جانب قنطرة قرطبة المشهورة أشارت المصادر العربية الى قنطرة اخرى على نهر قرطبة شرع المنصور بن ابي عامر في بنائها في سنة ٣٧٨ ، وأتمها في منتصف عام ٣٧٩ ، وأنفق عليها ما يقرب من ١٤٠ ألف دينار[١] ، وليس لهذه القنطرة في الوقت الحاضر أي أثر يدل عليها ، ويحدد ليفي بروفنسال موقعها عند نقطة وصول الرصيف الى المصارة . وقد تكون هذه القنطرة العامرية مقامة من الجهة اليمنى من القنطرة الرئيسية، فقد شوهدت بقايا دعائم في نهر قرطبة في أوقات جفافه بجوار طاحونة[٢] .

٤ ـ الرصيف والسد والمنبر (الارحاء) :

كان المسلمون يطلقون اسم الرصيف على كل الطرق المرصوفة كالطرق الرومانية ، ومن بينها السكة العظمى أو سكة أوغسطس[٣] «Via Augusta» ، ولقد حرص أمراء بني أمية وخلفائهم على ترميم الارصفة الرومانية القديمة ، وخاصة في مدينة قرطبة العاصمة ، وبناء أرصفة أخرى جديدة مثل الرصيف الذي كان يربط بين قرطبة ومدينة الزهراء ، وكان طريقا أرضيته مرصوفة بالحجارة[٤] .

وأكثر أرصفة قرطبة شهرة الطريق المحدث الذي كان يحف بالضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير ، وكان يطل عليه الباب القبلي المؤدي مباشرة الى القنطرة ، وكان هذا الرصيف يمتد من الناحية الشرقية للمدينة حتى

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٣٠ .

(٢) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, P. 622.

(٣) ارجع الى ما ذكره الرازي بشأن الرصيف الروماني المار باستجة وقرطبة والممتد من قادس الى اربونة ، وما ذكرناه من قبل عند دراستنا لتخطيط مدينة قرطبة (Lévi-Provençal, La descripcion de l'Espagne de Razi, P. 95) . وما ذكره الحميري بشأن هذا الرصيف الاعظم الذي تمر عليه استجة (الحميري ، ص ١٥) وبشأن مدينة بيارة التي يقع ميناؤها على النهر الاعظم معقودا بالرصيف (الحميري ، ص ٥٦) .

(٤) Torres Balbas, la Via Augusta Y el Arrecife musulman, al-Andalus, Vol. XXIV, 1957, P. 448.

الناحية الغربية للقصر ، ثم يواصل سيره بعد ذلك فيحيط بالسوق العظمى نحو السهل الذي يقع فيه المصارة ومصلاه[1] ، ويعرف الرصيف هنالك برصيف القصابين[2] . وكان هذا الرصيف قد أعيد بناؤه كله في سنة ٢١٢ هـ بأمر الامير عبد الرحمن الاوسط تحت اشراف أحمد العتبي[3] كذلك عمل عبد الرحمن الاوسط السقاية على الرصيف[4] . ويصف الادريسي الرصيف المذكور بقوله: «وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الاحجار القبطية والعمد الجاشية من الرخام ، وعلى هذا السد ٣ بيوت ارحاء في كل بيت منها أربعة مطاحن[5] » . والى ارحاء هذا السد وهي أرحاء ناصح ومالك يشير ابن عبدون في احدى قصائده :

وليس ذميما عهد محبس ناصح — فأقبل في فرط الولوع به نصحا
وآصال لهو في مسناة مالك — معاطاة ندمان اذا شئت أو سبحا[6]

وكان السد من منتزهات قرطبة التي يقصدها الوشاح والشعراء ، وقد وصف الشاعر أبو شهاب المالقي يوم نزهة له بهذا السد فقال :

ويوم لنا بالسد لو رد عيشه — بعيشة أيام الزمان رددناه
بكرنا له والشمس في خدر شرقها — الى أن أجابت اذ دعا الغرب دعواه
قطعناه شدوا واغتباطا ونشوة — ورجع حديث لو رقى الميت أحياه
على مثله من منزه تبتغي المنى — فلله ما أحلى وما أبدع مرآه
شدتنا به الارحا وألقت نثارها — علينا ، فأصغينا له وقبلناه
لئن بان انا بالأنين لفقده — وبالدمع في اثر الفراق حكيناه[7]

---

(1) Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 378.
(2) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ١٤٥ .
(3) Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 378.
(4) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ .
(5) الادريسي ، ص ٢١٢ ـ الحميري ، ص ١٥٨ .
(6) المقري ، ج ٢ ص ١٥٥ .
(7) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢١ .

وذكره أبو الحسن المريني في موشحة له نصها :

مطلع

في نغمة العود والسلافة	والروض والنهر والنديم
أطال من لا منى خلافه	فظل في نصحه مليم

دور

لله عصر لنا تقضى	بالسد والمنبر البهيج
أرى ادكاري اليه فرضا	وشوقه دائما يهيج[1]

والمنبر الذي أشار اليه الوشاح المذكور هو الارحاء القائمة على السد ، وكانت تعتبر احدى متنزهات قرطبة المطلة على النهر . وفي الارحاء يقول الزجال قاسم بن عبود الرياحي :

دور

بالله يا حبيبي	اترك ذا النفار
واعمد أن نطيب	في هذا النهار
واخرج معي للوادي	لشرب العقار
فتمم نهارنا	في لذة وطيب
في الارحا والا	في المرج الخصيب

دور

أو عند النواعير	والروض الشريق
أو قصر الرصافة	أو وادي العقيق
رحيق والله دونك	هو عندي الحريق[2]

والناعورة المذكورة في هذا الزجل كانت ترفع المياه الى بساتين المنية التي سميت بالناعورة ، وكانت عجلتها الكبرى تستند على جدار مبني من

---

(1) المقري ، ج ٢ ص ٢٣ .
(2) نفس المرجع ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

الحجر والآجر تتخلله عقود متجاوزة منكسرة ، محاطة بطرر أو تربيعات مربعة ، وكان هذا الجدار قائما في موضع متقدم من وسط الوادي حيث يزداد عمق المجرى ويشتد تيار المياه ، وهما شرطان لا بد من توافرهما لتحريك العجلة الضخمة ، وفي أعلى الجدار كانت المياه المرفوعة تجري في قناة تمتد الى أعلى باب الرصيف الى أن تصل الى ساحة الحصا بأعلى الرصيف، ازاء الجدار القبلي للقصر الخلافي . وأغلب الظن أن هذه الناعورة والقناة والرصيف كانت من انشاء عبدالرحمن الاوسط، الذي «شيد القصور وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس ، وعمل السقاية على الرصيف[1] » . وقد ظلت هذه الناعورة قائمة في موضعها حتى زمن الاسترداد ، ثم أقيمت الساقية المعروفة بالبولافيا التي أمرت الملكة الكاثوليكية بازالتها لما كان يسببه أنينها من ازعاج لها[2] .

أما باب الرصيف الذي كان يسمى بباب الحديد فقد تهدم في سنة ١٨٢٢ ، كما اختفى الرصيف اليوم ، ولكننا ـ استنادا على بعض صوره القديمة ـ عرفنا أن عقديه كانا من النوع المتجاوز تحيط بهما طرتان أو تربيعتان على النحو الشائع في العقود الاموية بالاندلس .

٥ ـ منية الناعورة :

كانت منية الناعورة في بداية أمرها أرضا تقع على شاطىء نهر قرطبة لصق مصلى فحص المصارة العتيق ، اشتراها الامير عبدالله أيام والده الامير محمد بما حولها من الحقول من خليل البيطار في سنة ٢٥٣ هـ ، « فأنشأها منية عجيبة واسعة الخطة ، أرادها للفرجة ، فأوسع خطتها، وأكثر غراساتها،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) Torres Balbas, Las Norias fluviales en Espana, PP. 201-205

واقتصد مع ذلك في الانفاق عليها »[1] . وأغلب الظن أن بساتين هذه المنية كانت تسقى بمياه النهر التي كانت ترفعها الناعورة عند الرصيف. وقد انتقلت ملكية هذه المنية من بعد الامير عبدالله الى حفيده عبدالرحمن بن محمد، فأقام بها قصر الناعورة المشهور[2]. وفي جمادى الآخرة من سنة ٣٢٩ أكمل عبد الرحمن الناصر بنيان جسر المياه الذي استغرق بناؤه ١٤ شهرا، وأجرى فيه الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة ، « في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة ، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة ، عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر . مطلى بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لها وبيص شديد ، يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد ، فيمجه في تلك البركة من فيه ، فيبهى الناظر بحسنه ، وروعة منظره ، وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباته ، ويمد النهر الاعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر ، لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ، ويتصوب من أعاليها »[3] .

ولقد أصبحت هذه المنية المقر الاثير لدى الناصر ، فكان يقيم بها للراحة بعد غزواته الى ببشتر ، معقل الثائر ابن حفصون ، فقد ذكر ابن عذارى أنه في سنة ٣١٧ هـ « كانت للناصر خرجة من قصر الناعورة مطالعا لببشتر ، ومعاينا لما قام من البنيان بها ، وما تم من ترتيبه فيها ، وكان خروجه من منية الناعورة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال ونزوله بجبل ببشتر يوم الخميس لعشر بقين منه ، فدخل المدينة وجال فيها وأحكم ماله من قصد أمرها ، ثم صدر عنها في اليوم الثاني ، ودخل القصر بالناعورة يوم الثلاثاء لأربع بقين من شوال »[4] .

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق ملشور انطونية ، ص ٢٨ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٠١ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٠ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٠٢ .

وفي هذه المنية نـزل أردون الرابع عنـد قدومه الى قرطبه في سنة ٣٥١ هـ[1] ، وكانت منزلا للحكم عند رحيله من الزهراء الى قرطبه ، فكان ينزل في قصرها[2] . وقد تخربت منية الناعورة مع قصر الرصافة في سنة ٤٠٣ أيام الفتنة[3] .

٦ ـ سوق قرطبة :

كان بقرطبة مركزان تجاريان ، أحدهما يقع في الشرقية ، والآخر تجاه باب العطارين . وكان المركز الثاني أهـم بكثير من الاول ، لأنه الموضع الذي تقوم فيه سوق قرطبة الكبرى ، وكانت تقع بداخل قرطبة من الجهة الجنوبية الغربية بازاء باب العطارين ، ثم توسعت في زمن الخلافة وأصبحت تمتد حتى الرصيف ، وكانت حوانيت القصابين تصل في الامتداد الى النهر الى حد أن هذا الرصيف عرف هناك برصيف القصابين[4] . وكان من جملة حوانيت سوق قرطبـة الثانية حوانيت السراجين التـي حبسها الحكـم المستنصر على المعلمين في جمادى الاولى سنة ٣٦٤ ، وأمرهم بتعليم أولاد الضعفاء والمساكين من أهل قرطبة[5] . والظاهر أنها كانت تقع في الشرقية ، على جانبي المحجة العظمى . ويذكر ابـن بشكوال أن حوانيت الريحان والرقاقين كانت تقع في غرب قرطبة .

٧ ـ مصليا المصارة والربض :

اتخذ المسلمون منذ الفتح الاسلامي لقرطبة مصلى أو شريعة لهم في فحص المصارة بغربي قرطبة هو المصلى المعروف بالمصلى العتيق[6] ، وكان

---

(١) المقري - ج ١ ص ٣٦٦ .
(٢) ابن حيان - المقتبس : تحقيق الحجي - ص ٢١٢ .
(٣) ابن عذارى : ج ٣ ص ١٠٢ .
(٤) ابن حيان - نشر الحجي - ص ١٤٥ .
(٥) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٠٧ .
(٦) سمي هذا المصلى بهذا الاسم بسبب قيام مصلى آخر جديد في الربض القبلي من قرطبة المعروف بشقندة : في عهد الحكم الربضي .

يقع أيضا بجوار منية الناعورة على شاطئ نهر قرطبة . والمصلى في المدن الاسلامية ساحة فسيحة يجتمع فيها المسلمون لاداء صلاة الاستسقاء أيام الجدب والجفاف وصلاة العيدين في العراء[1] . وقد اهتم عبد الرحمن الناصر بالمصلى العتيق فأقام له محرابا جديدا في سنة ٣٠٧ هـ[2] . أما المصلى الثاني الجديد فقد أقيم بربض شقندة بعد أن أمر الحكم الربضي . عقب اخماده لثورة الربضيين في ١٤ رمضان سنة ٢٠٢ هـ : بهدم هـذا الربض وتسويته بالارض ، « حتى صار مزرعة ؛ ولم يعمر طول مدة بني أمية »[3] ، وعلى الرغم من اكتظاظ مدينة قرطبة بسكانها ابان القرن الرابع الهجري ، واتساعها في العمران شرقا وغربا وشمالا ، فقد ظل هذا الربض القبلي مهملا في عصر بني أمية ؛ ولم يفكر أحد من خلفاء الحكم الربضي في تعمير هـذا الربض . وعلى أنقاض ربض شقندة القديم أقيمت جبانة واسعة تعرف بمقبرة الربض ، وبجوار هذه المقبرة أقيم مصلى جديد في العراء عرف بمصلى الربض . وفي هذا المصلى برز صاحب الصلاة بقرطبة محمد بـن عمر بن لبابة في سنة ٣٠٢ هـ الى مصلى الربض ، واستسقى بالناس خمس مرات في أيام مختلفة وذلك عندما توالى القحط وعم الجفاف في هذه السنة ، ثم برز أحمد بن أحمد بن زياد للاستسقاء بالناس في ١٣ شوال من نفس السنة[4] . وفي ٢٥ مـن المحرم سنة ٣١٧ امتنع المطر ، واشتد الجدب والمحل ، وغلت الاسعار في قرطبة ، فأمر الناصر بالاستسقاء في جامع قرطبة ومصلى الربض ومصلى المصارة[5] . وفي آخر عهد الناصر قحط الناس ، فأمر القاضي منذر بن سعيد البلوطي بالبروز للاستسقاء ،

---

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٧٤ — ٩٠ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٦١ ، ٢٩٩ —
Una cronica anonima de Abd al-Rahman III, P. 28.
Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, Paris, 1932, P. 223.

(٣) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٢ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٩ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .

واجتمع له الناس في مصلى الربض حتى غصت بهم ساحة المصلى[1] .

وذكر ابن حيان أن بعض الناس أقاموا عدة دور خاصة في الربض في حجابة عبد الملك بن أبي عامر ، واتفق أن أطل الخليفة هشام المؤيد على السطح المشرف من قصره المطل على الوادي الكبير والربض ، ليمتع بصره بمنظر الوادي وما يليه من ناحية الجنوب ، ولاحظ الخليفة التغيير الذي طرأ على منطقة الربض ومبادرة الناس بالبنيان فيها ، فغضب لذلك ، وأرسل الى المظفر عبد الملك رسولا يأمره بسرعة هدم هذه الابنية التي شرع الناس في اقامتها ، فامتثل عبد الملك المظفر لأمره[2] .

٨ ــ منية ابن عبد العزيز :

تقع في الصحراء الممتدة ما بين قرطبة ومدينة الزهراء غربي قرطبة ، وكان الزائر يصل اليها بعد أن يعرج على السدة والمصارة والعقبة التي يقوم عليها مسجد الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة (في عهد عبد الرحمن الاوسط) ، ثم ربض مسجد الشفاء ، ثم ربض حمام الالبيري أو اللبدي[3] . وفي هذه المنية نزل يحيى بن علي المعروف بابن الاندلسي صاحب المسيلة وأخوه جعفر في ٢٧ من ذي القعدة سنة ٣٦٠ .

٩ ــ منية نصر في الربض :

كان نصر الفتى مولى الامير عبد الرحمن الاوسط ، وكان أكبر الفتيان الخصيان في بلاط الامير ، وهو الذي وكل اليه عبد الرحمن بنيان الزيادة في جامع قرطبة[4] . وقد اتخذ نصر لنفسه منية في عدوة الربض

---

(١) ابن غالب ، ص ٣٦ ــ المقري ، ج ٢ ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, P. 378.

(٣) ابن حيان ، تحقيق الحجي ، ص ٤٦ .

(٤) ابن حيان ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ــ ونصوص خاصة بجامع قرطبة ، نشرها ليفي بروفنسال في مجلة Arabica مجلد ١ قسم ١ ، ص ٩٠ .

تشرف على النهر بجوار مقبرة الربض العتيقة[1] ، وكان موضع هـذه المنية بيتا للرحا في أيام أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي[2] ، ويبدو أنه أقيم مكانها فندق « كان متقبله من أهل الاضرار والفسق »[3] ؛ فأمر عبد الرحمن الاوسط بهدمه بعد أن بويع بالامارة في سنة ٢٠٦ هـ ، ويبدو أن نصرا ، وكان أثيرا لدى الامير ، استأذن منه في اقامة هذه المنية ، فأجابه الى ذلك، فأقامها نصر، وظل يستلكها حتى مات مسموما في سنة، ٢٣٦، على يدي الامير عبد الرحمن بسبب تآمره عليه[4] ؛ ثم نزلها زرياب المغني . وآلت هذه المنية بعد زرياب الى الامير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن ، فكلف بها ، « وشيد بنيانها وأتقن مصانعها ، الا أن ذلك في حد الإقتصاد والاقتصار اللذين لم يفارقا مذهبه فيهما آخر وقته »[5] . وكان الامير يوزع أوقات نزهه بين هذه المنية ومنية الناعورة السالفة الذكر .

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر اتخذها الحكم المستنصر ولي عهده[6] ، وفي هـذه المنية نـزل سفراء الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع في صفر سنة ٣٣٨ هـ .

١٠ ـ منيتا عجب وابن ابي الحكم بن القرشية :

أقيمت منية عجب جارية الحكم الربضي في الربض القبلي في مواجهة السد والرصيف ، وكانت هذه المنية تشتمل على بضع مساكن موقوفة على المرضى[7] . أما منية ابن أبي الحكم فكانت تقع على النهر الاعظم بمنطقة

---

(١) ابن . ان ، تحقيق انطونية ملشور . ص ٣٨ .
(٢) ابن القوطية ، ص ٢٠ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٦ .
(٤) ابن القوطية ، ص ٧٧ ـ ابن سعيد . ج ١ ص ٤٩ .
(٥) ابن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ٣٨ .
(٦) المقري ، ج ١ ص ٣٤٣ .
(٧) Lévi Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, P. 207, Note 3.

تعرف بالشامات أو الشاعات[1] ؛ نزلها عيال علي بن الاندلسي صاحب المسيلة وعيال أخيه جعفر عند قدومهما الى قرطبة في سنة ٣٦٠ هـ ، في حين نزل القائدان الاخوان في منية ابن عبد العزيز ، ويرجع السبب في اقامة حريمهما وعيالهما في منية ابن أبي الحكم أنها كانت منيعة محصنة مرتفعة الاسوار « مسورات في العمارات »[2] مبالغة من الحكم في اكرامه لجعفر ويحيى وفي ستر أهليهما وصياناتهن .

١١ ــ فحص السرادق :

هو معلم هام من معالم قرطبة ، كان يقع جوفي نهر قرطبة بالطرف الشرقي من المدينة[3] ، وكان من المتنزهات المشهورة التي يقصدها أهل قرطبة للفرجة والنزهة ، وقد سمي بفحص السرادق لأن خلفاء بني أمية اعتادوا أن يبرزوا السرادق في هذا الفحص قبل التوجه للغزو . ففي ٣١٩ هـ أبرز الناصر السرادق والابنية الى هذا الفحص قبل مسيره لغزو مدينة طليطلة[4] ، وفي هذا الفحص برز القائد غالب الناصري غازيا في سنة ٣٤٦ هـ الى دار الحرب[5] . وكان أمراء بني أمية قبل الناصر يبرزون قبل الخروج الى الغزو ، وعلى الاخص في عهد الامير عبدالله في فحص شقندة أو صحراء الربض بفج المائدة المطل على باب قرطبة الجنوبي[6] . وفي فحص السرادق يقول الشريف الاصم القرطبي :

(١) ابن حيان . المقتبس . نشر الحجي . ص ٤٢ . ٢٢٨ .
(٢) نفس المصدر . ص ٤٣ .
(٣) نفسه ، ص ٤٢ .
(٤) ابن عذاري . ج ٢ ص ٢٠٦ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣١ .
(٦) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق انطونية ملشور . ص ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ــ المقري ، ج ١ ص ٣٤٣ .

ألا فدعـوا ذكـر العذيب وبـارق ولا تسأموا من ذكر فحص السرادق
مجر ذيول السكر من كـل مترف ومجرى الكؤوس المترعات السوابق
أيـا طيب أيـام تقضت بروضـة وفكـري في غيب لمـرآة شائقـي
أيـا طيب أيـام تقضت بروضـة على لمـح غدران وشم حدائق[1]

وفيه يقول الامير أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن الاوسط اثـر عودته من غزوة :

أحـل شدادي في السرادق نـازلا وللشوق عقد ليس ينحل عن قلبي
أقرطبة هـل لـي اليـك وفادة تقر بعيني أو تمهد مـن جنبي[2]

١٢ ــ حير الزجالي :

كان يقع خارج باب اليهود بقرطبة ، وينسب الى بني الزجالي ، وكان رئيسهم عبدالله بن محمد الزجالي الوزير من كبار كتاب الامير عبدالله[3] ، وقد أقره الخليفة عبد الرحمن الناصر على الكتابة[4] سنة ٣٠٠ بينما ولي ابنه عبد الرحمن بن عبدالله الزجالي خطة العرض[5] ، ثـم ولاه الخزانة سنة ٣١٦ هـ ، فالوزارة سنة ٣٤٤ هـ . أما أخوه محمد بن عبدالله الزجالي فقد تولى خزانة المال في ٩ رمضان سنة ٣٠٧ هـ[6] ثم تولى الوزارة في ١٥ جمادى الاولى سنة ٣١٤ ، وتوفي في شعبان سنة ٣١٥ . كذلك استخدم الناصر أخاهما عبيدالله بن عبدالله الزجالي على المواريث في سنة ٣١٥ هـ[7]

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٢١ .
(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٦٣ : ص ١١٩ .
(٣) ابـن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ٦٠ ــ ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٨٢ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٣٧ . وتوفي عبدالله الزجالي في ربيع أول سنة ٣٠١ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٢٣٨ .
(٦) نفس المصدر ، ص ٢٦٢ .
(٧) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٩٢ .

ثم على الخيل في سنة ٣١٦ حتى وفاته في سنة ٣٢٠ . وكان حير الزجالي من أجمل المتنزهات وأبدعها في قرطبة ، ويصفه الفتح بـن خاقان بقوله : « وهذا الحير مـن أبدع المواضع وأجملها وأتمها حسنا وأكملها ، صحنه مرمر صافي البياض ، يخترقه جدول كالحية النضناض ، به جابيه كل لجة بها كابية ، قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزرت بهما جوانبه وأرجاؤه ، والروض قد اعتدلت أسطاره وابتسمت من كمائمها أزهاره ، ومنع الشمس أن ترمق ثراه ، وتمطر النسيم بهبوبه عليه ومسراه ، شهدت به ليالي وأياما كأنما تصورت من لمحات الاحباب ، أو قدت من صفحات أيام الشباب ، وكانت لأبي عامر بن شهيد به فرج وراحات ، أعطاه فيهـا الدهر ما شاء ، ووالى عليه الصحو والانتشاء وكان هو وصاحب الروض المدفون بازائه أليفي صبوة ، وحليفي نشوة ، عكفا فيـه على جريالهما ، وتصرفا بين زهوهما واختيالهما ، حتى رداهما الردى ، وعداهما الحمام عن ذلك المدى ، فتجاورا في الممات تجاورهما في الحياة ... »[1] .

١٣ - المنية المصحفية :

أقامها الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي في خلافة الحكم المستنصر ، لم نكن نعرف موقعها من قرطبة على وجه الدقة ، الى أن اهتديت الى نص بن عذارى يجعل أمر تحديد موقعها يسيرا ، فقد ذكر أنها كانت بالبقعة روفة بألش غربي قرطبة[2] . وكان السبب في بنائها كما يروي ابن عذارى لحكم كان يتخوف من ابن أبي عامر على ابنه هشام المؤيد ، وكان لشدة ، في الحدثان متيقنا من أنه سينتزع السلطان من ولده ويؤسس لنفسه نة في موضع يسمى ألش بفتح اللام ، فأمر حاجبه جعفرا بالسبق اليها روع في بنائها وأنفق عليها مالا عظيما ، ولكن اتضح بعـد بنائها أن

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

بقرطبة موضعا آخر يقع في شرقيها عند منزل أبي بدر يسمى ألش بضم اللام ، وقدر لهذا الموضع أن يكون البقعة التي اختارها المنصور بن أبي عامر بعد ذلك لانشاء الزاهرة مقر ملكه[1] .

وقد آلت المنية المصحفية بعد نكبة جعفر المصحفي الى المنصور ، وفيها يقول أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر :

قف بالمصحفية واندب مقلة أصبحت بلا انسان
واسألنها عن جعفر وسطاه وندداه في سالف الازمان[2]

١٤ ــ القصر الفارسي :

كان من القصور المقصودة للنزهة والفرجة في ظاهر قرطبة من الشمال، وقد ورد اسم هذا القصر بين معاهد بني أمية التي شهدت أول اشراقة حب ابن زيدون الوزير لولادة بنت المستكفي ، وفيه يقول الشاعر وقد هاجت أشجانه :

ويهتاج قصر الفارسي صبابة لقلبي لا يألو زناد الاسى قدحا[3]

١٥ ــ المنية العامرية :

تعتبر من المنيات المشهورة بمدينة قرطبة منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، أسسها المنصور محمد ابن أبي عامر في سنة ٣٦٩ الى جانب مدينة الزهراء[4] ، وتقع آثارها اليوم على بعد نحو تسع كيلومترات غربي قرطبة ، وثلاثة فقط من مدينة الزهراء[5] ، وحاطها بالرياض والجنان ،

---

(١) ابن عذارى ، ص ٢٨٥ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٧ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥٥ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤١٤ ــ المقري ، ج ٢ ص ١١٥ .
(٥) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 594.

وأجرى فيها قناة تنساب ملتوية بين بساتينها ، وتحف الازاهار والاشجار على ضفتيها ، وقد وصفها صاعد اللغوي البغدادي بقوله :

العامرية أضحت ... كجنة الرضوان
فريدة لفريد ... ما بين أهل الزمان
أنظر الى النهر فيها ... ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا ... على ذرا الاغصان
والقضب تلتف سكرا ... بين القضبان
والروض يفتر زهوا ... عن مبسم الاقحوان
والنرجس الغض يرنو ... بوجنة النعمان
وراحة الراح تمتا ... ر نفحة الريحان[1]

وكانت العامرية تزهى بالنرجس والياسمين والبنفسج ، وقد وصف الوزير الجزيري مجلسا للمنصور أبي عامر في العامرية ، صور فيه احتفال المنصور ببنيان هذا القصر وابداع بساتينه فقال :

وتوسطتها لجة في قعرها ... بنت السلاحف ما تزال تتقنق
تنساب من فكي هزبر ان يكن ... ثبت الجنان فان فاه أخرق
صاغوه من لد وخلق صفحتي ... هاديه محض الدر فهو مخلق
للياسمين تطلع في عرشه ... مثل المليك عراه زهو مطرق
ونضائد من نرجس وبنفسج ... وجنى خيري وورد يعبق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من ... طرب اليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت ... زهر الربيع فهن حسنا تشرق[2]

وأنشد الجزيري مرة على لسان نرجس قصر العامرية :

حيتك يا قصر العلا والمجلس ... أزكى تحيتها عيون النرجس
زهر تريك بحسنها وبلونها ... زهر النجوم الجاريات الكنس[3]

---

(١) المقري ، ج ١ ، [illegible]
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ص [illegible]
(٣) نفس المصدر [illegible]

١٦ ـ دور السكة والطراز والصناعة :

كانت دار السكة الاموية في عصر الامارة تقع لصق باب العطارين من خارج مدينة قرطبة العتيقة[١] ، وأول من أنشأ دار السكة في قرطبة وضرب الدراهم باسمه الامير عبد الرحمن الاوسط ، ولم تكن في الاندلس دار للسكة منذ افتتحها العرب ، ومن المعروف ان هذا الامير هو أول من فخم السلطنة بالاندلس[٢] من أمراء بني أمية ، ويبدو أن أهل الاندلس قبله كانوا يتعاملون بالعملات الاموية القديمة وبالعملات العباسية . وكانت دار السكة الاميرية التي أسسها عبد الرحمن الاوسط تسك فلوسا يتعامل الناس بها كل ستين فلسا بدرهم . وفي سنة ٣١٦ هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر باقامة دار جديدة للسكة في داخل مدينة قرطبة ؛ لضرب الدنانير والدراهم الاندلسية ، وولى خطتها لأحمد بن موسى بن حدير ، وخصصها لضرب العملات الذهبية والفضية الخالصة[٣] ؛ ثم نقلها من قرطبة الى الزهراء بعد أن أسس هذه المدينة الخلافية[٤] .

أما دار الطراز والبرد فقد أحدثها أيضا الامير عبد الرحمن الاوسط ، واستنبط عملها[٥] ، وان كان ابن حيان يؤكد أن هذه الدار من بنيان الامير عبد الرحمن بن معاوية الداخل[٦] . ويبدو أن عبد الرحمن الداخل هو الذي أنشأها واختصت منذ ذلك الحين بصناعة البرود الاميرية ولذلك عرفت بالدار البردية ، ثم تطورت في عصر الامير عبد الرحمن الاوسط ، فاتسعت مرافقها ، فقد ذكر ابن الخطيب أن في أيامه « اتخذ الطراز الذي

---

(١) الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دي غويه . ليدن . ١٨٨٥ ، ص ٨٨ .
(٢) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٥ ، ٤٦ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٩٦ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٢١ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٦ .
(٦) ابن حيان ، المقتبس . تحقيق الحجي ؛ ص ٦٦ .

كان حديث الرفاق وطرفة أهل الآفاق »[1] ، ومعنى هذا أن دارا للطراز أقيمت الى جانب الدار البردية لنسج الطرز الاميرية على أثواب وبرود الامير وحرمه وخدمه وحشمه . وفي أيام عبد الرحمن الناصر اتسعت دار الطراز وأصبح ينسج فيها « ما يحتاج اليه من الخلع والكسي وملابس الحرم وغير ذلك » . ويضيف ابن الخطيب معلقا : « ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ويناغون به المشرق من بضائعهم ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب »[2] . وقد أشار ابن حوقل الى شهرة قرطبة في زمن الناصر في صناعة جيد الثياب والكسي من لين الكتان وجيد الخز والقز[3]،وقد تولى الطراز في عهد الامير عبدالله زيان الفتى[4]،وتولاها زمن الناصر الفتى خلف الكبير[5] ، ثم تولاها في زمن الحكم المستنصر الفتى فائق المعروف بالنظامي[6] .

وأغلب الظن أن دار الطراز بقرطبة كانت تقع بجوار قصر قرطبة من الجهة الغربية ، استنادا الى ما ذكره المؤرخ القرطبي ابن حيان[7] والمؤرخ الغرناطي ابن الخطيب[8] .

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠ .
(٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٨ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٢٨٥ .
(٦) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ١١٧ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٨٧ .
(٧) نفس المصدر، نشر الحجي، ص ٦٦ . وذكر ابن حيان ان هذه الدار نقلت من موضعها الاول في سنة ٣٦١ في عصر الحكم المستنصر من غربي قصر قرطبة وفي صدر او بمقدمة سوق قرطبة العظمى الى دار الزوامل بالمسارة في طرف قرطبة الغربي . اما دار الزوامل فقد نقلت بدورها من موضعها الذي شغلته دار الطراز الى دار تقع بالقرب من المحبس عند قصر الناعورة . وأما دار البرد القديمة فقد امر الحكم باقامة حوانيت للبزازين مكانها (ابن حيان ، ص ٦٦) .
(٨) ابن الخطيب ، ص ٤٠ .

أما دار الصناعة بقرطبة فكانت تقع بجوار مسجد أبي عثمان (عبيد الله ابن عثمان زعيم حزب موالي المروانية قبل دخول عبد الرحمن الداخل الاندلس) وكان هذا المسجد يقع في الجهة الشمالية من القصر بدليل أن هذا القصر كان ينفتح في سوره الشمالي باب يعرف بباب الصناعة لأنه كان يشرف على دار الصناعة . ويبدو أن هذه الدار أنشئت في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط بعد غزو النورمان لاشبيلية ، وفيها أمر الامير محمد بانشاء المراكب في سنة ٢٦٦ ليتوجه بها الرعيطي المعروف بعبد الحميد بن مغيث الى البحر المحيط[١] . ولكن هذه الدار اقتصرت منذ أيام عبدالرحمن الناصر على صناعة التماثيل المعدنية والآلات . لكثرة ما أنشأه هذا الخليفة من دور الصناعة في سواحل الاندلس ، وفيها صنع اثني عشر تمثالا من البرنز مرصعة بالدر النفيس الغالي ، ووضعت في مجلس المؤنس بقصر الزهراء[٢] .

١٧ــ برج الشرقية :

كان يحيط بأرباض قرطبة في زمن الفتنة سور منيع أقيم من التراب أو الطابية[٣] ، وكانت تدعمه من الابراج في جوانب مدينة قرطبة الاربعة ٢٠٧ برجا مربعة أو مستطيلة الشكل[٤] . ولكن الجانب الشرقي من مدينة قرطبة وأعني به المدينة الشرقية كان يتميز بوجود برج ضخم أشبه ما يكون بالقلعة لعله كان برجا برانيا قصد به حماية مدينة قرطبة من هذه الجهة واغلاق الطريق على الاعداء في أضعف أجزاء السور[٥] . ولما كانت الابراج

(١) ابن عذارى . ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) الطابية بناء مختلط بالكلس يصب بين لوحين من الخشب ومركزين على سمكهما في المواضع المعدة للبناء . وكان السور يبنى سطرا سطرا أو مدماكا مدماكا الى ان ينتظم السور كله ملتحما كانه قطعة واحدة .

(٤) ابن غالب . ص ٢٧ .

(٥) فيما يتعلق بالابراج البرانية Torres albarranas راجع كتابي : المساجد والقصور بالاندلس : سلسلة اقرا ، عدد ١٩٠ ــ ومقالي : العمارة الحربية بالاندلس . كتاب الشعب رقم ٦٤ ، القاهرة . ١٩٥٩ . ص ١٥٨ .

البرانية من ابتداع الموحدين ، فمن المعتقد أنه أقيم في أيامهم ، وقد نسب الى هذا البرج ربض بالشرقية يعرف بربض البرج ، كان يمتد بعرض السكة العظمى بعد خروجها من باب عبد الجبار عند دخولها في مقبرة عرفت أيضا بمقبرة البرج[1] . ويبدو أن هذا البرج ظل قائما حتى استيلاء القشتاليين على قرطبة ، وقد بدأ القشتاليون باحتلاله وتحصنوا فيه ومنه تمكنوا من الاستيلاء على الشرقية ، ثـم على قصبة قرطبة نفسها علـى النحو الذي أوضحناه في القسم التاريخي .

١٨ ـ سجن قرطبة :

كان سجن قرطبة في أيام الامير عبد الرحمن الداخل يقع على النهر بالقرب من باب القنطرة ، وكان السجناء يخرجون منه الى النهر مع الموكلين بحراستهم ، وفي هذا السجن حبس أبو الاسود بن يوسف الفهري فترة ، ثم تمكن من الفرار منه[2] الى طليطلة عن طريق سرداب يصل بين السجن والهبط وهو الجزء المنخفض من شاطىء النهر[3] .

وأورد ابن القوطية اسم حبس بقرطبة يقال له الدويرة وذلك في عهد الامير الحكم الربضي[4]،ولا ندري اذا ما كانهذا الحبس هو نفس السجن القديم الذي سمي به أيضا ربض بالمدينة الغربية ، أم سجن آخر جديد ؟ والظاهر أنه نفس السجن القديم ، لأن الفترة التي انصرمت ما بين عهـد عبد الرحمن الداخل وحفيده الحكم الربضي من القصر بحيث لا تدعونا الى الاعتقاد بحدوث تطوير في نظام السجن، ثم ان حركة التجديد والتطوير في رسوم الدولة التي اقترنت بعصر عبد الرحمن لم تكن قد نشطت بعد ، وقد ظل حبس الدويرة قائما في عصر الخلافة بدليل أن اسمه ورد في أحداث

---

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 368.

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٣) الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٥١ .

(٤) ابن القوطية ، ص ٥٦ .

المستنصر[1] . وكان بقصر قرطبة سجن آخر يعرف بدار النقيقة ، وفيه حبس الامير عبدالله بن محمد أخاه القاسم ، ثم نقله بعد ذلك من دار النقيقة الى حبس الدويرة[2] . أما السجن الذي استحدث في زمن الدولة الاموية فهو المعروف بالمطبق[3] ، وفيه قال هاشم بن عبد العزيز وزير الامير محمد ابن عبد الرحمن عندما سجنه فيه الامير المنذر :

وإني عداني أن أزورك مطبق ... وباب منيع بالحديد مضبب[4]

وفيه سجن جعفر بن عثمان المصحفي ، وقد عرف هذا السجن أيضا بسجن العامرية[5] ، وكان يقع بداخل قصر قرطبة[6] ، وفيه أسر الامير عبدالله بن محمد بسجن ابن أخيه هشام بن محمد ، ومروان بن عبد الملك ، وسعيد بن وليد الشامي ، وأحمد بن هشام بن عبد الرحمن ، وموسى بن محمد بن زياد .

١٩ ـ اسماء بعض دور الخاصة والامراء والدور الرسمية بقرطبة :

ليس من السهل تحديد مواقع دور الخاصة في قرطبة على الخريطة ، فان المصادر العربية لم تزودنا ببيانات مفصلة عنها ، ومع ذلك فقد وصلت الينا أسماء عدة دور لشخصيات هامة في تاريخ قرطبة استطعنا أن نحدد مواضعها من قرطبة الاسلامية تحديدا تقريبيا ، ومن هذه الدور الخاصة ما يلي : ...

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢٠٢ .
(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٥ .
(٣) ابن [illegible] ، ص [illegible] ، ٢٥ .
(٤) [illegible] ، ١٤ .
(٥) [illegible] ، ١٦ .
(٦) [illegible] منشور ، ص [illegible]

١ — دار منذر بن سعيد البلوطي : وتقـع بجوار مسجـد السيدة الكبرى بالقرب من مقبرة قريش بالربض الغربي من قرطبة[١] ، وراء باب عامر القرشي .

٢ — دار بقي بن مخلد : بظاهر المدينة في فحص المطرف وعلـى شارع المبطلة الممتد من باب عبد الجبار[٢] .

٣ — محمد بن طرفة : تقع قريبا من مقبرة بني عامر القرشي الواقعة خارج باب عامر[٣] .

٤ — دار الصميل بن حاتم : كانت تقوم في الربض القبلي المعروف بربض شقندة[٤] .

٥ — دار ريان الوصيف : كانت تقع بجوار منار الجامع[٥] .

٦ — دار الفقيه المشاور ابي ابراهيم : كانت تقوم بجوار مسجد أبي عثمان تجاه باب الصناعة من أبواب قصر قرطبة الشمالية[٦] .

٧ — دار الامير عبدالله بن عبد الرحمن : كانت قريبـة مـن بـاب القنطرة[٧] .

٨ — دار الامير عبدالله بن محمد : كانت بجوار باب قرطبة الغربي ، وكانت لها علية مطلة على الطريق[٨] .

٩ — دار مطرف بن عبدالله : كانت تقع بالقرب من القنطرة[٩] .

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٢) ابن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ٣٧ .
(٣) نفس المصدر ، نشر الحجي ، ص ٢٠٠ .
(٤) ابن القوطية ، ص ٢٩ — ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٦٨ .
(٥) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ٢٠٠ .
(٦) المقري ، ج ١ ص ٢٥٤ .
(٧) ابن القوطية ، ص ٧٩ .
(٨) ابن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ١٢٤ .
(٩) ابن القوطية ، ص ١٠٦ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٢١ .

١٠ ـ **دار يوسف بن سليمان** : كانت تعرف بدار ابن البياني ، وتقع داخل قرطبة ، أقامت فيها نساء جعفر بن الاندلسي[١] .

١١ ـ **دار قاسم بن يعيش** : كانت تقع بداخل مدينة قرطبة ، نزلت بها نساء يحيى بن الاندلسي[١] .

١٢ ـ **دار محمد بن سعيد الاموي** : كانت تقع بمنية عبدالله بالشرقية[٢] .

ومن الدور الرسمية بقرطبة ما يلي :

١ ـ **دار القومة** : وكانت خاصة فيما يظهر بقومة الجامع ، وتقع الى شمال المسجد الجامع ، وقد تعرضت هذه الدار لحريق أدى الى تدمير سقفها[٣] .

٢ ـ **دار الرهائن** : كانت تجاور باب القنطرة[٤] .

٣ ـ **دار الصدقة** : أنشأها الحكم المستنصر غربي المسجد الجامع بقرطبة ، وكانت مزودة بعلية[٥] .

٤ ـ **بيت العمال** : كان دويرة من ملحقات القصر الخلافي ، اتخذت في الاصل لعمال القصر ، ثم تحولت الى سجن[٦] ، وكان موضعها بفصيل باب الجنان المطل على النهر ، ولعلها هي نفس السجن القديم بقرطبة الذي سبق أن تحدثنا عنه .

٥ ـ **دار الوزراء** : ذكرها كل من ابن القوطية وابن حيان[٧] ،

---

(١) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ٤٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٣ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٤ .
(٤) نفسه ، ص ١٧٦ ـ ابن القوطية ، ص ٩٤
(٥) نفسه ، ص ١٩ .
(٦) نفسه ، ص ٢٠٢ .
(٧) نفسه ، ص ٢٥ ـ ابن القوطية ، ص ١٠٧ .

وأشار ابن القوطية الى أن عبد الرحمن « أول من رتب اختلاف الوزراء الى القصر والتكلم في الرأي على ما هو جار الى اليوم ، وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم »[1] . وعلى هـذا الاساس يمكننا أن نستنتج أن هذه الدار كانت تقع في جانب من القصر الخلافي بقرطبة .

٦ ـ **دار ابن ابي عامر القديمة :** كانت بالرصافة ، وسعها المنصور في خلافة الحكم ، بعد أن عمر بابه ، وكثر جاهه[2] .

٢٠ ـ مواضع اخرى من قرطبة الاسلامية :

الرملـة : منطقة تقع على شاطىء النهر فيما يلي ربض شبلار شرقا ، ويمكن للخارج من الباب الجديد أن يصل اليه على طريق الزاهرة المعروف بطريق الرملة[3] ، فاذا ما خرج المرء من باب الحديد مـن أبواب المدينة الشرقية ، وانحرف جنوبا في الزقاق الكبير ، وخرج الى الرملة ، وجد نفسه أمـام مخاضة يمكن أن يعبـر منها الى ربض شقندة[4] . وكانت الرملة متنزها من متنزهات قرطبة المقصودة للفرجة والمتعة ، وكانت كثيرة الجنان والبساتين[5] .

المرج النضير ومواضع اخرى : كان يقع بالقرب من الرملة ، بـين الوادي ونهير يتفرع منه يعرف اليوم باسم فونساانتا ، ومن هذا المرج حتى المصارة علقت بحذاء الوادي جثث ثلاثمائة من ثوار الربض على الحكم الربضي ، صلبوا صفا واحدا على النهر[6] .

---

(١) ابن القوطية ، ص ٦٢ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٨٥ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣٥ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١١٤ .
(٥) نفسه ، ص ٤٣٥ .
(٦) نفسه ، ص ١١٤ .

وقد عرف هذا المرج أيضا عند أهل قرطبة بالمرج النضير ، وورد اسمه مع مواضع أخرى بقرطبة في قصيدة لأبي القاسم عامر بن هشام القرطبي قال فيها :

مسارح كم بها سرحت من كمد   قلبي وطرفي ولا سلوان يثنيني
بين المصلى الى وادي العقيق وما   يزال مثل اسمه مذ بان يبكيني
الى الرصافة فالمرج النضير فوا   دي الدير فالعطف من بطحاء عبدون[1]

والاسماء التي وردت في هذه الابيات أسماء مواضع ومتنزهات بقرطبة ، وهي المصلى ، ووادي العقيق ، والرصافة ، والمرج النضير الذي نحن بصدده ، ووادي الدير ، وبطحاء عبدون . وعرف هذا المرج أيضا بمرج الخز ، وهو الذي أنشد فيه أبو الحسين بن أبي جعفر الوقشي :

لله يوم بمرج الخز طاب لنا   فيه النعيم بحيث الروض والنهر
وللاوز على أرجائه لعب   اذا جرت بددت ما بيننا الدرر
والشمس تجنح نحو البين مائلة   كأن عاشقها في الغرب ينتظر

وفيه يقول ابن سعيد المغربي :

ألا حبذا يوم ظفرنا بطيبه   بأكناف مرج الخز والنهر يبسم
وقد مرحت فيه الاوز وأرسلت   على سندس دررا به يتنظم
ومد به للشمس فهو كأنه   لثام لها ملقى من النور معصم[2]

ولا نعرف بالضبط مواقع وادي العقيق ووادي الدير[3] ، وأغلب الظن أنهما جدولين طرزت ضفافهما بالبساتين والادواح . أما بطحاء عبدون فهي منطقة مرتفعة لا نعرف موقعها من قرطبة على وجه الدقة . والارجح أنها منطقة مرتفعة بقبلي المدينة ، فقد ذكر ابن غالب أن بقبلة قرطبة بطاح سهلة[4] .

---

(1) المقري ، ج ٢ ص ٨٠ .
(2) نفسه ، ص ٢٠ .
(3) لعله سمي كذلك نسبة الى دير ارملاط من احواز قرطبة «Guadimellato»
(4) ابن غالب ، ص ٢٦ .

وقد ذكر ابن عبدون في احدى قصائده يتشوق فيها الى قرطبة ومعاهدها بعد فراره عنها في عيد الاضحى بعض مواضع من هذه المدينة وردت في الابيات الآتية ، قمنا بدراسة بعضها وسنشير الى البعض الآخر :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل ... أخص بممحوض الهوى ذلك السفحا
وما انفك جوفي الرصافة مشعري ... دواعي بث يعقب الاسف البرحا
ويهتاج قصر الفارسي[1] صبابة ... لقلبي لا يألو زناد الاسى قدحا
وليس ذميما عهد محبس ناصح ... فأقبل في فرط الولوع به نصحا
كأني لم أشهد لدى عين شهدة ... نزال عتاب كان آخره الفتحا
وقائع جانيها التجني فان مشى ... سفير خضوع بيننا أكد الصلحا
وأيام وصل بالعقيق اقتضيته ... فان لم يكن ميعاده العيد فالفصحا
وآصال لهو في مسناة مالك ... معاطاة ندمان اذا شئت أو سبحا
لدى راكد تصبيك من صفحاته ... قوارير خضر خلتها مردت صرحا
معاهد لذات وأوطان صبوة ... أحلت المعلى في الاماني بها قدحا[2]

ونخرج من هذه الابيات بالمواضع التالية : العقاب والرصافة وقصر الفارسي ومحبس ناصح وعين شهدة والعقيق ومسناة مالك وراكد • وقد قمنا بدراسة مسناة بالك والعقيق ، كما درسنا الرصافة • أما العقاب فموضع على سفح جبل من جبال قرطبة كان به قصر نزله ابن الاندلسي جعفر بن علي بن حمدون في زمن المنصور محمد بن أبي عامر وأقام فيه[3]، ولعل هذا القصر نفسه هو الذي كان يعنيه ابن عذارى بمنية العقاب التي أورد ذكرها بمناسبة نزول جند شانجة غرسية في قرطبة[4] أما عين شهدة

---

(1) منية الفارسي هي نفس قصر الفارسي الذي اشرنا اليه من قبل • وكانت تقع في شمال قرطبة .
(2) المقري ، ج ٢ ص ١٥٥ •
(3) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤١٦ •
(4) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٩١ •

وراكد فموضعان لم تتمكن من تحديدهما على خريطة قرطبة لعدم استنادنا على مادة كافية تعيننا على هذا التحديد ، والظاهر أن عين شهدة كانت نبع ماء في سفح جبل قرطبة تحيط به بعض البساتين ، وأن راكد هـي بحيرة راكدة المياه كانت تطفو على صفحة مياهها نباتات وزهور . أما منية أرحاء ناصح فكانت تقع غربي قرطبة ما بين منية الناعورة ومدينة الزهراء ، وكانت منزلا أثيرا للحكم المستنصر[1] .

منية قنتيش : أقامها الامير محمد غربي قرطبة على الوادي الكبير في الطريق الممتد مـن قرطبة الـى اشبيلية وقادس ، ويعتقد الاستاذ ليفي بروفنسال أن اسم قنتيش تعريب للموضع الروماني Quintos وهو المرحلة الخامسة من السكة الرومانية، كما أن شقندة هي المرحلة الثانية Segundos وطرسيل هي المرحلة الثالثة Tercios ، وكورتش هـي المرحلة الرابعة Quartos .

وادي قرطبة : كان مـن أجمل المواضع التي يقصدها أهل قرطبة للنزهة ، فقد كان في العصر الاسلامي محفوفا بالبساتين والدور والقصور والمنيات[2] ، وكـان لتقارب ضفتيه في قرطبة وتقطع غـدره ومروجه ، « زيادة أنس وكثرة أمان من الغرق »[3] . وقد ذكر الرازي أن نهر قرطبة ساكن في جريه ، لين في انصبابه ، تؤمن مغبة ضرره في حمله[4] . وكان للمنصور بن أبي عامر في نهر قرطبة مركب للنزهة يسمى الزو يركبه ويطوف به في النهر[5] .

---

(١) ابن حيان ، المقتبس . نشر الحجي ، ص ٢١٢ .
(٢) ابن فضل الله العمري ؛ مسالك الابصار في ممالك الامصار . ج ١ القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٧٤ . وذكر الحجاري في المسهب انه « كان مكتنفا بديباج المروج . مطرز بالازهار . تصدح في جنباته الاطيار . وتنعر النواعير ويبسم النوار » (المقري . ج ١ ص ١٤٦) .
(٣) المقري . ج ١ ص ٢٠٣ .
(٤) ابن غالب . ص ٢٦ ــ المقري . ج ٢ ص ٢٥ .
(٥) ابن الخطيب . ص ٨٠ .

٢١ ـ مقابر قرطبة :

تعددت المقابر في قرطبة ، فكانت بجانبها الغربي مقبرتان : احداهما مقبرة عامر القرشي أو مقبرة قريش الواقعة خارج باب عامر[١] ، والثانية مقبرة متعة[٢] ، وكانت تقع الى الشمال الغربي من مقبرة قريش . وفي ظاهر مدينة قرطبة من جهتها الشمالية كانت تقع مقبرة ام سلمة ، خارج باب اليهود . والى الشمال من هذه المقبرة الاسلامية كانت تقع مقبرة الجالية اليهودية وتعرف هذه المقبرة بقوت راشه . اما من الشرق فكانت مقبرة البرج تقع غربي باب عباس بالقرب من السكة العظمى . وفي الجنوب كانت المقبرة الكبرى المعروفة بمقبرة الربض ، وبداخلها خصصت بعض المدافن لقريش[٣] ، دفنت فيها من الشخصيات الهامة عقار جارية الامير محمد بن عبد الرحمن[٤] وجارية اخرى له لعلها كريبة أوكوثر ، وفي هذه المقبرة دفن الامير ابان بن عبدالله بن محمد[٥] .

وقد ورد لنا اسما مقبرتين بقرطبة ، منهما مقبرة مؤمرة جارية الامير عبد الرحمن الاوسط[٦] ، ومقبرة العباس ، ولعل هذه المقبرة الاخيرة هي نفس مقبرة البرج الواقعة قريبا من باب عباس من أبواب محلة الشرقية .

---

(١) اخبار مجموعة . ص ٦٣ ـ ابن القوطية . ص ٤١ ـ المقري . ج ٢ ص ١٣ . ٢٢٩ .

(٢) Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, P. 209

(٣) ابن حيان . نشر الحجي . ص ٩٢ .

(٤) Ocana Jimenez, Nuevas inscripciones arabes de Cordoba, al-Andalus, Vol. XVII, 1952, P. 380.

(٥) Ibid., P. 381.

(٦) ابن عذارى . ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٧) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, La traduction espagnole, P. 245, Note 121.

(٢)
في عصر دولتي المرابطين والموحدين

اقيمت في قرطبة في هذين العصرين آثار لم يصل الينا فيما كتبه مؤرخو العرب عن اخبارها الا اشارات قليلة عابرة . وكانت قرطبة قد انكمشت رقعتها بعد الفتنة البربرية ، وتحول عمرانها الفسيح الى ميامه قفراء ، واراضي جرداء ، ولم تعد تضم المنيات التي كانت تحدق بها والمروج التي تمتد في نواحيها : واقتصر عمرانها على المدينة الوسطى والشرقية وبعض اجزاء من الارباض الغربية وربض شقندة بعد ان كانت العمارة تمتد بها ايام بني امية ٢٤ ميلا في الطول وستة اميال في العرض : « وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير »[١] .

ومع ذلك فقد كانت في عصر الموحدين محل اعجاب الامراء والخلفاء والسلاطين ، فقد وصفها خليفة الموحدين ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وكان قد عاش بها فترة قبل ان يتولى الخلافة : بقوله : « ان ملوك بني امية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلي بصيرة . الديار الكثيرة المنفسحة : والشوارع المتسعة، والمباني الضخمة ، والنهر الجاري . والهواء المعتدل . والخارج النضر ، والمحرث العظيم : والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرق الاندلس وغربها »[٢] . كذلك وصفها محمد بن عبد الملك بن سعيد في هذا العصر بقوله : « هي من احسن بلاد الاندلس مباني : واوسعها مسالك ، وابرعها ظاهرا وباطنا ، وتفضل اشبيلية بسلامتها في فصل الشتاء من كثرة الطين »[٣] .

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٦ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٠ .
(٣) نفس المصدر .

ومن القصور التي اقامها المرابطون في قرطبة منية الزبير ، وهي منية اقامها الزبير بن عمر الملثم ، والي قرطبة من قبل المرابطين ، وغرس في بستانها اشجارا من اللوز ، وفي هذا البستان يقول ابو بكر بن بقي الشاعر :

سقى الله بستان الزبير ودام في	ذراه مسيل النهر ما غنت الورق
فكائن لنا من نعمة في جنابه	كبزته الخضراء طالعها طلق
هو الموضع الزاهي على كل موضع	أما ظله ضاف أما ماؤه دافق
أهيم به في حالة القرب والنوى	وحق له مني التذكر والعشق[1]

اما الموحدون فقد انشأوا بقرطبة قصورا ورد لنا اسم احدها وهو قصر السيد ، ويقع خارج مدينة قرطبة ، بناه السيد ابو يحيي بن ابي يعقوب ابن عبد المؤمن ، على متن نهر قرطبة ، بحيث يقوم على أقواس مشيدة فوق الماء ، وتأنق في بنيانه ، وبالغ في اتقانه . وأغلب الظن ان المهندس المالقي الحاج يعيش باني قصور الموحدين في اشبيلية هو الذي تولى بناء قصر السيد ، وقد قيل للسيد « كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن اهل قرطبة ، فقال : علمت انهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر ، لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية ، فأحببت ان يبقى لي في بلادهم أثر اذكر به على رغمهم »[2] .

وقد وصفه الشاعر ناهض بن ادريس من شعراء محمد الناصر بن ابي يوسف يعقوب المنصور ، بقوله :

ألا حبذا القصر الذي ارتفعت به	على الماء من تحت الحجارة اقواس
هو المصنع الاعلى الذي أنف الثرى	ورفعه عن لثمه المجد والباس
فأركب متن النهر عزا ورفعة	وفي موضع الاقدام لا يوجد الرأس
فلا زال معمور الجناب وبابه	يغص وحلت أفقه الدهر أعراس[3]

---

(1) المقري ، ص ١٨ .
(٢) نفسه ، ج ٢ ص ١٦ - ١٧ .
(٣) نفسه ، ص ١٧ .

ولقد تبقت من هذا القصر آثار ، ما زالت قائمة فوق النهر لصق الرصيف تجاه باب السدة الخلافي ، وقريبا من القنطرة .

(٣)

قرطا قرطبة : الزهراء والزاهرة

اولا ــ مدينة الزهراء

شغف الناصر بالبنيان :

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر كلفا بالبنيان ، شغوفا بالانشاء والتشييد[١] حتى انه آثر ذلك على لذات الملوك ، وخصص ثلث اموال جبايته للبنيان[٢] . ويذكر ابن خاقان في المطمح انه كان « كلفا بعمارة الارض ، واقامة معالمها ، وتكثير مياهها ، واستجلابها من ابعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه ، وعزة سلطانه ، وعلو همته ، فأفضى به الاغراق في ذلك الى ابتناء مدينة الزهراء الشائع ذكره ، الذائع خبره ، المنتشر في الارض أثره »[٣] . وينسبون اليه ابياتا قالها في تمجيد البنيان ، باعتباره من الآثار الخالدة الدالة على عظم قدر بانيها :

همم الملوك اذا ارادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم ... ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم قدره ... أضحى يدل على عظيم الشان[٤]

---

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٧٨ .
(٢) ابن غالب ، ص ٣٢ ــ ابن سعيد . ص ١٧٨ ــ ابن الخطيب : ص ٣٨ ــ المقري ، ج ١ ص ٣٥٥ .
(٣) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٤٠ ــ ابن غالب . ص ٣٤ . المقري : ج ٢ ص ١٠٥
(٤) المقري ، ج ٢ ص ٦٢ ، ١١٠ .

وكان وزراؤه يعرفون حب الناصر للبناء ، فأهداه احمد بن عبد الملك ابن شهيد في أول ولايته أميرا على الاندلس هدية كبرى ، من بينها كمية كبيرة من صخر البناء ، وعشرين الف عود من الخشب القيم ، وذكر له ابن شهيد في رسالته التي بعثها مع الهدية : « وكما علمت نافذ عزمه ـ أبقاه الله تعالى ـ في البنيان ، وكلفه به ، وفكرت في عدد الاماكن التي تطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره في بنيانها ، مد الله تعالى في عمره ، واوفى بها على أقصى أمله ، علمت أن إسه وقوامه الصخر والاستكثار منه »[1] ، ولما كان ابن شهيد يعلم اشتهاء الناصر امتلاك احدى قرى الكنبانية ، اشتراها له بأحوازها[2] .

ولكن شغف الناصر بالبناء ، واشتغاله بتنسيق قصوره ومنياته ؛ كان يثير سخط الفقهاء في قرطبة عليه ، وبالذات القاضي منذر بن سعيد البلوطي . ويذكر ابن خاقان ان الناصر عندما شرع في بناء مدينة الزهراء ؛ استغرق في الاهتمام ببنيانها ، « واستفرغ وسعه في تجيدها ، واتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، فانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه[3] ، فأراد منذر بن سعيد ، رحمه الله ؛ وجه الله في ان يعظه ويقرعه في التأنيب ، ويقص عليه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطابة والتذكير بالانابة ، فابتدأ اول خطبته بقوله : (اتبنون بكل ربع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون ، واتقوا الذي امدكم بما تعلمون ، امدكم بانعام وبنين وجنات وعيون . اني اخاف عليكم عذاب يوم أليم) ، ووصل ذلك بكلام جزل ، وقول فصل جاش به صدره ، وقذف به على لسانه نحره ؛ واقضى في ذلك الى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته ، والسرف في الانفاق

---

(1) المقري ، ج 1 ص ٣٣٧ .
(2) نفسه .
(3) يضيف المقري على ذلك « ثلاث جمع متواليات » (المقري . ج ٢ ص ١٠٥) .

عليه ، فجرى في ذلك طلقا وتلا فيه قوله تعالى : (أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين • لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) • واتى بما شاكل المعنى من التخويف للموت ، والتحذير منه ، والدعاء الى الله عز وجل في الزهد في هذه الدنيا الفانية ، والحض على اعتزالها ، والتبين لظاهر معانيها ، والترغيب في الآخرة وباقيها ، والتقصير عن طلب الدنيا ، ونهي النفس عن اتباع الشهوات ، وتلا من القرآن العظيم ما يوافقه ، وجلب من الحديث والاثر ما يشاكله ويطابقه ، حتى بكى الناس وخشعوا وضجوا وتفرعوا ، واعلنوا الدعاء الى الله تعالى ، فعلم الخليفة أنه المقصود به ، والمعتمد بسببه ، فاستجدى وبكى ، وندم على ما سلف منه من فرطه ، واستعاذ بالله من سخطه ، واستعصم برحمته »[1] • وكان منذر يكثر من تعنيفه على اقباله على البنيان ، وزجره على زخرفته ، ويروي المؤرخون ان الناصر كان قد اتخذ لسطح العلية الصغرى القائمة على الصرح الممدود قبة ، ذهب قراميدها وفضضها ، وانفق عليها اموالا طائلة ، وجلس فيها بعد تمامها ، وقد جمع حوله كبار رجال دولته ووزرائه وقرابته ؛ واخذ يتباهى بما صنعه فيها من التأنق والزخرفة ، فقال : « هل رأيتم او سمعتم ملكا قبلي فعل مثل فعلي او قدر عليه ؟ قالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ وانك لأوحد في شأنك كله ، وما سبقك في مبتدعاتك هذه ملك ، وما بناه ، ولا انتهى الينا خبره • فأبهجه قولهم ، وسره ثناؤهم ، وبينما هو كذلك سادرا ضاحكا ، دخل عليه القاضي منذر بن سعيد البلوطي واجما ناكسا رأسه ، فلما استقر في المجلس قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف واقتداره ، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته ، وقال : والله يا امير

---

(1) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٤١ — ابن غالب ، ص ٣٤ - ٣٥ — المقرى ، ج ٢ ص ١٠٦ .

المؤمنين ، ما ظننت ان الشيطان اخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا ان تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله ، وفضلك على العالمين حتى أنزلك منازل الكافرين . قال : فاقشعر عبد الرحمن من قوله وقال : انظر ما تقول ، كيف أنزلني منازل الكافرين . قال : نعم ، أليس الله تعالى يقول (ولولا أن يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) الآية . فوجم عبد الرحمن ، ونكس رأسه مليا ودموعه على لحيته تجري خشوعا لله تعالى تذمما اليه ، ثم أقبل على منذر ، وقال : جزاك الله خيرا عني وعن جميع المسلمين ، وكثر في المسلمين امثالك ، فالذي قلت والله الحق . وقام من مجلسه وهو يستغفر الله ، وامر بنقض سقف القبة ، واعاد قراميدها ترابا »[1] .

وذكروا ان منذر حضر يوما في الزهراء مع الخليفة ، فقام ابو عثمان ابن ادريس ، ومدح الناصر بقصيدة ، منها :

سيشهد ما أبقيت انك لم تكن	مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى	وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فطرب الناصر ، واغتبط بهذا المديح ، ولكن منذر بادر بقوله :

يا باني الزهراء مستغرقا	اوقاته فيها اما تمهل
لله ما احسنها رونقا	لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال له الناصر : « اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع يا ابا الحكم لا تذبل ان شاء الله تعالى . فقال منذر : اللهم فاشهد اني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحا »[2] .

---

(1) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٤٥ ، ٤٦ ـ ابن غالب ، ص ٣٣ ، ٣٤ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٠٨ ، ١١٠ .

(2) المقري ، ج ٢ ص ١١٠ .

سبب انشاء الزهراء وتسميتها بهذا الاسم :

ذكر ابن حيان ان عبد الرحمن الناصر شرع في بناء قصور الزهراء في اول المحرم سنة ٣٢٥[١] ، فاختار موضعا يبعد عن قرطبة من جهة الغرب بنحو اربعة اميال وثلثي ميل[٢] ، كان يعرف قديما باسم قوقريط[٣] ، وذكر الادريسي ان المسافة بين قرطبة ومدينة الزهراء خمسة اميال[٤] . وكان سبب بنائه لها وفقا لما ذكره الشيخ محي الدين بن عربي في المسامرات ، استنادا الى ما اخبره به بعض شيوخ قرطبة ان جارية مثرية من جاريات الناصر توفيت ، وتركت اموالا كثيرة ، فبحث في وجه ينفق فيه هذا المال ، فأمر بان يفك به اسرى المسلمين في بلاد الافرنج ، الا انه انهى اليه بعدم وجود اسرى من المسلمين ، فرجته جاريته الزهراء ، وكانت احدى جارياته الاثيرات لديه ، ان يبني لها بهذا المال مدينة تسمى باسمها ، وتكون خاصة بها ، فاستجاب لرغبتها ، وحقق لها رجاءها ، وبنى مدينة الزهراء في السفح الجنوبي لجبل العروس ، « واتقن بناءها ، واحكم الصنعة فيها ، وجعلها متنزها ومسكنا للزهراء وحاشية ارباب دولته » ، ثم حقق امنيتها فسمى المدينة باسمها ، وتأكيدا لذلك نصب تمثال الزهراء فوق بابها . ولما انتهى من بنائه للقصور وجلس مع جاريته الحسناء في مجلس الزهراء ، وشاهدت بياض مباني المدينة بجانب الجبل الاسود (Sierra Morena) الذي اقيمت على سفحه ، طلبت من الناصر ان يزيل هذا الجبل لانه يشوه منظر المدينة الجميل ، ويزيل ما تحدثه في النفس من أثر حسن ، ولكن بعض جلسائه أثنوه عن ذلك لاستحالة هدم الجبل ، فأمر بقطع شجره وغرسه تينا ولوزا ، وكان لذلك اكبر الاثر في تجميل مدينة الزهراء ،

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١١٧ .

(٣) العذري ، ص ١٢٣ .

(٤) الادريسي ، ص ٢١٢ .

خاصة في زمن الربيع عندما تتفتح الازهار بين الجبل والسهل[1] . وواضح في هذه القصة عنصر التشويق وهي لذلك لا تعدو رواية خيالية ، نقلها القطب الاكبر ابن عربي عن لسان بعض اهالي قرطبة ، وكانت مما تواتر عندهم على مر السنين ، ولكن علينا ان نستبعد منها خضوع الناصر لنزوة احدى جارياته لتفسير اسباب نشأة الزهراء . لقد كانت للحكم الربضي جارية متيم بها اسمها عجب ، وكان لعبد الرحمن الاوسط جارية أثيرة لديه تسمى طروب ، وكان للحكم المستنصر ام ولد مولع بها هي صبح ، ولكننا لم نسمع ان احدهم وصل به حبه لجاريته الى حد ان يقيم مدينة لها ويسميها باسمها ، ثم انه لا يعقل ان رجلا في قوة عبد الرحمن الناصر وعظمته استنزل الثوار في الاندلس ، وتغلب على اهل العصيان ، ونازع سلطان الفاطميين في البحر المتوسط الغربي ، بل وفي أرض المغرب نفسها ، وارغم ملوك اسبانيا المسيحيـة على مهادنته ، وطلب سلمـه وموادعته ، والذي قيل ان ايام السرور التي حققت له دون تكدير من جملة سني حكمه الطويل وقدرها خمسون سنة وسبعة اشهر وثلاثة ايام لم تتجاوز اربعـة عشر يوما[2] ، لا يعقل ان يضعف مثل هذا الرجل العظيم امام نزوة جارية يمتلكها من بين مئات الجاريات التي تغص بهن قصوره ، ويقضي خمسـا وعشرين عاما من حكمه في بناء مدينة كرس من اجلها ثلث جباية امواله ولا يتم بناؤها الا بعد أربعين سنة من البدء فيه[3] . والحقيقة ان الناصر الذي يمثل الذروة العليا في ملوك بني امية ، والذي اشتهرت ايامه ، وبعد صيته ، وانتشرت بالعدوة طاعته ، وعلت على منابر الاندلس كلمته ، ووحد البلاد بعد انقسامها ، وقضى على الثوار والمتمردين ، وتمهد ملكه وعظم امره ، وهادنته ملوك اوربا ، وقدمت عليه رسلهم اراد ان يبني مدينة ملكية

---

(1) المقري ، ج ٢ ص ٦٥ .
(2) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٦ ــ ابن سعيد ، ص ١٧٧ ــ ابن غالب ، ص ٣١ ــ ابن الخطيب ، ص ٤٠ .
(3) المقري ، ج ٢ ص ١٠١ ، ١٠٥ .

قريبة من حاضرته ، تليق بجلال الخلافة وبهائها ، وابهة الملوكية وردائها ، فأسس مدينة الزهراء اشباعا لرغبته في البنيان ، وتحقيقا لمجده وعظمته ، وشغفه بالتشييد ، فقد اجمع المؤرخون على انه كان مغرما بذلك ، وذكر ابن خلدون انه « لما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمباني ، وكان جده الامير محمد وابوه عبد الرحمن الاوسط وجده الحكم قد احتفلوا في ذلك وبنوا قصورهم على اكمل الاتقان والضخامة »[1] . وكان قصر الخلافة بقرطبة قد ضاق عن الاتساع لرجال حاشيته ، كما اكتظت مساحته بالزيادات المتتابعة فيه بحيث لم يعد هناك مجال لمزيد من الزيادة ، كما انه لم يعد يليق بعظمة الخلافة ، زد على ذلك ان هذا القصر الخلافي كان يقع في اكثر مناطق قرطبة ازدحاما بالسكان ، قريبا من باب القنطرة حيث اكثر مناطق المدينة حركة وعجيجا ، وقريبا من الحي التجاري الصاخب ، فكان الخليفة يعيش هناك محوطا بالعامة ، وكان شعوره بالاقامة فيه على الدوام يضايقه اشد المضايقة ، اذ كان يحن الى الانعزال بين الحين والحين كما كان يفعل اجداده خلفاء بني امية في المشرق الذين كان يدفعهم الشوق الى الصحراء والبادية الى الاقامة في القصور الخلوية ، ولعله احتذى في ذلك حذو جده الاول عبد الرحمن الداخل الذي اقام لنفسه ضاحية اميرية في شمال قرطبة سماها بالرصافة ، فعمد الناصر الى تأسيس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يستمتع فيه بالهدوء ايام راحته من مهام منصبه الصعب ، ويليق في آن واحد بجلال الخلافة . اما اسم الزهراء فقد يكون صفة للمدينة التي اسسها تفاؤلا بازدهارها كالشأن في الجامع الازهر ومدينة الزاهرة ودار السلام بغداد أو المنصورية والمهدية في المغرب الادنى ، او قد يكون قد اطلق عليها لكثرة ازهار بساتينها المحيطة بها[2] . وأخيرا لعله سماها بهذا الاسم تحريفاً من اسم

---

(1) المقري ؛ ج ٢ ص ١١٢ .

(2) ورد هذا الاسم في بعض المصادر العربية على النحو التالي « المدينة الزهراء » اي أن الزهراء صفة للمدينة (ابن غالب . ص ٢١ . ٢٢ — المقرى . ج ٢ ص ١٠٢) .

الزهرة الذي ورد في شعر ابي عثمان بن ادريس وهو اسم كوكب او نجم عرفه العرب قديما في الجاهلية وكان واحدا من ثالوث كوكبي هو القمر والشمس والزهرة ، الاول ويمثله الاله المقة او سين او هوبس او شهر أو كهل أو أبم أكبر آلهة عرب اليمن ، والثاني وتمثله الالهة اللات الهـة الشمس ، والثالث وهو عثتر أي الزهرة[1] ، وهو المعني بـه في القرآن الكريم « النجم الثاقب »[2] ، وكان أكثـر نجوم السماء تألقـا ولمعانا ، وسموه عزيز ونجم الصباح وذا الخلصة وملك . وكان العرب قد اعتادوا عند انشاء المدن ان تتسمى احيانا باسم الكوكب الذي يمر وقت وضـع الاساس كما حدث بالنسبة للقاهرة بعد ذلك . ونستدل على ما تذهب اليه بان الناصر نصب على الباب الشرقي من ابواب مدينته المستحدثة تمثـالا لامرأة لا نشك في انه كان من بين التماثيل الكثيرة التي شاهدها المسلمون في اطلال المدن الرومانية بالاندلس في طالقة Italica او اشبيلية او قرطبة نفسها ، ولعله كان يمثل فينوس اليونانية ، وما اكثر المدن التي ازدانـت بتماثيل على ابوابها : مثل مدينة قرطبة نفسها التي كان بابها القبلي يسمى باب الصورة او الشكال او الصاحبة بسبب تمثال لامرأة كان يعلو بابها ، ومثل مدينة بجانة وكان يعلو احد ابوابها تمثال لامرأة يشبه تمثال بـاب القنطرة بقرطبة[3] ، ومدينة بلنسية التي كان يعلو أحد أبوابها تمثالا يمثل الثعبان ، فسمي لذلك بباب الحنش ، والمرية التي كان يعلو أحد أبوابها تمثالا للعقاب وغيرها من المدن[4] . كذلك استخدمت التماثيل القديمة في تجميل الحمامات الاسلامية ، ويذكر المؤرخون انه عثر في اطلال طالقة

---

(١) راجع في ذلك : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٤٦١ ـ رشيد الناضوري : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١١٣ .

(٢) القرآن الكريم . سورة الطارق ، ٨٦ آية ٣ .

(٣) الحميري ، ص ٣٨ ـ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٣ .

(٤) ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس . ص ٦٢ .

الرومانية على تمثال لجارية من المرمر حملت الى حمام باشبيلية يقال له حمام الشطارة ، تعشقه بعض العوام[1] . اما أن يكون تمثال مدينة الزهراء للجارية المزعومة فأمر مستبعد اساسا ، لسبب واحد هو ان الاندلس لم تعرف من فنون النحت فن التمثيل الآدمي الواقعي ، وكل ما عرفته من هذا الفن هو صور آدمية منقوشة على علب العاج ، لا تشير الى شخص بذاته ، وانما اتجه فن النحت في الاسلام بوجه عام الى تجريد الصور الآدمية او الحيوانية وحتى النباتية من حيويتها[2] . وقد كشفت الابحاث الاثرية في اطلال مدينة الزهراء عن جزء كبير من تمثال رخامي يمثل جسم امرأة لعله تمثال الزهرة الذي كان يقوم فوق باب المدينة[3] .

وعلى هذا الاساس يمكننا اعتبار قصة الزهراء جارية الناصر من ابتكار المؤرخين ، ولعلها التشابه الكبير بين اسمي الزهرة والزهراء ، ولعل المدينة سميت بالزهراء منذ الاصل حتى لا يقترن الاسم بصورة من صور الوثنية العربية ، وفي نفس الوقت تفاؤلا بما سيكون لها من ازدهار ، ولكن هذا لا يمنع من ان تكون الفكرة قد نبعت حسبما ذكرناه من اسم الزهرة .

احصائيات بعدد العمال ومواد البناء :

عهد عبد الرحمن الناصر الى مسلمة بن عبدالله العريف المهندس بالنظر في بنيان الزهراء[4] ، وكان يساعده من البنائين ثلاثة أمناء هم : عبدالله بن يونس عريف البنائين ، وحسن بن محمد ، وعلي بن جعفر

---

(١) السيد عبد العزيز سالم . العمارة المدنية في الاندلس . ص ١٤٢ .
(٢) السيد عبد العزيز سالم . القيم الجمالية في فن العمارة الاسلامية ، بيروت ١٩٦٣ . ص ١١ .
(٣) مدينة الزهراء . دائرة معارف الشعب . عدد ٦١ ص ٢٨ .
(٤) ابن غالب . ص ٣١ — المقري ، ج ٢ ص ١٠٣ .

الاسكندراني[1] . أما الاشراف الاعلى على البنيان فقد عهد به الى ابنه وولي عهده الحكم[2] . وقد استخدم في بناء الزهراء كل يوم من حذاق البناة ثلثمائة والنجارين مائتان[3] ، ومن العمال والفعلة خمسمائة حاشا من كان يشترك في البناء من أعلاج النصارى[4] ، وقيل عشرة آلاف رجل يتفاوت أجر الواحد منهم ما بين درهم ونصف وثلاثة[5] . وكان ينفق في البناء كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل[6] المستخدم للتبليط في الاسس[7] . وذكر ابن حيان ان الناصر وضع في خدمة العمال والبنائين اربعمائة من زوامله ، واستأجر عريف البنائين ، بالاضافة الى هذه الزوامل ، من دواب الاكرة ألف بغل بلغت اجرتها في الشهر ثلاثة آلاف دينار ، وكان يحمل الى الزهراء من الجير في كل يوم خمسمائة حمل ، ومثله من الجبس . اما الرخام فقد كان يتولى جلبه عبدالله بن يونس عريف البنائين ، وعلي بن جعفر الاسكندراني من قرطاجنة وافريقية وتونس ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة او كبيرة بعشرة دنانير قاسمية اجرة لهم سوى ما كان يلزمها من المؤن والنقل . وكان يصلهم على كل سارية بثمانية مثاقيل ذهب[8] ، وقيل أنه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير ، وقيل ايضا انه كان يثيب على كل رخامة صغيرة او كبيرة عشرة دنانير[9] . ويذكر ابن غالب نقلا عن المؤرخ القرطبي ابن حيان أن عدد

---

(1) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٤ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٠٤ .
(2) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٥ .
(3) ابن غالب ، ص ٣١ .
(4) نفسه .
(5) المقري ، ج ٢ ص ٦٧ .
(6) نفسه . ويتفق ابن غالب مع المقري في هذا العدد من الصخور ، باستثناء المرتل ، ويرجح الدكتور لطفي عبد البديع أن المقصود بالمرتل الملاط (ابن غالب : ص ٣١ ملاحظة رقم ٢) .
(7) ابن عذارى : ص ٢٤٤ .
(8) ابن غالب ، ص ٣٢ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٠٤ .
(9) المقري ، ج ٢ ص ٦٧ .

سواري الرخام التي استخدمت في بناء الزهراء ما بين صغيرة وكبيرة حاملة ومحمولة في عصر عبد الرحمن الناصر ٤٣١٣ سارية ، منها ١٠١٣ سارية من افريقية ، و ١٩ من القسطنطينية ، ١٤٠ هدية من ملك رومة ، وسائرها من مقاطع الرخام في الاندلس : فالرخام المجزع من رية[1] ، والابيض من المرية[2] ، والوردي والاخضر من أسفاقس وقرطاجنة[3] .

وبلغ عدد أبواب مدينة الزهراء ما يزيد على ١٥ ألف باب[4] ، وفي ذلك يقول ابن حيان : « ما زلت اسمع من الشيوخ المحصلين ان مصانع المدينة الزهراء وقصورها اشتملت على خمسة عشر الف زوج باب ومئتين زائدة ، منها المضفح بالحديد المبيض بالقزدير ، ومنها المصفح بالنحاس الاصفر ، ومنها الخشب المنقوش والمرصع »[5] .

مجالس قصر الخلافة :

كان اول ما اقامه عرفاء عبد الرحمن الناصر بناء قصر الخلافة ، واحاطته بالفصلان[6] ، وكان يشتمل على ١٢٠ دارا ، ومخازن ، واهراء للزيت والسمن ، والسجن الكبير[7] ، وكان يضم مجلسين رئيسيين :

أ ــ المجلس الشرقي : ويعرف بقصر المؤنس ، ويشرف على الرياض ،

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢) عرفت المرية بثرائها في الرخام الصقيل (ابن الخطيب . مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٨٣ ــ المقري . ج ١ ص ١٥٣ . ج ٢ ص ٢٠٧) وتقع مقاطع رخام المرية في جبل سيرا دي اوس ميلا بروس الواقع في جهتها الشمالية (السيد عبد العزيز سالم . تاريخ مدينة المرية . ص ١٦٣) .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٦٧ ، ١٠٤ .

(٤) نفسه ، ص ٦٦ .

(٥) ابن غالب . ص ٣٢ ــ المقري . ج ٢ ص ١٠٢ .

(٦) المقري . ج ١ ص ٣٦٣ .

(٧) ابن غالب ، ص ٣٢ .

وهو بيت المنام الخلافي[1] ، وكان مزودا بمحراب أو بمجلس يجلس فيه الخليفة الحكم بحيث يشرف على السطح المعلي وعلى الروض[2] . وكان بيت المنام يزدان بحوض من الرخام الاخضر نصب في وسطه ، حفرت عليه نقوش تمثل صورا آدمية مذهبة ، كان قد جلبه أحمد اليوناني وربيع الاسقف من القسطنطينية[3] ، ونقل هذا الحوض بحرا الى الاندلس ، ثم وضعه الناصر في بيت منامه ، وأدار حوله اثني عشر تمثالا من النحاس مرصعة بالدر النفيس من صناعة قرطبة ، رتبها على النحو التالي : على أحد الجانبين الطويلين من الحوض نصبَ تمثال أسد بجانبه غزال ثم تمساح ، وفي الجهة المقابلة ثعبان وعقاب وفيل ، وعلى أحد الجانبين القصيرين : حمامة وشاهين وطاووس ، وعلى الجهة المقابلة دجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكانت هذه التماثيل تمج المياه من أفواهها[4] .

ب ـ **المجلس الغربي** : ويسمى أحيانا بالمجلس البديع أو مجلس الذهب أو مجلس الاجراء[5] ، وكان سمك جدرانه من القراميد المذهبة والرخام الملون ، وكسيت أرضيته بالرخام الملون الصافي كما كسيت الجدران بتربيعات مذهبة ومفضضة ، وكان يتوسط هذا المجلس اليتيمة التي أتحف بها اليون صاحب القسطنطينية[6] الناصر ، وهي حوض مذهب

---

(1) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٥ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(2) ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢٨ .

(3) كشف في الزهراء عن نحو ١٥ قطعة من الرخام نقشت عليها صور آدمية نصف عارية شديدة البروز مع فرس وماعز كما لو كانت تنتمي الى ناووسين كبيرين من الاسلوب اليوناني الروماني الاصيل (راجع جومث مورينو، ص ٢١٣) .

(4) عثر في اطلال الزهراء على تمثال من النحاس يمثل وعلا يبلغ ارتفاعه ٤٠ سم وكله مليء بالملفات النباتية المحفورة ، والتمثال من نوع التماثيل الحيوانية التي تمج المياه من افواهها ، وكان الماء يصل الى فمه عن طريق انبوبة تمتد من وسط قاعدته ، ثم يصعد في ارجله ورقبته (راجع جومث مورينو ، ص ٤٠٠) .

(5) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ١٣٧ ؛ ١٨٤ .

(6) يعني به الامبراطور البيزنطي ليو السادس الذي عرف بالفيلسوف (٨٨٦ ـ ٩١٢) لما اصابه من شهرة في العلم وفي الفلسفة .

كبير أو صهريج كبير كان الناصر يملأه بالزئبق ، « وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار ، وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ الى أحد صقالبته ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك »[1] .

وكان يتوسط هذين المجلسين بهو اوسط كبير المساحة يقع جنوبي السطح الممرد[2] ، المشرف على بساتين الزهراء ، فقد ذكر الادريسي ان مدينة الزهراء في ذاتها « مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الاعلى يوازي على الجزء الاوسط ، وسطح الثلث الاوسط يوازي على الثلث الاسفل ، وكل ثلث منها له سور ، فكان الجزء الاعلى منها قصورا يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الاوسط بساتين وروضات، والجزء الثالث فيه الديار والجامع »[3] . وكانت جدران البهو الاوسط مذهبة ، وكان البهو فسيحا للغاية ، أعد خصيصا للاحتفالات الكبرى باستقبال السفارات او لمبايعة الخلفاء ، ليتسع لعدد هائل من الناس والجند، وكان للبهو الاوسط برطل او مظلة قائمة على عقود واعمدة . وكان يحيط بقصر الخلافة فصلان ، منهما فصيل الكتاب الذي يشرع بابه الى دار الوزراء ، وفصيل ابي الاعراض[4] . وكانت تنفتح في هذه الفصلان عدة

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٦٨ . واول من اثر عنه انه اقام في قصره حوضا ملاه بالزئبق خمارويه بن أحمد بن طولون .

(٢) هو شرفة مرتفعة كانت تطل على بساتين الزهراء في الجهة الشمالية

(٣) الادريسي ، ص ٢١٢ .

(٤) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ٥١ .

ابواب ، الخارجي منها باب المدينة المطل على الصحراء[1] ، ومنها بـاب الاقباء اول ابواب القصر الخلافي[2] ، ثم باب السدة الاعظم ، وهو باب القصر نفسه ، وكان يصطف خلفه فرسان العبيد حتى باب الاقباء ، ثـم يتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة الى الباب القبلي الشارع الى الصحراء ، وهو الباب الذي تعلوه صورة الزهراء ، ولذلك عرف بباب الصورة القبلي[3] . وكان بداخل قصر الخلافة دار تعرف بدار الجند ، وهي الدار التي يقيم فيها الحرس الخلافي ، وكان لهـذه الدار برطل (بائكة او مظلة قائمة على عمد) يطل عليها من الجنوب ثلاثة ابهاء لعلها المعروفـة بدويرة البرطلات[4] . وفي البهـو الاوسط منهـا جلس شانجة بن ردمير عندما وفد على الناصر ، وجلس عدوه أردون الرابـع عندما قدم الى قرطبة ليستنصر بالحكم المستنصر[5] . وكان بقصر الخلافة جانب مخصص لحمام الخليفة[6] . وذكر ابن حيـان ان قصر الزهراء اضيفت اليه دار تعرف بدار الملك في ايام الحكم المستنصر خصصها لتعليم ولده هشام ، وفتح في فصيل الفتيان بها بابا غريبا يسهل على الخليفة مهمة الخروج من قصره اليها[7] .

ولما تم بناء قصر الزهراء بجلالته وفخامته ، اجمع الناس على انه لم يبن مثله في الاسلام ، ويعلق المقري على ذلك بقوله : « وما دخل اليه قط احد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ، ورسول وافد ، وتاجر جهبذ ، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنـة ، الا وكلهم قطع انه لم ير له شبها ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ،

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٦٤ .
(٢) نفسه ، ج ١ ص ٣٦٤ . ومن ابواب قصر الزهراء غير الاقباء باب الورد وهو الباب القبلي وباب دار الخيل وباب السدة .
(٣) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ٤٩ .
(٤) نفسه ، ص ١٩٧ .
(٥) المقري ، ج ١ ص ٣٦٦ .
(٦) نفسه ، ج ٢ ص ١٠٣ .
(٧) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ٧٧ .

حتى انه كان اعجب ما يؤمله القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر اليه ، والتحدث عنه . ولو لم يكن فيه الا السطح المرد المشرف على الروضة . المباهي بمجلس الذهب والقبة . وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة . وحسن المستشرف ؛ وبراعة الملبس والحلة . ما بين مرمر مسنون وذهب مصون ، وعمد كأنما افرغت في القوالب . ونقوش كالرياض ؛ وبرك عظيمة الصنعة ؛ وحياض وتماثيل عجيبة الاشخاص لا تهتدي الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها »[1] .

بساتين القصر :

كانت بساتين القصر واسعة ، اتخذ في جانب منها حديقة للحيوانات اقام فيها الناصر « محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج . ومسارح للطيور مظللة بالشباك »[2] ، على نحو ما فعله خمارويه بن احمد بن طولون. اذ بنى للطيور برجا من خشب الساج ، واطلق فيه جميع انواع الطيور ؛ واتخذ في القصر دارا للسباع . وجعل لكل صنف من الدواب اصطبلا للجمال والفهود والنمور والفيلة والزرافات[3] . وفي موضع آخر من بستان الزهراء اقام حوضا للسباحة وسط الرياض . زوده بدرج ليسهل بواسطته النزول في الماء . وقد اشار الفتح بن خاقان الى هذا الحوض في معرض حديثه عن القاضي منذر بن سعيد البلوطي . فقال : « وحضر عند الحكم المستنصر بالله يوما في خلوة له في بستان الزهراء على بركة ماء طافحة ، وسط روضة نافحة ؛ في يوم شديد الوهج . وذلك اثر منصرفه من صلاة الجمعة ، فشكا الى الخليفة من وهج الحر الجهد . وبث ما به

---

(1) المقري . ج ٢ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(2) المقري . ج ٢ ص ١١٢ .

(3) ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة . ج ٣ . طبعة دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٣٢ . ص ٥٨ — حسن محمود . وسيدة الكاشف . مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين . القاهرة ١٩٦١ . ص ٩٢ .

ما تجاوز الحد ، فأمره بخلع ثيابه والتخفف عن جسمه ، ففعل ولم يطفيء ذلك ما به ، فقال له : الصواب ان تنغمس في وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك ، ولم يكن مع الخليفة الا الحاجب جعفر الخادم الصقلبي أمينه ، والحكم لا رابع لهم ، فكأنه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقارا ، واقصر عنه اقصارا ، فأمر الخليفة حاجبه جعفرا بسبقه بالنزول في الصهريج ، ليسهل الامر فيه على القاضي . فبادر جعفر لذلك ، والقى بنفسه في الصهريج وكان يحسن السباحة ، فجعل يجول يمينا وشمالا ، فلم يسع القاضي الا انفاذ امر الخليفة ، فقام والقى بنفسه خلف جعفر ، ولاذ بالقعود في درج الصهريج ، وتدرج فيه بعض تدريج ، ولم ينبسط في السباحة ، وجعفر يمر مصعدا مصوبا ، فدسه الحكم على القاضي ، وحمله على مساجلته في العوم ، فهو يعجزه في اخلاده الى القعود ، ويعاتبه بالقاء الماء عليه والاشارة بالجذب اليه ، وهو لا ينبعث معه ولا يفارق موضعه »[1] .

وفي جانب آخر من جوانب البستان اقيمت بحيرات للاسماك وانواع الحيتان ، كان يخبز لها في كل يوم نحو ٨٠٠ خبزة ، وقيل ١٢ الف خبزة ، وهو رقم مبالغ فيه ، وكان ينقع لها من الحمص الاسود ستة اقفزة كل يوم[2] . ويبدو ان الناصر اقتبس نظام البرك الصناعية والبحيرات من افريقية والمغرب الاوسط ، فقد عرف الاغالبة القصور المزودة بالبحيرات ، وكان برقادة قصر يقال له قصر البحر[3] ، كما كان بالقيروان وغيرها من مدن افريقية الاغلبية مواجل وخزانات مائية ضخمة ، منها الماجل الكبير بالقيروان ، وكان لبني حماد الصنهاجيين في قلعتهم بالمغرب الاوسط قصر يعرف بدار البحر الحمادي[4] ، كما كان ببجاية قصر بناه بنوزيري وجعلوا

---

(١) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٢) ابن الخطيب ، ص ٣٨ — المقري ، ج ٢ ص ١٠٩ .
(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٥٧ .
(٤) De Beylié, La Kalaa de Beni Hammad, Paris, 1909, P. 36
De Beylié, La Kalaa de Beni Hammad, Paris, 1909, P. 36 — Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, Paris 1954, P. 83.

له بركة على حافتها اسود تمج المياه من افواهها ، وفيها يقول الشاعر ابن حمديس الصقلي :

وضراغم سكنت عرين رياسة	تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النضار جسومها	وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا[1]

وقد اتخذت بحيرات قصر الزهراء مثالا لملوك الطوائف ، احتذوه في بحيرات قصورهم ، فكانت لقصر المأمون بن ذي النون بطليطلة بحيرتان صفت على ضفافهما تماثيل اسود مذهبة تمج المياه من افواهها هوتا كرشيش القطر او سحالة اللجين[2] . وكان لقصر المعتمد بن عباد باشبيلية بحيرة كبرى[3] .

قيام الدور والمسجد والاسواق :

ما كاد عبد الرحمن الناصر ينتهي من بناء قصوره وغرس بساتينها حتى شرع في اقامة الاسواق والحمامات والخانات والمتنزهات في المدرج الثالث ، وشجع الناس على قصدها وتوطنها ، ويذكر ابن حوقل انه « أمر مناديه بالنداء في جميع اقطار الاندلس : ألا من أن يبتني دارا او ان يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة اربع مائة درهم ، فتسارع الناس الى العمارة ، وتكاثفت الابنية ، وتزايدت فيها الرغبة »[4] . واخذ الناس ينتجعونها من كل مكان حتى فاضت الزهراء بسكانها ، وامتد العمران خارجها في الطريق الممتدة ما بين قرطبة والزهراء حتى كادت الابنية ان تتصل بينهما ، ونقل اليها بيت المال والديوان والمطبق والخزائن[5] ،

(١) المقري ، ج ٢ ص ٣٧ .
(٢) ابن بسام ، قسم ٤ مجلد ١ ، ص ١٠٢ .
(٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ، ص ٨ .
(٤) ابن حوقل ، ص ١٠٧ .
(٥) نفسه ، ص ١٠٨ .

وأقام بها الناصر دارا لصناعة الآلات والحلي[1] ، ويذكر الشقندي ان العمارة في مباني قرطبة والزهراء كانت متصلة[2] . ولم تكن للزهراء عند زيارة ابن حوقل لقرطبة فيما يقرب من سنة ٣٤٠ سور كامل يحيط بها[3]. وذكر الرازي ان دور الفتيان الصقالبة والعبيد وكثير من الجند المرتبين بالزهراء وأهل الخدمة كانت خارجة عن القصر من الجهة الغربية من المدينة، اما دور الوزراء واشراف الناس وكبار رجال الخدمة فكانت تقع الى الشرق منها[4] . اما المسجد فكان اقل في القدر والاتساع من جامع قرطبة[5] ؛ وكان يعمل في بنائه ، منذ ان شرع في بنائه في ٣ من رجب سنة ٣٢٩ ، من حذاق الفعلة كل يوم ألف عامل ، منهم ثلاثمائة بناء ، ومائتا نجار وخمسمائة من الاجراء وسائر الصنائع ، واستغرق بناؤه واتقانه ٤٨ يوما . وكان بيت الصلاة فيه يتألف من خمسة بلاطات ، البلاط الاوسط منها اكثر اتساعا من البلاطات المجاورة ، اذ كان اتساعه يصل الى ١٣ ذراعا ، بينما لم يكن اتساع كل بلاط من البلاطات الاربع المكتنفة له يتجاوز ١٢ ذراعا (٦ أمتار) . وكان طول المسجد كله من الشمال الى الجنوب باستثناء المحراب الذي كان يبرز عن الجدار ٩٧ ذراعا (٤٨،٥٠ مترا) ؛ وعرضه من الشرق الى الغرب ٥٩ ذراعا (٢٩،٥٠ مترا) ، وكان طول الصحن من الشمال الى الجنوب ٤٣ ذراعا (٢١،٥٠ مترا) ، وعرضه من الشرق الى الغرب ٤١ ذراعا ؛ اي ان طول البلاط الواحد يصل الى ٥٤ ذراعا . وكان الصحن مكسوا بالرخام الخمري اللون ، تتوسطه فوارة ينبثق منها الماء ، وكانت للمسجد صومعة يغلب على الظن انها كانت تقوم في منتصف الواجهة الشمالية ، كالشأن في صومعة جامع قرطبة ، وكان ارتفاعها يبلغ ٤٠ ذراعا وطول قاعدتها المربعة عشرة اذرع . وأمر الناصر

---

(١) المقري ؛ ج٢ ص ١١٢ .
(٢) نفسه ، ج ٤ ص ٢٠٣ .
(٣) ابن حوقل ؛ ص ١٠٨ .
(٤) ابن غالب ، ص ٣٢ .
(٥) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

باتخاذ منبر بديع لهذا الجامع ، فتم صنعه ، وحظرت حوله مقصورة خشبية رائعة . وتم وضع المنبر في موضعه من بيت الصلاة في ٢٣ من شعبان سنة ٣٢٩ ، واقيمت اول صلاة به في ٨ من شعبان ، وصلى الناصر فيه يوم الجمعة ٩ من شعبان ، وكان اول من خطب فيه القاضي ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى[1] .

تاريخ المدينة :

لم يمض اربع سنوات على انشاء جامع الزهراء حتى احتفل الخليفة الناصر احتفالا عظيما باستقبال محمد بن ابي العيش بن عمر بن ادريس بقصر الزهراء ، « وقعد له الناصر افخم قعود ، فأوصله الى نفسه ، وابلغ في تكريمه »[2] . وفي العام التالي انتقل الناصر الى مدينة الزهراء ببيته وحرسه وخدمه ورجال حاشيته . وفي سنة ٣٣٦ نقل السكة من مدينة قرطبة الى الزهراء[3] ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مدينة الزهراء مركزا للاحتفالات الكبرى : ففي سنة ٣٣٧ هـ استقبل الناصر فيها حميد بن يصل ومنصور بن ابي العافية وأخاه ابا العيش . وفي سنة ٣٤١ استقبل الناصر فيها رسل امبراطور المانيا اوتون الاول ، كما استقبل فيها ايضا الملك الليوني المخلوع شانجة وجدته طوطة ملكة نبرة وغرسيه ابنها الذين قدموا في سنة ٣٤٦ ليعينهم الناصر على اعادة شانجة الى عرشه .

ثم توفي الناصر في مدينة الزهراء في ٢ رمضان سنة ٣٥٠ ، وحمل جسده الى قصر قرطبة حيث دفن في روضة الخلفاء ، وفي اليوم التالي لوفاة الناصر اخذ الحكم المستنصر البيعة على الصقالبة الفتيان المعروفين بالخلفاء الاكابر ، واعتلى سرير الملك في البهو الاوسط من الابهاء المذهبة

---

(١) المقري : ج ٢ ص ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٨ .
(٣) نفسه . ص ٣٢١ .

القبلية التي تشرف على السطح الممرد ، حيث بايعه اخوته ، وتبعهم الوزراء واولادهم واخوتهم ثم اصحاب الشرطة وطبقات اهل الخدمة . وفي العام التالي (٣٥١) تم استقبال الحكم لأردون الرابع في قصر الزهراء . وفي سنة ٣٦٠ استقبل الحكم فيها ايضا رسل بوريل الاول صاحب برشلونة[1].

ومن الجدير بالذكر انه وصلت الينا وصوف تفصيلية لجميع هذه الاستقبالات ، نطالع فيها ما يعبر عن مظاهر الابهة والفخامة الممثلة في قصر الزهراء وفي احتفال الجند بالعدد والاسلحة والزينة وقيامهم صفين منتظمين في السطح وفي الفصلان المتصلة به ، بايديهم السيوف ، ويتلوهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم ، ثم صفوف العبيد شاكين في الاسلحة الرائقة والعدد الكاملة ، وعلى رؤوسهم البيضات الصقلبية ، وعلى اكتافهم الجواشن والاقبية البيضاء ، وفي ايديهم التراس الملونة ، كذلك تتمثل هذه الفخامة في تنظيم لجان الاستقبال على الابواب الخارجية للقصر ، وفي التقاليد المتبعة عند دخول الرسل ، ومرورهم بين صفي الجند المرتبين في ساحة السطح ، وفي الروائع الفنية التي يزدان بها مجلس الاستقبال ، بجدرانه المكتظة بالزخارف المحفورة في الحجر والرخام ، والكسوات الذهبية التي تعلو سقفه الخشبية ، وعتاق البسط وكرائم الدرانك التي بسطت على السطح وفي صحون القصر ، وظلل الديباج ورفيع الستور التي ظللت بها ابواب القصر وحناياه ، وفي الابهاء المذهبة التي تتلألأ عند انعكاس الاضواء عليها ، وفي التحف الموزعة في مجلس الاستقبال من وسائد الديباج المثقلة بالذهب ، ومن كراسي مرتفعة مكسوة الاوصال بالذهب[2] ، وفي الحوض الرخامي المذهب الذي تدور عليه تماثيل النحاس تمج المياه من افواهها في وسط المجلس الشرقي .

---

(1) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 425.

(2) راجع وصف حفلات الاستقبال بقصر الزهراء في : المقري . ج ١ ص ٣٦٣ – ٣٦٩ . ابن حيان . نشر الحجي . ص ٤٤ – ٥٢ . وفيا اوردناه خاصا بالوصف المفصلي لاستقبال الحكم المستنصر للملك اردون الرابع .

وفي عصر الحكم المستنصر كمل بناء مدينة الزاهرة بعد تمام خمسة عشرة سنة من توليه الخلافة ، ويغلب على الظـن ، كما يرجح الاستـاذ توريس بلباس ، ان اعماله بدأت في مدينة الزهراء في سنة ٣٦٠ ، أي بعد انتهائه من الزيادة في جامع قرطبة وقصرها ، وان هذه الاعمال استغرقت خمس سنوات • ويستند الاستـاذ توريس بلباس في ذلك على ارقـام التواريخ المسجلة في بعض تيجان الاعمدة التي كشف البحث الاثري عنها في اطلال المدينة ؛ ومن بينها تاج من الطراز المركب مؤرخ في سنة ٣٦١ • وهنالك تيجان خلافية لعلها من مدينة الزهراء اعيد استخدامها في حمـام البياسين بغرناطة ، محفوظة اليوم في متحف الحمراء الاثري ، تحمل اسم الخليفة الحكم المستنصر وتاريخ سنة ٣٦١ • كذلك عثر في ساحة القس دي ميراندا El Conde de Miranda بقرطبة على تاج نقشت عليه العبارة التالية : « بنظر صقر الفتى الكبير في سنة ٣٦٤ »[1] • ولا شك ان كثيرا من هـذه التيجان قد نهب واعيـد استخدامه في مباني قرطبـة واشبيلية وغرناطة وغيرهـا ابان الفتنة بعـد ان تعرضت الزهراء لاعمال العنـف والتخريب على ايدي البربر •

ولا شك ان وفاة الحكم المستنصر في سنة ٣٦٥ وضعت حدا للزيادة والتوسع في بنيان مدينة الزهراء ، كما ان قيام مدينة الزاهرة ، التي شرع المنصور محمد بن ابي عامر في بنائها سنة ٣٦٨ وانتهى منه في عامين وضع حدا لازدهار مدينة الزهراء، وسلب منها كل نشاطها الاداري والاقتصادي، فقد انتقل المنصور الى مدينة الزاهرة في سنة ٣٧٠ ، « ونزلها بخاصتـه وعامته ، فتبوأها وشحنها بجميع اسلحته ، وامواله وامتعته ، واتخذ فيها الدواوين والاعمال ، وعمل داخلها الاهراء ، واطلق بساحتها الإرحاء »[2]،

---

(1) Ocana Jimenez, Capiteles epigrafiados de Madinat al-Zahra, y Capiteles epigrafiados del bano del Albaïcin en Granada, al-Andalus, Vol. IV, 1936, PP. 158-168 — Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 426.

(2) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٤١١ •

ولم تلبث الزاهرة ان اصبحت مقصد اصحاب الحوائج . وكتب المنصور الى سائر الاقطار بالاندلس والعدوة بالمغرب يأمر ولاته بان يحملوا الى مدينته الزاهرة اموال الجبايات ، ويقصدها اصحاب الولايات . اما قصر الزهراء فقد تعطل من هذا النشاط : « واقام الخليفة هشام مهجور الفناء ، محجور الفناء ، خفي الذكر ، عليل الفكر ، مسدود البـاب ، محجوب الشخص عن الاحباب ، لا يراه خاص ولا عام ، ولا يخاف له بأس ولا يرجى منه انعام، ولا يعهد منه الا الاسم السلطاني في السكة والدعوة»[1]. ولم يكتف المنصور بذلك ، بل امر بتحصين قصر الخلافة في الزهراء بسور أداره حوله ، وأطاف به خندقا من جانبيه ، وشحن ابوابه وانقابه بالحراس، ومنع الخليفة من الظهور ، كما منع ان يصل اليه اي خبر من الاخبار او امر من الامور بدون اذنه . وهكذا تحول قصر الخلافة بالزهراء الى سجن خلافي[2] ، ولم نعد نسمع شيئا عن احتفالات سياسية تقام في قصر الزهراء وفي مجالسه البديعة ، وسرعان ما ارتحل عن مدينة الزهراء ونواحيها العدد الاعظم من سكانها اجتذبتهم الزاهرة وشدتهم اليها .

ولما اشتعلت نار الفتنة البربرية بقرطبة ، تعرضت الزهراء لانتقام العامة والبربر . ويشير ابن حيان الى ان سليمان المستعين ، بعد ان بويع بالخلافة في جامع قرطبة في ١٧ ربيع الاول سنة ٤٠٠ ، انتقل بجملة جيشه البربري الى مدينة الزهراء حتى يبعدهم عن اهل قرطبة الموتورين ، على نحو ما فعل الخليفة المعتصم بالله العباسي عندما انتقل بعساكره الاتراك الى سامراء[3] . وكانت دار السكة ما تزال تؤدي وظيفتها في مدينة الزهراء ، فقد عثر على عدد من الدنانير التي ضربت في مدينة الزهراء في عام ٤٠٠ ، ودراهم عديدة باسم سليمان[4] . ولما انهزم سليمان المستعين

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤١٣ .

(٢) Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 427.

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٥٢ .

(٤) Torres Balbas, op. cit., P. 427, Note 23.

وبرابرته في موقعة عقبة البقر في سنـة ٤٠٠ ، بادر البربر بالجـلاء عن الزهراء ، وفروا على وجوههم[1] . وانتهز عامة قرطبة فرصة جلاء البربر عن مدينة الزهراء ، فدخلوها ، ونهبوا ما وجدوه فيها من تحف ، ودخلوا المسجد الجامع بالزهراء ، وجردوه من حصره وقناديله ومصاحفه وصفائح ابوابه[2] ، ويعتبر ذلك اول تخريب تعرضت له مدينة الزهراء .

ولما تجمعت صفوف سليمان المستعين من جديد ، وهزم بربره قوات المهدي محمد بن عبد الجبار في وادي آره ، في ٦ من ذي القعدة سنة ٤٠٠ ، حاصر البربر قرطبة . وعلى الرغم من وثوب واضح بالمهدي وفتكه به في ٨ من ذي الحجة ، فقد استمر البربر يحاصرون الحاضرة ، بل عمدوا الى التشديد في حصارهم لها ، بعد ان اغضبهم واضح بغدره وخيانته للمهدي . وكان لا بد للمستعين من الاستيلاء على مدينة الزهراء ، ليتخذها قاعدة لقواته اثناء حصاره لقرطبة ، وليقطع سبل الاتصال بين قرطبة والزهراء . ففي ٢٥ من ربيع الاول سنة ٤٠١ دخلوا مدينة الزهراء ، بعد ان حاصروها ثلاثة ايام ، وفتكوا بحراسها ، وذبحوا من التجأ من اهلها الى الجامع . واضرموا النيران في الجامع والقصر والدور والمستغلات . ثم نجح سليمان في الاستيلاء على قرطبة في ٢٧ من شوال سنة ٤٠٣ ، وفي العام التالي انتقل في جملة جيشه البربري الى مدينة الزهراء ، التي كانت حتى ذلك الحين ما تزال تحتفظ ببعض بهائها القديم ، وان كانت مبانيها قد اصيبت باضرار فادحة بسبب الحرائق التي اتت على اثاثها ورياشها وكلست مواد بنائها .

وفي ايام المستكفي بالله بدأت الانظار تتطلع الى مدينة الزهراء عندما اقفرت خزائن الدولة ، فأبنية الزهراء وقصورها كانت ما تزال تضم ثروات معمارية هائلة ، من اعمدة رخامية وبلورية ، الى عقود وحنايا من العاج . الى كميات كبيرة من اخشاب البناء وما تبقى فيها من مصاريع الابواب .

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١١٥ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٩٥ .

وهنا بدأ استغلال اطلال الزهراء استغلالا منظما ، فاستوصلت القصور بالهدم والتخريب لبيع انقاضها من رخام وحجر وقراميد ومرمر وبلور وخشب ورصاص القنوات ونحاس الابواب[1] . واستمر بيع هذه الانقاض في ايام المعتد بالله على يدي وزيره الحكم بن سعيد القزاز . وحتى هذا العهد لم يكن الهدم قد تفشى بعد في منشآت المدينة وشملها كلها ، وانما اقتصر على ما كان قد تهدم من قصورها ، فقد ذكر الوزير الشاعر ابن زيدون معالم الزهراء والايام الجميلة التي قضاها مع ولادة بنت المستكفي في قوله :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنما رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم	كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت	بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقا[2]

ويذكر في قصيدة اخرى ذكرياته في الزهراء مع ولادة ، ويشير الى قصورها وقبتها فيقول :

الا هل الى الزهراء أوبة نازح	تقضي تنائيها مدامعه ترحا
مقاصير ملك اشرقت جنباتها	فخلنا العشايا الجون اثناءها صبحا
يمثل قرطيها لي الوهم جهرة	فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه	اذا عز ان يصدي الفتى فيه او يضحى[3]

ولم يبدأ الهدم الفعلي لقصور الزهراء ومبانيها الا في ايام ابي الوليد

---

(١) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ٢ ، ص ٣٨٢ .
(٢) غارسية غومس ، الشعر الاندلسي ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥٤ .
(٣) المقري ، ج ٢ ص ١٥٦ .

محمد بن جهور على يدي ابن باشة ونظر الوزير ابن السقاء[1] ، فباع ابن باشة « آلاتها من رفيع المرمر ، ومثمن العمد ، ونضار الخشب ، وخالص النحاس ، وصافي الحديد والرصاص بيع الادبار ... وكانت رسل الاملاك (يقصد رسل ملوك الطوائف) تأتيه لشراء تلك الآلات بأغلى الاثمان ، فيبذلها هو في انواع الضلالات ، وأغيظ من ذلك لاولي الالباب تسليطه على هدم قصور بني امية المبتناة على اساس العلا ، المسخر فيها اصناف العدى المكتملة الاستواء في حقب من السنين تترى ، حتى اغتدت بجزيرة الاندلس كارم ذات العماد ، لا يخشى على اركانها انهدام ، فلما أذن تعالى بحط اقلامها ، وطمس آثارها ، أتاح لها هذا الانسان الضعيف القوي ، القصير المدى ، كاتاحة الجرذ المهين لسد مأرب ذي الانباء البديعة ، فدكدكها حتى عادت كوم رماد ، ومصائد ضباب ، ولم يقلع عنها حتى اوقع النار على صخورها ، وصيرها كلسا لكل مرتاد »[2] .

وفي سنة ٤٥٠ هـ عزم المعتضد بالله عباد ملك اشبيلية على الاستيلاء على قرطبة ، فتأهب لارسال ابنه اسماعيل في جيش الى قرطبة ، « والنزول بزهرائها المعطلة بأسفلها »[3] . وذكر ابن عذاري انه « في سنة ٤٥٠ تواتر الارجاف بقرطبة ان عبادا المعتضد حاول النزول بزهرائها المعطلة التي منها أبدا يصاب مقتلها ، وسبق الخبر انه قد انهض نحوها ابنه اسماعيل ، وهو كالنار في احجارها مستكنة ، ولا يشك انه ارسل منه على قرطبة شواظ نار ولا يذر منها باقية ، فنفس الله مخنق اهلها بما نقض تدبيره ، وثنى

(1) راجع الفصل الخاص بدور قرطبة في القسم التاريخى من هذا الكتاب .

(2) ابن بسام . قسم ١ . ج ٢ ص ١١١ .

(3) Garcia Gomez, la Ruina de la Cordoba omeya, P. 282 .
ولا يقصد بكلمة اسفلها القسم الادنى من الزهراء . وانما المقصود بذلك الزهراء التي تقع اسفل قرطبة . وقد ذكر ابن غالب نقلا عن الرازي وابن النظام وابن حيان في ذلك أن « طول مدينة الزهراء المحدثة اسفل قرطبة وعرضها من الشرق الى الغرب الفا ذراع وسبعمائة » (ابن غالب ، ص ٣١) .

عزمه ، فأقصر صاغرا ، وكان من قدرة الله ان كره هذا الفتى ما حمله أبوه من ذلك ، وهاج منه حقودا كانت له بنفسه كامنة ، جرته على معصية ابيه ، وانصرف من طريقه ، اذ صعب عليه أمر الهجوم على مثل قرطبة مع قرب حليفهم باديس بن حبوس[1] ، الذي لا يشك في اسراعه اليهم ، فعرض ذلك على ابيه فاستجبنه ، واغلظ وعيده ، فدبر الفرار عنه »[2] ، فقتله المعتضد صبرا بيده .

ولقد أثار تخرب الزهراء وهي في مقتبل عمرها اسى الشعراء والكتاب ، فانبروا يرثونها ويبكون ما اصابها ، ويصفون اطلالها ، فمنهم ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور الذي زارها يوما ، ووقف على قصورها ، وقد تقوضت ابنيتها ، وعوضت من انيسها بالوحوش في افنيتها ، فقال :

قلت يوما لدار قوم تفانوا ... أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا اقاموا قليلا ... ثم ساروا ولست أعلم أينا[3]

ورثاها السميسر الشاعر بقوله :

وقفت بالزهراء مستعبرا ... معتبرا أندب اشتاتا
فقلت يا زهرا ألا فارجعي ... قالت : وهل يرجع من ماتا ؟
فلم أزل ابكي وابكي بها ... هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى ... نوادب يندبن مواتا[4]

ولما دخلت قرطبة في فلك الدولة العبادية ، زارها الوزير الفقيه ابو الحسين بن سراج مع الوزراء والكتاب ذات يوم ، وقضوا بين اطلالها يوما

---

(١) كان عمه اسماعيل قد قتل في سنة ٤٢٣ عند قيامه بمحاصرة قرطبة على يدي باديس بن حبوس صاحب البيرة ؛ ابن عذارى . ج ٣ ص ٢٠٢ ــ ابن الخطيب . ص ١٥٥ ا .
(٢) ابن عذارى . ج ٣ ص ٢٤٨ .
(٣) ابن خاقان . مطمح الانفس . ص ١٥ ــ المقري . ج ٢ ص ٦٦ .
(٤) المقري ، ج ٢ ص ٦٦ .

تعاطوا فيه كؤوس الراح بين الشرفات والرياض • وفي عصر تبعيتها للمعتمد ابن عباد ارسل اليه الفونسو السادس يسأله ان تنزل امرأته القمطيجة بجامع قرطبة لتلد فيه تبركا بموضع كنيسة كانت قائمة في الجانب الغربي منه كانت معظمة لدى النصارى في بلاده ، كما سأله ان تقيم هذه المرأة بمدينة الزهراء[1] وتختلف منها الى الجامع المذكور ، ظنا منه بان مدينة الزهراء ما زالت تحتفظ في عهده بعظمتها التي تناقلها ملوك ليون ونبرة جيلا بعد جيل منذ ايام الخليفتين الناصر والمستنصر ، ولكن المعتمد رفض طلبه ، وقتل رسوله •

ويشير الادريسي الى خرائب الزهراء وما تبقى من اسوارها وقصورها في عصر المرابطين ، فيقول : « وهي قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها ، وفيها قوم سكان بأهليهم وذراريهم ، وهم قليلون •• وهي الان خراب في حال الذهاب »[2] • وفي عصر الموحدين كان تمثال الزهراء ما يزال منصوبا بأعلى بابها الجنوبي الشرقي المواجه لمدينة قرطبة • وقد زار الخليفة ابو يوسف يعقوب المنصور اطلال الزهراء في سنة ٥٨٦ للتأمل في آثار العهود الاموية البائدة ، وامر يومئذ بازالة هذا التمثال[3] ، فأزيل واقتلع من آثارها ما بقي من اعمدة ، اعيد استخدامها في مئذنة جامع الموحدين الكبير باشبيلية ، بل نقل بعضها الى مراكش وغرناطة •

ولما سقطت قرطبة في ايدي القشتاليين في سنة ٦٣١ ، كان ستار النسيان قد اسدل نهائيا على الزهراء ، فنسي الناس اسمها ، واطلق عليها القشتاليون في مجموعة وثائق بلاط فرناندو الثالث اسم قرطبة العتيقة Cordoba la Vieja ، وأشير في هذه الوثائق الى قيام بعض مزارع الكروم

---

(١) الحميري • ص ٨٤ •

(٢) الادريسي • ص ٢١٢ •

(٣) Torres Balbas, Arte hispano musulman, apud. Ibn Idhari, traduccion por Huici Miranda, PP. 158, 159 — Torres Balbas, la mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, Madrid, 1952, P. 134.

في بقعتها[1] . وعلى الرغم من ان المؤرخ القشتالي الاسقف دون رودريجو خيمنث دى رادا لم يكن يعرف اسمها في مدونته ، فانه على الاقل عرف انها من بناء عبد الرحمن الناصر[2] .

واتخذت اطلال الزهراء بعد استرداد القشتاليين لقرطبة مقطعا لاحجار البناء التي اعيد استخدامها في بناء الكنائس والمشافي والاديرة بل وفي ترميم اسوار قرطبة نفسها[3] . وبالتدريج اخذت هذه الاطلال تنقرض وتتلاشى تدريجيا ، وتطويها الارض بتوالي العهود والحقب ، حتى تلاشى ذكرها ، وضاعت معالمها . وطوى النسيان تاريخ هذه المدينة الخلافية حتى ان المـؤرخ القرطبـي امبروسيو دي مورالس Ambrosio de Morales (١٥١٣ ـ ١٥٩١) ظن ان هذه الاطلال ليست سوى آثار المستعمـرة الرومانية التي أقامهـا كلوديو مارسيلو ، وهكـذا نسبها مورالس الى الرومان ، وكتب في ذلك : « ان الاندلسيين لم يكن لديهم هذه القدرات في البنـاء »[4] . ولكـن المؤرخ القرطبي بدرو ديـاث دى ريبـاس Pedro Diaz de Ribas كان أكثر معرفة بتاريخ مدينة الزهراء ، فقد كتب في سنة ١٦٢٧ مشيرا الى ان هذه الاطلال هي آثار اموية لحصن اقامـه عبد الرحمن الثالث ، استنادا الى تشابه زخارفها مع زخارف جامع قرطبة وتماثل توزيع احجار البناء فيها مع نفس نظام توزيعه في جدران جامـع قرطبة .

---

(١) Ramirez de Arellano & Diaz Morales, Historia de Cordoba, t. IV, Ciudad Real, 1919, P. 10, 164 — Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 137 — Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 429.

(٢) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 430.

(٣) استغل القس عاسكو ما بقي من احجار خرائبها في بناء دير سان خيرونيمو القريب منها San Jeronimo de Valparaiso في سنة ١٤٠٨ . كما رممت قنطرة قرطبة من احجار الزهراء سنة ١٤٢١ .

(٤) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 430.

واتخذت اراضي الزهراء في النصف الثاني من القرن السابع عشر مرعى للسائمة ، وفي سنة ١٧٦٠ اشار الاب روانو P. Ruano الى انها من آثار عبد الرحمن الثالث ، وذكر ايضا ان سور مزرعه قلدابوتني امر فرنالدو السادس بتشييده من المواد البنائية لهذه الآثار الاموية[1] . ولم يمض على ذلك عدة اعوام حتى انتقد أنطونيو بونث Antonio Pons نظرية المستعمرة الرومانية ، وأكد انها لقصر او بيت للراحة يرجع الى ايام العرب[2] . وفي سنة ١٨٢٠ اشار كوندي Conde لاول مرة الى بناء الناصر لقصور الزهراء على بعد خمسة اميال من قرطبة ، ولكنه أخطأ في تحديد الموضع اذ اشار الى انها اقيمت بادنى الوادي الكبير . غير ان ثيان برمودث Cean Bermudez يعتبر أول من نجح في معرفة موقع مدينة الزهراء ، وتابعه في ذلك المؤرخ الكبير آنخل سافدرا في سنة ١٨٣٤ .

ولكن اطلال الزهراء كانت قد تحولت في طليعة القرن التاسع عشر الى تلال وكيمان ، وساعد على ذلك هبوب الرياح محملة بالاتربة ، وسقوط الامطار عليها ، وكسوتها بالنباتات البرية . وعندما اصدر جايانجوس Gayangos الترجمة الانجليزية لكتاب نفح الطيب في سنة ١٨٤٠ وعرف الباحثون حقائق تاريخية ثابتة عن نشأة مدينة الزهراء وتخربها ، افاد منها المؤرخون في تحديد موضعها ، ومنهم بدرو دي مادراثو Pedro de Madrazo الذي توصل في سنة ١٨٥٠ الى الاهتداء الى موضع الزهراء ، ونجح في ١٨٥٤ في الحصول على اذن من حاكم المدينة باجراء حفائر اثرية في اطلالها[3] . ومنذ ذلك الحين توجهت الانظار الى هذه المدينة فتوالت عليها الحفائر ، التي كشفت عن حضارة من ازهى الحضارات الانسانية في العالم اجمع .

---

(١) F. Ruano, Historia General de Cordoba, t. I, Cordoba 1760, P. 63 — Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 431.

(٢) Torres, Balbas, Arte hispano musulmn, P. 431.

(٣) Ibid., P. 432.

ثانيا ــ مدينة الزاهرة

لم يكد يمضي عامان على وفاة الحكم المستنصر حتى كان ابن ابي عامر قد عظم نفوذه ، واستفحل سلطانه ، وكان قد استمال الناس بغزوتين : الاولى الى جليقية في ٣ رجب سنة ٣٦٦ ، والثانية في شوال سنة ٣٦٦ ، وافتتح فيها حصن مولة ، فولاه هشام المؤيد خطة الحجابة بالاشتراك مع جعفر المصحفي في سنة ٣٦٧ ، ولم يلبث ابن ابي عامر ان وثب بالمصحفي فعزله ، وتمكن وحده من الاستئثار بالحجابة ، واستبد بشؤون الدولة وسيطر على ازمتها ، متمثلا في ذلك امراء الديلم بالنسبة للخلفاء العباسيين. ويبدو ان المنصور بن ابي عامر اراد ان يسجل بلغة العمارة والبنيان ما وصل اليه من نفوذ وسلطان ، فابتنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ، ويعبر ابن خاقان عن ذلك بقوله : « عندما تكامل واستفحل امره ، واتقد جمره ، وظهر استبداده ، ضما الى ما سمت اليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ويحل بأهله وذويه ، ويضم اليه رياسته ، ويتم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه »[1] . وهناك عامل آخر دفعه الى اتخاذ الزاهرة مقرا له هو خوفه على نفسه من الدخول الى قصر الخليفة بعد ان كثر حساده ، وتحالف عليه اضداده وانداده ، وايا ما كان السبب في ترك الزهراء وبناء الزاهرة ، فقد اثبت المنصور بهذه المدينة الاميرية انه لا يقل في القوة والسلطان عن الناصر والمستنصر . وما ان استقر رأيه على تأسيس زاهرته حتى اختار لها موقعا من اطراف قرطبة من الجهة الشرقية[2] ، مما يلي الرملة[3] ، بحيث توفي على نهر قرطبة الاعظم[4] ، وشرع في بنائها في سنة ٣٦٨ هـ ، فحشد لذلك العمال والفعلة،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤١٠ ــ المقري ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٣ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) نفسه ، ص ٤١٠ ــ المقري ، ج ٢ ص ١١٣ . وذكر ابن عذارى ان موضعها كان منزلا لابي بدر وكان يعرف باسم الش (ج ٢ ص ٣٨٥) .

وجلب اليها الالات الجليلة من الرخام والقرلميد والصخور والاخشاب ، وبدأ في تسوية ارضها وبقعتها ، فأزال النجود ، وغطى الاغوار تمهيدا للبناء ، وتوسع في اختطاطها ، فامتدت رقعتهـا في السهل الواقع هنـاك امتدادا كبيرا ، وسورها بأسوار مرتفعة[1] ، فتحت فيها عدة ابواب منها بابا السباع والجنان[2] ، وذكر ابن عذاري بابا ثالثا يسمى باب الفتح[3] . وقد استغرق بناء معظم الزاهرة عامين ، انتقل بعدهما اليها (في سنة ٣٧٠)، فنزلها بخاصته وعامته ، « وشحنها بجميع اسلحته ، وامواله وامتعته ، واتخذ فيها الدواوين ، وعمل في داخلها الاهراء ، واطلق بساحتها الارجاء ، ثم اقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور ، وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازه المشيدة ، وقامت بها الاسواق ، وكثرت فيها الارفاق ، وتنافس النـاس بالنزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو في البناء حوله ، حتى اتصلت ارباضها بأرباض قرطبة »[4] .

واعتبرت الزاهرة ربضا قائما بذاته من ارباض الشرقية ، وكانـت تصلها بمدينة قرطبة طريق الرملة التي تلي جنان القصر ، وتمتد بحذاء شاطيء النهر[5] . وكان من الطبيعي ان تضمحل الزهراء بعد ظهور الزاهرة، فيهجرها اهلها ويرحلون عنها الى الضاحية الجديدة حيث يتقربون مـن صاحب السلطان فيصيبهم نصيب من النعمة بالقرب منه ، وكان المنصور قد رتب في الزاهرة جلوس الوزراء والاعيان والشيوخ ، وندب اليها كل صاحب خطة ، وجعلها مقرا للشرطة ، واقام عليها واليا على النحو الذي

---

(١) ابن عذاری ، ص ٤١٠ ــ المقري ، ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) Sanchez-Albornoz, Historia de la Espana musulmana, Buonos-Aires, 1946, P. 379.

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, t. III, PP. 210-211.

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤١٢ ــ المقري ، ج ٢ ص ١١٣ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣٥ .

كان متبعا في مدينة الزهراء ومدينة قرطبة ، واقام بها مسجدا جامعا ، ظل باقيا حتى سقوط الخلافة[1] . وهكذا حلت الزاهرة محل الزهراء ، واصبحت بحق مركزا للسلطنة ، وقاعدة للحكم ، فاليها كانت تصل اموال الجبايات ، ويقصدها الولاة والحكام وطلاب الحاجات ، فاتسع عمرانها وتزايد فيها البناء ، واقيمت فيها المنيات والمتنزهات ، والبساتين والرياض ، فمن منياتها وقصورها التي اقامها المنصور : منية السرور « ذات الحسن النضير ، وهي جامعة بين روضة وغدير »[2] ، وقصر ناصح ، وقصر الزاهي الذي كسيت جدرانه بالمرمر ، واجريت فيه المياه والغدران التي تحف بها الاشجار والازهار ، وقصر الحاجبية الذي اقامه المظفر عبد الملك الى جانب الزاهرة بخارج سورها[3] . ومن منياتها ومتنزهاتها ذات الواديين ، ومنية أرطانية[4] . وفي منيات الزاهرة وقصورها يقول صاعد اللغوي :

اما ترى العين تجري فوق مرمرها	زهوا فتجري على احفافها الطربا
اجريتها فطما الزاهي بجريتها	كما طموت فسدت العجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة	مستلئمات تريك الدرع والغلبا
تحفها من فنون الايك زاهرة	قد أورقت فضة اذ أورقت ذهبا
بديعة الملك ما ينفك ناظرها	يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر ان ينشى لها مثلا	ولو تعنت فيها نفسه طلبا[5]

واصبحت الزاهرة كالزهراء مركزا للاحتفالات السياسية الكبرى والاستقبالات الملوكية ، ففيها استقبل المنصور شانجة «Sancho Garces II Abarca» ملك بنبلونة الذي قدم اليه زائرا ومستصرخا، وكان المنصور قد

---

(١) كان يتردد عليه الشاعر صاعد البغدادي في سنة ٣٨٥ لاملاء مصنفه الذي أمره به الحاجب على الكتاب .
(Torres Balbas, al-Madina al-Zahira, la ciudad de Almanzor, al-Andalus, Vol. XXI, 1956, P. 254).

(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٤٦ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٦٢ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٩٩ (ط . ليفي بروفنسال) .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤١٤ — المقري ، ج ٢ ص ١١٥ .

حاربه حتى أذعن لالذا بعفوه ، وكان قد أهدى ابنته الى المنصور، وتزوجها وأولـد منهـا ولده عبـد الرحمـن المعروف بشنجول «Sanchuelo» تصغيرا لشانجة، اذ كان يشبهه لدرجة كبيرة . وصل شانجة الى قرطبة في ٣ من رجب سنة ٣٨٢ ، فتلقته جيوش المسلمين اعظم لقاء ، واوكب الى قصر الزاهرة ، حيث استقبل استقبالا حافلا ، « فكان يومه احد ايـام الدنيا الشهيرة ، حتى بهت الذي كفر ، ورأى من وفور المسلمين ، ونباهة اسلحتهم ، وجمال زيهم ، وكثرة عددهم ما لم يكن ظانا ان الدنيا تجمعه ، ولا الايام تحشده ، ولا الخزائن تكتنفه »[1] . وكان ممن خرج لاستقباله حفيده عبد الرحمن شنجول . وكان طفلا يرقد في السرج ، وقد حف به وزراء المنصور ووجوه القواد واكابر اهل الخدمة في احسن زي واكمـل تعبئة ، فلما شاهد شانجة حفيده نزل اليه وقبل رجله واقبل معه الى ابيه في موكب فخم ، وكان يصطف على حفافي الطريق من قرطبة الى الزاهرة صفان من الجنود يلبسون الجواشن المذهبة والسوق والسواعد المصنوعة من الفولاذ ، وامسكوا الدروع السابرية ، وعلقوا الدرق ، ومن خلفهم صفوف الرماة قد شدت في اوساطهم المناطق المذهبة . ووصل الموكب العظيم الى مجلس المنصور ، فمر بين صفين من الوصفاء والصقالبة مـن باب القصر الى باب المجلس ، وكان المنصور قد جلس على سريره ، وقد اكتنفه وزراؤه واعاظم رجال دولته ، فبهت شانجة من عظمة المجلس وروعة الموقف ، وبهره ما عاينه من فخامة السلطنة ، وابهته ، فلم يملك نفسه ان اهوى الى الارض مقبلا ، واعاد ذلك عدة مرات وهو يستدنيه ، حتى قبل قدميه ورجليه ، ثم اجلسه المنصور على كرسي مذهب ، وامر الحاضرين بالانصراف ، وخلا به المنصور ، وعنفه لما قام به من النكث ، ثم خلع عليه الخلع السلطانية[2] ، وافرد لاقامته احد قصور الزاهرة .

---

(١) ابن الخطيب . ص ٧٣ .
(٢) نفس المصدر . ص ٧٤ .

ومن الشخصيات البارزة التي زارت الزاهرة الخليفة هشام المؤيد ، اذ دعاه اليها الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور في سنة ٣٩٨ ، فركب الى القصر على سبيله المعهود من الاستخفاء عن اعين الناس لنزهة رسمها الحاجب له هنالك في قصوره ، فسر هشام من هذه النزهة ، ومنح عبدالملك خطة الوزارتين ، ولقبه بلقب المظفر[١] . وفي قصر الزاهرة استقبل المظفر شانجة بن غرسية (في سنة ٣٩٤) الذي قدم الى قرطبة ليلتمس الصلح من المظفر .

ولم تطل حياة الزاهرة الى اكثر من ثلاثين عاما ، ثم دهمتها الفتنة بنارها ، فكانت اولى ضحاياها ، وهاجمها الثائرون على عبد الرحمن شنجول في جمادي الاولى سنة ٣٩٩ ، فنقبوا سورها ، واقتحموا المدينة ، ونهبوا خزائنها ، وهدموا مبانيها ، ومحوا رسومها ، « وخربت الزاهرة ومضت كأمس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح ، وتلاشى أمرها ، فلم يرج لفسادها صلاح ، وصارت قاعا صفصفا » . وكانت كارثة الزاهرة اشمل من الزهراء ، لان موجة التخريب عليها كانت اشد عتوا وعنفا ، فعم الخراب سائرها ، ولم تبق دار في الاندلس الا ودخلها من فيئها حصة ، وذكروا ان بعض ما نهب فيها بيع في بغداد وغيرها من البلاد المشرقية[٢] . وذكر ابن عذاري نقلا عن الرقيق ان العامة انتهبت ما كان في الزاهرة من « الاموال والاسلحة والخزائن والامتعة والالات السلطانية ، حتى اقتلعت الابواب الوثاق والخشب الضخم وغير ذلك مما حوته القصور ، وصار يباع بكل جهة لا يرع عنه من يشار اليه بصلاح او بعفة »[٣] . وبعد ان

---

(١) ابن الخطيب ، ص ٨٨ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٢١ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٦١ .

اتى النهب على اكثر خزائن الكسوة والفرش والامتعة والطيب وغيرها امر محمد بن هشام بن عبد الجبار بهدمها ، وحط اسوارها ، وقلع ابوابها ، وتشعيث قصورها ، وطمس معالمهـــا وتدمير آثارها ، واوصى القائمـــين بالهدم بالعجلة فيه قبل ان يصل عبد الرحمن شنجول ، فآباع لانصاره واتباعه ما اقتلعوه من مرمرها وانقاض قصورها ودورها[1] .

(1) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٦٤ .

القسم الثالث

آثار قرطبة الباقية

الفصل السابع : جامع قرطبة (الدراسة التاريخية)

الفصل الثامن : جامع قرطبة (الدراسة الفنية)

الفصل التاسع : آثار قرطبة الخلافية

الفصل العاشر : أثر العمارة الخلافية بقرطبة في العمارة المسيحية والاسلامية

الفصل السابع

جامع قرطبة (الدراسة التاريخية)

(١) عرض عام لمشكلات تاريخ جامع قرطبة منذ انشائه

(٢) بنيان الجامع في عصر امراء بني امية

(٣) تاريخ الجامع في عصر الخلافة

(٤) تاريخ الجامع بعد سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين

الفصل السابع

جامع قرطبة (الدراسة التاريخية)

(١)

عرض عام لمشكلات تاريخ جامع قرطبة منذ انشائه

أورد كل من ابن عذارى[١] والمقري[٢] نصا تاريخيا هاما بالنسبة لتاريخ جامع قرطبة نقلاه عن الرازي (ت ٣٤٤) الذي اقتبسه بدوره عن الفقيه محمد بن عيسى ، وقد لاحظت أن هذا النص الوارد في نفح الطيب أكمل من نظيره في البيان المغرب ، ولذلك آثرت ان انقل النص الاكمل مع الاهتمام بتوضيح اوجه الخلاف في كل من النصين في موضعه، وفيما يلي نص المقري : (ذكر ابن سعيد في المغرب عند تعرضه لذكر جامع قرطبة ما نصه : اعتمدت فيما نقلته في هذا الفصل على كتاب ابن بشكوال ، فقد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء ، وأغنى عن الاستطلاع الى كلام غيره . عن الرازي[٣] أنه لما افتتح المسلمون الاندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضي الله تعالى عنه ، بالشام ، من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها بشنت بنجنت ، وابتنوا في ذلك الشطر مسجدا جامعا ، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى ، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بما في أيديهم ، الى أن كثروا وتزيدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاق عنهم ذلك المسجد ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) يضيف ابن عذارى في اسناد النص عبارة عن الفقيه محمد بن عيسى

وجعلوا يلحقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بهـا ، حتى كان الناس ينالون في الوصول الى داخل المسجد الاعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفها ، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الارض . ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الامير عبد الرحمن بن معاوية المرواني الى الاندلس ، واستولى علـى امارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدنت بـه ، فنظر أمر الجامع ، وذهب الى توسعته ، واتقان بنيانه ، فأحضر أعاظم النصارى[1] وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل ، وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجهد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم[2] التي هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به ، فتم الامر على ذلك ، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة[3] ، فابتنى عند ذلك عبـد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة الى تفسير الزيادة فيـه ، وانما الحاجة في وصفه بكماله . وفي بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بـن محمد البلوي من قصيدة :

وأنفـق في ذات الالـه ووجهه	ثمانين ألفا مـن لجين وعسجد
توزعها في مسجد أسـه التقى	ومنهجه ديـن النبـي محمـد
ترى الذهب الناري فوق سموكه	يلوح كبـرق العارض المتوقـد

قال : وكمل سنة سبعين ومائة)[4] .

---

(١) ذكرها ابن عذارى « اعاجم قرطبة » .

(٢) ذكرها ابن عذارى كنائسهم ، والاصح كنيستهم لان الرازي يقصد الكنيسة التي هدمت خارج اسوار قرطبة من جهة الغرب ، وهي المعروفة بشنت اجلح San Asciclo .

(٣) ذكرهـا ابـن عذارى سنة ١٦٩ ، وذكرهـا العذري سنة ١٦٩ (العذري ، ص ١٢٣) .

(٤) وردت في البيان « وتم بناؤه واكتملت بلاطاته ، واشتملت اسواره في سنة ١٧٠ ، فذلك من مدة عام واحد » .

ونستخلص من هذا النص الحقيقتين التاليتين : ١ ـ أن موضع الجامع كانت تشغله كنيسة تعرف بشنت بنجنت اقتسمها المسلمون مع نصارى قرطبة واتخذوا فيها مسجدا كانوا يضيفون اليه سقيفة بعد سقيفة كلما ازداد عدد المصلين ٢ ـ أن عبد الرحمن الداخل أقام على موضع الكنيسة والمسجد الاول جامعا استغرق بناؤه عاما واحدا وفقا لابن عذارى ، وعامين وفقا لما أورده المقري • وترتبط بهاتين الحقيقتين ثلاث مشكلات أساسية تتعلق بتأريخ بناء الجامع الاول كانت مثار جدال طويل بين رجال الآثار وعلماء التاريخ لم ينته بعد ، وما زالت هذه المشكلات قائمة حتى يومنا هذا ، بل ان النقاش ازداد في العشرين سنة الماضية بحيث انقسم الباحثون الى فريقين : فريق يتزعمه الاثريون جومث مورينو ، وتوريس بلباس ، وفيليث هرناندث ، وأوكانيا خيمث ، ورافاييل كاستخون ، وكرزول ، ويعتمد هذا الفريق على نتائج الحفريات الاثرية • والفريق الثاني كان يتزعمه الاستاذان الفرنسيان ليفي بروفنسال ، وايلي لامبير ، وقد أيدتهما[1] كما أيدهما استاذي الدكتور أحمد فكري[2] • ويعتمد هذا الفريق على النصوص التاريخية مع محاولة التوفيق بينها وبين نتائج الحفريات الاثرية التي أجريت في أرضية الجامع • وقد احتدمت الآراء المؤيدة والمعارضة حتى بعد وفاة أساتذتي الاثريان جومث مورينو وتوريس بلباس ، والمؤرخان ليفي بروفنسال وايلي لامبير • ويمكننا أن نلخص هذه المشكلات في الموضوعات التالية : المدة التي استغرقها بناء الجامع ، وموضع الكنيسة بالنسبة للجامع ، وعدد بلاطات المسجد الذي بناه عبد الرحمن الداخل •

وفيما يلي دراسة لجميع تلك المشكلات على حدة ومناقشتها بقصد الخروج منها بنتائج موضوعية توفق بين الحقائق الاثرية والنصوص التاريخية دون أن أزعم أنني قمت بحلها نهائيا ، لأن تأريخ الجامع الاول

(1) Al-Sayyid Salem, Cronologia de la mezquita mayor de Cordoba, al-Andalus, 1954, fas. 2.

(٢) احمد فكري • مساجد القاهرة ومدارسها • المدخل • ص ٢٤٤ •

ما زال يكتنفه الغموض رغم الاضواء التي أحاول في الصفحات التالية أن أسلطها علـى المشاكل المعلقة ويحتاج الامر لحفريات أخـرى جديدة في مواضع مختلفة من أرضية الجامع .

أ ـ مشكلة المدة التي استغرقها البناء :

يذكر ابن عذارى في النص الذي نقله عن الرازي عن محمد بـن عيسى أن سنة ١٦٩ تسجل تاريخ قيام عبد الرحمن الداخل بهدم الكنيسة وبناء المسجد الجامع ، وأن سنة ١٧٠ تسجل الفراغ مـن أعمال البناء ، ويؤكد أن بنـاء المسجد الذي أقامه عبد الرحمن الداخل استغرق عاما واحدا ، ويؤيده في ذلك المؤلف مجهول الاسم لكتاب فتح الاندلس[1] ، والجغرافي العذري المعروف بابن الدلائي[2] . أمـا النص الذي أورده المقري فيحدد سنة ١٦٨ لشراء عبد الرحمن موضع الكنيسة والشروع في البناء . وأيا ما كان اختلاف النصين المذكورين في تحديد مدة البناء ، فان قصر هذه المدة سواء لعام واحد أو عامين أثارت تحفظا شديدا عند مؤرخي الفن الاسلامي في الاندلس . وكان الاستاذ جومث مورينو أول من عبر عن شكوكه حول هـذه المدة القصيرة لبناء جامع عبد الرحمن الداخل ، فيقول : « ليس من المحتمل أن تقبل قيام جامع قرطبة على يدي عبد الرحمن الداخل في عام واحد ما بين عامي ١٦٩ ، ١٧٠ ، فالواقع أن بنـاء مساحة مسقفه تصل الى ٣٢٠٠م٢، علما بأنه اقيم في وقت كان يعاني فيه الاندلسيون عصرا من الركود الفني ، دون الاستعانة بنصارى الشمال ، ولا الافادة من التقاليد الفنية الوافدة من خارج البلاد ، هذا بالاضافة الى تعقد بنيته ، وثراء عناصر بنيانه بالزخارف والتنميقات ، والدقة المتناهية في مظهر بنائه ، كل ذلك يجعل من المستحيل أن يكون هذا البناء قد أقيم في مثل هـذا

(١) فتح الاندلس ، ص ٧٩ .
(٢) العذري ، ص ١٢٣ .

الزمن القصير »[1] . كذلك عبر الاستاذ لامبير عـن هـذه الاستحالة بقوله : « نخرج من هذا التاريخ بحقيقة اولية غريبة الى حدما ، فان عاما واحدا في عصر عبد الرحمن الاول ، وهو عصر كان فن البناء ما يزال بدائيا في الاسلام في المغرب ، يكاد لا يكفي لتحقيق المشروع الذي رسمه الامير الاموي لبناء مسجد يضارع المسجد الذي كان اجداده قد اسسوه في دمشق ، ولبناء مسجد كامل تزيد مساحته على ٣٠٠٠م٢ »[2] . كذلك أوضح الاستاذ توريس بلباس شكوكه حـول هـذه المدة القصيرة[3] ، ولكنه ادرك اخيرا عقم المناقشة في هذا الموضوع لقلة ما لدينا من نصوص تاريخية تساعد على اجلاء المشكلة ، فرأى ان عاما واحدا او حتى اقل من هذه المدة حسبما نفهم من نص كتاب فتح الاندلس[4] « أمر غير منطقي ، ولكن يجب الا نعتبره مستحيلا ، ويجب ان تتذكر ان جميع الاعمدة التي استخدمت في المسجد الجديد اتخذت من ابنية سابقة ، وان المسجد على الرغم من اعداده لاستقبال المصلين ، لم يكن قد تم في السنة التي حددها المؤرخون »[5]. ثم يرجح أن البناء لم يتم في سنة ١٧٠ في عهد عبد الرحمن

---

(1) Gomez Moreno, Excursion a traves del arco de herradura, Cultura espanola, Madrid, 1906, P. 797.

ولاحظ ايضا تحفظه في ابحاثه التالية :

1 — La civilizacion arabe y sus monumentos en Espana, Revista de Arquitectura, Madrid, ano II, No 19, 1919, PP. 310-312.

2 — El arte en Espana y el Magreb, P. 100.

3 — Ars Hispaniae, t. III, P. 24.

(2) Lambert, de quelques incertitudes dans l'histoire de la grande mosquée de Cordoue, dans Annales de l'Institut des Etudes Orientales de l'Université d'Alger, t. I, 1934-1935, PP. 179-180.

(3) Torres Balbas, La Mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 22.

(4) يقول صاحب كتاب فتح الاندلس : « وفي غرة ربيع الاول منها (١٧٠ هـ) أمر الامام عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله بتأسيس المسجد الجامع بقرطبة . وكان في موضعه كنيسة » (فتح الاندلس ، ص ٧٠) .

(5) Torres Balbas, Arte hispano musulman, PP. 344-345.

الداخل ، وهو تاريخ قيام الجامع بوظيفته ، اذ كانت تنقصه بعـد بعض الاعمال التكميلية . وأمام هذه المشكلة الزمنية خرج لنا الاستاذ جومث مورينو بنظرية جديـدة قوامها ان بناء المسجـد استغرق ست سنوات ، واستند في ذلك الرأي على نص من كتاب فتح الاندلس ، ولقد سبـق ان فندت هذه النظرية من اساسها في دراستي عن « تأريخ جامع قرطبة » وذكرت ان النص الذي اعتمد عليه الاستاذ جومث مورينو لا يمت الى جامع قرطبة بصلة ، وانما يشير الى جامع الجزيرة الخضراء ، فسنة ١٦٤ التي وردت في هذا النص هي سنة شروع عبد الرحمن بن خالد (والي الجزيرة) وليس عبد الرحمن بن معاوية في بناء المسجد الجامع بالجزيرة[١]، فالمسألة اذن لا تعدو ان تكون اختلاطا بين تاريخ بناء جامع قرطبة ، وتاريخ بناء جامـع الجزيرة الخضراء[٢] . واغلب الظن ان هـذه الشكوك التي ابداها مؤرخو الفن الاندلسي ترجع الى اقتناعهم ، قبل ان يعثر الاستاذ ليفي بروفنسال على نص الرازي فيما يتعلق بتاريخ بناء الجامع ، بـان زيادة عبد الرحمن الاوسط للجامع استغرقت ١٥ سنة ، فبينما يذكر ابن عذارى ان الزيادة قامت في سنة ٢١٨ ما بين الارجل (الدعائم) التي تقع ما بين السواري (الاعمدة) الى القبلة[٣] ، فانه يشير في موضع آخر الى ان الفراغ من هذه الزيادة تم في جمادي الاولى سنة ٢٣٤[٤] . وقد عبر العالم الاثري جومث مورينو عن ذلك بقوله : « ويؤكـد ذلك ايضا ان عبد الرحمن الاوسط الذي كانت ظروفه افضل بكثير من ظروف الداخل احتاج الى ١٦ سنة لاتمام زيادته في الجامع »[٥] . كذلك يعبر الاستاذ

---

(١) Al-Sayyid Salem, Cronologia de la Mezquita de Cordoba levantada por Abd el-Rahman I, al-Andalus, 1954, P. 23.

(٢) يقول صاحب فتح الاندلس في ذلك : « ولـما فرغ الامام من أمـر الرماحس القايـم بالجزيرة الخضراء ولاّها عبدالله بـن خالد ، وامره ببنيان المسجد الجامع فيها ، وكان في موضعه كنيسة » (فتح الاندلس ، ص ٦٧) .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٤٣ .

(٥) Gomez Moreno, Excursion a traves, del arco de herradura, P. 797.

لامير عن امتداد اعمال الزيادة في عصر الاوسط بقوله : « وفي عهد عبد الرحمن الثاني : على الضد من ذلك : احتاج الامر الى اكثر من ١٥ سنة فقط لتوسيع بيت الصلاة الى عمق اقل في مساحته من مساحة بيت الصلاة بجامع عبد الرحمن الاول ، مع ان عبد الرحمن الاوسط كانت تتوفر لديه امكانيات بلا شك اضخم ، وبناة اكثر عددا وحذقا من عبد الرحمن الاول »[1] ، كما عبر عن ذلك مرة ثانية في بحث آخر[2] .

ومن هنا تولد الشك والارتياب في تاريخ بناء المسجد الاول . ولكن النصوص التي اكتشفها الاستاد ليفي بروفنسال اخيرا ونشرها اوضحت اعمال عبد الرحمن الاوسط التي قامت على مرحلتين : الاولى في سنة ٢١٨ ، والثانية في سنة ٢٣٤ . والواقع ان مدة عامين او حتى عام واحد لبناء مسجد عبدالرحمن الداخل ليست قصيرة بحيث تثير مثل هذه المشكلة. والامثلة عديدة على قيام ابنية اضخم من جامع قرطبة : وافخم من حيث التكوينات الزخرفية ، في فترات قصيرة ، فزيادة الحكم المستنصر على روعتها من حيث البنية والزخرفة واشتمالها على قباب اربعة وساباط لم تتجاوز أربع سنين ، ومئذنة الناصر رغم ضخامتها وازدواج سلمها استغرق بناؤها ١٣ شهرا ، وزيادة المنصور ابن ابي عامر في الجامع استغرقت عامين ونصف عام ، وبناء جامع عمر بن عدبس باشبيلية استغرق عاما واحدا (٢١٤) : وبناء مدينة الزاهرة استغرق عامين فقط : وجامع مدينة الزهراء استغرق بناؤه واتقانه ٤٨ يوما . ولا بد ان نضع في الاعتبار عوامل ساعدت على الفراغ سريعا من بناء جامع عبد الرحمن الداخل : فاعادة استخدام بعض مواد البناء القديمة كالاعمدة الرخامية والاحجار المجلوبة من الكنائس القوطية والرومانية المخربة ساعد بلا شك في سرعة بنائه ، وكان الامير الداخل حريصا على الانتهاء من البناء في اسرع وقت

(١) Lambert, de quelques incertitudes, P. 179.

(٢) Lambert, l'histoire de la grande mosquée de Cordoue au VIII et IXe siècles, P. 165.

ممكن حتى يتيسر للمسلمين اداء صلواتهم الجامعة في الجامع الجديد ، كذلك راعى مهندسو الجامع سعيا لاتمامه بالسرعة المطلوبة البساطة في البنيان وعدم التعقيد الذي قد يطيل أمد البناء ، وهو ما نشاهده بالفعل في بنية المسجد الاول التي تسودها البساطة المعمارية والزخرفية باستثناء النظام المعماري الرائع للعقود المتراكبة على صفين . ونلاحظ ايضا ان المظهر الزخرفي العام بسيط للغاية ، ويقتصر على تناوب الالوان الناشيء من استخدام قطع الحجارة مع قوالب الآجر الاحمر . وتخطيط الجامع هو الآخر بسيط للغاية ، فهو لا يعدو بيتا للصلاة من تسع بلاطات تنحصر بين ثمانية صفوف من العقود المتعامدة على جدار القبلة ، والاسقف كلها افقية لا تعترضها قباب مرتفعة تزيد من تعقيد البنية ، كل ذلك لا يقتضي ان يستغرق البناء اكثر من عامين من عمل متواصل ، ولا نشك ايضا ان الامير الداخل استخدم في بنائه عددا كبيرا من البنائين والعمال والفعلة حتى ينتهي العمل فيه سريعا ، وانفق في ذلك مبلغا ضخما من المال يصل الى ثمانين الف دينار[1] ، وهو مبلغ طائل تغنى به الشعراء[2] . وبالاضافة الى ما سبق نذكر ايضا ان الامير الداخل لم يبن محرابا جديدا للجامع الذي ابتناه ، وانما احتفظ بالمحراب القديم الذي ركزه حنش الصنعاني التابعي ، فنقله من موضعه القديم ، ووضعه في موقعه من جدار القبلة الجديد[3] ، وقد ثبت من الحفريات التي أجريت في موضعه من أرض الجامع انه لم يكن بارزا عن جدار القبلة[4] ، ويعتقد الاستاذ توريس

---

(١) يذكر الوزير الغساني انه انفق مائتي الف دينار (رحلة الوزير في افتكاك الاسير ، نشرها سوفير Sauvaire مع الترجمة الفرنسية ، باريس ١٨٨٤ ، ص ٢١) . والواقع انه اشترى موضع الكنيسة بمائة الف دينار ، وانفق على بناء الجامع ثمانين الف دينار (المقري ، ج ٢ ص ٨٣) .

(٢) فتح الاندلس ، ص ٧٠ – ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٢ – المقري ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) الرسالة الشريفية الى الاقطار الاندلسية ، من كتاب تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية ، ص ٢٠٨ .

(٤) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 42 ، والترجمة العربية ص ٤٦ .

بلباس أنه كان يتخذ شكل حنية نصف دائرية[1] . كذلك لم يتهيأ للامير عبد الرحمن الداخل ان يكمل بناء عناصر جامعه كلها ، كالصومعة (المئذنة) وسقائف النساء ، والميضأة ، فأتمها ابنه وخليفته هشام الرضا .

وهكذا أمكننا استنادا على ما ذكرناه ان نثبت امكانية اتمام بناء المسجد الاول الذي اقامه عبد الرحمن الداخل بصورة تسمح باستخدامه للصلاة في مدة سنتين ، وان كانت المصادر العربية لمحت بان المسجد لم يكمل في عهد عبد الرحمن الداخل ، مما يقطع بأن أعمال البناء استمرت حتى بعد اقامة الصلوات فيه سنة ١٧٠ الى عام وفاة الامير في سنة ١٧٢ هـ[2] .

ب ـ موضع الجامع بالنسبة للكنيسة :

يجمع مؤرخو العرب الذين كتبوا في تأريخ بناء جامع قرطبة على ان موضع المسجد الذي اقامه الامير عبد الرحمن الداخل كانت تشغله كنيسة ، ولكنهم لا يضيفون شيئا من شأنه ان يوضح هذا الموضوع ويجلي ما اكتنفه من غموض ، والمقري هو المؤرخ الوحيد الذي نقل الينا اسم هذه الكنيسة ، عن ابن سعيد عن ابن بشكوال عن الرازي عن الفقيه

---

(١) Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 351.

(٢) سجلت هذا الراي في مقالتي عن تاريخ جامع قرطبة Cronologia de la Mezquita ، في سنة ١٩٥٤ ، وقد انتهى المرحوم الاستاذ توريس بلباس الى الاخذ به في سنة ١٩٥٧ في بحثه الكبير عن الفن الاسلامي في الاندلس (Arte hispano musulman) اذ يقول : « لا يمكننا ان نثق ثقة كبيرة في التاريخين المذكورين (١٦٨ أو ١٦٩) لما نعلمه من الاخطاء المتكررة التي ترد دوما في النصوص التي لا تصل الينا الا بعد أن تنسخ نسخا متتاليا مما ادى الى تحريف الكتابة الاصلية . ان التواريخ التي نعتقد وجوب الاخذ بها هي تاريخ سنة ١٦٨ (٧٨٤ م) الذي يسجل نزع ملكية الكنيسة من اعاجم قرطبة ، و ١٧٠ هـ (٧٨٦) كتاريخ الشروع في قيام المسجد بوظيفته في الوقت الذى لم يتم بناء هذا المسجد في أجزاء منه وأعمال أخرى ثانوية » (Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 345).

محمد بن عيسى ، فأسماها شنت بنجنت ، وهـي الكنيسة التي اقتسمها المسلمون بعد فتح قرطبة مباشرة مع أهلها النصارى ، على نحو ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بالنسبة لكنيسة يوحنا المعمدان بدمشق ، وان كـان بعض المؤرخين يشك في صحـة خبر تقسيم هذه الكنيسـة الدمشقية[1] ، ومن هنا تولد الشك فيما ذكـره الرازي بشأن تقسيم كنيسة شنت بنجنت San Vicente بقرطبة بـين المسلمين والنصارى .
وقد ثبت هذا الشك في صحة التقسيم المذكور منـذ ان ظهرت نتائـج الحفريات الاثرية التي اجريت عامي ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ في ارضية بيت الصلاة القديم بنظر المهندس والعالم الاثري دون فيلث هرناندث ، التي لم تؤد الى الكشف عن آثار كنيسة او بازيليكية ، باستثناء آثار رومانية كشفت على عمق كبير ، وتقتصر على بقايا فسيفساء رومانية ، واسس منازل ،

---

(1) Creswell, Early muslim architecture, Vol. I, PP. 102 sqq.
Creswell, a short account of early muslim architecture, PP. 65-72.
Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 341.

وقد اتيحت لي فرصة مناقشة استاذي الدكتور احمد فكري في هـذا الشان ، وهو يميل الى الاعتقاد بان كنيسـة دمشق لم يحدث ان قسمت وان قصـة مشاركة المسلمين نصارى دمشق في كنيستهم مـن ابتكار الرحالـة الاندلسي ابن جبير وانها قصة باطلة (فكري ، المدخل ، ص ٢٧٤) ، وبالتالي يشك سيادته في وجود كنيسـة مسيحية بقرطبة اقيم عليها الجامع . والواقع أن ذكر الكنيسة ورد في عدد من المصادر العربية منها على الاقل أخبار مجموعة في تاريخ الاندلس ، ص ٦١ ــ وفتـح الاندلس لمـؤرخ مجهول ، ص ٧٠ ــ والحميري ، ص ٨٤ ــ والعذري ، ص ١٢٣ ــ وابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤١ ــ ٣٤٢ ، وأخيرا المقري الذي نقل عن مؤرخين متقدمين امثال الرازي ومحمد بن عيسى من مؤرخي القرن الرابع الهجري ، وضمن نصه [illegible] . المذكورة ، فالقضية على هذا النحو لم يثرها ابن جبير (المتوفي سنه ٦٠٩) . ونستدل مـن مناقشة الاستاذ كرزول لمسالـة تقسيم كنيسـة دمشق بـين النصارى والمسلمين ، وهي الكنيسـة المسماة يوحنا المعمدان ، ان هذه الكنيسة ظلت قائمة وفي حالة سليمة حتى عهد الوليد ، فهدمها ، وان مسالة التقسيم التي اثارها مؤرخو العرب وجغرافيوهم امثال البلاذري وابن قتيبة وابن الفقيه الهمداني والطبري ، والمسعودي وابـن عساكر وابن جبير ، فتختص بالسياج الخارجي المقدس للمعبد الوثني الذي بقي بعـد بناء تيودوسيوس للكنيسـة في غربي المعبد .

تعلوها آثار أسس لبناء خرب أرضيته من الملاط وجدرانه من بناء غير منتظم ، يتألف من ثلاثة أروقة تتجه من الشرق الى الغرب[1] ، لعلها لكنيسة بدائية تتسم بالفقر في بنائها ، وضآلة حجمها اذا ما قيست بكنائس اخرى ترجع الى تلك العصور ، فان صغرها لا يتفق واعتبارها مركزا اسقفيا لعاصمة كقرطبة ، وهكذا لم يقنع هذا الكشف علماء الفن الاندلسي ، بأن الآثار الفقيرة التي أسفرت عنها الحفريات يمكن أن تكون لكنيسة قرطبة العظمى ، وعندئذ تولدت لديهم فكرة قيام عبد الرحمن الداخل باستغلال الجدران الخارجية للكنيسة الكبرى لتكون نفس جدران مسجده الذي بناه في سنة ١٧٠[2] ، وعندئذ فقط يصبح في الامكان القول بأن عبد الرحمن الداخل بنى جامعه بقرطبة في الموضع الذي كانت تقوم عليه كنيسة وانه كان يشتمل لذلك السبب على احدى عشر بلاطا .

ولكن المشكلة تتركز في هذه الحالة في معرفة الاجابة على الاسئلة الآتية : في أي مكان من الكنيسة او في اي شطر من الكنيسة القديمة اقيم المسجد الذي ركز حنش الصنعاني قبلته ؟ والى اي حد استغل المسلمون هذه الكنيسة في بناء الجامع ؟ واين كان موقع النصف الثاني من الكنيسة الذي اشتراه عبد الرحمن الداخل ؟ .

وتصمت المصادر العربية صمتا مطبقا عن الاجابة على هذه الاسئلة ؛ ولذلك حاولت هنا ان اجيب عليها بقدر استطاعتي مستخدما الاستدلال المنطقي حينا ، وما يمكن ان نستنبطه من المصادر العربية حينا آخر ، مع مناقشة اصحاب الرأي القائل بان موضوع تقسيم كنيسة شنت بنجنت

---

(1) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 20, 29 . والترجمة العربية ص ٢٤ — Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 341.

(2) Gomez Moreno, op. cit., P. 29. — والترجمة العربية ، ص ٢٩

بعد الفتح لا يقوم على اساس تاريخي ، وان الكنيسة ظلت قائمة حتى ايام عبد الرحمن الداخل ، وانه اذا كان هناك ثمة تقسيم حقيقي حدث في الكنيسة ، فانه وقع حتما فيما بين عامي ١٣٠ ، ١٣٨[١] .

ويعتبر دوزي اول من ابدى رأيا في تقسيم كنيسة قرطبة ، فهو يرى ان نصارى قرطبة كانوا يتمتعون بكاتدرائيتهم حتى سنة ٧٤٧م (وتوافق سنة ١٣٠ هـ)[٢] ، ويستند دوزي في هـذا الرأي على النص التالي ، اقتبسه من كتاب اخبار مجموعة : « ثم أتى بالاسرى ، وقعد لهم الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة ، وهي اليـوم موضع مسجدهـا الجامع ، فضرب اوساط سبعين منهم »[٣] ، ثم يقول : « لم يكن النصارى في قرطبة يحتفظون الا بالكاتدرائية المعروفة بشنت بنجنت ، اذ كانـت كنائسهم الاخرى قد هدمت ، وكانت معاهدة الصلح مع المسلمين قـد منحتهم حق ملكية هذه الكاتدرائية »[٤] ، ويضيف دوزي قائلا بان هذه المعاهدة احترمت طوال سنين عديدة ، « ولكن لما كانت قرطبة قد تلقت سيلا دافقا من السكان بوفود الاجناد الشامية ، واصبحت مساجدهـا لا تتسع لمثل هذه الكثرة السكانية ، فقد فكر الشاميون في ان يصنعوا ما سبق ان صنعوه في دمشق وحمص وفي مدن اخرى من وطنهم ، حيث شاطر المسلمون النصارى كنائسهم لاقامة مساجد ، ووافقت حكومـة قرطبة على هذا النظر ، وبذلك ارغم النصارى على التنازل عن نصـف كاتدرائيتهم »[٥] . ولا ينبغي أن نترك مـا ذكره دوزي دون مناقشة ، واول ما نأخذه على دوزي انه يرجع الى نص الرازي ، فيقتبس منه مـا

(١) Ocana Jimenez, la Basilica de San Vicente y la gran mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. VI, 1942, P. 356.

(٢) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, t. I, P. 281.

(٣) اخبار مجموعة ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٤) Dozy, op. cit., P. 281.

(٥) Ibid.

يخص كنيسة قرطبة العظمى وتهديم سائر الكنائس بحضرة قرطبة وفقا للعهد الذي صولح عليه اهل قرطبة ، بل ويقتبس ايضا من هذا النص ما رواه الرازي خاصا بشراء عبد الرحمن لنصف الكنيسة الآخر . ومع ذلك فانه لا يقر بمبدأ تقسيم الكنيسة زمن الفتح ، وهو ما اشار اليه الرازي واكده بصفة قاطعة . ثم يزعم بعد ذلك ان قرطبة كانت تضم منذ الفتح مساجد اخرى غير الجامع الذي اسسه حنش داخل كنيسة شنت بنجنت ، ولكننا لم نعثر حتى الآن على نص يؤكد انشاء جامع آخر سوى الجامع الذي ركز حنش قبلته بالكنيسة المذكورة . ومن المعروف ان المسجد الجامع هو اول ما يؤسس في المدن الاسلامية او في المدن المفتوحة ، ونعني به المسجد الذي تقام فيه الصلوات الجامعة ايام الجمعة ، ومن المعروف ايضا ان المسلمين في قرطبة لم يؤسسوا بعد الفتح بناء آخر سوى المسجد الجامع الذي اقامه حنش الصنعاني ، وقد اضيفت اليه سقائف متتابعة ليتسع بيت الصلاة فيه لاكبر عدد من المصلين ، والقنطرة التي رممها السمح بن مالك الخولاني من حجارة السور ، لحداثة عهدهم بمصادر استقطاع الاحجار ، ولقرب القنطرة من السور ، وللرغبة في سرعة الفراغ من البناء . ثم يؤكد دوزي بصفة قاطعة ، ولكن على غير اساس ، انه بعد عام ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) ــ وفيه كان النصارى وفقا لرأيه يمتلكون بعد كاتدرائيتهم ــ وبعد ان تضاعف عدد سكان قرطبة بسبب وفود الاجناد الشامية الى الاندلس ، ارغمت حكومة قرطبة نصارى هذه المدينة على التخلي عن نصف كنيستهم ، وهو تأكيد لا يثبته اي نص تاريخي او حتى استدلال منطقي . واذا سلمنا جدلا بان هذا حدث بالفعل ، وان المسلمين اغتصبوا نصف كنيسة النصارى الذي كان بحوزتهم ، فلماذا اذن يكلف عبد الرحمن الداخل نفسه مشقة استحضار علوج النصارى بقرطبة ومفاوضتهم ، والحاحه في شراء نصف كنيستهم الباقية ، ولم يلجأ هو الآخر الى سياسة الضغط ؟ ولماذا اعطاهم حق اقامة كنيستهم المهدمة خارج الاسوار نظير تخليهم عن حقهم في هذا النصف ؟ ولماذا امتدح

الشعراء انفاقه الاموال الطائلة في تأسيس الجامع ؟ انني لا أرى موجبا لنفي تقسيم الكنيسة بعد الفتح بين المسلمين والنصارى واقامة مسجد جامع في الشطر الذي آل الى المسلمين ، وفقا لمعاهدة الصلح ، ولنفي احترام المسلمين لهذه المعاهدة حتى قيام عبد الرحمن الداخل ببناء الجامع الجديد ، علما بان عبد الرحمن لم ينقض هذه المعاهدة بشرائه النصف الآخر من الكنيسة وبموافقة اصحابها . ونلاحظ ان بناء المساجد الجامعة عند الفتح كان تقليدا متبعا عند المسلمين ، فموسى بن نصير لم يغادر الجزيرة الخضراء الا بعد ان اسس جامع الرايات ، كما ان حنش الصنعاني هو الذي اسس مسجدي البيره وسرقسطة[1] . أما اختيار المسلمين لكنيسة قرطبة العظمى بالذات لبناء مسجدهم في شطر منها فلا يسجل حالة فريدة في نوعها في الاندلس خاصة وفي العالم الاسلامي عامة ، فقد فعل المسلمون في اشبيلية مثل ذلك عندما اقاموا مسجدهم في كنيسة ربينة Santa Rufina [2] ، وعندما اسسوا جامع طليطلة[3] ، كذلك فعلوا في كنائس الشام[4] ، وكنائس الاسكندرية[5] ، هذا الاختيار ان دل على شيء فعلى رغبة الفاتحين في تسجيل انتصارهم من الناحية الدينية ، وقد سبق لثيودوسيوس الاكبر ان اسس كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق على انقاض معبد وثني ، وان كنيسة القديس ميخائيل التي اقيمت في عصر قسطنطين في الاسكندرية انما قامت على أنقاض معبد القيصريوم[6] ،

---

(١) الحميري ، ص ٢٩ ، ٩٧ — المقري ، ج ٤ ص ٦ .

(٢) ابن القوطية ، ص ١١ . ويقول ابن القوطية في ذلك : « وكان (عبد العزيز بن موسى بن نصير) قد ابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه» .

(٣) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, P. 224, Note 4.

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، طبعة صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٤٦ . وراجع ايضا كتابي : تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٧٠٨ .

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ ، ص ١٠١ ، ١٠٣ — ١٠٤ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٤٣ .

وقد فعل الاسبان نفس الشيء عند استيلائهم على مدن الاندلس ، اذ حولوا مساجدها الجامعة الى كاتدرائيات ومساجدها الصغيرة الى كنائس، وكذلك فعل النورمان في صقلية اذ حولوا مساجد بلرمه وغيرها من مدن المسلمين الى كنائس مثل كنيسة القديس كاتالدو .

واتبع سيمونيت Simonet رأي دوزي ، اذ يشير الى أن الكنيسة كانت في سنة ١٣٠ (٧٤٨) في حوزة النصارى[١] ، كذلك يؤكد الاستاذ كرزول تأكيدا حاسما بأنه لم يبن مسجد في قرطبة منذ الفتح ، وأنه لا يوجد في قائمة الكنائس القرطبية السابقة على الفتح الاسلامي التي أعدها فلوريث Florez أي ذكر لكنيسة باسم سان فنسان[٢] . وينكر كرزول حادثة تقسيم الكنيسة بين النصارى والمسلمين ، ويعتقد أن ابن جبيرهو الذي ابتكر قصة تقسيم كنيسة دمشق وأتى بها الى الاندلس في نهاية القرن الثاني عشر ، فاقترنت بجامع قرطبة بعد ذلك بعهد قصير ، ثم أدخلت في مدونة الرازي خلال القرن الثالث عشر ، وعنها وصلت الى ابن عذارى والمقري[٣] ، ومعنى هذا أن المسلمين لم يكن لديهم مسجد جامع زهاء ٧٥ سنة ، وهو أمر محال من الناحية العملية والمنطقية . كذلك أخذ الاستاذ أوكانية خيمنث برأي دوزي[٤] ، وأكد بأنه اذا كان البناء قد اتخذ كله أو جانب منه مسجدا للمسلمين ، فان المذبحة التي وقعت فيه في سنة ١٣٠[٥] تصبح أمرا غير مقبول . ولكن الاستاذ خيمنث نسي بلا شك أن النص

---

(1) Simonet (F.J.): Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897, P. 201.

(٢) Creswell, Early muslim architecture, Vol. II, PP. 138-139

(٣) Creswell, a short account of early muslim architecture, P. 213.

(٤) Ocana Jimenez, La Basilica de San Vicente, P. 349.

(٥) يقصد جلونثي التمسل في كنيسة قرطبة وقيامه بقتل اسرى اليمنية أصحاب ابي الخطار وابن حريث .

يشير الى أن هذه المذبحة انما جرت في داخل الكنيسة ، وليس في داخل المسجد ، وأن هذا النص الذي اعتمد عليه يؤكد على نقيض ذلك أن جزءا من الكنيسة احتفظ به النصارى في هـذا التاريخ ، وأعتقد أن المقصود بالكنيسة في النص المذكور النصف الذي تركه المسلمون مـن الكنيسة الكبرى سان فنسان بعد فتحهم لقرطبة ، فان كلمة كنيسة تعني البناء الذي يقوم فيه النصارى بأداء شعائر الدين المسيحي ، ولا شـك أن الكنيسة الكبرى التي اقتسمها النصارى والمسلمون بعد الفتح الاسلامي لقرطبة كانت تضم مرافق وملحقات مختلفة : كمصليات ومعمودية ودار أسقفية وفناء كما يؤكد عليه الاستاذ خيمنث نفسه[1] ، وأن مسجد حنش آقيم في موضع كانت تشغله بعض ملحقات الكنيسة المقتسمة . ولا شك أيضا أن هذه الكنيسة التي يشير اليها النص العربي الذي استشهد بـه الاستاذ خيمنث كانت ، كما يفترض هو نفسه ، قد هجرها النصارى في هذا التاريخ (سنة ١٣٠) حتى أصبحت على هـذا النحو مسرحا لمثـل هـذا العمل البشع[2] . ولكي يدعم الاستاذ خيمنث نظريته ، استشهد بنص ورد في كتاب « فتح الاندلس » جاء فيـه أن قرطبة افتتحت صلحا على أن يترك للنصارى الكنيسة التي تقع في ذلك الوقت في غرب قرطبة[3] ، والكنيسة في اعتقاده لا يمكن أن تقع خارج الاسوار ، وانما في مدينة قرطبة نفسها ، حيث لم يكن في حوزة النصارى وقتئذ سوى البازيليكية[4] . ومع ذلك فانني أعتقد أن صاحب فتح الاندلس الذي استشهد به الاستاذ خيمنث هذه المرة كان يعني كنيسة شنت أجلح خارج الاسوار San Asciclo ، التي أشار اليها أيضا صاحب أخبار مجموعة بقوله : « فلما بلغ الملك دخولهم ، خرج في جملة أصحابه وهم أربعمائة أو خمسمائة ومن خرج معه من باب

---

(1) Ocana Jimenez, op. cit., PP. 361-366.

(2) Al-Sayyid Salem, op. cit., P. 6.

(3) فتح الاندلس ، ص ٩ .

(4) Ocana Jimenez, op. cit., P. 349.

المدينة الغربي يقال لـه باب اشبيلية ، فتحصن بكنيسة في غربي المدينة حصينة ذات بنيان وثقانة ، وهي شنت أجلح »[1] ، وكانت هذه الكنيسة تقع وفقا لما أورده صاحب كتاب فتح الاندلس في الربض[2] ، أي المنطقة الواقعة خارج السور الغربي ، فيما عرف بعد ذلك زمن المؤلف بالربض ، وبالذات خارج باب اشبيلية المعروف في زمنه بباب العطارين[3] ، وهناك مؤرخون آخرون يتفقون على هذا الموضع الذي كانت تقوم فيه كنيسة شنت أجلح المذكورة[4] . كذلك نستنتج من النص التاريخي الذي استشهد به الاستاذ خيمنث أن هـذه الكنيسة كانت حصينة ذات بنيان وثقانة ، يأتيها الماء تحت الارض من عين في سفح الجبل[5] ، وأنها لم تهدم تماما بعد الفتح ،فقد ورد ذكرها بعد ذلك تحت اسم كنيسة الاسرى[6] ، أو كنيسة الحرقى[7] ، والنصارى يعظمونها لتمسك من لاذ بها بدينهم مع شدة البلاء ، ولا شك أنها المقصودة بقول القاضي عياض في كتابه الشفاء عند تعرضه لذكر قرطبة : « ان دور قرطبـة أربعة عشر ميلا ، وعرضها ميلان ، وهي علـى النهر الكبير ، وعليه جسران ، وبهـا الجامع الكبير الاسلامي ، وبهـا الكنيسـة المعظمة بين النصارى »[8] ، ولعلهم عظموها لصبر من التجأ اليها على البلاء .

لكل هذه الاسباب أعتقد أن النص الذي اعتمد عليه الاستاذ خيمنث يشير الى كنيسة شنت أجلح لا الى كنيسة شنت بنجنت ، التي كانت تقع

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ١٢ .
(٢) فتح الاندلس ، ص ٩ — ١٠ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٩ .
(٤) المقري ، ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٤٥ .
(٦) اخبار مجموعة ، ص ١٤ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٥ — المقري ، ج ١ ص ٢٤٦ .
(٧) المقري ، ج ١ ص ٢٤٦ .
(٨) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦١ .

في داخل مدينة قرطبة تحت السور[1] . فلما طلب عبد الرحمن من نصارى قرطبة بيع نصف الكنيسة القديمة الذي كان في حوزتهم آبوا عليه أول الامر ، ولكنم سألوه بعد أن ألح عليهم في ذلك أن يسمح لهم ببناء كنيستهم المخربة خارج المدينة ، وأغلب الظن أنهم كانوا يقصدون بها كنيسة شنت أجلح المعطلة منذ الفتح .

ونستطيع بعد المناقشة السابقة أن نؤكد القول بان المسلمين شاطروا نصارى قرطبة كنيستهم المعروفة بشنت بنجنت ، وأنهم أقاموا في قسمها الذي آل اليهم مسجدا ، أسس حنش الصنعاني وعبد الرحمن الحبلي محرابه بأيديهما وركزا قبلته . ويبدو أن اتجاه القبلة كان محرفا نحو الجنوب ، ولكن أمراء بني أمية لم يفكروا قط في تعديلها ، تبركا بها ، بل حافظ الاميران عبد الرحمن الداخل والاوسط على المحراب القديم[2] ، كذلك ظلت القبلة محرفة نحو الشرق ، في عهد الحكم المستنصر ، فحافظ على اتجاهها القديم ولم يعمل على تعديلها اقتداء بأهل السلف ، عندما شرع في زيادته في الجامع[3] .

وأعتقد أن جامع قرطبة في عصر الولاة كان يشغل جزءا من الكنيسة ، لعله فناءها أو احدى ملحقاتها ، وأن الكنيسة الفعلية بمذبحها وأروقتها ظلت من نصيب النصارى ، ولقد رجحت في رأي سابق فكرة قيام هذا المسجد البسيط الذي يسهل هدمه في فناء مسجد الامير عبد الرحمن الداخل[4] ، فلما عزم عبد الرحمن على بناء مسجد جديد هدم هذا المسجد

---

(١) فتح الاندلس ، ص ٤٣ ــ أخبار مجموعة ، ص ٦١ ــ المقري ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) الرسالة الشريفية في الاقطار الاندلسية ، ص ١١٦ ، ١١٧ . يقول صاحب الرسالة المذكورة انه ورد في الاثر « انها (أي قبلة حنش) روضة من رياض الجنة ، وبقيت الى بني أمية ، وبني بنيانا آخر لم يهدم المحراب ، ومشي على حمر خشب الى ان وقف في موضعه اليوم تبركا به » .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٩٨ .

(٤) A. Salem, Cronologia de la mezquita, PP. 401-402.

البدائي القديم ، وجعلـه صحنا فسيحا لمسجده الجديد ، بينما أصبـح الموضع الذي كانت تقوم فيـه الكنيسة بيت الصلاة للمسجد الجامـع الجديد . هذا الرأي الذي أدلي به يستند أساسا على نصين هامين : الاول أورده المقري ونقرأ فيه : « وقال بعض المؤرخين في ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته : انه لمـا تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة ، فجـدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه »[1] . وكان من الطبيعي أن يتم توسيع الفناء على أساس المسجد البدائي الاول الذي كان مقاما من اللبن ، ومسقفا بسقائف متلاصقة أقامها المسلمون سريعا دون تخطيط سابق ولا نظام محدد ، وكلما أضافوا الى تلك السقائف سقائف جديدة كلما قل ارتفاع السقف ، وذلك لأن زيادة هذه السقائف كانت تنفذ من الجهة الشمالية لا الجنوبية التي تتميز وقتئذاك بوجود جدار المحراب ، وهـذا دليل علـى أن السقائف المذكورة كانت تقع شمالي بيت الصلاة الذي أسسه عبد الرحمن ، لأن الارض كانت تتدرج في الارتفاع في شمال المسجد ، فكلما التصقت سقيفة جديدة من السقائف القديمة كلما تطامنت الاسقف وتعذر على المسلمين الصلاة وقوفا . وكان مـن الطبيعي أيضا أن يجعل عبد الرحمن صحن جامعه في الجهة الشمالية التي كان يقوم فيها المسجد البدائي الاول ، لأن بناء هذا المسجد كان بسيطا من السهل ازالته دون مشقة ، بينما كان من الصعب هدم الكنيسة الاصلية المبنية من الحجارة والملاط ، والحفريات الاثرية التي أجريت في أرضية بيت الصلاة أثبتت بالفعل وجود كنيسة من ثلاثة أروقة في هذا الموضع . وعلى أساس هذه النظرية فان كنيسة شنت بجنت كانت تشغل الجانب الاعظم من بيت الصلاة في جامع عبد الرحمن الداخل الذي يقوم على الجانب الغربي من مجموع أبنية المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة فيه ، ونستند في ذلك أيضا على نص ذكره

---

(1) المقري ، ج ٢ ص ٨٤ .

الحميري يؤكد أن الكنيسة كانت تقوم في الجزء الغربي من المسجد الجامع بقرطبة بعد أن استكمل صورته النهائية[1] .

ويبقى علي أن أبين الى أي حد أفاد الامير عبد الرحمن من الكنيسة في بنيان جامعه الجديد ، وهذا الموضوع يدخل في مشكلة عدد بلاطات الجامع .

ج ـ مشكلة عدد بلاطات المسجد الذي اقامه عبد الرحمن الداخل :

رأينا فيما سبق أن الامير عبد الرحمن الداخل ابتدأ في بناء الجامع في سنة ١٦٨ في قول ، و ١٦٩ في قول آخر ، ولكن المهم أن الجامع « لـم يكمل في زمانه وكمل في زمان ابنه هشام »[2] ، ذلك لأن الامير توفي في سنة ١٧٢ دون أن يستكمل الجامع جميع عناصره المعمارية[3] ، كالمئذنة وسقائف النساء والميضأة[4] ، والظاهر أنه لم يتح لـه اقامة هذه المئذنة لانشغاله باتمام أعمال البناء التكميلية في المسجد وبناء مساجد أخـرى بنواحي قرطبة . فاذا كان المسجد قـد أصبح في سنة ١٧٠ صالحا لاقامة الصلوات ، الا أنه كانت تنقصه كثير من الاعمال البنائية الاخرى التـي

---

(١) جاء في نص الحميري انه لما تاخر المعتمد بن عباد عن دفع الاتاوة الى الفونسو السادس ملك قشتالة ، امعن الفونسو في التجني ، « فسأل في دخول امراته القمطيجة (الكونتيسة) الى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها ، حيث اشار اليه بذلك القسيسون والاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه ، معظمة عندهم ، عمل المسلمون عليها الجامع الاعظم » (الحميري ، ص ٨٤) .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٨٣ . ويقول المقري في موضع آخـر : « ومـن محاسنه (هشام) أيضا اكمال بناء الجامع بقرطبة ، وكان أبوه شرع فيـه » (المقري ، ج ١ ص ٣١٧ ، ونفس النص في ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٥) .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢١ ـ المقري ، ج ١ ص ٣٠٨ .

(٤) يحدد ابن عذارى هذه الاعمال بقوله : « وهشام هو الذي اكمل سقائف المسجد الجامع بقرطبة ، ورفـع منارته القديمة ، وبنـى الميضاة العجيبة » (ج ٢ ص ١٠١) .

تستلزم وقتا كافيا لبنائها خاصة وأن المسجد أصبح منذ التاريخ المذكور يؤدي وظيفته على الاقل في أيام الجمعة مما يؤدي الى تعطيل القيام بهذه الاعمال . وقنع الامير عبد الرحمن بأحد أبراج قصر قرطبة المجاور ، ولعله كان يقع في السور الشرقي من القصر قرب الركن الشمالي الشرقي ليقوم مقام المئذنة ، وكان المسلمون في عصر الولاة يتخذونه مقام مئذنة لمسجد حنش الصنعاني[1] .

فلما تولى هشام امارة قرطبة (١٧٢ — ١٨٠) أكمل الاعمال التكميلية التي لم يتهيأ لابيه الداخل ان يكملها في حياته ، وهي بناء المئذنة وسقائف النساء ومجنبات الصحن وحوض الوضوء ، فأقامها هشام من خمس فيء الفتح الاسلامي لاربونه[2] . وقد اهتدى المهندس الاثري دون فيلث هرنانذث الى موضع المئذنة ، واجرى فيه حفريات أثرية اسفرت عن كشف اساس قاعدتها المربعة . ويذكر ابن عذارى ان خمس فيء أربونة بلغ خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين[3] ، ومن هذا الخمس اكمل هشام بناء جامع قرطبة ، ورمم القنطرة ، وبنى جانبا من القصر ، وبنى مسجدا أمام باب الجنان . وتخرج من ذلك كله بأن نفقات البناء على

---

(١) يقول صاحب اخبار مجموعة ، (ص ٩٣) : « وحصر ابو عثمان في صومعة المسجد الجامع التي في القصر » . وذكر المقري (ج ٤ ص ٣٢) انه لما دخل يوسف الفهري القصر بقرطبة « تحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع ، فاستنزله بالامان » . وكان بقصر قرطبة المجاور — على حد قول ابن بشكوال — عدد من القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو التي لم ير الراؤون مثلها في مشارق الارض ومغاربها ، (المقري ، ج ٢ ص ١٢) ، وكان اي برج من هذه الابراج او القصاب يقوم مقام المئذنة .

(٢) ابن القوطية ، ص ٤٣ — المقري ، ج ٢ ص ٩٧ .

وينسب الاستاذان جورج مارسيه وهنري تراس هذه النفقات الى الامير عبد الرحمن الداخل، والظاهر أنه اختلط عليهما الامر بين الداخل وابنه هشام
G. Marçais, Manuel d'art musulman, t. I, Paris, 1926, P. 215 —
Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954, P. 137
H. Terrasse, l'art hispano mauresque, dès origines au XIIIe siècle, Paris, 1932, PP. 59-60.

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩٥ .

الاعمال التكميلية بجامع قرطبة في عهد هشام كانت قليلة للغاية بالنسبة لما انفقه ابوه عبد الرحمن الداخل في بناء الجامع ، فقد رأينا ان الداخل انفق في شراء الكنيسة مائة الف دينار ، وانفق في بناء الجامع ثمانين الف دينار ، وهو مبلغ ضخم يبرر ما قيل فيه من اشعار المدح والوصف . والواقع ان اعمال هشام في جامع قرطبة كانت كلها تكميلية لم تغرمه النفقات الهائلة التي تكلفها ابوه من قبل ، مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بان نظام العقود المتراكبة في بيت الصلاة هي من عمل الامير عبد الرحمن الداخل خاصة وان الشعراء وصفوا الاسقف الخشبية المذهبة ، ولا يمكن للاسقف الخشبية ان تقام قبل اقامة الاقواس او العقود وما يعلوها من الجدران الحاملة لهذه الاسقف . وبقي ان نعرف عدد بلاطات مسجد الامير عبد الرحمن الداخل ، وهذا يؤلف احدى المشكلات الرئيسية في تأريخ بناء جامع قرطبة . وقد انقسم المؤرخون ايضا بالنسبة لذلك الى فريقين : فريق يذهب الى ان مسجد عبد الرحمن الداخل كان يتكون من ١١ بلاطا ، ويعتمد هذا الفريق اساسا على الحقائق الاثرية التي اسفر عنها الكشف الاثري في ارضية بيت صلاة المسجد الاول دون اعتبار للنصوص التاريخية . والفريق الثاني يرى ان بيت الصلاة في هذا المسجد كان يشتمل على تسعة بلاطات استنادا على ما ورد في النصوص التاريخية وبعض الظواهر الفنية في المسجد ، ثم ظهر فريق ثالث يحاول التوفيق بين آراء الفريقين المذكورين .

وكان يتزعم الفريق الاول صاحب النظرية القائلة بالاحدى عشر بلاطا الاثري الكبير الاستاذ جومث مورينو ، الذي يذهب الى أن جزءا من المسجد ، وعلى الاقل الجدار الغربي من جامع عبد الرحمن الداخل ، لا يعدو أن يكون نفس جدار البازيليكية القديمة ، ويرجع عهده الى القرن السادس الميلادي استنادا على تماثل نظام البناء فيه مع نظام بناء باب

اشبيلية الروماني في سور قرطبة[1] . ولكن الاستاذ كرزول فند هـذه النظرية ، فذكر أولا أنه من الطبيعي أن يكون أول عمل فني أقامه المسلمون في اسبانيا استمرارا للاسلوب الشائع عند قدومهم الى هذه البلاد ، على نحو ما حدث في سورية ، ثم أن الركائز التي تقسم الجدار الغربي لهـذا المسجد الى مسافات منتظمة توحي بافتراض وجود كنيسة من ثلاثة أروقة متساوية في الاتساع ، وهو أمر لا يتفق مع هذه النظرية ، يضاف الى ذلك أن الاستاذ فيلث هرناندث عثر في الحفريات التي أجراها في أرضية بيت الصلاة بمسجد عبد الرحمن الداخل على آثار هامة لاتينية سابقة لا صلة لهـا اطلاقا بتخطيط أي جزء مـن البنيان الحالي[2] . ولقد أيد الاستاذ كامبس اي كاثورلا نظرية الاستاذ جومث مورينو ، ونسب الباب المعروف بباب سان استيبان الى الكنيسة المزعومة ، وقدر عدد بلاطات الجامع الاول في عهد الداخل بأحد عشر بلاطا[3] . ويوافق الاستاذ هنري تراس على أن جامع عبد الرحمن الداخل كان يتألف من أحد عشر بلاطا ، ولكنه يعتبر باب سان استيبان من عمل الداخل[4] . ويؤيـد الاستاذ كرزول جومث مورينو في عـدد بلاطات مسجد عبـد الرحمن الداخل على الرغم مـن معارضته له في القول بأن الجدار الغربي من هذا المسجد هو نفس جدار الكنيسـة[5] . أما الاستاذ ايلي لامبير فقد قبل باديء ذي بدء ــ مع بعض التحفظ ــ أن يكون عدد بلاطات الجامع الاول في عهد الداخل أحد عشر

---

(1) Gomez Moreno, Excursion a traves el arco de herradura, PP. 797-798.

(2) Creswell, Early muslim architecture, Vol. II, P. 153. A short account of early muslim architecture, P. 223.

(3) Camps Y Cazorla, Arquitectura califal y mozarabe, Cartillas de arquitectura espanola, t. IV, Madrid, 1929, P. 10.

(4) Terrasse, L'art Hispano-Mauresque, P. 60.

(5) Creswell, a short account, P. 214.

بلاطا[1] ، ولكنه عدل عن ذلك فيما بعد عندما نشر الاستاذ ليفي بروفنسال النص التاريخي المتعلق بالجامع في عهد عبد الرحمن الاوسط من المقتبس لابن حيان .

غير أن النصوص التاريخية المذكورة التي توصل اليها الاستاذ ليفي بروفنسال ونشرها ، وهي نصوص نقلها المؤرخ القرطبي ابن حيان عن مؤرخين معاصرين لزيادة عبد الرحمن الاوسط في جامع قرطبة أمثال الرازي والحسن بن مفرج ومعاوية بن هشام القرشي الشبنيسي وابن النظام ، حددت تحديدا دقيقا عدد بلاطات مسجد الامير عبد الرحمن الداخل ، كما أوضحت أعمال الامير عبد الرحمن الاوسط في الجامع المذكور . وتجمع هذه النصوص على أن بيت الصلاة في مسجد عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على تسع بلاطات ، فأضاف اليها الامير عبد الرحمن الاوسط بلاطين جانبيين في سنة ٢١٨ استوسع بهما بيت الصلاة القديم بحيث أصبح مجموع بلاطات المسجد أحد عشر بلاطا ، ثم مد هذه البلاطات جميعا من جهة القبلة في سنة ٢٣٤ .

يقول الرازي : « وزاد الامير عبد الرحمن بن الحكم في المسجد الجامع بقرطبة ، أول الزائدين فيه من خلفاء بني مروان الزيادة الاولى الظاهرة من قبلته للداخل اليه ، البارزة من بين البنية الاولى التي ابتناها أبو جده عبد الرحمن بن معاوية الامير الاول الداخل الى الاندلس ، على أساس مختطى هذا المسجد المبارك من العرب الفاتحين للجزيرة ، فمد عبد الرحمن زيادته تلك طولا مع القبلة في الفضاء البراح هنالك مع آخر

---

(1) Elie Lambert, De quelques incertitudes dans l'histoire de la grande mosquée de Cordoue, dans Annales de l'Institut des Études Orientales de l'Université d'Alger, t. I, année 1934-1935, PP. 175-188 — Lambert, Las tres etapas constructivas de la mezquita de Cordoba, al-Andalus, 1935, PP. 139-143.

هـذا المسجد بباب المدينة الكبير القبلي المعروف اليوم بباب القنطرة . وقد كانت ابهاء المسجد الاقدم تسعة ابهاء ، زاد عليها عبد الرحمن بهوين من كل جانبيه ، فكملها أحد عشر بهوا ، استوسع به المسجد ، ورفه عن حاضريه ، واعتلى شأنه »[1] . ويقول أبـو بكر عبدالله بن الحكم بن النظام : « .... ومد عبد الرحمن زيادته هذه طولا من الابهاء التسعة ، وأنشاء حفافيها من ابتدائها شرقا وغربا بهوين زائدين عليها ، ممتدين معها ، فكمل عدد أبهاء المسجد أحد عشر بهوا ، صير سعة كـل بهو من هذين البهوين تسعة أذرع ونصف »[2] . وواضح أن هذيـن النصين يزيلان الغموض الذي كان يكتنف تأريخ بنـاء جامع قرطبة في عصري الاميرين عبد الرحمن الداخل والاوسط[3] ، ويشيران في وضوح تام الى أن المسجد الاقدم الذي ابتناه الامير عبد الرحمن الداخل كان يتألف من تسعة أبهاء ، زاد عليها عبد الرحمن الاوسط بهوين أو بلاطين جانبيين ، واحد من كل من جانبي بيت الصلاة القديم ، سعة كل منها ٩½ ذراعا ، وهي الزيادة الاولى لهذا الامير في الجامع ، وتمت في سنة ٢١٨ ، وهو تاريخ ذكره ابن عذارى وان كان قد جعله للزيادة الثانية .

اما الزيادة الثانية لنفس الامير عبد الرحمن الاوسط فتمت في جمادى الاولى سنة ٢٣٤ ، وهي الزيادة الكبرى التي مدت فيها البلاطات الاحدى

---

(١) ابن حيان ، نصوص خاصة بجامع قرطبة نشرها ليفي بروفنسال في مجلـة Arabica ، مجلـد ١ قسـم ١ ، ليدن ، ١٩٥٤ ، ص ٨٩ (Arabica, Vol. I, fasc. 1, P. 89) وراجع أيضا نفس النص في : ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢٤٣ .

(٢) Arabica, P. 91-92.

(٣) يرجع سبب هذا الغموض الى تخبط المصادر العربية وخلطها بين الزيادة الاولى لعبد الرحمن الاوسط في سنة ٢١٨ وزيادته الثانية التي تمت في سنة ٢٣٤ . فابن عذارى يذكر هذين التاريخين للزيادة المنتظمة بالارجل (أي المتصلة بالدعائم) وطولها خمسون ذراعا وعرضها ١٥٠ ذراعا (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٦ ، ٢٤٣) ، وابن خلدون يذكر أن الامير عبد الرحمن الاوسط زاد في جامع قرطبة رواقين (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٥) والمقري يذكر نفس العبارة (المقري ، ج ١ ص ٣٢٥) .

عشرة جنوبا تجاه باب القنطرة . وتنير النصوص الاخرى التي توصل اليها الاستاذ ليفي بروفنسال الى هذه الزيادة بجلاء ووضوح لاخفاء فيه البتة ، والنص الاول منها للحسن بن مفرج جاء فيه ما يلي : « أمر الامير عبد الرحمن بن الحكم بالزيادة في الجامع بقرطبة ، فزيدت طولا ما بين الارجل الضخام الصخرية الماثلة في صدره (يعني بها الدعائم) . الظاهرة لمن دخل اليه فيما بينها الى آخر المسجد في منتهى المحراب »[1] . والنص الثاني لمعاوية بن هشام القرشي الشبنيسي ، يحدد تاريخ الانتهاء من الزيادة الثانية وبدء الصلاة فيها في ٢٠ ربيع الاول سنة ٢٣٤[2] . أما النص الثالث للرازي فيؤرخ الفراغ من هذه الزيادة في جمادى الاولى سنة ٢٣٤[3] . وأما النص الرابع لابن النظام فأهمها جميعا وقد ورد فيه ما يلي : « كثر الناس بقرطبة أيام الامير عبد الرحمن بن الحكم المطمئنة ، وانتابوها من كل أوب وجهة ، حتى تضايق عنهم مسجد جامعها ، وآخل كثير منهم بشهود الجمعة ، وقهرهم سلطانهم الامير عبد الرحمن عليه لأخذه برأي مالك في ألا تفرق بمصر واحد صلاة الجمعة ، وحسبهم على مسجدهم هذا وحده ، فكانوا يلقون من اقتحامه قدحا ، فأمر عند ذلك بتوسيعه والزيادة فيه ، ورسم أن يكون ذلك من قبل قبلته في الفضاء ما بينها وبين باب المدينة الراكب للقنطرة ؛ فعمل بما رسمه حين الزيادة الثانية من بناء هذا المسجد الفاضل المنسوبة الى عبد الرحمن بن الحكم ، المحدودة من عند الارجل الحجرية الضخام الماثلة اليوم في وسط أبهاء المسجد الى المحراب الاقدم الذي اتخذت فيه اليوم القبة الكبرى المخرمة ، ومد عبد الرحمن زيادته هذه طولا من موقف حد المسجد الاول الى ناحية القبلة »[4] .

---

(١) Arabica, op. cit., P. 90.

(٢) Ibid., P. 90

(٣) Ibid., P. 91

(٤) Arabica, op. cit., P. 91-92.

ولكن هذا الوضوح والدقة اللذين تمثلهما هذه النصوص يتعارض مع تتائج الحفائر الاثرية التي قام بها المهندس الاثري دون فيلث هرناندث والتي تثبت بصورة حاسمة اشتمال بيت الصلاة في مسجد عبد الرحمن الداخل على أحد عشر بهوا أو بلاطا ، وعلى أساس هذا التناقض بين الحقائق الاثرية وبين النصوص التاريخية أصبح هناك فريقين : فريق يستند الى التحليل الاثري في البناء والحقائق التي أسفر عنها الكشف الاثري وهي حقائق لا تتفق قط مع ما ورد في النصوص التاريخية المكتشفة ، ويعتقد هذا الفريق بأن مسجد عبد الرحمن الداخل كان يحده من الغرب جدار الواجهة الحالية التي ينفتح فيها باب سان استيبان ، ومن الشرق جدار مماثل ، وأن هذا المسجد كان يضم أحد عشر بلاطا • وفريق يستند الى الوثائق التاريخية التي تنص صراحة وبصفة واضحة على أن المسجد الاول كان يتكون من تسعة أبهاء ، أضيف اليها أولا : بلاطان جانبيان في سنة ٢١٨ ، ثم زيدت هذه البلاطات جميعها في اتجاه القبلة في سنة ٢٣٤ • ويستعرض الاستاذ توريس بلباس الاسباب التي يرتكن عليها الفريق الاول وعلى رأسهم الاساتذة : جومث مورينو ، ورافاييل كاستخون ، وتوريس بلباس نفسه ، من واقع الحفريات التي أجراها فيلث هرناندث في أرضية بيت الصلاة بمسجد الداخل ، والتي تتعارض نتائجها مع النصوص التاريخية التي اكتشفها ليفي بروفنسال ، وعلق عليها الاستاذ لامبير[1] ، ونجمل هذه الاسباب أو الحجج فيما يلي :

١ ـ ان زيادة بلاطين جانبيين الى الشرق والغرب من بلاطات المسجد الاول الذي يشتمل على تسع بلاطات يقتضي هدم الجدارين الخارجيين اللذين يسوران المسجد من هذين الجانبين ، وكان من الطبيعي أن يستغل بناة هذه الزيادة الجدارين القديمين ، فبدلا من هدمهما كان الامر يقتضي فتح ثغرات فيهما لتكوين دعائم يمكن أن ترتكز عليها العقود ، وفي ذلك

(1) Lambert, l'histoire de la grande mosquée de Cordoue aux VIIIe et IXe siècles, A.I.E.O.U.A., t. II, PP. 165-179.

توفير لجهد ونفقة ووقت لا ضرورة لها بهدم هذين الجدارين • وكان من المتوقع بعد القيام بحفريات في أرضية الصف الاخير من العقود في هـذا الجزء من مسجد عبد الرحمن الداخل أن تكشف هذه الحفريات عن آثار أسس الجدارين المذكورين ، ولكن دون فيلث هرنانديث لم يعثر على أقل أثر لجدار مستمر ، ولكنه تمكن من رؤية أسس مفردة للاعمدة التي تتوزع على امتداد البائكتين الجانبيتين • ومع ذلك فقد استطاع في حاله مشابهه لهذه الحالة وهي الجدار الشرقي من المسجد ذي البلاطات الاحدى عشر وهو الجدار الذي هدم عند شروع المنصور بن أبي عامر في زيادته للجامع من الجهة الشرقية ، استطاع أن يعثر على آثار لأسس هدا الجدار المهدم ، بل وآثار باب من الابواب التي هدمت في هذا الجدار عنـد الشروع في الزيادة المذكورة •

٢ ــ بزيادة بلاطين جانبيين الى بيت صلاة المسجد الاول ليصبح عدد بلاطاته كلها أحد عشر بلاطا ، كان طبيعيا أن يوصل طرفا هذه الزيادة من ناحية القبلة بجدار المحراب وذلك بتكسلة هذا الجدار مـن الشرق ومن الغرب ، حتى يتصل بطرفي البلاطين المذكورين ، وكان طبيعيا أيضا أن يتميز البناء في هذه الوصلة بجدار المحراب من طرفيه عن نظام البناء القديم • ولمـا رفع دون فيلث هرنانديث لوحات الرخام في الموضع المطابق لاحدى هاتين الوصلتين في الزاوية الجنوبية الشرقية من مسجد عبد الرحمن الداخل ذي البلاطات التسع شاهد أساس الجدار القبلي يمتد شرقا دون أن يبدو أي أثر لتلاحم الوصلة المذكورة عند نقطة الالتقاء المفترضة •

٣ ــ ان النقش الكتابي المسجل على الباب الغربي المعروف بباب سان استيبان على الرغم من أنه لا يشير بصفة خاصة الى هذا الباب ، فانه يؤكد أن هذا الباب أنشيء أو جدد في عام ٢٤١ هـ (٨٥٥) • ولقد تبقت على جانبي هـذا الباب آثار زخرفة نباتية متاكلة تكاد تتلاشى ، بسبب عوامل الرطوبة ، ويعتقد أن بوابة سنة ٢٤١ قد أدمجت في الجدار السابق أو ربما حلت محل أخرى هي صاحبة الآثار الزخرفية المتآكلة • وزخارف

البوابة الجديدة وهي من النوع المحفور حفرا مائلا ، وصلت الينا في حالة ممتازة تختلف جوهريا سواء من حيث حالتها ومن حيث أدائها الفني عن الزخارف النباتية المتآكلة . ولما كان هذا الجدار قد أقيم ، وفقا للنصوص التاريخية التي أشرنا اليها ، مع الزيادة الاولى للمسجد في سنة ٢١٨ هـ[1] فلا يعقل أبدا أن تكون زخارف بوابته قد محيت وتآكلت بعد مضي ٢٣ سنة فقط من تاريخ نقشها بحيث استلزم الامر ترميمها بعد ذلك في عهد الامير محمد سنة ٢٤١ ، بينما يكون قد مضى على بناء عبد الرحمن الداخل للجامع ٦٩ عاما[2] .

٤ ـ أشار المؤرخون الى أن الامير هشام أقام ميضأة بشرقي الجامع ، وقد تمكن الاستاذ فيلث هرناندث من الاهتداء الى أسس الميضأة ومراحيض في أرضية المسجد لصق الجدار الشرقي[3] للمسجد ذي الاحد عشر بلاطا . وقد أثبت الفحص الفني الذي أجراه دون فيلث هرناندث على أن هذا الجدار الشرقي لهذا المسجد أقيم قبل جدران الحوض الملاصق للجدار المذكور[4] .

ويتساءل الاستاذ توريس بلباس في أيهما نثق : أفي الوثائق التاريخية الصريحة، أم في الشواهد المادية التي كشفت عنها الدراسة الاثرية للمسجد ؟ ويجيب الاستاذ بلباس بأنه لا يجب أن نثق ثقة عمياء في الوثائق العربية

---

(١) ذكر توريس بلباس تاريخ سنة ٢٠٦ لهذه الزيادة الاولى . والحقيقة انها السنة التي تولى فيها عبد الرحمن الامارة ، والمعروف أن الجدار المذكور اقيم في سنة ٢١٨ وفقا للنصوص التي اوردها ابن حيان (Torres Balbas, Arte hisp. Mus. P. 390).

(٢) Torres Balbas, La Portada de San Esteban, al-Andalus, Vol. XII, P. 133 — Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 390.

(٣) Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 22.

(٤) Castejon, La Portada de Mohamed I, Boletin de R.A.B.L.N.A.C., No 51, 1944, P. 505 — Torres Balbas, Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. VI, 1941, PP. 419-421.

التي طالما تعرضت للنسخ المتكرر والتحريف ، كما أنـه لا يجب الاخذ بالشواهد المادية في البناء ما لم تكن مدعمة بحقائق تاريخية ، فان الابنية تتعرض عبر الحقب والعصور لتغيرات عديدة ، فاذا افترضنا صحة جانب من جوانبها فان تحليلها يدع مجالا للتفسير الشخصي .

ولحل هذه المشكلات مؤقتا عرض الاستاذان كاستخون وجومث مورينو نظرية جديدة للتوفيق بين النصوص التاريخية والشواهد المادية في البناء ، فرأيا أن عبـد الرحمن أنشأ أحـد عشر بلاطا ، ولكنه فصل البلاطين المتطرفين عـن بقية البلاطات الاخرى ، وجعلهما لصلاة النساء ، وظـل هذان البلاطان منعزلين عـن بيت الصلاة ، ولا تصلهما بالبلاطات الداخلية الا نوافذ مشبكة مفتوحة في الجدارين الفاصلين . ثم هدم الامير عبد الرحمن الاوسط هذين الجدارين ، وبدلهما بصفين من العقود المماثلة لصفوف العقود الداخلية ، وبذلك أدمـج هذين البلاطين في بيت الصلاة القديم[1] . الا أن هذه النظرية باعتراف كاستخون نفسه لا تقوم علـى أساس تاريخي سليم ، بل وتتعارض مع بعض الحقائق التاريخية[2] ، فان نص ابـن النظام يعبر بوضوح تام عـن اضافة بلاطين متطرفين موازيين للبلاطات التسعة الاخرى في المسجد الاول ، اتساع كل منهما ۹ ١/٢ ذراعا ، يضاف الى ذلك أن ما ذكره المؤرخون من أن عبد الرحمن الداخل لـم يؤسس سقائف النساء وأن الذي أسسها هو الامير هشام في جوف بيت الصلاة في المسجد الاول . وهناك حقيقة تاريخية ثالثة هـي أن الامـير عبد الرحمن الاوسط هو الذي فتح في السورين أو الجدارين الشرقي والغربي للمسجد بابين[3] بالقرب من القبلة القديمة ، وذلك بعد أن زاد في

---

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 56 — Castejon, La Portada de Mohamad, P. 505.

(٢) Castejon, op. cit., P. 505.

(٣) يقول ابن النظام في ذلك : « وفتح في هذين البهوين المزيدين من كلتي جنبتي البنية القديمة بأواخرهما مما يقرب من القبلة بابين بسور الشرق والغرب كملت أبواب الجامع بهما سبعة ابواب» (Arabica, op. cit., P. 91-92)

المسجد الاول زيادته الاولى ، لا شـك أن الغربي منهما هـو باب سان استيبان ، والثاني الباب المقابل له في السور الشرقي • وبذلك يكون باب سان استيبان من عمل عبد الرحمن الاوسط وليس من عمل عبد الرحمن الداخل • كذلك تتعارض نظرية التوفيق مع بعض الحقائق الفنية ، اذ كيف نفسر تماثل المساند المحدبة التي تتميز بهـا زيادة عبد الرحمن الاوسط الكبرى مع مساند البلاطين المتطرفين ؟ • كل ذلك يجعلنا لا نقبل نظرية التوفيق أو الحل الوسط التي أدلى بها كل من جومث مورينو وكاستخون، وممـا زلنا نرجح كفـة النصوص التاريخية التي اكتشفها ليفي بروفنسـال لدقتها ، ولأنها حلت لنا مشكلة الاختلاف الواضح بين المساند المحدبة في البلاطين المتطرفين من مسجد عبد الرحمن الداخل وبين مساند بقية العقود في هذا المسجد ، وتماثل هذه المساند مساند الزيادة الكبرى الثانية التي قام بهـا عبد الرحمن الاوسط نفسه في سنة ٢٣٤ • أمـا تعارض هـذه النصوص مع الحقائق الاثرية والشواهد المادية فليس عقبة حقيقية تمنع من قبولنا لهـا ، وسأقوم بمناقشة الاسباب التي حملت السادة توريس بلباس وجومث مورينو وكاستخون على عدم أخذهم بالنصوص ، وليس معنى ذلك أنني لا أعترف بالشواهد الاثرية في المسجد ، ولكنني اذ احاول مناقشة الحجج التي قدمها توريس بلباس أسعى جاهدا للتوفيق من جهتي توفيقا علميا بـين الشواهد الاثرية والنصوص التاريخية على نحو يرضي الطرفين المتعارضين ، ولا يبخس من قدر ما يستندان عليه من وثائق •

فاذا بحثنا في الحجة الاولى التي يدلي بها دعاة الحقائق الاثرية ، وهي عدم وجود آثار دالة على أسس جدار المسجد الاول ذي البلاطات التسع الذي بناه عبد الرحمن الداخل ، وجدنا أنهـا حجة قوية وتثير الشك في حقيقة النصوص • وقد رددت عليها منذ عامين[1] بأن عدم العثور علـى

---

(١) انظر مقالي : « اضواء جديدة علـى مشكلة تاريخ المسجد الجامع بقرطبـة » بصحيفة المعهـد المصري بمدريد • في العـدد الخاص بتكريـم الدكتور طه حسـين (تحت الطبع) •

آثار لأسس تحدد الجدار الخارجي للجامع الاول لا تعني عدم وجود هذا الجدار أصلا ، فقد يكون هذا الجدار قد بني بمواد بنائية ضعيفة لم تترك وراءها أثرا بعد أن تهدم ، والظاهر أن هذا الجدار الغربي والجدار الشرقي المقابل لـه كانا قائمين على أساس جداري الكنيسة القديمة ، ففضل بناة عبد الرحمن الاوسط محو آثار أسسهما وازالتها تماما من الوجود ، ولعل لذلـك دخل في أن أبحاث فيلث هرنانديث لـم تصل الى تحديد تصميم الكنيسة . واذا كان هؤلاء البناة لم يفعلوا كذلك بالنسبة لجدار القبلة في مسجد عبد الرحمن الداخل عند شروعهم في الزيادة الكبرى للامير عبد الرحمن الاوسط فلأن أسس هذا الجدار لم تعرقل صفوف العقود التي تتعامد على الدعائم المتبقية من الجدار المذكور ، بينما كان وجود مثل هذه الدعائم في الجانبين الشرقي والغربي من المسجد لا يجعل من الممكن انطلاق عقود بمثـل اتساع عقود البلاطات الاخرى ، لأن الدعائم تشغل جزءا لا بأس به من الفراغ الذي تمتد فيه العقود ، كما حدث بعد ذلك في زيادة المنصور ، ولا شك أن قرب هذه الدعائم مـن السور الخارجي وضيق فتحات الاقواس المتصلة بها من العوامل التي تشوه التناسق العام للمسجد وتقلل من مظهره الجمالي ، بعكس الدعائم المتخلفة من الجدار الشرقي الذي هدمه المنصور عند زيادته الشرقية بطول المسجد ، فهي لا تؤثر في هـذا المظهر ، ولعله تعمد تركها فاصلا بـين زيادته وبـين بيت الصلاة القديم ، تمييزا لزيادته عن أعمال غيره . على أنني في الحق لم أكن مقتنعا كل الاقتناع برد السابق ، كما أنني لم أكن راضيا عنه كل الرضا ، أمام قوة الحجج التي يستند عليها دعاة الشواهد الاثرية ، ولكنني على أي حال رضيت به بصفة مؤقتة حتى أصل الى حل حاسم في وقت ما . وحدث أن التقيت في الصيف الماضي بأستاذي العالم الاثري الكبير الدكتور أحمـد فكري ، فتباحثنا في هذه المشكلة وأبدى عدم اقتناعه بما أدليت به من حل لها ، وعرض علي حلا أجده مناسبا ومقبولا للغاية ، وردا كافيا للمشكلة الاثرية.فقد ذكر لي أن جامع قرطبة في عهد عبدالرحمن الداخل كان يشتمل

حقيقة على تسع بلاطات كما هو واضح في النصوص ، ولكن من الجائز أن يكون البلاطان المتطرفان منها أكثر اتساعا من البلاطات الاخرى حاشا بلاط المحراب الذي يمكن أن يقاربهما أو يماثلهما في الاتساع . فلما شرع عبد الرحمن الاوسط في زيادته الاولى بالمسجد وهي الزيادة التي أضاف فيها الى بيت الصلاة بلاطين متطرفين وجد أن بامكانه أن يقتطع من البلاطين المتطرفين الفسيحين ما يكفي لبلاطين في مثل اتساع البلاطات المجاورة لهما شرقا وغربا ، ثم هدم جداري المسجد أي زحزحهما مسافة تكفي لاقامة بلاطين متطرفين جديدين أقل اتساعا من البلاطات المجاورة . وهذا يفسر عدم العثور على أي أثر لجدار خارجي تحت صف العقود الاخير من الشرق والغرب ، ولا على أي أثر لتلاحم في الوصلتين الشرقية والغربية بجدار القبلة في نقطة الالتقاء المفترضة . وأذكر أنني اقتنعت ظاهريا بهذه النظرية المنطقية التي أدلى بها أستاذي الدكتور فكري عن طريق المشافهة . فلما ترويت في الامر وقمت بدراسة هذه النظرية دراسة عملية ازددت اقتناعا بها ، فقد رجعت الى مقاييس اتساع البلاطات فوجدت أن بلاط المحراب يصل في الاتساع الى ٧٫٨٥ مترا وأن البلاطات الاربعة التالية له من كلا الجانبين يصل كل منها في الاتساع الى ٦٫٨٦ مترا ، أما اتساع كل من البلاطين المتطرفين فيبلغ ٥٫٣٥ م . وعلى هذا الاساس يمكن الافتراض بأن جامع عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على تسع بلاطات ، البلاط الاوسط والبلاطان المتطرفان يصل اتساع كل منها الى ٧٫٨٥ مترا أما البلاطات الاخرى الستة فيبلغ اتساع كل منها ٦٫٨٦ مترا . وفكرة اتساع البلاطين المتطرفين كانت مطبقة في بعض المساجد ولكنها شاعت مؤخرا في القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، فزهير العامري أضاف الى جامع المرية بلاطين متطرفين أكثر اتساعا من البلاطات الاخرى[1] ، كذلك طبق نظام البلاطين المتطرفين اللذين يزيدان في الاتساع عن البلاطات الاخرى في جامع

---

(1) العذري ، ج ٢ ص ٨٣ .

مدينة غرناطة الذي أقيم في القرن الخامس[1]. كذلك كان الجامع الموحدي بتينمل يضم بلاطات تسع عمودية على جدار القبلة، يتميز البلاطان المتطرفان منها بأنهما أكثر اتساعا من بقية البلاطات[2] ، وكان البلاطان المتطرفان بجامع حسان بالرباط أيضا أكثر اتساعا من البلاطات الاخرى باستثناء بلاط المحراب[3] .

فلما شرع عبد الرحمن الاوسط في زيادته المذكورة ، هدم جداري المسجد الاول وهو مسجد جده الاول وأقام صفا من الاقواس القائمة على عمد على مسافة تبعد ٦٫٨٦ مترا من الصف المجاور لها في كل من الجهتين الشرقية والغربية أي أنه أقام بلاطين في سعة مماثلة للبلاطات المجاورة وبقي من كل من البلاطين المتطرفين الاولين ما يقرب من متر ، فأضاف اليها من عرض الطريق المجاور ما يقرب من أربعة أمتار ونصف المتر ليتخذ على هذا النحو بلاطا متطرفا غربيا اتساعه ٥٫٣٥ مترا ، وفعل مثل ذلك من الجهة الشرقية .

وبقي أن نتساءل عن السبب الذي دعاه الى تضييق هذين البلاطين المتطرفين المستحدثين بحيث أصبحا أقل في الاتساع من البلاطات الاخرى . وللرد على ذلك يكفي أن نشير الى أن أي اتساع في البلاطات من الجهة الغربية كان يتم على حساب المحجة العظمى الواقعة بين الجامع والقصر ، وكان من الضروري ألا يتجاوز مهندسو الجامع في ازاحة جدار الجامع الى أكثر من ٤ ١/٢ مترا لأن ذلك كان يترتب عليه تضييق واضح للمحجة الفاصلة بين القصر الخلافي والجامع .

---

(1) E. Lambert, Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, Vol. XIV, P. 283.
عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية . بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٤٧ .

(2) Terrasse & Basset, Sanctuaires et forteresses almohades, Paris, 1932, P. 48.

(3) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, P. 209.

والنظرية كما عرضناها تبدو منطقية ، ولكن الاخذ بها يحتاج الى اجراء بحوث أثرية في أرضية البلاطين المتطرفين حتى الجدارين الخارجيين أما النقش الكتابي المسجل على باب سان استيبان فلا ينص على أن أعمال التجديد التي قام بها الامير محمد تقتصر على هذه الواجهة أو على الباب فحسب ، ولكنه نقش تذكاري يسجل أعمال التجديد التي قام بهـا هذا الامير لاتقان ما وجده يستحق التجديد في هذا المسجد ، ونص الكتابة ما يلي : « بسمله ... أمر الامير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن بنيان ما حكم به من هذا المسجد واتقانه ، رجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتـم ذلك ... في سنة احدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه . مسرور و (نصر فتياه) »[1].

وكان الاستاذ لامبير قد لاحظ اختلاف الكوابيل أو المساند الملفوفة التي تحمل الدعائم القائمة على العمد في مسجد عبد الرحمن الداخل عن نظائرها في البلاطين المتطرفين ، وفي الزيادة القبلية التي قام بها عبد الرحمن الاوسط ، فوجد أن المساند الاولى لها طابع متوسط بين المساند في زيادتي عبد الرحمن الاوسط والمساند الملفوفة في زيادة الحكم المستنصر . فمساند زيادتي عبد الرحمن الاوسط ملساء وبسيطة ولا تحمل الا بروزا واحدا في ربع دائرة ، أما المساند الملفوفة في بلاطات مسجد عبد الرحمن الداخل ، « فهي أكثر تطورا واتقانا وأكثر تعقيدا ، وهي وان كانت قديمة الا أنها تبدو أحدث من النوع الذي استخدم في زيادة عبد الرحمن الاوسط ... فبدلا من ربع الدائرة البسيط فان جوانب هذه المساند تشتمل على ثلاثة أو أربعة لفائف متصلة الامر الذي يجعل هذه المساند أقدم المساند الملفوفة في المسجد الجامع بقرطبة . وقد أعيد استخدام هذا النوع من المساند في

---

(1) Combe, Sauvaget et Wiet, Répertoire chronologique d'Epigraphie arabe, le Caire, 1931, inscription No 373, P. 289 — Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, Leiden, 1931, P. 2.

القرن العاشر الميلادي في كل من زيادتي الحكم المستنصر والمنصور مع بعض التغيير في التفاصيل وذلك بسبب اضافة شوكة وسطى أو شوكتين تقسم لفائف المسند رأسيا من وجهه »[1] .

كذلك تحمل مساند مسجد عبد الرحمن الداخل الاقدم لفائف زخرفية أكثر بساطة من مساند الواجهة المطلة على صحن البرتقال ومساند الشرفة البارزة المطلة من أعلى على باب سان استيبان ، اذ أن لفائف المساند في جامع عبدالرحمن الداخل تختلف عنها في أنها لا تحمل مثلها شوكة وسطى. ولما كانت هذه المساند المطلة على صحن الجامع وبأعلى بوابة سان استيبان ترجع الى عهد عبد الرحمن الناصر[2] ، وكانت من جملة الاعمال التي أجراها الناصر في المسجد سنة ٣٤٦[3] ، فانني أعتقد أنه يمكننا تحديد تاريخ المساند الملفوفة بجامع عبد الرحمن الداخل بالفترة ما بين عامي ٢٣٨ ، وهو تاريخ وفاة عبد الرحمن الاوسط وسنة ٣٠٠ هـ التي تسجل تاريخ اعتلاء عبد الرحمن الناصر عرش الامارة بقرطبة ، على أساس أن المساند الملفوفة المذكورة تمثل تطورا لنظائرها في زيادتي عبد الرحمن الاوسط ، كما تمثل مرحلة متوسطة من التطور بين مساند عبد الرحمن الاوسط والمساند المنسوبة الى أعمال عبد الرحمن الناصر . وأعتقد أن كوابيل المسجد القديم وأعني به مسجد الداخل كانت ملساء ومجردة من اللفائف ، ثم أضيفت اليها اللفائف التي نراها اليوم ، على أساس أن الامير محمد هو الذي أتم البقية اليسيرة الباقية من أعمال أبيه عبد الرحمن الاوسط في المسجد وذلك في سنة ٢٤١ ، ونستدل في هذا الرأي على الوثائق التاريخية الآتية :ـ

---

(1) Lambert, de quelques incertitudes, PP. 182, 183.

(2) ذكر ابن عذارى ان عبد الرحمن الناصر بنى صومعة المسجد . وعدل بنيان المسجد ، وبنى وجه البلاطات الاحدى عشر (البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٤) .

(3) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, P. 8, 9

١ – أن الكتابة المنقوشة حول طبلة عقد بوابة سان استيبان تشير الى قيام الامير محمد بنيان ما حكم به من هذا المسجد واتقانه ، ومعنى ذلك أن الترميم لم يقتصر على الواجهة أو البوابة وانما شمل كل ما رأى ضرورة ترميمه في هذا المسجد .

٢ – يقول ابن القوطية في تاريخ افتتاح الاندلس : « والامير عبد الرحمن (الاوسط) أمر بالزيادة في جامع قرطبة ، فتمت في أيامه الا يسيرا أتمه الامير محمد »[1] . ويقول في موضع آخر : « وكان عبد الرحمن بن الحكم قد بنى الزيادة في الجامع على ما تقدم ذكره وبقيت بقية أتمها الامير محمد »[2] . ومعنى ذلك أن أعمال الامير محمد كانت تكميلية لأعمال أبيه في الجامع .

٣ – وتحدد النصوص التاريخية من المقتبس لابن حيان التي نشرها ليفي بروفنسال أعمال الامير محمد : وأولها نص لابن القوطية جاء فيه : « مات الامير عبد الرحمن وقد بقي عليه في هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة ، أتمها الامير ابنه محمد الوالي مكانه ، فاستوفيت الكمال في أيامه »[3] . ويليه نص لأبي بكر عبدالله بن الحكم بن النظام الكاتب الاخباري ونطالع فيه : « وهلك الامير عبد الرحمن قبل أن تتم زخرفة هذه الزيادة وتنميقها ، فأتم ذلك ولده الامير محمد ، وبلغه الغاية »[4] . والنص الثالث لأحمد بن محمد الرازي ونقرأ فيه ما يلي : « قال أحمد بن محمد الرازي في مناقب الامير محمد بن عبد الرحمن أن اعتنى لأول خلافته بتتميم ما كان بقي من زيادة والده الامير عبد الرحمن المنسوبة اليه بالمسجد

---

(١) ابن القوطية . ص ٦٢ .
(٢) نفس المصدر . ص ٧٣ - ٧٤ .
(٣) Arabica, op. cit., P. 90.
(٤) Ibid., P. 92.

الجامع العتيق بمدينة قرطبة ، فاستوعب طروزه ، وأوثق أبوابه ، وأقام المقصورة فيه ، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء »[1] .

وأهم النصوص التي اكتشفها ليفي بروفنسال ونشرها ، وتؤيد وجهة نظري في هذا الشأن ، ما ذكره الحسن بن مفرج ، اذ يقول : « وكان الذي عمله الامير محمد في المسجد الجامع بعد استكماله لما كان قد بقي من العمل في زيادة الامير عبد الرحمن فيه المشهور في وسطه ، أن **جدد[2] البنية الاولى القديمة عمل جدهم الداخل عبد الرحمن بن معاوية التي تنتهي من اوله المبتدا من صحنه المنتهي الى الارجل الصخرية الضخام الماثلة وسطه التي منها ابتدا والده بزيادته ، فمدها الى القبلة ، وقد كانت اهترمت فيها اماكن لطول الامد ، اعتمد جميعها بالاصلاح والمرمة ، فازاح علتها ، وبالغ في اتقانها ، فاعادها الى اول نشاتها** »[3] .

٤ ـ وقد أورد ابن حيان نصا آخر لمعاوية بن هشام ، يتضمن الظروف التي دعت الامير محمد الى اصلاح بنية المسجد القديم الذي يرجع تاريخ بنائه الى عهد عبد الرحمن الداخل ، جاء فيه : « وفي كتاب معاوية بن هشام قال : حدثني أبي هشام قال : سمعت محمد بن وضاح يحدث أحمد بن زياد قال : كتب القاضي محمد بن زياد الى الامير محمد في تداعي البنية التي ... المسجد الجامع بقرطبة ... أول ... أن يبصره أحد على مثلها ، وقد كان الامام ـ أصلحه الله ـ قد بعث شتوة عام أول الحاجب والوزراء وأصحاب البنيان ليعاينوا ما وهي فيه ، وطفت معهم

(١) ابن حيان ، المقتبس ، النص الخاص بعصر الامير محمد . تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ (في سبيله الى الصدور) Arabica, op. cit., 92.

(٢) نقلها ليفي بروفنسال « جرد » وتصحيحها « جدد » (ابن حيان . تحقيق الدكتور مكي ، ص ٢٢٠) .

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، النص الخاص بعصر الامير محمد . تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢٢٠ ـ Arabica, P. 92 ـ ابن حيان . المقتبس ، نشر الحجي ، ، ص ٢٤٦ .

على جميع ذلك مرارا ، فرأيت حائطيه قد مالا ، وعفيت جوائزه [1] ، فأمر الامام وفقه الله أصحاب البنيان أن يحتالوا فيه بما يقويه ويمسك تداعيه الشتوة الى أن يتمكن وقت العمل ، فعملوا بذلك ، وبنوا أرجلا رافدة لحائطيه[2] ، فتماسكا بذلك ، ونحن نحذر أن يأتـي الشتاء العام عليه وتركبه الامطار بكثرتها ، وهو على حاله هذه ، فيوشك أن يخر سقفه على سطحه فيندق لبعد مهواها ، ونسأل الله العافية من ذلك ومن شنعة ذكره ان حل ، الى ما يتضاعف فيه من النفقة ، والامام ــ أصلحه الله ــ فقـد جدد جامع استجه ، وجامع شذونة ، وعمـر بيوت العبادة بكل جهته ، فكيف بهـذا المسجد العظيم الذي هـو بيضة المسلمين في جميع سلطان الامام ــ أصلحه الله ــ وعماد مساجدهم ، وغيظ عدوهم . فرأى الامام ــ أعزه الله ــ في الامر باصلاحه ، وتجديد العزم في تلافيه موفقا ان شاء الله ... قال : فوقع الامير على كتاب محمد (بن زياد) : اننا لسنا تنفق أحب الينا ولا آثر عندنا مـن الانفاق فيما ذكرت به ، وحضضت عليه ، ونحـن آمرون بالنظر في بنيان المسجد الجامع المكرم والاجتهاد في رم شعثه ، والاخذ بالجد في ذلك وتعجيله ، مع الابلاغ في تقويته وتحصينه ، ونوكل كفاتنا بعمله ، والقيام عليه ، ونأمرهم ألا يرمقوا أيديهم عنه غبنا أو حضورنا ، حتى يبلغ تمامه بحول الله وقوته ، ونحن نحملك مع ذلك التفقد لذلك ، والمعونة عليه ، واحسـان النظر في معانيه ، لتشركنا في عظيم

---

(1) الجوائز : جمع جائزة . وهي الكتل الخشبية التي تمسك اللوحات المثبتة بالاسقف .

(2) يعني بهما الحائط المطل على صحن الجامع والحائط الذي فتح فيه عبد الرحمن فتحات واسعة تصل مـا بين زيادته التي اجراها في سنة ٢٣٤ وبـين المسجد الاول ، والسبب في ميـل هذيـن الحائطين الدفع الذي تمارسه عقود بيت الصلاة التي تتعامد عليهما . ونستدل على ذلك من أن واجهة المسجد المطلة على الصحن تعرضت للانهيار من جديد في عهد الخليفة الناصر الامر الذي دفعه الى ترميمها وتعديل بنيان هذا الوجه على النحو الذي سنشير اليه .

ثواب الله والمعونة عليه ، فانهض بذلك راشدا ان شاء الله تعالى »[1] .

٥ — يذكر ابن عذارى في حوادث سنة ٢٤١ أن الامير محمد جدد طرز الجامع بقرطبة وأتقن نقوشه[2] .

وفي موضع آخر يقول : « ثم زاد الامير محمد بن عبد الرحمن أن أمر باتقان طرر الجامع وتنميق نقوشه »[3] . والمقصود بكلمة طرر الاطار المستطيل البارز الذي يحيط بدائرة العقد[4] ، أو ما يعرف بالتربيعة . واذا أخذنا بهذا التفسير ، فماذا يقصد بالاطر المستطيلة في الجامع ؟ والحقيقة أنه لا توجد بداخل الجامع أطر مستطيلة أو تربيعات ، وهذه الاطر المستطيلة تقتصر على عقود الابواب الخارجية ، والظاهر أن ابن عذارى استخدم كلمة « طرز » ولكنها نسخت بدون النقطة على الحرف الاخير ، والطرز في هذا النص أو الطروز في نص الرازي تعني الافاريز الزخرفية أو النقوش ، وهي لفظة تتناسب تماما مع المعنى المقصود ، ومع سياق النص . ثم ان كلمة « طرر » لم ترد في البيان الا مرة واحدة ، بينما ترددت لفظة طرز أكثر من مرة في عبارات مماثلة ، فبينما ذكر ابن عذارى في المرة الاولى « جدد طرز الجامع بقرطبة وأتقن نقوشه » ، نراه يذكر في المرة الثانية « أمر باتقان طرر الجامع وتنميق نقوشه » ، وما دامت طرز أو طرر وردت مع كلمة نقوش فالارجح أنها طرز أي نقوش زخرفية وبذلك يستقيم المعنى ، خاصة وأن الرازي استخدم لفظة قريبة منها وهي طروز بمعنى نقوش .

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، النص الخاص بعصر الامير محمد . ص ٢٢٣ — ٢٢٥ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٣) نفسه ، ص ٣٤٣ .

(٤) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت . ص ٨٧ ؛ ٩٥ ؛ ١٥٢ .
وراجع تفسير لفظة طرة فيما يلي :

1 — Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, 2 Vols, Leiden - Paris, 1927, Article Turra.

2 — Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, P. 8.

3 — Marçais, L'architecture musulmane d'Occident, P. 138.

ونعتقد اعتقادا راسخا بان الامير عبد الرحمن الاوسط توفي قبل ان يستكمل زخرفة الزيادة التي اقامها ، ونعني بهذه الزخرفة زخرفة الابواب الشارعة الى بيت الصلاة ، وعلى الاخص باب الوزراء الغربي[1] وهو الباب المعروف بباب سان استيبان ، والابواب الاخرى الشارعة الى المسجد شرقا وغربا وعددها سبع ، اربعة في بيت الصلاة من الشرق والغرب منها باب الوزراء المذكور والباب الواقع على يساره من جهة القبلة وهو نفس الباب الذي أتمه الامير عبدالله للدخول الى المقصورة ، والبابان المقابلان لهما من السور الشرقي للجامع ، ثم بابان يشرعان الى الصحن من الشرق والغرب، وباب واحد في منتصف الواجهة الشمالية للمسجد[2].

ويبدو ان الامير عبد الرحمن الاوسط كان ينوي ترميم ما وهى من زخارف الجامع القديم (جامع عبد الرحمن الداخل) ولكن لم يتهيأ له القيام بهذا المشروع فتولى ابنه الامير محمد تنفيذه ، وبلغ به الغاية في الاتقان . واول ما فعله الامير محمد هو اتقان نقوش الابواب وتنميقها بالزخرفة ، ومن بين هذه الاعمال تزيين باب الوزراء الغربي المعروف بباب سان استيبان بزخارف نباتية على كل من جانبيه ، ثم تزيين المساند التي ترتكز عليها عقود المسجد الاول الذي اقامه الداخل باللفائف ، وقد سبق أن استشهدنا بنصين للحسن بن مفرج ومعاوية بن هشام يتضمنان هذه الحقيقة ، وهي قيام الامير محمد بترميم ما وهى من مسجد قرطبة بنية جده الاول عبد الرحمن الداخل ، وكانت قد اهترمت فيها اماكن لقدم عهدها وعفيت جوائزه واوشكت سقفه على السقوط .

هذا الترميم يفسر كيف ان لفائف الكوابيل بمسجد عبد الرحمن الداخل وهو الاقدم تبدو من طراز اكثر تطورا من لفائف كوابيل الزيادتين

---

(١) ابن حيان ، المقتبس القسم الخاص بعصر الامير عبدالله ، تحقيق الاب انطونية ملشور ، ص ٣٦ .

(٢) يعرف هذا الباب « بباب الصومعة الجوفي » (ابن حيان ، القسم الخاص بعصر الامير محمد ، ص ٢١٩) .

المنسوبتين الى عبد الرحمن الاوسط رغم حداثة عهدها ، ولكنها مع ذلك لا تصل في التطور الى ما وصلته لفائف الكوابيل بواجهة الصحن او بالظلة المطلة على بوابة سان استيبان .

ونعود ثانية لاستكمال مناقشتنا للحجج المادية التي اوردها الاستاذ توريس بلباس ، ومنها وجود اسلوبين زخرفيين مختلفين في واجهة باب سان استيبان المذكور مما حمل الاثري المذكور الى الاعتقاد بان الزخارف القديمة المتآكلة هي زخارف جدار جامع عبد الرحمن الداخل ، اذ لا يعقل في رأيه أن تتآكل هذه الزخارف بعد مضي ٢٣ من انشاء الجدار الخارجي للمسجد على يدي عبد الرحمن الاوسط ، فيضطر ابنه الامير محمد الى ترميمها . وللرد على هذا الزعم نذكر من جديد ان النقش الكتابي المسجل على طبلة باب الوزراء لا يشير الى اصلاح قام به الامير محمد لهذا الباب بالذات وانما يشير الى جميع اعمال الامير محمد في الجامع . وقد اشرت فيما سبق ايضا الى النصوص التاريخية التي تذكر اعمال الامير محمد في المسجد كله ، ونستدل منها على انـه : ١ ــ استوعب زخارف الجامـع وأوثق ابوابه ٢ ــ ازال ما وهى من بنيان مسجد عبد الرحمن الداخل وبالغ في اتقانه حتى عاد كما كان عند اقامته ٣ ــ زين كوابيل مسـجـد عبد الرحمن الداخل باللفائف الزخرفيـة . ونضيف الى ذلك ان الامير محمد لم يكن آخر من رمم واجهة باب سان استيبان التي يتخذها الاستاذ توريس بلباس ومن يؤيد رأيه دليلا على ان جدار هذا المسجد الخارجي من عمل عبد الرحمن الداخل ، وانما خلفه من الامراء من اهتم باصلاح البوابة المذكورة واصلاح غيرها . فابن عذارى يذكر أن الامير المنذر قام بتجديد السقاية واصلاح السقائف[1] ، والمقري يورد نصا عن ابن سعيد جاء فيه : « وهلك (عبد الرحمن الاوسط) قبل ان يتم الزخرفة ، فأتمها ولده محمد بن عبد الرحمن ، ثم رم المنذر ما وهى منه »[2] .

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٩٧ .

ويبدو ان زخارف هذا الباب قد تآكلت بفعل الرياح وعوامل الرطوبة ، وساعد على هذا التآكل طبيعة الحجر نفسه ، وهو حجر رملي رخو سريع التأثر بعوامل الطبيعة[1] ، مما دعا الخليفة عبد الرحمن الناصر الى القيام بتعديل هذه الزخارف[2] ، ويبدو أنه أزال الاحجار القديمة المتآكلة في سنجات العقد وطبلته وطرته ، وكساها من جديد بأحجار صلبة نقشها بزخارف اخرى احدث عهدا من الزخارف القديمة وتشبه كل الشبه الزخارف المحفورة على الحجر التي كانت تكسو جدران قصر الخلافة بمدينة الزهراء ، كما تشبه عقد المحراب بجامع طركونة ، وسنجات العقود في الابواب الخارجية بجامع قرطبة في زيادة الحكم المستنصر . ويبدو ايضا انه اقام بأعلى هذه البوابة شرفة بارزة او ظلة تقوم على كوابيل ذات لفائف زخرفية تشبه نظائرها في واجهة بيت الصلاة المطل على الصحن ، الذي ثبت من النقش التاريخي التذكاري انها من بنيانه كذلك[3] ، ولا تختلف كوابيل باب سان استيبان عن كوابيل واجهة بيت الصلاة الا في بساطتها ، ولكنها تتشابه معها في تعدد لفائفها وفي وجود الشوكة الوسطى.

---

(1) يشير الاستاذ كاستخون الى اثر العوامل الطبيعية في تآكل الزخارف المحفورة في الحجر حتى في قطع الحجارة التي وضعها المهندس ريكاردو فيلاسكت بوسكو مكان القطع المتآكلة ، على الرغم من مضي ما يقرب من خمسين عاما منذ قيامه بأعمال الترميم
(Castejon, La Portada de San Esteban, P. 492).

(2) ذكر ابن عذارى انه قام بتعديل المسجد ، وبنيان الوجه للبلاطات ، والصومعة (ابن عذارى ، ص ٣٤٤) .

(3) ابن عذارى ، ص ٣٤٤ . وقد سجل الناصر بنيانه لهذه الواجهة في لوحة تذكارية مدمجة على الجدار الواقع الى يمين باب بيت الصلاة المسمى بباب لاس بالماس ، ونطالع فيها النص الآتي : (بسمله ... امر عبدالله عبد الرحمن امير المؤمنين الناصر لدين الله اطال الله بقاه ببنيان هذا الوجه واحكام اتقانه تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرم بيوته التي اذن ان ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الاجر وجزيل الذخر مع بقاء شرف الاثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست واربعين وثلث مائة على يدي مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبدالله بن بدر . عمل سعيد بن ايوب) .
Lévi-Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, t. I, P. 8, 9.

ولا شك ان اختلاف حالة الحفظ والصون بين الزخارف التي تزين سنجات العقد والزخارف الجانبية او العليا لا يمكن ان يرجع الى اختلاف في تنفيذها ، فان الباب قد طرأت عليه تغيرات عديدة واصلاحات متكررة . ولقد اشار الاستاذ كاستخون الى اصلاحات اجريت على البوابة في العصر الحديث[1] ، مما دعا بعض مؤرخي الفن الى اعتبار عقد الباب بسنجاته الحجرية المزينة بالزخارف وطروه التي تحيط به عملا حديثا على نفس الاسلوب الخلافي[2] ، بل ان الاستاذ كاستخون يجاري هؤلاء في ذلك ، ولكنه ينسب الى الامير محمد الزخارف المنقوشة على جانبي العقد ، ويذكر أن جامع قرطبة لم يعرف قبل هذا الامير زخارف التوريق المحفورة[3] . ولكننا نعتقد ان هذه الزخارف القديمة البالية التي تزين جانبي باب سان استيبان اقيمت في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط لتشابهها بزخارف تيجان الاعمدة الموجودة في زيادته بالجامع ، بل انها مماثلة تماما لزخارف قوقعة زخرفية وقطع كشف عنها في أرضية الجانب الشرقي من زيادة عبد الرحمن الاوسط ، لعلها تخلفت من الباب الشرقي الذي

---

(١) يرى الاستاذ كاستخون انها رممت في سنة ١٨٦٠ على يدي المهندس المعماري رافاييل لوكي R. Luque (Castejon, op. cit., P. 496) ويذكر الاستاذ أنريكي روميرو دي توريس أن باب سان استيبان أصلح في القرن السابع عشر وبالذات في سنة ١٦٠٢ على يدي مارتين روث اردونيث مدير اعمال كنيسة قرطبة ، كما يذكر ايضا ان هذا الباب نفسه اصلح قبل ذلك في عصر الملكين الكاثوليكيين (راجع :
Romero de Torres, Restauraciones desconocidas en la Mezquita aljama de Cordoba, Boletin de la R.A.C.B.L.N.A.C., No 62, PP. 207-212.

(٢) Terrasse, l'Art Hispano-Mauresque, P 67.

(٣) Castejon, La Portada, P. 492-498 . ويعتقد توريس بلباس أن الزخارف المتآكلة سواء على جانبي عقد الباب أو بأعلى طرة العقد هي من بقايا واجهة مسجد عبد الرحمن الداخل .
Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 40.

هدم على أيام المنصور[1] . وتتميز زخارف هذه القطع الزخرفية بعنصر نباتي مشترك مع زخارف باب سان استيبان وهو ورقة الاكنثس . ونعتقد ايضا أن الامير محمد عمل على اتمام زخارف هذه البوابة ، وتنسب اليه العقود الصغيرة الثلاثة التي تعلو طرة عقد الباب ، وتربيعات الزخارف المحصورة بينها . هذه الزخارف تقوم أساسا على ورقة الاكنثس المتفرعة الى ثلاثة فصوص والمشقوقة في الوسط ، وتماثل الزخارف المتبقاة من جامع تطيلة ، وتمثل اسلوبا وسطا بين الزخارف القديمة ، وهي الزخارف التي تزين جانبي العقد ، وبين الزخارف التي تكسو السنجات الحجرية للعقد نفسه ، التي تبدو في حالة جيدة .

ونختتم مناقشتنا لمشكلات تاريخ بنيان المسجد بآثار حوض الوضوء القائمة لصق الجدار الشرقي من بيت الصلاة المشتمل على احد عشر بلاطا ، والذي ينسبه مؤرخو الفن الاندلسي الى الامير هشام . غير أن وجود هذه الآثار في هذا الموضع لا يعد دليلا لتدعيم نظرية الاستاذين جومث مورينو وفيلث هرناندث . حقيقة أن هشام أقام ميضاة بشرقي المسجد ، ولكن ليس من الضروري أن يكون بنيان هذه الميضأة ملاصقا لجدار المسجد ذي البلاطات الاحدى عشرة ، فقد تكون قد اقيمت على مسافة تبعد عن المسجد ذي التسعة بلاطات بما يعادل اتساع بلاطة زائدة، وان عبد الرحمن الاوسط حرص على الا يزيد عرض هذه البلاطة الجانبية بأكثر من هذه المساحة حتى لا يهدم الميضأة ، فجعل سعتها اقل من سعة البلاطات الاخرى . وهناك حل يقوم على ادلة تاريخية : فالذي لا شك فيه أن هذه الميضأة كانت مقامة حقا بشرقي الجامع وانما بفنائه استنادا على نص لابن

---

(1) Ibid., P. 506 . ولكن الاستاذ جومث مورينو يرى ان هذه القوقعة من بقايا محراب المسجد الاول الذي بناه عبد الرحمن الداخل (الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٤٦ — Ars Hispaniae, P. 42) وان كنت لا اؤيده فيما ذهب اليه لأن عبد الرحمن الاوسط نقل محراب حنش الى مسجده الجديد .

بشكوال ذكر فيه أن «الحكم المستنصر هدم الميضأة القديمة التي كانت بفناء الجامع الذي يستقي لها الماء من بئر السانية ، وبنى موضعها اربع ميضآت في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي، منها ثنتان : كبرى للرجال وصغرى للنساء »[1] .

وعلى اساس هذا النص تكون ميضأة هشام التي رممت في عهد المنذر[2] مقامة في صحن المسجد من جهته الشرقية. اما الاثار التي اكتشفها فيلث هرناندث فتصبح في هذه الحالة لاحدى الميضأتين اللتين أقامهما الحكم المستنصر في الجهة الشرقية من المسجد ، ولعل احداهما كانت تقوم لصق الجدار الشرقي من زيادة عبد الرحمن الاوسط والثانية في الصحن في الموضع الذي كانت تقوم فيه الميضآة القديمة . ولم تهدم هذه الميضأة الجديدة الا عند شروع المنصور بن ابي عامر في تنفيذ زيادته بطول الجامع، فاضطر الى تهديمها وفتح ثغرات واسعة في الجدار الشرقي من المسجد ، ليستفيد من الدعائم المتخلفة في توفير الاعمدة والوقت والجهد ، فلم يتهيأ له اجتثاث آثارها، وانتزاع آثار أسس الاجزاء المتهدمة من الجدار الشرقي القديم .

★ ★ ★

وعلى الرغم من مناقشتي الطويلة لتفنيد نظرية الاثريين جومث مورينو وتوريس بلباس وفيلث هرناندث وتأييد النصوص التاريخية التي اثبتت صحتها ، فان الحل النهائي لمشكلة تاريخ جامع قرطبة يحتاج الى اجراء حفريات جديدة في أرضية الجامع في موقع البلاط المتطرف الغربي من بيت الصلاة بمسجد عبد الرحمن الداخل وفي الصحن خاصة من الجانب الغربي . والى ان تجري هذه الحفريات ليس علينا سوى الاخذ بالنصوص التاريخية .

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .
(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢)

دراسة بنيان المسجد الجامع بقرطبة في عصر الامارة

رأينا فيما سبق كيف اقام المسلمون بعد الفتح مسجدهم القديم في شطر من الكنيسة المعروفة بشنت بنجنت ، وكان هذا المسجد فيما يبدو بسيطا في بنائه ، ولعله اقيم من اللبن لسهولة استخدامه ، وقام حنش الصنعاني التابعي بتاسيس قبلة هذا المسجد بيديه على نحو ما فعله بعد ذلك في مسجدي البيره وسرقسطة . وتمضي الايام ويتكاثر عدد المسلمين الوافدين الى حاضرة الاندلس بوصول افواج العرب الشاميين ، ووفود بقايا الامويين ومواليهم الى الاندلس بعد سقوط دولتهم في المشرق ، ونزولهم في قرطبة حتى ازدحمت بهم ، وضاق مسطح بيت الصلاة في المسجد العتيق عن الاتساع لجموع المصلين الذين كانوا يحرصون على شهود صلاة الجمعة ، واصبح الجامع لا يتسع لاعدادهم الكبيرة ، فجعلوا يعلقون فيه سقيفة اثر سقيفة يستكنون تحتها ، وكان ارتفاع هذه السقائف يقل تدريجيا لارتفاع مستوى سطح الارض كلما اتجهنا شمالا وهو الموضع الوحيد الذي يمكن الزيادة من جهته ، لارتفاع الجزء الشمالي من المسجد وانحدار أرضه من جهة الجنوب نحو النهر[1] ، وقد سبب تطامن الاسقف وانخفاضها مضايقات عديدة للمصلين . وعندما اسس عبد الرحمن الداخل دولته لم يحفل باقامة جامع جديد للمسلمين لانشغاله بمحاربة خصومه في الداخل والخارج ، ولكن المشكلة استفحلت وازداد تعقدها بشكل حمله على التفكير في ايجاد حل لها مهما كلفه الثمن ، ولم يجد الامير بدا من مفاوضة نصارى قرطبة في شراء نصف الكنيسة التي بقيت في ايديهم منذ

---

(١) عالج الحكم المستنصر والمنصور هذه المشكلة فيما بعد عندما شرعا في اقامة زيادتيهم ، فرفعا من مستوى ارض الجهة المراد اقامة الزياده في اتجاهها وهي المنطقة الواقعة قبلي مسجد عبد الرحمن الاوسط . وهذا يفسر وجود الدرج الممتد بحذاء ابواب ومداخل هذه الزيادة بطول الجدار .

الفتح الاسلامي ، وضم ارضها الى ارض المسجد القديم ، وبناء مسجد جامع كبير يليق بمقامه كمؤسس لدولة بني امية في الاندلس ، ويتسع لحشود المصلين في ايام الجمع . وتم شراء الكنيسة في سنة ١٦٨ ، وشرع عبد الرحمن في هذه السنة نفسها في هدمها هي والمسجد العتيق ، بعد ان انتزع محرابه الذي كان قد اسسه حنش الصنعاني بيديه ونقله الداخل الى موضعه من المسجد الجديد . وتم بناء بلاطات المسجد الجامع واسواره في سنة ١٧٠ ، ومع ذلك فان بناء المسجد بصورة عملية لم يتم الا في ايام ابنه هشام على نحو ما اوضحناه في الصفحات السابقة .

أ ـ مسجد قرطبة في عهد الامير عبد الرحمن الداخل :

الوصف العام : لم يتبق من جدرانه الخارجية سوى صف الدعائم الضخمة الواقعة بين المسجد الاول وزيادة الامير عبد الرحمن الاوسط ، وهي التي سماها الحسن بن مفرج وابن النظام « بالارجل الحجرية الضخام الماثلة اليوم في صدره» وطول كل رجل منها على حد قول ابن النظام خمسة أذرع من الشمال الى الجنوب في عرض ذراعين من الشرق الى الغرب . وينقسم هذا الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل شأنه في ذلك المساجد الجامعة الاولى في الاسلام الى قسمين : قسم مسقوف هو بيت الصلاة ببلاطاته واعمدته ، وقسم مكشوف هو الفناء او الصحن[1] . وكان بيت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على تسع بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة على اثني عشر قوسا في كل بلاط ، ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة ان بلاطات جامع قرطبة كانت مثلا احتذته مساجد الاندلس الاخرى جميعا ، اذ اصبحت البلاطات العمودية على جدار القبلة من اخص مميزات

(١) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق، نشره الفريد ديسيه لامار مع الترجمة الفرنسية ، الجزائر ، ١٩٤٩ ص ٢ ـ الحميري ، ص ١٥٣ .

المساجد الاندلسية في العصور المختلفة[1] . وتقوم العقود على عمد من الرخام اتخذت من الكنائس الخربة ، وكان البلاط الاوسط اكثر اتساعا من البلاطات الجانبية على نحو ما اشرنا اليه من قبل . ويبلغ طول بيت الصلاة من الشرق الى الغرب ٦٢,٦٠ مترا وعرضه من الشمال الى الجنوب ٣٨,٠٥ مترا ، أما الصحن فكان عرضه من الشمال الى الجنوب ٣٦ مترا .

ولما كانت بنية المساجد بوجه عام ضعيفة لتعدد بلاطاتها كما هو الحال في قرطبة ، وتفصل بينها صفوف من العقود القائمة على عمد او دعائم قطاعها صغير للغاية حتى لا تشغل حيزا كبيرا في بيت الصلاة ، فيتسع لعدد كبير من المصلين من جهة ، ولا تحجب الامام عنهم أثناء قيامه بالخطبة من جهة ثانية ، ولما كانت الجدران الحاملة لاسقف الجامع تتكىء على العقود القائمة على هذه العمد أو الدعائم ، لذلك فان أي اختلال في استقرار الدعائم والعمد يسبب مباشرة هدم الاسقف . وتجنبا لحركة العمد وتزحزحها من مواضعها بفعل الضغط الذي تمارسه العقود والاسقف عليها ، ولتثبيت الدعائم والعمد في أماكنها اعتاد مهندسو المساجد ربط الدعائم من اعلاها، والقضاء على حركة الدفع الذي تقوم به العقود والسقف عن طريق اوتار خشبية تندمج اطرافها في الحدائر التي تنبت منها العقود ، كما هو الحال في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، وجامع القيروان ، وجامع سوسة . ولما كانت الاوتار الخشبية تشوه المظهر العام للعقود ، وتبخس من قيمتها الجمالية ، فقد فكر مهندس جامع قرطبة في وسيلة أخرى لتأكيد التأثير الجمالي في المسجد ، وفي نفس الوقت لرفع الاسقف ، فابتدع حلا معماريا اصيلا ، وفريدا في نوعه ، فقد أطال من ارتفاع الحدائر التي تنبت منها العقود الحاملة للاسقف ، فجعل ارتفاعها مترين تقريبا بدلا من نصف متر في الحدائر العادية ، واصبحت هذه الحدائر دعائم متراكبة فوق القرم التي

---

(1) Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, Vol. XIV, 1949, PP. 273-283.

تعلو الاعمدة ، وأبدل بالاوتار الخشبية التقليدية التي تربط بين رؤوس العمد عقودا هوائية متجاوزة على شكل حدوة الفرس تربط بين الدعائم المذكورة من اطرافها الدنيا ، وتنبت هـذه العقود الهوائية مـن الاذرع الطويلة للقرم ، في حين ترتكز الدعائم العليا على كوابيل او مساند قائمـة على طنف التيجان • ويزيد قطاع الدعائم من اطرافها العليا عن طـريق حدائر متحررة تنبت منها العقود العليا نصف الدائرية • وهكذا امكـن للمهندس أن يرفع جدرانا عليا يتجاوز سمكها المتر فوق العقود العليـا لتقوم بحمل السقف ، وتهيأ له تحقيقُ ذلك عن طريق التصاعد المدرج من طنف الاعمدة الى القرم القائمة على عمد يتراوح قطر الواحد منها ما بين ٢٢,١٨ سم ، الى الدعائم المتكئة على الكوابيل ، وبذلك تمكن المهندس من احداث تأثير جمالي لم يكلفه أكثر من ابدال العقود الهوائية بالاوتار الخشبية ، ورفع أسقف المسجد عن طريق الدعائم العليا الى ٨,٦٠ مترا • ولم يقنع مهندس الجامع بهذا التأثير ، بل أراد تأكيده باضفاء مظهر زخرفي بسيط يقوم على تناوب اللونين الاحمر والاصفر الشاحب نتيجة لتنـاوب الحجارة والآجر ، بحيث يتالف من هذا التناوب سنجة حجرية وثـلاثة صفوف متلاحمة من الآجر الاحمر تؤلف سنجة اخرى • وجميع اعمـدة المسجد الذي اقامه عبد الرحمن الداخل رومانية او قوطية ، اتخذت من الكنائس الخربة ، وأعاد بناة المسجد استخدامها في مسطح بيت الصلاة ، وكانت جدران المسجد من الخارج تشبه الجدار الغربي الحالي الذي أقامه الامير عبد الرحمن الاوسط ، وكانت تدعمها ركائز قوية تتلقى في الجدار القبلي الضغط الذي تمارسه العقود المتعامدة على جدار القبلة ، في حين اقتصرت وظيفتها في الجدارين الغربي والشرقي على اكساب المسجد صفة القلاع ، وهو مظهر يؤكده وجود افريز الشرفات المثلثة المسننة الذي يتوج الجدران من الخارج• وحين يتخذ المرء طريقه داخل بيت الصلاة بين صفوف الاعمدة الممتدة الى ما لا نهاية بعقودها المزدوجة ، توحي اليه هذه العمد والعقود المتكررة بالطبيعة الحية تحت ظلال في لون الشفق بحيث تشـل

غابة من النخيل ، ويتسلل الضوء من شبكات النوافذ الخارجية ومن العقود المطلة على الصحن باهتا داخل مسطح بيت الصلاة ، فيحدث في النفس تأثيرا عميقا . وهنالك يستشعر المرء نفسه بعيدا عن نطاق الحقيقة الواقعة، ويظل مستغرقا مهيئا للتطلع الى ما وراء الحس في صلاة خاشعة ، مؤيدا لله فرضه، مقرا له بعبوديته حياله ، ولا يتأتى للخلق المعماري أن يكون اكثر من هذا كمالا على ما يوحي به ذلك المثل الديني في بساطته وتجرده وان كان عرضة لان ينقلب في نهاية الامرعادةبلا روح[1] . وكان صحن الجامع مغروسا بالاشجار ، فقد عهد عبد الرحمن الى عبدالله بن صعصعة بن سلام (ت ١٩٢) صاحب الصلاة بقرطبة بأن يغرس صحن المسجد بالاشجار ، واتبع أمراء الاندلس وخلفاؤهم هذا التقليد ، ثم طبق بعد ذلك في مساجد الاندلس، وأصبحت أبهاؤه تغرس بأشجار الليمون والبرتقال والنارنج[2].

تحليل عناصر البناء : وكانت قواعد الاعمدة بعضها مدفونا في أرضية المسجد ، والبعض الآخر كان ظاهرا فوق مستوى سطحه ، واسس هذه الاعمدة منفصلة فيما بينها ، وهي لذلك ضعيفة البناء ، اما اسس الاعمدة الملاصقة للجدران فقوية صلبة[3] ، وكانت أرضية بيت الصلاة من الملاط المصبوغ بالمغرة ، وكانت تغطيها حصر[4] . أما سقف المسجد فكانت أفقية ، تتألف من لوحات خشبية مثبتة في الجوائز ، وكانت تعلوها هياكل مسنمة منشورية الشكل تمتد على امتداد البلاطات تاركة فيما بينها قنوات مقعرة عميقة ، تندمج في الجدران العلوية القائمة فوق الاقواس النابتة من الدعائم ، والغرض منها حفظ مياه الامطار ، وهذا يفسر عظم سمك هذه

---

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 30 ، وانظر الترجمة العربية ، جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ؛ ترجمة عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع ، ص ٣٠ ــ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٨٦ ــ المساجد والقصور في الاندلس ، ص ١٩ .

(٢) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ، طبعة كوديرة ، ج ١ ص ١١٩ .

(٣) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 30 (والترجمة العربية ص٣٠)

(٤) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 349.

الجدران العليا. ويعتقد توريس بلباس ان البلاط الاوسط كان اكثر ارتفاعا من البلاطات الاخرى ، وان كان هذا الاعتقاد لا يستند على أي سند تاريخي ، ولكنه اعتقاد يقوم على القياس بين مسجد قرطبة ومساجد دمشق وحلب والرصافة والجامع الاقصى والقيروان والزيتونة والحاكم بأمر الله[1] . وأعمدة المسجد من أنواع شتى ، ولكن ارتفاعها يصل الى ٤,٢٠ مترا ، وتقوم على قواعد تتفاوت في الارتفاع والانبعاجات الزخرفية ، أما سواري الاعمدة فكانت تختلف من حيث المادة والشكل ، فبعضها من الرخام ، وبعضها من الجرانيت ، وبعضها يحمل قنوات رأسية ، وبعضها حفرت فيه قنوات لولبية . اما تيجان الاعمدة فتختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ، ويغلب عليها النوع الكورنثي الطراز على النوع المركب . أما القرم فهي على شكل هرمي ناقص قاعدته المقلوبة مربعة ، وتكثر في المسجد القرم القوطية التي تكسوها زخارف بارزة من صلبان ودوائر ومعينات وخطوط متعرجة ، وبعضها يزدان بانبعاجات كلاسيكية الطابع ، وتستند الدعائم العليا على كوابيل ذات لفائف سبق الاشارة اليها ، والى انها من عمل الامير محمد ، وتزدان هذه الكوابيل من جانبيها بدوائر او تجعدات او لفائف محفورة ، وبعض الكوابيل يزدان بزخارف نباتية من النوع الذي نشاهده على جانبي عقد باب سان استيبان ، وقد أرجعناه الى الامير محمد كذلك .

مظاهر الاصالة : بحث مؤرخو الفن الاندلسي في اصل فكرة ازدواج العقود بجامع عبد الرحمن الداخل، وارجعوها الى عقود الجسور الرومانية التي تقوم على طابقين أو ثلاثة،وقارنوا نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الروماني بماردة،وهو الجسر المعروف بجسر المعجزات[2] de los Milagros

---

(1) Ibid., P. 351.

(2) Marçais, Manuel d'art musulman, t. I, P. 231 — L'architecture musulmane d'Occident, P. 147 — Creswell, Early muslim architecture, Vol. II, P. 157 — Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 41 — Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 364.

ويزعم هؤلاء المؤرخون ان عقود الجسر المذكور تقوم بنفس الوظيفة البنائية التي تقوم بها العقود السفلى بجامع قرطبة ، وهي الربط بين الدعائم المرتفعة تفاديا لانهيارها[1]. والواقع أن مهندس جامع قرطبة استخدم عقودا رابطة بدلا من الاوتار الخشبية ، محافظا بذلك على الفكرة من استخدام الاوتار أو العقود الهوائية ، وفي نفس الوقت محاولا تقليد طابقي العقود بجامع دمشق .

ويقر الاستاذ كرزول بان جامع دمشق يتميز بوجود صفين من العقود المتراكبة[2] . وعلى هذا الاساس فان مهندس جامع قرطبة تأثر بهذا النظام المتراكب للعقود في جامع دمشق ، فطبقه في قرطبة بطريقة اخرى اكثر اصالة ، بعد ان رفع السقف الى ضعف ارتفاعه باستخدام الدعائم فوق العمد ، فاتخذت العقود القرطبية صورة جديدة مبتكرة املتها عناصر البناء ومواده التي تتوفر لديه والحاجة الى زيادة ارتفاع سقف الجامع. واذا قارنا بين عقود قرطبة الموزعة على طابقين وعقود دمشق الفينا عقود دمشق العليا لا تعدو ان تكون عقودا اصغر حجما وقائمة على عمد مستقرة على جدار قائم بدوره فوق العقود السفلى . اما في قرطبة ، فالامر مختلف لان العقود السفلى تبدو طائرة في الفضاء بين صفي الاعمدة والدعائم ، الغرض منها واضح وهو ربط الدعائم العليا المرتكزة على الاعمدة السفلى . وبالنسبة لجسر المعجزات نجد ان الدائرة العليا من عقود الجسر السفلي ليست طائرة في الهواء كما هو الحال في العقود السفلى بجامع قرطبة ، اذ أن لها بنيقات مليئة بالبناء تمتد باعلى العقد كما هو الحال في دمشق، وتعلو مفتاحه ايضا ، أما عقود قرطبة فعلى الضد من ذلك عقود حرة منطلقة ، يمكن أن تقوم بمفردها دون ان تندمج مع عقود اخرى كما يمكن ان تتقاطع معها مؤلفة شبكة كالتي تؤلف قواعد قباب زيادة الحكم المستنصر في الجامع نفسه[3]

(1) Torres Balbas, op. cit., P. 363.

(2) Creswell, a short account, P. 227.

(3) Camps y Cazorla, Modulo, proporciones y composicion en la arquitectura califal de Cordoba, Madrid 1953, P. 23.

وهي لهذا السبب عقود أصيلة مبتكرة ، وعلى هذا الاساس لا تصح مقارنة ظاهرة العقود المزدوجة في جامع قرطبة بعقود جسر ماردة ، لاختلاف وظيفة كل من البناءين من جهة ، واختلاف طريقة الاداء من جهة ثانية ، واختلاف الظروف الزمانية التي أقيم فيها كل منهما من جهة ثالثة ، واختلاف النسب بينهما من جهة رابعة ، والمقارنة على هذا النحو فيها تعمد واضح لتجريد مظاهر الاصالة والابتكار من جامع قرطبة ، ونسبة الفكرة الى آثار رومانية لا علاقة لها قط باثرنا الذي نقوم بدراسته . ولا شك ان فكرة العقود المتراكبة في جامع قرطبة ابتداع فريد في تاريخ العمارة[1] ، وقد أقر الاستاذ كرزول باصالة عقود قرطبة وعدم وجود امثلة مماثلة لها قبل ذلك في أي مكان آخر ، ويعبر عن ذلك بقوله : « لقد قيل ان هذا النظام القرطبي استلهمه مهندس الجامع من العقود المزدوجة بالجسور الرومانية مثل الجسر المعروف بلوس ميلاجروس بماردة . ولكن العقود القرطبية هنا ليست مثلها ، ولذلك فاننا يجب ان نعطي مهندس الجامع ما يستحقه من الاصالة لتوفيقه الى هذا الحل البارع الذي لا يوجد له نظير في أي مكان »[2] .

ويتجلى مظهر الاصالة أيضا في تناوب السنجات الحجرية مع السنجات المتخذة من قوالب الآجر بالعقود ، وقد ارجع مؤرخو الفن هذه الظاهرة الى آثار رومانية قديمة من امثلتها البيت المعروف باسم Citarista في بومبي (٧٩ ق‌م) ، وبعض امثلة اخرى من عصر متأخر مثل عقود قصر تريفيرس Tréveris بالمانيا[3] ، وقد انتقلت هذه الطريقة الفنية لبناء عقود بالحجر والآجر الى العمارة البيزنطية والكارولنجية مثل عقود واجهة قصر تكفور سراي بالقسطنطينية وترجع الى القرن الحادي عشر ، كما تتمثل أيضا في بعض الامثلة الاموية مثل بعض عقود الجامع الاموي بدمشق

---

(١) فكري ، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١ ، ص ١٤ .

(٢) Creswell, a short account, P. 228.

(٣) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 365.

وبعض العقود بجامع حماة وبعض القصور الاموية مثل حصن قصير الحلابات حيث تتناوب سنجات رخامية مع أخرى من البازلت[1]. ولكن على الرغم من كثرة امثلة هذا النوع من الزخرفة المعمارية وتعددها ، فانها لم تجتمع في أثر مثل ما اجتمعت في جامع قرطبة ، فقد غمرت العقود وامتدت الى الجدران الخارجية .

ب ـ المسجد الجامع في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل :

اعمال الامير هشام : كان الامير هشام قد أكمل المسجد الذي بناه أبوه عبد الرحمن الداخل ، فأنشأ مئذنة المسجد القديمة التي كانت تقوم لصق السور الشمالي للمسجد من الخارج بجوار الباب الرئيسي الذي كان يتوسط هذه الواجهة الشمالية على مسافة تبعد نحو ٢٣,٩٠ مترا من الجدار الشمالي الحالي للمسجد[2] ، وقد تمكن المهندس الاثري دون فيلث هرناندث من كشف أساس هذه المئذنة ، فوجد أن قاعدتها كانت مربعة ، طول كل جانب منها ستة أمتار . ويذكر المؤرخون أن ارتفاع هذه المئذنة حتى موضع الآذان بلغ أربعين ذراعا ، أي ما يعادل عشرين مترا تقريبا . وكان يتوسط المئذنة من الداخل نواة مربعة الشكل يدور بينها وبين جدرانها الخارجية درج لولبي على نحو ما نراه في برجي سان خوان وسانتياجو بقرطبة وكانا في الاصل مئذنتين لجامعين ، ومئذنة جامع ابن عدبس باشبيلية ، ويعتقد الاستاذ توريس بلباس أن الاصل الاسباني لهذا النوع من المآذن يرجع الى فترة تسبق الفتح الاسلامي ويتمثل في الدرج اللولبي بممودية جايا بغرناطة[3] .

---

(1) Sauvaget, La mosquée omeyyade de Médine, étude sur les origines architecturales de la mosquée et la basilique, Paris 1947, P. 105.

(2) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 44.

(3) Torres Balbas, La primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, Vol. XI, 1946, P. 436.

والامير هشام أيضا هو الذي أكمل سقائف المسجد ، فابتنى في نهاية بيت الصلاة مما يلي الصحن سقائف لصلاة النساء ، كما أقام ميضأة في الجانب الشرقي من صحن المسجد[1] .

أعمال الامير عبد الرحمن الاوسط : ولما تولى الامير عبد الرحمن امارة الاندلس بعد وفاة أبيه الحكم الربضي في سنة ٢٠٦ هـ (٨٢٠ م) رفع من شأن قرطبة ، وجعلها عاصمة تليق بالامارة . وفي عصره كثر الناس بقرطبة ، «وانتابوها من كل أوب وجهة ، حتى تضايق عنهم مسجد جامعها ، وأخل كثير منهم بشهود الجمعة ، وقهرهم سلطانهم الامير عبد الرحمن عليه لأخذه برأي مالك في ألا تفرق بمصر واحد صلاة الجمعة ، وحسبهم على مسجدهم هذا وحده ، فكانوا يلقون من اقتحامه قدحا ، فأمر عند ذلك بتوسيعه والزيادة فيه »[2] ، فعمد الامير الى توسعة المسجد مرتين : ففي المرة الاولى أضاف بلاطين جانبيين في سنة ٢١٨ ، استوسع بهما المسجد[3] ، ثم أوصل هذين البلاطين في سقيفتين يحفان بصحن المسجد من الشرق والغرب ، كل سقيفة منهما تقوم على ١٩ سارية ثم أوصل هاتين السقيفتين أو المجنبتين من أبوابهما القبلية بالسقائف التي كان قد أسسها الامير هشام في جوفي بيت الصلاة ، ثم ربط بين هاتين السقيفتين عند طرفيهما الشماليين بسقيفة شمالية تقوم على ٢٣ سارية[4] . أما الزيادة الثانية فقد تمت في سنة ٢٣٤ ، وفيها مد بلاطات المسجد جنوبا في الفضاء الواقع ما بين القبلة القديمة وباب المدينة القبلي ، وهي الزيادة « المحدودة من عند الارجل الضخام الماثلة اليوم في وسط أبهاء المسجد الى المحراب

---

(١) ابن القوطية ، ص ٤٣ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٢ — المقري ، ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) ابن حيان ، النص الخاص بزيادة عبد الرحمن الاوسط للجامع ، نشرها ليفي بروفنسال في مجلة Arabica ص ٩١ — ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢٤٥ .

(٣) Arabica, P. 89.

(٤) Ibid., PP. 91-92.

الاقدم الذي اتخذت فيه اليوم القبة الكبزى المخرمة »[١] ، وهي القبة التي أقامها الحكم المستنصر عند مدخل زيادته . ويحدد الحسن بن مفرج هذه الزيادة بين الارجل الضخام الصخرية الماثلة في صدره ، الظاهرة لمن دخل اليه فيما بينها الى آخر المسجد في منتهى المحراب »[٢] . وقد بلغ طول هذه الزيادة من الجنوب الى الشمال خمسين ذراعا (ما يعادل ٢٣,٥٠ مترا تقريبا) ، واستخدم فيها ثمانين عمودا[٣] . وقد أشرف على تنفيذ هذه الزيادة أكبر فتيانه الخاصة نصر ومسرور ، كما أشرف عليها قاضي قرطبة وصاحب الصلاة فيها محمد بن زياد . وسايرت زيادة عبد الرحمن أسلوب البناء والزخرفة في مسجد الامير الداخل ولم تشذ عنه الا في الكوابيل التي اقتصرت على بروز محدب يعادل ربع الدائرة . وفتح عبد الرحمن الاوسط في زيادته الاولى بابا في كل من جداري المسجد الشرقي والغربي ، الباب الغربي منهما هو الباب المعروف بباب الوزراء (سان استيبان) ، وفي الزيادة الثانية فتح في جداريها الشرقي والغربي بابين آخرين يعرف الغربي منهما اليوم بباب سان ميجل ، وكان يعرف في العصر الاسلامي بباب الامير ، لأن الامير عبدالله أوصله بساباط يصل ما بين القصر والجامع . أما البابان الشرقيان فقد هدما عند شروع ابن عامر في زيادته .

وجدران المسجد الخارجية من انشاء عبد الرحمن الاوسط ، وتتميز بالركائز الضخمة التي أكسبت الجامع مظهر القلاع[٤] ، ويعلو الجدران من أعلى شرفات مثلثة مسننة ومتدرجة ، تقوم على افريز متبعج يدور بأعلى الجدران كلها . ويعتقد الاستاذ تراس أن المسلمين اقتبسوا شرفات مساجدهم من المعائر الحربية الكلدانية والفارسية القديمة ، وان الشائع

(١) Ibid., P. 92. — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٦ ، ٣٤٣ .
(٢) Arabica, P. 90.
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٦ .
(٤) Gomez Moreno, op. cit., P. 29. ، والترجمة العربية ، ص ٢٩

في هذه العمائر استخدام الآجر ، ولكن هذا الموضوع نقل الى الاندلس مع اختلاف بسيط هو استبدال الحجارة بالآجر[1] ، والظاهر أن بناة الجامع اقتبسوه من جامع القيروان[2] . ويتميز بنيان هذه الجدران بالصفوف التي تتناوب فيها كتل الحجارة الطولية والعرضية .

وفي زيادة عبد الرحمن الاوسط يقول الشاعر ابن المثني :

بنيت لله خير بيت	يخرس عن وصفه الانام
حج اليه بكل أوب	كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه اذا ما	حف به الركن والمقام

وقال آخر :

بنى مسجدا لله لم يك مثله	ولا مثله لله في الارض مسجد
سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد الذي	بناه نبي المسلمين محمد
له عمد حمر وخضر كأنما	تلوح يواقيت بها وزبرجد[3]

وهذه الاعمدة التي أشار اليها الشاعر هي أربعة أعمدة نفيسة في عضادتي المحراب الحالي ، الذي أقامه الحكم المستنصر ، نقلها الى محرابه الذي أنشأه بزيادته[4] ، وهي اثنان اخضران واثنان زرزوريان[5] .

ويمكننا أن نرى هذه الاعمدة الاربعة في الوقت الحاضر في محراب المسجد ، وتعتبر هذه الاعمدة من صناعة اسلامية خالصة شأنها في ذلك شأن الاعمدة الاسلامية وتيجانها الاحدى عشرة التي تزدان بها زيادة

---

(١) Terrasse, L'art hispano Mauresque, P. 61.

(٢) Marçais, Manuel d'art musulman, P. 32 — L'architecture musulmane d'Occident, P. 19.

(٣) المقري ، ج ١ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥٥ .

(٥) ابو حامد الغرناطي ، عجائب المخلوقات ، مخطوط محفوظ باكسفورد Hunt 565 .

عبد الرحمن الاوسط[1] . وتتميز زخارف زوج من تيجان هذه الاعمدة الاربعة بصف أدنى من أوراق الاكنتس التي تنحني من أعلاها ، عددها ثمانية ، تعلوها أربعة ركنية يتوسطها في كل وجه غصنان نباتيان متداخلان على شكل دائرتين متقاطعتين ، ينتهيان من أعلى ورقتي الاكنتس القائمتين بطرفي التاج بلفيفتين . أما الزوج الآخر فيشتمل على ثلاث مناطق متساوية : المنطقتان السفليتان تحتشد في كل منهما ثمان ورقات من الاكنتس تنبت من أعلاها لفيفتان ركنيتان متدابرتان في كل وجه ، ويتفرع منهما في الوسط لفيفتان متقابلتان ، ولكنهما أصغر من لفيفتي الركنين ، ويزدان طنف التاج عند منتصفه بزهرة كبيرة[2] .

وكان مسجد عبد الرحمن الاوسط يشتمل وفقا لما ذكره صاحب كتاب مجموع المفترق على تسعة أبواب تتوزع كما يلي : ثلاثة في صحن المسجد غربا وشرقا وشمالا ، وأربعة في بلاطاته : اثنان شرقيان واثنان غربيان ، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان فتحهما الامير عبد الرحمن الاوسط بعد اضافته الاولى[3] . أما ابن النظام فيجعلها سبعة : أربعة في بيت الصلاة وثلاثة شارعة الى صحن المسجد ، ولم يحتسب ابن النظام البابين الداخلين الى سقائف النساء مع أنه أشار اليهما[4] . وأهم أبواب زيادة عبد الرحمن الاوسط في الجامع بابا السور الغربي الشارعان الى بيت الصلاة ، أولهما باب الوزراء المعروف اليوم بباب سان استيبان ، والباب الذي يليه من جهة القبلة وهو باب الامير ، ويعرف اليوم بباب سان ميجل .

باب الوزراء : ويتميز باب سان استيبان بوقوعه بين ركيزتين ، وتبرز واجهة الباب قليلا عن الجدار ، ويعلو الباب عقد على شكل حدوة الفرس

---

(1) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 49 — Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 397.

(2) Torres Balbas, op. cit., P. 401.

(3) المقري ، ج ٢ ص ٩٥ .

(4) Arabica, P. 91.

مسدود تجاوز نصف الدائرة الى ما يقرب من ١/٤ قطر الدائرة ، وسنجات العقد تمتد الى نصف القطر ، لأن سنجاته السفلى تتألف من ٤ كتل حجرية من كل من جانبيه ، ويقوم العقد على حدارتين مقعرتين من جانبيهما المتقابلين ، وتسنيج الثلث العلوي من العقد يتناوب فيه سبع سنجات حجرية وثماني مجموعات من الآجر كل مجموعة تتألف من ٤ قوالب قائمة • ويحيط بالعقد افريز بارز مستطيل الشكل (أو طرة) يمتد حتى رجلي العقد ثم يدور به من أعلى ، ويفصل العتب عن طبلة العقد شريط أفقي بارز من الكتابة يمتد الى باطن العقد • ويغلب على الظن أن طبلة العقد كانت مكسوة في الاصل بزخارف هندسية على نحو الزخارف التي نشاهدها اليوم في طبلات الابواب الاخرى •

ويحتفظ باب سان استيبان من الداخل بنفس نظامه الخارجي ولكن بدون الافريز الذي يدور بدائرة العقد وبدون الزخارف التي تغطيه من الخارج • أما الافريز المستطيل فيقتصر في الداخل على شريط أملس قليل البروز يعلوه افريز آخر حفرت فيه شرفات مسننة صغيرة تشبه الشرفات التي تعلو جدران المسجد من الخارج • ويعلو الباب من أعلى الطرة المستطيلة الشكل ثلاثة عقود صماء متباعدة ، تجاوزت نصف الدائرة ، تنبت أقواسها من حدائر مقعرة الجوانب ، ويكسو الفراغ الواقع بين كل عقدين زخارف من التوريق قد محيت معالمها ، وان كنا ما زلنا نميز فيها الفروع الملتفة التي تتوسطها أوراق الاكنشس ، وبأعلى واجهة الباب شرفة بارزة أو ظلة تقوم على تسعة كوابيل ذات لفائف يخترق الكابولي من وجهه شريط رأسي يشطر اللفائف الى شطرين •

وعلى جدار كل جانب من جانبي عقد الباب ، وفي الفراغ الممتد بين جانبي طرته والركيزتين اليمنى واليسرى ، زخارف محفورة في الكتل الحجرية التي تتوسط الجدار من كلا الطرفين في نطاق مدرج زخرفي من ثلاثة طوابق ، يحيط به افريز بارز يزدان بأوراق من الاكنشس محفورة فيه، وعلى جانبي هذا المدرج الزخرفي جوفتان مسطحتان تكملان مع المدرج

الزخرفي شكل مستطيل ، ويغمر المدرج الزخرفي وتغطيه مع الجوفتين المذكورتين زخرفة من التوريق ، أوراقها محفورة ومختمة تمتد بين فروع ملتوية ومتداخلة ، ولكن الاحجار التي حفرت عليها الزخارف ، قد تآكلت وبليت بتأثير الرطوبة ، فمحيت أجزاء منها ، ويعلو المستطيل الزخرفي الذي يتشكل من المدرج والجوفة المسطحة في الوقت الحاضر من كلا جانبي الباب نافذة مشبكة من الرخام تحيط بها زخارف نباتية دقيقة ، محصورة في طاقة صماء على شكل عقد متجاوز ، ويمكننا أن نميز في هذه الزخرفة النباتية التي بليت ومحيت رسومها بسبب تآكل أوجه الكتل الحجرية ، أوراق العنب بين فروع منحنية في دوائر ، وورقة الاكنثس كذلك . أما النافذتان المشبكتان فيعتقد الاستاذ توريس بلباس أنهما اتخذتا من بناء روماني[1] ، وان كنت أعتقد أنهما من العصر الاسلامي وبجامع قرطبة أمثلة مشابهة في واجهة الباب الاخير من الجانب الشرقي من جهة القبلة ، كما أن جامع دمشق يضم نوافذ مشابهة كذلك[2] .

ويعتقد الاستاذ توريس بلباس أيضا أن نظام التقسيم الرأسي الثلاثي لبوابة سان استيبان مقتبس من الابنية الرومانية في عصر الامبراطورية وكذلك من الابنية البيزنطية[3] ، ولكن بوابة سان استيبان تختلف في اعتقادي من حيث التصميم والاداء عن الامثلة التي ذكرها الاستاذ توريس بلباس ، وكل ما في الامر أن المهندس قد راعى أن يسود التناسق والانسجام ، والايقاع والتوازن في توزيع الفراغات والكتل ، وقد وفق في عرض توزيع ايقاعي ، وكان من أثر ذلك أن كل عنصر من عناصر هذا الباب سواء ما يتعلق بالبناء أو الزخرفة يشهد بالاصالة والذوق .

---

(1) Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 406.

(2) شاهدت في الكنيسة البيزنطية بدير سانت كاترين بسيناء سنة ١٩٥٩ نافذة مماثلة الرسم والتخطيط للنافذة اليمنى من باب سان استيبان. وقد اتفقت مع الاستاذ فورسايت رئيس البعثة الامريكية وقتئذ على ارجاعها الى العصر الاموي ؛ لأن الكنيسة المذكورة تعرضت في العصر الاسلامي لكثير من اعمال التجديد والترميم .

(3) Torres Balbas, op. cit., P. 411-413.

اعمال امراء بني امية بعد عبد الرحمن الاوسط : توفي الامير عبد الرحمن قبل أن يستكمل تنسيق زيادته بالجامع وبزخرفها ، فأتمها ولده الامير محمد بن عبد الرحمن[1] في سنة ٢٤١ • وقد كان هذا الامير على حد قول معاوية بن هشام « مجبولا على حب البنيان ، مشغوفا بتشييد مبانيه ، مستنبطا لآلاتها ، مختارا لصناعها ، مبالغا في اتقانها ، سناخيا بالانفاق عليها ، مؤثرا لانافة أشخاصها على فسح ساحاتها ، راغبا عما كان يأخذ به آباؤه من الاقتصاد في تنجيدها الى ضد ذلك من التضخيم لها والاعلاء لغررها ، ومعاملتها من التنجيد والزينة والفرش والآلة بما يشاكلها ويضاهيها ، فكل متقن من آنية الملك وسرى من آلته ونفيس من زينته ، فمن اقتناء محمد واستخراج فطنته واستنباط قريحته »[2] • فهو الذي أتقن طرز الجامع ونمق نقوشه[3] ، واستوعب زخارفه وأوثق أبوابه[4] ، وجدد البنية الاولى ونعني بها البناء الاول للجامع الذي أقامه الداخل ، فأصلحها ورممها على النحو الذي فصلنا الحديث عنه من قبل • وفي سنة ٢٥٠ هـ أقام مقصورة بالمسجد ، وهو أول من اتخذها من أمراء بني أمية[5] ، وجعل لها ثلاثة أبواب[6] ، فلما كملت دخل الجامع من باب الصومعة الجوفي « وقد أمر باغلاق أبواب الجامع ، فلم يدخل معه غير فتيانه الاكابر الخصيان ومحمد بن زياد ••• صاحب الصلاة ، فنظر الى البنيان ، ومشى في المسجد مجيلا طرفه فيه ، فسر باتمام ما وقع بموافقته ، وتقدم الى المحراب فصلى فيه ، ثم خرج فرجع الى قصره »[7] • وفي ذلك يقول مؤمن بن سعيد الشاعر في قصيدة له :

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٩٧ •
(٢) ابن حيان ، المقتبس ، القسم الخاص بعصر الامير محمد ، تحقيق الدكتور مكي ، ص ٢٥٦ •
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤٣ •
(٤) Arabica, P. 92. — والنص الخاص بعصره من كتاب المقتبس ، ص ٢١٩ •
(٥) Ibid., P. 92
(٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ •
(٧) ابن حيان، المقتبس، النص الخاص بالامير محمد، ص ٢١٩ — ٢٢١

لعمري لقد أبدى الامام التواضعا فأضبح للدنيا وللدين جامعا
بنى مسجدا لم يبن في الارض مثله وصلى به شكرا لذي العرش راكعا
فطوبى لمن كان الامير محمد له اذ دعا فيه الى الله شافعا[1]

وأغلب الظن أن المقصورة كانت تمتد على مساحة من أرض الجامع فيما يلي المحراب ، بحيث تضم ثلاثة أساطين من بلاط المحراب ، وثلاثا من كل من البلاطين المجاورين له ، على نحو ما بيناه في تخطيطها . أما الامير المنذر فقد قام بترميم ما وهي من زخرفة المسجد[2] ، وهو الذي زاد في الجامع البيت المعروف ببيت المال ، فوضع فيه الاموال الموقفة لغياب المسلمين ، كما أمر بتجديد السقاية واصلاح السقائف[3] . أما بيت المال ، فأعتقد أنه أقامه في ركن من الصحن على مثال بيت المال بمساجد دمشق وحماة وحمص ومنبج ، وكان يسمى بقبة الخزنة[4] . ويبدو أن مال

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٣ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٩٧ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٣ .
(٤) كانت قبة الخزانة بجامع حماة بناء متمنا محمولا على اعمدة . يقع في الزاوية الجنوبية الغربية من الصحن ؛ وكانت تشبه قبة مال جامع دمشق التي ما تزال قائمة حتى اليوم . وكانت كل من القبتين ، على حد قول المستشرق فان برشم . تشتمل على غرفة مرتفعة على شكل مثمن ، تعلوها قبة ؛ وتقوم على ثمانية اعمدة تيجانها كورنثية (Van Berchem, Voyage en Syrie, t. I, M.I.F.A.O.C., le Caire, 1914, P. 174) . وقد وصف ابن بطوطة قبة بيت المال بجامع دمشق فقال : « وفي هذا الصحن ثلاث من القباب ، احداها في غربيه وهي اكبرها ؛ وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين ؛ وهي قائمة على ثمان سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة . مسقفة بالرصاص ، يقال ان مال الجامع كان يختزن بها » (ابن بطوطة ، طبعة دار صادر بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٨٩) . ويستنتج الاستاذ سوفاجيه من هذا الوصف ان بنيان القبة كان يتبع الاسلوب البيزنطي (Sauvaget, Les Monuments Historiques de Damas, Beyrouth, 1932, P. 23) . ويرى الاستاذ فان برشم ان وجود هذه القباب في المساجد الثلاثة يمثل استمرارا للتقاليد السورية . ويعتقد بالتالي ان هذه القباب اقيمت وفقا لبعض التقاليد المحلية القديمة ، ويستند في ذلك على ان المساجد الثلاثة اقيمت على انقاض كنائس ، وقد تكون هذه الكنائس في الاصل معابد وثنية (Voyage en Syrie, P. 175) وبناء مثل هذه القبة في صحن جامع قرطبة يكشف عن تأثيرات سوريه وفدت الى قرطبة .

الاحباس[1] كان يودع في مقصورة الجامع وذلك بعد أن اتخذ الجامع صورته النهائية ، ولعله كان يحفظ في مخزن الجامع .

وأما الأمير عبدالله بن محمد فقد أنشأ الساباط الموصل من القصر الى المسجد الجامع ، وفي ذلك يقول الحسن بـن مفرج : « وكان يلتزم الصلوات الخمس في المسجد الجامع لصق قصره ، يسهل عليه الخروج لها من القصر عند الاذان ، فيدخل من غربي المسجد من أول أبوابه المعروف بباب الوزراء ، فاذا الناس تراؤوه قاموا له صفا على أقدامهم حتى يصير بداخل المقصورة ... فابتنى هذا الازج المعروف بالساباط المائل عقـده فوق الطريق ما بين قصره والمسجد ، ووصله بباب شرعه اليه من قصره الى مقصورة المسجد الجامع ، ظل يخرج منه مستترا عـن الناس متى أراد الصلاة في خاصة مـن خدمه الخصيان وبطانته في خفية ، فيقضي بداخل المقصورة ما شاء من فريضة ونافلة ، لا يراه أحد في مجيئه ولا انصرافه ، ولا يتكلف له مؤونة قيام ولا ارصاد لخروج ، فكان أول من اتخذه من خلفاء بني أمية في الاندلس ، فاتبع سبيله فيه كل من جاء منهم بعده »[2].
ويذكر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، أنه كان يواظب الصلاة في المسجد بمصلاه الى جانب المنبر طول مدته[3] . والساباط المذكور كـان طريقا يعلو الطريق الرحب الشارع الـى باب القنطرة ، ويقوم على حنايا[4] ، ويمتد هذا الساباط من باب فتحه الامير محمد في جدار قصره الى الباب المعروف بباب الامير (Puerta de San Miguel) الشارع الى المقصورة ، وكان ينزل اليه عن طريق درج يتصل بالباب من الشارع . فاذا انقضت

(1) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٩١ .
(2) ابن حيان ، نشر انطونية ملشيور ، ص ٣٦ .
(3) نفس المصدر ، ص ٣٧ .
(4) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

الصلاة ، انصرف من المسجد على طريقه المستور المؤدي الى قصره ، فيرتقي الى السطح الاكبر القائم على باب السدة القبلي[1] . كذلك أقام ستارة تمتد من نهاية الساباط حتى المقصورة .

(٣)

تاريخ جامع قرطبة في عصر الخلافة

ا ـ اعمال الخليفة عبد الرحمن الناصر :

بعد أن أتم الامير عبدالرحمن الاوسط الزيادةالاولىوالثانية في الجامع، أصبح صحن هذا الجامع محاطا في جوانبه الاربعة بمجنبات أو سقائف ، منها سقيفتان شمالية وجنوبية مخصصتان لصلاة النساء ، ومجنبتان شرقية وغربية لربط السقيفة الشمالية من طرفيها الشرقي والغربي ببيت الصلاة . ويعتقد الاستاذ لامبير أن « الصحن القديم للجامع وسع ، في فترة لا نستطيع تحديدها على وجه الدقة ، من ناحية المئذنة أي من الجهة الشمالية، مسافة تبلغ نحو ٢٤ مترا . ولما أصبحت المئذنة القديمة على هذا النحو في وسط الصحن ، الذي زيد اتساعه ، عمد الناصر الى استبدال مئذنة جديدة بالمئذنة القديمة ، فأمر بدوره بانشاء صومعة أعظم من صومعة هشام ، وذلك بحذاء الجدار الشمالي للجامع ، بحيث لا تبرز هذه المرة نحو الخارج »[2] ، ويضيف الاستاذ لامبير قائلا : « ومع ذلك ، فلم نعثر على نص تاريخي يشير الى تلك الزيادة في اتساع صحن الجامع ، وعلى ذلك فاننا نجهل الفترة التي تمت فيها هذه الزيادة فيه ، وبما أننا لا نملك في الوقت الحاضر أي وثيقة تاريخية تحدد لنا زمن هذه الزيادة ، فانه يمكننا

---

(١) ابن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ٢٤ .

(٢) Lambert, l'histoire de la grande mosquée de Cordoue, P. 177.

أن تنسب هذه الزيادة أيضا الى الامير عبد الرحمن الاوسط ، استنادا الى عدد الاعمدة التي تقوم عليها السقيفتان المطلتان على الصحن من الشرق والغرب ، ثم حالت وفاة عبد الرحمن دون اتمام مشروعه ، في اقامة مئذنة جديدة على حافة الجدار الشمالي للجامع المطل على الصحن »[1] . ولكننا لا نقبل هذا الرأي ، لأن الناصر لم يبن صومعة الجامع الجديدة بسبب وقوع المئذنة القديمة في وسط الصحن بعد أن اتسع من الجهة الشمالية ، ومن الصعب جدا الاعتقاد بأن مئذنة تبقى في وسط صحن الجامع مدة تصل الى ستين سنة دون أن يقوم واحد من خلفاء عبد الرحمن الاوسط باقامة مئذنة أخرى في ركن من الصحن أو في وسط المجنبة الشمالية أو في موضع آخر من الجامع بخلاف ذلك الموضع . ولكننا نعتقد أن عبد الرحمن الناصر أقام صومعته الجديدة للاسباب الآتية : ـ

أ ـ نعتقد أن السبب الرئيسي هو تصدع مئذنة هشام ، وتشققها بحيث أصبح وجودها يشكل في حد ذاته خطرا على حياة المؤذنين أو من يصلي في السقيفة الشمالية . ويذكر ابن عذارى « أن الذي دعاه الى بنائها صدع حدث في القديمة فهدمت الى قواعدها »[2] .

ب ـ أصبح صحن الجامع ضيقا بالنسبة لبيت الصلاة الذي اتسع اتساعا كبيرا نحو القبلة بعد زيادة عبد الرحمن الاوسط ، فبلغت سعته ٦٢,١٠ مترا في حين أصبحت سعة الصحن بعد اقامة السقيفة الجوفية ثلاثين مترا ، ولعل ذلك كان من بين الاسباب التي حملت عبد الرحمن الناصر على اختيار موضع يبعد عن المئذنة القديمة بما فيه الكفاية لبناء المئذنة الجديدة ، اذ أصبح من الضروري أن يزيد اتساع الصحن من الجهة الشمالية بما يعادل ٢٤ مترا حتى يصبح اتساعه الكلي ٥٤ مترا ، وهو اتساع يتناسب مع اتساع بيت الصلاة بعد الزيادة فيه ، بحيث أصبحت

---

(١) Ibid.

(٢) ابن عذارى : نشر ليفي بروفنسال وكولان - ص ٢٢٨ .

نسبتهما بعد الزيادة تقارب نسبتهما قبل الزيادة :

٣٨,٠٥ م اتساع بيت الصلاة قبل الزيادة : ٣٦ م اتساع الصحن القديم في زمن الداخل و ٣٠ في عهد الاوسط .

٦٢,١٠ م اتساع بيت الصلاة بعد الزيادة : ٥٤ م اتساع الصحن بعد الزيادة .

ج ـ كان في امكان عبد الرحمن الناصر أن يرمم مئذنة هشام ، ولكن المئذنة لم تعد تليق بعظمة الجامع ، وأصبحت صغيرة بالنسبة لمسجد في اتساع مسجد قرطبة الجامع بعد زيادة عبد الرحمن الاوسط .

د ـ كان الجدار الشمالي للجامع وهو الجدار الذي يستند عليه الجدار القبلي للمئذنة منحرفا بعض الشيء نحو الشمال الشرقي ولم يكن محاذيا لجدار القبلة أو جدار واجهة بيت الصلاة المطل على الصحن ، وكان من الطبيعي أن يهتم عبد الرحمن الناصر باقامة جدار شمالي للجامع يوازي جدار القبلة حتى يتم تناسق المجنبات وتنتظم أشكالها .

هـ ـ أراد الناصر أن يسجل في الجامع زيادة تعبر عن عظمة الخلافة ، ولما كان مشغولا ببناء الزهراء فقد اكتفى بتوسعة الصحن واقامة مجنبات جديدة تدور حوله واقامة صومعة ضخمة تتناسب مع اتساع مساحة الجامع .

و ـ في بداية القرن السادس عشر هدمت مجنبات الصحن وأعيد بناؤها على نفس النظام القديم ، واستخدم في هذه المجنبات الحديثة أعمدة ذات تيجان اسلامية تماثل تيجان الاعمدة بواجهه بيت الصلاة التي أقامها عبد الرحمن الناصر[1] .

---

(1) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 82 . ومن المعروف أن السقائف الحالية التي تدور حول الصحن اقيمت ما بين عامي ١٥١٠ ، ١٥١٦ على يدي الاسقف مرتين فرنانديث .

ونعتقد للاسباب السابقة أن الخليفة عبد الرحمن الناصر هدم الجدار الشمالي للجامع في نفس الوقت الذي هدم فيه مئذنة هشام المتصدعة ، ثم السقيفتين الجانبيتين للصحن من الشرق والغرب مسافة ٢٤ مترا ، ويؤيدنا فيما ذهبنا اليه أن عددا من المؤرخين العرب يشيرون الى أن الناصر زاد في المسجد الزيادة الكبيرة المشهورة[1] .

ويبدو أن الناصر ربط بين طرفي السقيفتين الجانبيتين للصحن بعد مدهما شمالا بسقيفة جوفية بحيث أصبح الصحن محاطا كله بسقائف أشبه بسقائف الاديرة ، على النحو الذي نراه اليوم . بدليل أن ابن خلدون يذكر أنه أمر « بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس »[2] وقد فسرنا كلمة ظلة بسقيفة جوفية على نحو الظلة الشمالية بمسجد الرسول بالمدينة ، وفسرنا عبارة « على صحن الجامع » بمعنى التي تطل على الصحن قبالة بيت الصلاة . ولكن الاستاذ ليفي بروفنسال ذهب في تفسيرها مذهبا آخر على أنها مظلة من النسيج تعلق على الصحن في أوقات القيظ لحماية المصلين الذين لا يجدون لهم مكانا للصلاة في بيت الصلاة من الوقوف تحت الشمس[3] . ولكنني أستبعد أن يكون المقصود بها ما يعنيه الاستاذ ليفي بروفنسال ، لأن الصحن لم يكن مهيئا لتقام فيه الصلاة اذ كان مقسما الى أحواض مغروسة بأشجار البرتقال والليمون ، ثم اننا لم نسمع قط بصحن مسجد في مثل اتساع صحن جامع قرطبة تغطيه مظلة من النسيج في فصل الصيف ، فقد أجمع الرحالة والجغرافيون العرب

---

(١) ذكر ابن الخطيب ان الناصر « زاد في المسجد الاعظم الزيادة الهائلة وبنى المنار الاعظم بقرطبة » (ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٣٨) كذلك ذكر ابن عذارى أن الناصر « زاد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة » (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤١) .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤٤ .

(٣) Lévi-Provençal, histoire des Mus. d'Esp., t. II, P. 140.

الذين وصفوا الجامع على أن صحن جامع قرطبة كان مكشوفا للهواء[1] ، ولو أننا افترضنا أن وجود الظلة المزعومة لا يتعارض مع الحقيقة بـأن للجامع صحن مكشوف للهواء ، فاننا نتساءل عن سبب اقامة ظلة من النسيج بأعلى الصحن ما دام الصحن مغروسا بالاشجار الوارفة الظلال ، وما دامت للجامع سقائف ومجنبات دائرية تحيط به يمكن أن تقي المصلين فيها من تعرضهم لأشعة الشمس . ونضيف الى ذلك كله أن الظلة في العمارة اصطلاح يعني السقيفة المقامة في جانب من جوانب المسجد ، فقد ذكر الطبري أن المسجد الجامع بالكوفة كانت تقوم في مقدمته ظلة طولها مائتي ذراع تقوم على أعمدة من الرخام كانت لملوك الساسانيين[2] ، كما ذكر المؤرخون أن جامع المدينة كانت له ظلتان قائمتان على جذوع ، وتكسوهما عروش النخل والجريد والخصف والاذخر[3] .

وذكر ابن عذارى أن الناصر « زاد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة المتصلة بزيادة ابنه الحكم من بعده ، وفيها القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان وهو من أعجب البنيان »[4] . وقد أثار النص المذكور ارتباكا في تأريخ جامع قرطبة ، فقد ترجم الاستاذ غرسية جومث هذا النص على النحو التالي : « وزاد الناصر في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة الملاصقة للزيادة التي قام بها ابنه الحكم

---

(1) ذكر الادريسي أن « نصفه مسقفا ونصفه صحن الهواء » (وصف جامع قرطبة . ص ٢) وذكر الحميري ان نصف الجامع مسقف « ونصفه صحن بلا سقف » (ص ١٥٢) ؛ وذكر ابن سعيد ان الصحن المكشوف منه ثمانون ذراعا وغير ذلك مقرمد (المقري ، ج ٢ ص ٨٧) .

(2) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الامم والملوك الذي نشره دي غويه بعنوان Annales quos scripsit . ج ٥ . ليدن ، ١٨٩٢ . ص ٢٤٨٩ (وطبعة مصر ١٩٣٩ ، ج ٣ ص ١٤٨) .

(3) السمهودي . وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . القاهرة ١٣٢٦ هـ . ج ١ ص ٢٣٩ ـ أحمد فكري . مساجد القاهرة ومدارسها : المدخل ؛ الاسكندرية ١٩٦١ . ص ١٧٠ .

(4) ابن عذارى . ج ٢ ص ٢٤١ .

المستنصر بعد ذلك بسنوات ، وفي زيادة الناصر يوجد القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان وكان من أعجب البنيان »[1] ؛ كذلك ترجم الاستاذ ليفي بروفنسال كلمة القبو الكبير بكلمة الساباط[2] كما ترجمها أمادور دي لوس ريوس بالمئذنة[3] . ولكنني فهمت النص فهما آخر ، بل انني استندت على هذا النص في اثبات أن الناصر وسع صحن الجامع ، فقد اتضح لي أن ابن عذارى يقصد بعبارته المعنى التالي : « زاد الناصر في جامع قرطبة زيادته المشهورة التي تبعتها في الزمن زيادة ابنه الحكم المستنصر من بعده ، وفيها (أي وفي هذه الزيادة الحكمية) القبو الكبير (أي القبة المخرمة الكبرى) الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان ، وهو من أعجب البنيان » . والمقصود بزيادة الناصر في الجامع بناؤه الصومعة الكبرى بعد فراغه من توسيع الصحن ومد المجنبتين الشرقية والغربية ، واقامة الظلة الشمالية التي أشار اليها ابن خلدون ، بالاضافة الى تعديل بنيان المسجد واقامة واجهة بيت الصلاة التي تصدعت بسبب الدفع الذي كانت تمارسه صفوف العقود . وقد وصل الاستاذ توريس بلباس الى نفس النتيجة التي توصلت اليها قبله[4] ، وهي أن الناصر هو الذي وسع الصحن وأقام المجنبات[5] .

ب ــ زيادة الحكم المستنصر :

كان عدد سكان قرطبة قد ازداد زيادة كبيرة في عصر الناصر حتى ضاقت المدينة بمن وفد اليها من بربر العدوة الذين جرى الامويون على

(1) Emilio Garcia Gomez, Una descripcion desconocida del alminar de la mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. XVII, P. 400.

(2) Lévi-Provençal, op. cit., t. II, P. 140.

(3) Amador de los Rios, Inscripciones arabes de Cordoba, Madrid, 1892, P. 56.

(4) سجلت هذه النتائج في رسالتي الصغرى التي تقدمت بها في سنة ١٩٥٦ مع الرسالة الكبرى للحصول على الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس وكان عنوانها :
Textes Arabes Relatifs à la grande mosquée de Cordoue.

(5) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 476.

اصطناعهم ضد الفاطميين ، ولم يعد بيت الصلاة في جامع قرطبة يتسع لجموع المصلين في أيام الجمع ، مما حمل الحكم على التفكير في الزيادة فيه ، فافتتح خلافته في رمضان سنة ٣٥٠ بالنظر في توسيع بيت الصلاة بالجامع ، وعهد الى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي في اليوم التالي لبيعته بمهمة الاشراف على احضار الاحجار من جبل قرطبة للزيادة المذكورة ، وخرج الخليفة بنفسه لتقدير الزيادة ودراسة تخطيطها وتفصيل بنيانها ، وأحضر لها الاشياخ والمهندسين ، فحدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد الى نهاية الفضاء القبلي[1] ، ولكن ابن عذارى يذكر في حوادث سنة ٣٥٣ أن أهل قرطبة كانوا يتزاحمون بالمسجد الجامع بقرطبة حتى كادت النفوس تتلف ، « فأمر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه ، فأتى القاضي منذر بن سعيد الى المسجد الجامع ومعه صاحب الاحباس والفقهاء والعدول بما اجتمع قبله من أموال الحبوس ، فنظروا في الزيادة فيه »[2] . ولكننا نشك في تاريخ سنة ٣٥٣ الذي سجله ابن عذارى كبداية للنظر في الزيادة في المسجد ، ونعتقد أن الحكم بادر منذ توليه الخلافة بالنظر في تنفيذ هذه الزيادة ، وان البناء ابتدأ في العام التالي ، استنادا على تقرير بخط الخليفة المستنصر بالله نقله ابن بشكوال جاء فيه : « ابتدىء بنيان الجامع صانه الله يوم الاحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٥١ ، وكمل سنة ٣٥٥ »[3] ، وعلى هذا الاساس يكون بنيان الزيادة استغرق مدة تقرب من أربع سنوات ، وهو أمر يبدو معقولا ومنطقيا لما تشتمل عليه هذه الزيادة من روائع فنية لا حصر لها ، وما تتميز به بنية هذه الزيادة من تعقيد في الحلول المعمارية وغلو في الحشد الزخرفي ، أما الفترة ما بين ٤ رمضان سنة ٣٥٠ و ٤ جمادى الآخرة سنة ٣٥١ (أي تسعة شهور) فقد تم خلالها سوق الصخور للبنيان والاستعداد للزيادة بكل الآلات ومواد البناء وحشد المهندسين وعرفاء البنائين والفعلة .

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٢) نفسه ، ص ٣٥٢ .
(٣) نفسه ، ص ٣٥٩ .

وامتدت الزيادة نحو الجنوب ، فمدت صفوف الاقواس القديمة جنوبا مسافة ٩٥ ذراعا (٤٦ مترا تقريبا) وقبل أن يبدأ المهندسون في البناء اعترض العلماء وأهل التعديل على البناء حسب الاتجاه القديم ، اذ أن القبلة القديمة منحرفة الى المغرب ، فاضطر الحكم الى الحضور « لمشاورة العلماء في تحريف القبلة الى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء ، فقال له الفقيه أبو ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، انه قد صلى الى هذه القبلة خيار هذه الامة من اجدادك الائمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم منذ افتتحت الاندلس الى هذا الوقت ، متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم رحمهم الله تعالى ؛ وانما فضل من فضل بالاتباع ، وهلك من هلك بالابتداع . فأخذ الخليفة برأيه ، وقال : نعم ما قلت ! ! وانما مذهبنا الاتباع »[1] .

وتم بناء قبة المحراب في جمادي الآخرة سنة ٣٥٤هـ[1] ، وسجل بناء القاعدة المشبكة لهذه القبة في نقش كتابي يغطي الطرة الكبرى التي تحيط بعقد المحراب ، ونص النقش ما يلي : (... ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمدلله رب العالمين موفق الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين أسنحه الله لهذه البنية المكرمة ومعينه على نيته الخالدة في التوسع لرعيته ... ما اليه واليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فيهم وصلى الله على محمد وسلم ... أمر الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم امير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ واحمد بن نصر وخالد بن هاشم اصحاب شرطته ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب ...)[3] .

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥٤ .
(٣) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, P. 15.

وفي نفس هذه السنة شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد الجامع[١] ، فزين به وجه المحراب ووجه كل من العقدين اللذين يكتنفانه شرقا وغربا ، كما زينت به بطن القبة الوسطى التي تعلو المحراب . ويذكر الادريسي عند وصفه لعقد المحراب وواجهته ان قبلة المسجد مزينة بالفسيفساء المذهب الملون الذي بعثه صاحب القسطنطينية العظمى الى عبد الرحمن الناصر لدين الله[٢] ، ولكن ابن عذارى يؤكد ان الحكم هو الذي كان قد كتب الى ملك الروم في ذلك ، « وأمره بتوجيه صانعها اليه اقتداء بما فعله الوليد بن عبد الملك في بنيان مسجد دمشق . فرجع وفد الحكم بالصانع ومعه من الفسيفساء ثلاث مائة وعشرون قنطارا بعث بها ملك الروم هدية ، فأمر الحكم بانزال الصانع والتوسيع عليه ، ورتب معه جملة من مماليكه لتعلم الصناعة فوضعوا ايديهم معه في الفسيفساء المجلوبة . وصاروا يعملون معه ، فابدعوا وأربوا عليه ، واستمروا بعد ذلك منفردين دون الصانع القادم ، اذ صدر راجعا عند الاستغناء عنه بعد ان اجزل له المستنصر الصلة والكسوة »[٣] . وقد اورد ابن الخطيب نصا يتضمن نفس المعنى ، ولكنه ابدل كلمة الصناع المحكمين بكلمة الصانع[٤] : واعتقد مع ذلك ان ما ذكره الادريسي اولى بالثقة للسببين الآتيين : الاول ان الناصر كان على علاقة بامبراطور الدولة البيزنطية وانه ارسل رسله اليه بهدايا وكتب ، واستحضر هؤلاء الرسل معهم عند عودتهم حوضين من الرخام من القسطنطينية ، ولا شك في انه طلب من الامبراطور ان يبعث اليه بكمية من الفسيفساء وصانع متخصص في فن الفسيفساء ليعلم المسلمين هذه الصناعة . والثاني ان الناصر استخدم الفسيفساء في تزيين قصور الزهراء وتزيين قاعات مجالسها . وليس من المستبعد ، كما نفهم

---

(١) ابن عذارى . ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٢) الادريسي . نزهة المشتاق . ص ٢١٠ ؛ وصف جامع قرطبة ، ص ١٦ ــ الحميري ، ص ١٥٤ .
(٣) ابن عذارى . ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٤) ابن الخطيب . ص ٣٨ .

من نص الادريسي ، ان الناصر كان يزمع الزيادة في بيت الصلاة كما زاد في الصحن ، فكتب الى الامبراطور البيزنطي يفضي اليه برغبتـه في ان يبعث اليه كميات من الفسيفساء لاستخدامها في هذه الزيادة ، ولكـن الناصر توفى على اثر ذلك فتولى ابنه الحكم مهمة النظر في هذه الزيادة منذ اليوم التالي لبيعته كما فعل بالنسبة لاستكمال بناء مدينة الزهراء التي كان ابوه قد استغرق في بنائها خمسا وعشرين عاما .

ويعلو عقد المحراب فوق السنجات نقش كوفي نصه : (بسم اللـه الرحمن الرحيم أمر عبد الله الحكم امـير المؤمنين اصلحه اللـه مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بعمل هذه الفسيفساء في البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة اربع وخمسين وثلاث مائة)[1] .

وفي نفس السنة التي اقام فيها قبة المحراب وزين جدران المحراب بالفسيفساء تم عمل المشرع الى الساباط المتصل بالمقصورة عن طريـق العقد المجاور للمحراب من اليمين ، والمخزن المتصل بالمقصورة عن طريق العقد الذي يلي عقد المحراب من اليسار . وكان هذا المخزن مخصصـا لحفظ اموال الاحباس[2] وادوات المسجد مثل العدد ، والطسوت الذهبية والفضية ، والحسك الخاص بوقيد الشمع في كل ليلة ٢٧ من شهر رمضان والمصحف العثماني ، وكان لهذا المصحف بموضع المصلي كرسي يوضـع عليه[3] . وكان يتولى مخازن الجامع في عصر بني جهور وزير[4] مـا يدل على اهمية هذه المخازن . اما العقد الايمن فكان ينفتح على المشرع الى الساباط ، وقد تم عمل المشرع في سنة ٣٥٤ ، وسجل ذلك على الطرة التي تعلو كل من العقدين المكتنفين للمحراب ، في نقش كتابي نصـه : (بسم الله الرحمن الرحيم . ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا ، ربنـا

---

(1) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, P. 18.

(2) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٩٣ .

(3) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢١٢ .

(4) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٦٠ .

ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا لا تزغ قلوبنا اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب . الملك لله على الهدى وصلى الله على محمد خاتم الانبياء ، امر الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم امير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بعمل هذا المشرع الى مصلاه ، فتم بعون الله ، بنظر محمد بن تمليخ واحمد بن نصر وخالد بن هاشم ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب . الحمد لله)[1] . وفي سنة ٣٥٥ أمر الحكم بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب ونصب في قبلة زيادته مقصورة من الخشب منقوشة الظاهر والباطن ، مشرفة الذروة ، طولها ٧٥ ذراعا وعرضها ٢٢ ذراعا وارتفاعها الى الشرفات ٨ أذرع ، وارتفاع كل شرفة ٣ اشبار (٦٣ سم) ، واحاط بها خمس بلاطات من زيادته ، واطلق اطرافها على الستة الباقية ، وجعل لها ثلاثة ابواب بديعة الصنعة عجيبة النقش[2] . وكان الباب الرئيسي للمقصورة من الذهب ، بينما كانت عضادتاه عودين من الابنوس ، وحشواته من الفضة[3] . أما المنبر القديم فظل يؤدي وظيفته الى أن تم صنع المنبر الجديد في مدة سبع سنوات في قول[4] ، وخمسة في قول آخر[5] وتسعة في قول ثالث[6] وقيل ثمانية[7] ،

---

(1) Lévi-Provençal, op. cit., P. 17.

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥٥ — المقري : ج ٢ ص ٨٨ .

ويختلف ابن غالب مع كل من ابن عذارى والمقري في اطوال المقصورة ، والظاهر ان ابن غالب اخطأ في تقدير الارقام ، فذكر أن طولها من الشمال الى الجنوب ٥٦ ذراعا ، ومن الشرق الى الغرب ٢٤ ذراعا (ابن غالب ، ص ٢٨) ولكن الارقام التي اوردها ابن عذارى والطبري تتفق مع المسافات الواقعة بين الاعمدة .

(٣) ابن غالب ، ص ٢٩ .

(٤) الادريسي ، وصف جامع قرطبة ، ص ٨ — الحميري : ص ١٥٥ — المقري ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٦) المقري ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٧) أبو حامد الغرناطي الاندلسي . كتاب عجائب المخلوقات . مخطوطة محفوظة بمكتبة اكسفورد تحت رقم 565 Hunt .

وتم صنعه في سنة ٣٦٥ هـ، وكان خشبه من الساج والابنوس والبقم وعود القاقلي ، وكان عدد درجاته تسعا[١] ، وعدد حشواته ٣٦ الف حشوة او وصلة سمرت بمسامير الذهب والفضة ، ورصع بعضها بنفيس الاحجار[٢]. وكان اتساعه يصل الى اربعة اشبار ونصف (٩٤ سم) ، وكانت ذراعاه المتدان على جانبيه من اعلى الادراج الى اسفلها من الابنوس ، طول كل ذراع منها ثمانية عشر شبرا[٣] (٣,٧٨ مترا) . وقد وصفه امبروسيو دي موراليس هذا المنبر في سنة ١٦٠٠، وذكر أنه كان قائما في مصلى سان بدرو الواقع امام المحراب ، « وهو عربة ذات اربع عجلات من الخشب منقوشة نقشا بديعا ، ويصعد اليها بسبع درجات . وقد فكت هذه العربة بعد مضي سنوات قليلة ، ولا اعرف لاي غرض وبذلك ضاع هذا الاثر »[٤] . كذلك وصفه الاب مرتين دي روا ، اعتمادا على نص موراليس فقال : « وكان عربة من الخشب ذات اربع عجلات منقوشة نقشا رائعا ، وكان يصعد اليه بسبع درجات، ولكن لم يبق منه سوى الصندوق العاري، اذ ضاع باقيه بسبب الاهمال »[٥] . ومن هذا الوصف يتضح لنا ان المنبر المذكور كان يتحرك على عجل ، وكان يوضع بعد صلوات الجمعة في غرفة تقع وراء المحراب ، وقد اهتدى المهندس فيلث هرناندث الى الموضع الذي كان يحفظ فيه ، وكان مجرد فتحة في جدار المحراب اكتشفها في يناير سنة ١٩٣٤ اثناء قيامه بترميم العناصر الزخرفية بواجهة جدار القبلة في القطاع الغربي المؤدي الى المحراب . وتقع هذه الفتحة بالضبط في جدار القبلة لصق الجزء الغربي من الدعامة التي ترتكز عليها البائكة الوسطى الواقعة بين البلاط الاوسط والبلاط التالي له من جهة الغرب ، أي فيما يلي المحراب

---

(١) ابن غالب ، ص ٢٩ ــ المقري ، ج ٢ ص ٨٨ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٨٦ .
(٣) ابن غالب ، ص ٢٩ .
(٤) Felix Hernandez, el al-minbar movil del siglo x de la mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. XXIV, 1959, PP. 381-399.
(٥) Ibid.

مباشرة على يمينه ، او في المنطقة الممتدة ما بين المحراب وباب المشرع الى الساباط . وكان المنبر يدخل في بيت المنبر[1] عن طريق هذه الفتحة . ويبلغ اتساع الفتحة من الوجه الامامي لجدار القبلة ٠,٩٧ مترا ، ومن الوجه الخلفي ١,٠٢ مترا ، أما ارتفاعها فيبلغ ٣,٨٠ مترا من الوجه الامامي لجدار المحراب ، وهو ارتفاع يقل ٦ سم عن فتحة منبر جامع الكتبية بمراكش وكانت للفتحة مصراعان من الخشب وظيفتهما غلق بيت المنبر وكانت تربطهما بالجدار مفصلات من الحديد مثبتة بمسامير رؤوسها مضلعة ، تبقت منها آثار في العتب كما تبقت في السطوح الرأسية للمنطقة الوسطى من الفتحة آثار مزلاج . ودلت ابحاث الاستاذ فيلث هرنانديث على أن سمك هذين المصراعين كان يصل الى ٦ سنتمترات ؛ وان طول المنبر كان يصل وفقا لهذه الفتحة الى خمسة أمتار وعرضه ٠,٩٥ مترا وارتفاعه ٣,٨٠ متر[2] . ويتفق عرض المنبر هنا مع ما ذكره ابن غالب الاندلسي اذ حدد لذلك اربعة اشبار ونصف[3] على اساس ان طول الشبر ٢١ سم . وقد انتقل نظام المنابر المتحركة من جامع قرطبة الى مساجد المغرب والاندلس ؛ ويحتفظ جامع المرية[4] ، ومسجد القناطر[5] في بورتو دي سنتامرية بفتحة مماثلة لفتحة منبر قرطبة ، كذلك تحتفظ كل من جوامع تلمسان والقرويين بفاس من عصر المرابطين ، وتسال والكتبية بمراكش وحسان بالرباط من عصر الموحدين بفتحات مماثلة[6] . ويذكر ابن صاحب الصلاة انه الى يمين المحراب

---

(١) هكذا ورد اسم بيت المنبر في نفح الطيب نقلا عن صاحب كتاب مجموع المفترق (المقري - ج ٢ ص ٨٦) .

(٢) Felix Hernandez, op. cit., P. 383.

(٣) ابن غالب - ص ٢٩ .

(٤) Torres Balbas, La mezquita mayor de Almeria, al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, PP. 412-425.

(٥) Torres Balbas, La mezquita de al-Qanatir y el santuario de Alfonso el Sabio, en el Puerto de Santa Maria, al-Andalus, Vol. VII, 1942, PP. 417-437.

(٦) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, P. 129,132.

بجامع اشبيلية الذي اقامه الموحدون «اقباء في حائط الجامع معقود بالبناء لكون المنبر فيه عند اخراجه للخطبة وادخاله فيه»[1]. وما زالت آثار المجرى الحديدي لعجلات المنبر القرطبي موجودة في موقعها من المقصورة حتى يومنا هذا . وفي عام ٣٥٦ ، هدم الحكم المستنصر الميضأة القديمة التي كان قد اسسها هشام بن عبد الرحمن الداخل في فناء الجامع ، وبنى بدلا منها اربع ميضآت على جانبي الصحن من جهتيه الشرقية والغربية ، واجرى اليها المياه من عين ماء بجبل قرطبة في قناة حجرية متقنة البناء ، اودع جوفها انابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس ، وصبت ماءها في احواض من الرخام.ثم اجرى ما يزيد على حاجة المسجد الى سقايات اتخذها على ابواب الجامع بجهاته الثلاث : الشرقية والغربية والشمالية . ويصف الشاعر محمد بن شخيص هذه القنوات فيقول :

وقد خرقت بطون الارض عن نطف من أعذب الماء نحو البيت يجريها
طهر الجسوم اذا زالت طهارتها ري القلوب اذا حرت صواديها
قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا في أمة أنت راعيها وحاميها[2]

واختتم الحكم اعمال البناء ببناء دار للصدقة غربي الجامع ، لتكون معهدا لتوزيع صدقاته ، كما اقام في ساحة الجامع مكاتب لتعليم اولاد الضعفاء والمساكين ، وفي ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتبا لليتامى من نواحيها[3]

ج ـ زيادة المنصور بن ابي عامر :

حارب الحكم المستنصر بني محمد الحسنيين الثائرين في ارض العدوة ولكنه لاقى كثيرا من العناء في قهرهم ، فقد قاوموا عساكره ، وقتلوا ابن

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، مدونة نشرها الاب ملشور بعنوان : «Sevilla y Sus monumentos arabes» الاسكوريال ، ١٩٣٠ ، ص ١٣٦ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥٨ .
(٣) نفسه ، ص ٣٥٩ .

طنلس قائد جيوشه في طائفة من قواده واجناده ، مما اضطر الخليفة الى حشد معظم قواته اليهم ، « وربط اكابر قواده بثغرهم ، وغطى البحر بينه وبينهم بأساطيل الاموال والاسلحة والعدد والاطعمة ، حتى قهرهم واستنزلهم من صياصيهم ، وغلبهم على ديارهم واسكنهم الاندلس » [1] ومنذ ذلك الحين ضمهم الى جيشه كما فعل قبل ذلك عندما ضم عبيد جعفر ويحيى ابني الاندلسي ، وبنى برزال اليه . وهكذا نشطت حركة وفود البربر الى الاندلس ، واستكثر منهم الحكم في جيشه حتى اصبحوا يؤلفون عسكرا ضخما ، قاربوا السبعمائة فارس من البربر[2] . كذلك استقدم منهم المنصور بن ابي عامر اعدادا هائلة حتى ضاقت بهم مدينة قرطبة ، ويعبر ابن عذارى عن اكتظاظهم بهـا بقوله : « فلما زاد الناس بقرطبة ، وانجلب اليها قبائل البربر من العدوة وافريقية ، وتناهى حالها في الجلالة ، ضاقت الارباض وغيرها »[3] .

وكان من الطبيعي ان يضيق مسطح بيت الصلاة بعد الزيادة الحكمية الكبرى عن ضم جميع المصلين، الامر الذي دعا المنصور محمد بن ابي عامر الى التفكير جديا في توسيع بيت الصلاة . وقد شرع المنصور بالفعل في زيادة الجامع في سنة ٣٧٧ هـ من الجهة الشرقية لتعذر الزيادة فيه من الجهة الغربية بسبب قيام القصر الخلافي ، المقابل للجامع ، وتعذرها من الجهة القبلية لقرب جدار القبلة من الوادي ، بالاضافة الى ان الزيادة من هذه الجهة ستؤدي حتما الى هدم المحراب العظيم الذي اقامه الحكم بقبابه الثلاثة . اما الجهة الشرقية فقد كانت عامرة بالدور والمستغلات ، وكان في مقدور المنصور أن ينتزع ملكية هذه الدور من اصحابها ويعوضهم عنها

---

(1) Garcia Gomez, al-Hakam II y los Berberes, al-Andalus, Vol. XIII, 1948, P. 215.

(2) Ibid., P. 217.

(3) ابن عذارى . ج ٢ ص ٤٢٨ .

بانصافهم[1] ، فكان اول ما فعله ابن أبي عامر تطييب نفوس ارباب الدور الذين اشتريت منهم لتهدم وتقوم على ارضهما الزيادة الجديدة[2] . واستغرقت زيادة المنصور عامين ونصف عام ، وكان المنصور يعمل فيها بنفسه ، كما استخدم الاسرى المسيحيين في البناء[3] ، وجعل من نواقيس النصارى التي غنمها من غزوته بشنت ياقب سنة ٣٨٧ ثريات في زيادته[4] ، كذلك استخدم ابواب كنيسة شنت ياقب في هذه الزيادة[5] . وقد اضطر بناة المنصور الى فتح ثغرات ضخمة في الجدار الشرقي القديم الجامع في زمن عبد الرحمن الاوسط لوصل زيادته ببيت الصلاة الاقدم ، كما اضطروا الى هدم احدى الميضآت الحكمية الاربعة ، وكانت تقع لصق هذا الجدار ، ثم اضافوا الى البلاطات الاحدى عشرة القديمة ثمان بلاطات جديدة امتدت بطول بيت الصلاة من الصحن حتى جدار القبلة ، فاصبح بيت الصلاة يضم بعد زيادة المنصور ١٩ بلاطا . وكان من الطبيعي ان يهدم بناة المنصور الجدار الشرقي القديم الذي يحصر الحد الشرقي للصحن ليزيد في اتساعه ويقيم جدارا شرقيا جديدا للجامع كله أوصله بالقسم الزائد من جهة القبلة ، ويفتح في هذا الجدار الشرقي الجديد ابوابا اخرى مماثلة للجدار الغربي ، عددها سبعة . وتبقت في الدعائم المتخلفة من السور الشرقي القديم ببيت الصلاة بقايا ابواب من زيادة الحكم .

وراعى المنصور في زيادته ان يسودها نوع من الانسجام والتناسق

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٢٩ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٨٦ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٨٤ .
(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٦٠ .
(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨١ . ونلاحظ ان المنصور استخدم في بناء زيادته تراب ما هدمه من كنائس النصارى (المقري ، ج ٤ ص ٢٠٣) تسجيلا لانتصاراته الحربية . ويذكر ابن غالب انه وجد في أدنى منبر جامع قرطبة بعد ان خرب في الفتنة الثانية سنة ٤٠٠ مقدار ما تحمله دابتان من رمل ابيض مثل سحالة الفضة قيل ان المنصور بن ابي عامر جلبه من جليقية (ابن غالب ، ص ٣٠) .

مع بناء المسجد كله ، فواصل في زيادته أقامة صفوف من الدعائم الضخمة امتدادا لصفوف الدعائم المتخلفة في بيت الصلاة القديم من جدار القبلة بمسجد عبد الرحمن الداخل ونظائرها بمسجد عبد الرحمن الاوسط .
كذلك راعى المنصور في زيادته المبالغة في الاتقان والوثاقة دون الزخرفة ، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم[1] . وأقام في الصحن جبا كبيرا[2] ، تعويضا عن الميضآت التي تهدمت نتيجة لهـذه الزيادة ، وهو جب مربع الشكل طول الجانب منـه ١٤,٥٠ مترا تتوسطه أربعة دعائم مصلبة الشكل مـن الحجارة ، تحمل عقودا نصف دائرية ، بحيث تقسم الجب الى تسعة أساطين .

وعلى الرغم مـن أن المنصور قلـد في زيادته عقـود زيادة الحكم المستنصر ، الا أن عقوده تختلف عنها في أن سنجاتها كلها مـن الحجارة طلي بعضها باللون الاحمر حتى يوهم الناظر أنها تتناوب مع سنجات من الآجر الاحمر ، ويحافظ بذلك على الايقاع اللوني ، كذلك قلـد زيادة الحكم في استخدام الكوابيل المزدوجة التـي تتكون مـن ست لفائف زخرفية .

(٤)

تاريخ الجامع بعد سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين

ظل جامع قرطبة يحتفظ بصورته الكاملة التي سجلتها زيادة المنصور حتى نهاية عصر الخلافة ، فلما قامت الفتنة التي أطاحت بالخلافة الاموية ، وتعرضت قرطبة لانتقام البربر ، انتهب بيت مال المسجد الذي كان قائما في الصحن ، كمـا اقتلعت الابواب الذهبية بمقصورة المسجد في سنـة

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٢٨ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٢٩ .

٤٠٠ هـ[١] ، فاضطر بنو جهور الى نقل الاموال الى مخزن الجامع . كذلك تعرض الجامع من جديد لأعمال النهب ابان الفتنة الثانية التي حدثت في سنة ٥٤٠ عندما نهبت أوصال المنبر وثريات الجامع الفضية ، كما جردت الصومعة من تفافيحها الذهبية والفضية[٢] .

وفي عصر الموحدين كان الجامع ما يزال يحتفظ بسكاكته ؛ فقد ذكر ابن مرزوق في المسند أن عددا من أوصاله وصل الى المغرب ، وكانت تقارن بأوصال منبر جامع تلمسان[٣] . وكان الجامع في عصر الموحدين مركزا للاحتفالات الدينية لا سيما الاحتفال بليلة القدر ، وكان المبلسون يقصدونه في تلك الليلة الكريمة ، لشهود الاحتفال الديني بهذه المناسبة من كل عام[٤] . وفي هذا العصر أيضا أمر أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بغرس صحنه بأنواع الاشجار[٥] .

ثم تحول الجامع الاعظم الى كنيسة بعد استيلاء القشتاليين على قرطبة في سنة ١٢٣٦ ، على يدي الاسقف دي أوسما باسم كنيسة سانتا ماريا العظمى[٦] ، واتخذ فيه الملك فرناندو الثالث المصلى المعروف بسان كليمنتي في الجزء الجنوبي من زيادة المنصور لصق جدار المحراب[٧] . وفي سنة ١٢٥٨ حول الاسقف دون فرناندو دي لاميسا في عهد الملك الفونسو العاشر العالم القبة المخرمة الكبرى التي تقوم على مدخل البلاط الاوسط

---

(١) ابن غالب ، ص ٣٠ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) Felix Hernandez, el al-minbar movil, P. 393.
(٤) المقري ، ج ٢ ص ٩٠ .
(٥) ابن غالب ، ص ٢٩ .
(٦) Torres Balbas, Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba cristianizada, al-Andalus, Vol. XIV, 1949, P. 455 — Castejon, Guia de Cordoba, P. 62 — Torres Balbas, la mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, Madrid, 1952, PP. 100-106.
(٧) Torres Balbas, la Mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 100.

من زيادة الحكم المستنصر الى مصلى كبير[1] ، وغطيت الاقواس البارزة المتقاطعة في القبة المذكورة بطبقة من الجص رسم عليها الفنان ألونسو مرتينث صورا في سنة ١٢٨٦ أزيلت اليوم .

وفي سنة ١٣٧١ أقام الملك انريكي الثاني دي ترنستمارا ملك قشتالة المصلى الملكي المعروف بمصلى سان فرناندو في الاسطوانة الواقعة شرقي القبة الكبرى المخرمة ، وكان الملك فرناندو الرابع المتوفي في جيان سنة ١٣١٢ قد دفن في هذا المصلى ، كما دفن فيه انريكي الثاني أيضا ابنه الامير الفونسو الحادي عشر الذي لقي مصرعه في حصار جبل طارق في سنة ١٣٥٠ . وكسيت جدران هذا المصلى بزخارف مدجنة محفورة في الجص تشبه زخارف قصور الحمراء وقاعات قصر اشبيلية ، وأقيمت بأعلى المصلى قبوة رائعة من الضلوع المتقاطعة التي تغطيها المقرنصات الزخرفية الدقيقة ، ويعتقد الاستاذ توريس بلباس أنها من نفس نوع قبوات المسجد الجامع الموحدي باشبيلية[2] . والى انريكي الثاني تنسب الزخارف المدجنة التي تزين الباب الرئيسي للجامع من الجهة الشمالية ويعرف بباب الغفران .

وفي سنة ١٣٨٤ أقيم مصلى سان أوجستين ، وتحول الاسطوان المقابل للمحراب الى مصلى . ومع ذلك فكل ما طرأ على الجامع حتى ذلك التاريخ لم يكن يزيد على اضافات طفيفة لم تمس جوهر البناء ، ولم تغير في نظامه أو تشوه من عمارته . ولكن منذ أواخر القرن الخامس عشر بدأت بعض التغييرات الاساسية تغير بنية قسم كبير من الجامع ، ففي سنة ١٤٨٩ أمر الاسقف انيجو مانريكي بهدم عقود وأعمدة البلاطات الخمسة الممتدة طولا من مصلى سان فرناندو المعروف بمصلى فيلافثيوسا حتى الجدار الغربي للجامع بعرض ثلاثة أساكيب ، وأسس مكانها جدارين

---

(1) Amador de los Rios, Inscripciones arabes de Cordoba, PP. 104-105 — Castejon, Guia de Cordoba, P. 39.

(2) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, P. 268.

عرضيين بغرض تكوين مجاز يغطيه سقف خشبي على شكل هرمي يقوم على عقود منكسرة ذات انبعاجات قوطية وفقا للاسلوب الشائع في هــذا العصر[1] . وزين باب سان بدرو بزخرفة قوطية ، وأعيد بناء السقائف المحيطة بالصحن ، ففقدت صورتها الخلافية القديمة[2] ، ولكن استخدمت فيها نفس الاعمدة والتيجان الاسلامية القديمة ، وهي تماثل تيجان واجهة بيت الصلاة المطلة علــى الصحن . وفي سنة ١٥٢٣ شرع الاسقف دون ألونسو مانريكي في هدم جزء من زيادتي عبد الرحمن الاوسط والمنصور ، وذلك لاقامة كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع . ولكـــن المجلس البلدي بقرطبة وأهالي المدينة اعترضوا على تنفيذ بنــاء هذه الكاتدرائية الذي يقضي على وحدة أثر من أروع آثار العالم ، وذكر المجلس البلدي في جملة ما ذكره من أسباب معارضته لهذا المشروع أن المعبد المذكور كما هو ببنيته « فريد في العالم ، وأن البناء المزمع هدمه من نوع لا يمكن قط بناء أثر يضاهيه في عظمته ودقته الاصليتين »[3] ، وهدد المجلس بمحاكمة من يتجرأ على هدم البناء ما دام الملك لم يقرر ذلك . ولكن شارلكان لم ينتصر لموقف المجلس البلدي ، وأمر بتنفيذ المشروع دون أن يشاهــد الروائع الفنية التي يشتمل عليها . وعلى هذا النحو بدأت الاعمال في ٧ سبتمبر سنة ١٥٢٣ ، ولكن شارلكان عندما مــر بقرطبة في العام التالي بمناسبة زواجه في إشبيلية من دونيا ايزابيلا ملكة البرتغال شاهد جامع قرطبة للمرة الاولى ورأى أعمال الهدم في داخله ، فأعرب عن أسفه الى الاسقف فراي خوان أسقف طليطلة ، والى هيئة قرطبة الكنسية ، وعبر عن ألمه لتشوه الجامع بكلمات أصبحت مشهورة جاء فيها : « لو كنت أعلم ما هو عليه هذا الاثر من روعة لما كنت قد سمحت بأن يهدم ، لأنكم تبنون

---

(1) Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y madinat al-Zahra, P. 105 — Castejon, Guia de Cordoba, P. 39.

(2) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 82.

(3) Torres Balbas, op. cit., P. 106 — Castejon, Guia de Cordoba, P. 40.

ما هو في كل مكان ، وهدمتم بناء فريداً في العالم » . وقد أشرف على بناء الكاتدرائية التي قضت علــى الوحدة المعمارية للمسجد ، وقطعت امتداد عقوده وأعمدته المهندس هرنان رويث المتوفي سنة ١٥٤٧ ثم ابنه هرنان رويث المتوفي سنة ١٥٩٣ . ولم يتم بنــاء هذه الكاتدرائية الا في سنة ١٥٩٩ . وفي هذه الاثناء أقيم عدد مــن المصليات الكنسية بلصق جدران الجامع . وفي سنة ١٥٨٣ تصدعت المئذنة بسبب زلزال ، فعهــد المجلس البلدي بقرطبة الى المهندس هرنان رويث الابن بترميمها ولكن اصلاحها لم يتم الا في سنة ١٦٦٤ . ثم أقيم في سنة ١٦٨٢ مصلى جديد أقامــه الأسقف فراي الونسو دي مدينة ويعرف هــذا المصلى بمصلى لاكتشيون ، وزينــه الاسقف المذكور بتماثيل رائعة قــام بعملها المثال الغرناطي بدرو دي مينا . وفي سنة ١٧٠٥ أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تيريسا أو مصلى الكاردينال سالازار . وفي القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشبية بعد أن تآكلت بفعل الزمن ، وأقيمت عوضا عنها قبوات جصية في جميع بلاطات الجامع . ثم بدأت سلسلة من الاصلاحات لترميم ما تعرض من العناصر المعمارية في الجامع للتلف : وكانت السنيورة الكونتيسة دي الكانديتي قد قامت في ١٦٧٤ باصلاح مصلى المحراب المسمى بمصلى سان بدرو ، ولكن هذا الاصلاح كان موقوتا فقد تعرض هذا المصلى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر للتصدع وأوشك على الانهيار ، فأصلحه المهنــدس الفرنسي بلتاسار ديدريتون والبناء المشهور فرنشسكو أجيلار[1] . وفي سنة ١٨١٦ تم اصلاح هذا المصلى للمرة الثالثة بأمر الاسقف دون بدرو أنطونيو دي ترافيا ، وأزيلت اللوحة التي كانت تغطي مدخل المحراب مما دعا الى ترميم عقد المحراب لانقاذه من الهدم

(1) Enrique Romero de Torres, Aportaciones para la historia de la Catedral de Cordoba, en el «Diario de Cordoba», 9 Nov. 1935.

المحتوم[1] . وبعد ذلك بسنوات أزال الاسقف ثيفيرينو جنثالث Ceferino Gonzalez لوحات مصلى فيلافثيوسا وشرع في اصلاحه[2] .

وأخيرا أعلن المسجد الجامع بقرطبة أثرا قوميا في سنة ١٨٨٢ ، فقام دون ريكاردو فلاسكث بوسكو مدير مدرسة العمارة بمدريد بالاشراف عليه ، وأصلح مصلى فيلافثيوسا كما أصلح سقف الجامع الخشبية وأرضيته القديمة[3] . وواصل المهندس بوسكو أعمال الترميم ، فأعاد وضع الاسقف الخشبية في البلاط الاوسط بجامع قرطبة ، كما أصلح الابواب الخارجية في زيادة المنصور ، وتم الفراغ من جميع أعمال الترميم في سنة ١٩١٤ .

ويصف الوزير الغساني المسجد الجامع بقرطبة بعد تحوله الى كنيسة ، ويشير الى المحراب الذي أخفي وراء لوحة مشبكة من النحاس فيقول : « ومحرابه الاسلامي باق على حاله لم يتغير ولم يحدث فيه شيء

---

(1) Aguilar Priego; Datos inéditos sobre la restauracion del mihrab de la mezquita de Cordoba, en Boletin de la Real Academia de Cordoba, No 53, Abril-Junio, 1945, PP. 142-143. Torres Balbas, la mezquita de Cordoba cristianizada, al-Andalus 1949, P. 455.

(2) Castejon, op. cit., PP. 41-42.

(3) تمكن الاستاذ كاستخون بفضل المستندات والحفريات التي اجراها دون فيلث هرناندث من ان يستنتج أن ارضية جامع قرطبة كانت من اللاط المغطى بطبقة من الجير سمكها ٥ سم لتقويته . ولكن حفريات دون ريكاردو فلاسكث بوسكو أثبتت ان الاساطين الثلاثة التي تواجه المحراب على الاقل كانت تكسو أرضيتها لوحات الرخام كالشأن في ارضية المحراب نفسه . ونعتقد ان هذه اللوحات الرخامية كانت تغطي أرضية المقصورة ، بينما كانت ارضية المسجد مغطاة باللاط ثم غطيت في عصر اسلامي متأخر على زيادة الحكم بطبقة من الجير ، وذلك حتى يتخذ لون أرضية الجامع كلها . وبعد أن استولى القشتاليون على قرطبة اخذوا يزيلون الارضية الرخامية ويضعون مكانها أرضية من الطوب أو التربيعات .
Castejon, el pavimento de la mezquita de Cordoba, Boletin de la Real Academia de Cordoba, No 54, 1945, PP. 327-330,
Castejon, Mas sobre el pavimento de la mezquita de Cordoba, Boletin, No 56.

الا أنهم جعلوا عليه شباكا من نحاس ، وطرحوا أمامه صليبا ، فلم يدخل عليه أحد الا قيم ذلك الصليب ، ولم يزد بداخله ولا بحائطه شيء قليل ولا كثير »[1] . كذلك يصف لنا الوزير الغزال المسجد الجامع بقرطبة في أيامه وصفا أكثر دقة ، فيشير الى المصليات القائمة على جدران الجامع من الداخل ، ويصف قبة المحراب ، ويصف اللوحات المصورة على جدران الجامع[2] .

---

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني ، رحلة الوزير في افتكاك الاسير ، ص ١٨ .

(2) ابو العباس المهدي ، نتيجة الاجتهاد ، العرائش ١٩٤١ .

الفصل الثامن

جامع قرطبة (الدراسة الفنية)

١ ــ تخطيط المسجد الجامع بقرطبة بعد زيادتي المستنصر والمنصور

٢ ــ الدعائم الداخلية : الاعمدة والارجل ــ العقود

٣ ــ الكتل : الركائز ــ المئذنة .

٤ ــ اسقف الجامع وقبابه : الاسقف الخشبية ــ القبوات والقباب

٥ ــ الابواب والنوافذ

٦ ــ واجهة المحراب

الفصل الثامن

جامع قرطبة (الدراسة الفنية)

(١)

تخطيط المسجد الجامع بقرطبة بعد زيادتي المستنصر والمنصور

اتبع الامير عبد الرحمن الداخل في بنائه لجامع قرطبة في سنة ١٦٨ هـ النظام التخطيطي للجامع الاقصى الذي أعاد الخليفة الوليد بن عبد الملك ابن مروان بناءه في سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) ، وكان يتألف من عشر بلاطات تتجه عقودها عموديا على جدار القبلة[١] ، ويعتقد الاستاذ لامبير أنه كان يتألف من ١٥ بلاطا الاوسط منهـا أكثر اتساعا وربما في الارتفاع مـن البلاطات الاخرى[٢] ، والظاهر أن الرقم الذي أورده الاستاذ لامبير هو العدد الفعلي لبلاطات الجامع في عهد الخليفة المهدي العباسي كما وصفه المقدسي[٣] . وأيا ما كان عدد البلاطات فان هذا النظام القائم على بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة انتشر منذ نشأة الجامع الاقصى، وأصبح الطابع المميز لمساجد المغرب والاندلس . وقد طبقه مهندسو عبد الرحمن الداخل في مسجده كما احترمه مهندسو عبد الرحمن الاوسط والحكم المستنصر ثم المنصور . غير أن زيادة الحكم المستنصر تتميز دون غيرها من الزيادات التي استوسع بها الجامع باشتمالها على أربعة قباب توزعت على البلاط الاوسط من الزيادة الحكمية والاسكوب الموازي لجدار القبلة ، ونظمت على النحو التالي : قبة على مدخل الزيادة وتعرف بالقبة المخرمة الكبرى ، وقبة بأعلى الاسطوان الذي يتقدم المحراب مباشرة وهي القبة المعروفـة

---

(١) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، ص ٢١٣ .

(٢) Lambert, les mosquées de type andalou, P. 277.

(٣) المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن ١٩٠٦، ص ١٥٦

بقبة المحراب ، ثم قبتان تكتنفانها بأعلى الاسطوانين المجاورين شرقا وغربا .
وبذلك نجح مهندسو زيادة الحكم في احداث تأثير جمالي من التناسق والانسجام في بلاط المحراب ، مقلدين في ذلك نظام قبتي المحراب والبهو بجامعي القيروان والزيتونة بتونس ، وقد يكون من بين مهندسي الحكم من كان تونسيا ، فقد ذكر ابن عذارى أنه « تداعى الى هذه البنيه (زيادة الحكم) كل صانع حاذق من أقطار الارض »[١] ، فجامع القيروان أصبح منذ عهد ابراهيم بن أحمد بن الاغلب (٢٦١ — ٢٨٩ هـ) يتميز بوجود بلاطة واسعة تتوسط البلاطات الاخرى ، وتتجه عمودية على صف العقود المقابل للمحراب[٢] ، وبقبتين تعلوان هذا البلاط عند مدخله ومؤخرته : الاولى تطل على البهو وتعرف لذلك بقبة البهو ، والثانية بأعلى الاسطوان المواجه للمحراب ، وعند تقاطع البلاط الاوسط مع أسكوب المحراب وتعرف بقبة المحراب[٣] . كذلك كان لجامع الزيتونة بتونس قبتان : احداهما أمام المحراب فوق تقاطع بلاطة المحراب وأسكوبه ، والثانية على مدخل البلاط الاوسط من جهة البهو ، وقد أقيمت قبة المحراب في سنة ٢٥٠ على نفس نظام قبة المحراب بجامع القيروان التي بناها زيادة الله سنة ٢٢١ ، أما قبة البهو فأقيمت في سنة ٣٨١ هـ[٤] . ولا شك أن بناة زيادة الحكم المستنصر في جامع قرطبة طبقوا

---

(١) ابن عذاري . ج ٢ ص ٣٥٤ .
(٢) هدم زيادة الله صف العقود الفاصلة بين البلاطين التاسع والعاشر في سنة ٢٢١ هـ وحولهما الي بلاط واحد يزيد اتساعه على البلاطات الاخرى المجاورة له : ويتعامد مع اسكوب المحراب المحاذي لجدار القبلة ، واقام زيادة الله قبة المحراب العظيمة ، ثم اقيمت القبة الثانيةالمعروفة بقبة البهو في عهد ابراهيم بن احمد (فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ١٩٣٦ : ص ١٩ السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٢٤) .
(٣) احمد فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٤ — المدخل لمساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٠٩ .
(٤) Ahmad Fikry, La mosquée az-Zayloûna à Tunis, dans : Egyptian Society of historical studies, Vol. II, Cairo, 1952, PP. 27-64. — فكري ، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٦ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٤٣٩ .

هذا النظام المعماري الفريد في الزيادة المذكورة ، وأقاموا بلاطا للمحراب يتوسط بلاطات الزيادة الحكمية وما يشبه أسكوب المحراب بحذاء جدار القبلة أكثر اتساعا من بقية الاساكيب ، وذلك عن طريق اقامة قبتين مجاورتين لقبة المحراب[1] ، ثم شيدوا قبة رابعة عند مدخل الزيادة[2] .
وقد أصبح هذا النظام الذي طبقه مهندسو الحكم في زيادته بجامع قرطبة أنموذجا احتذته مساجد المغرب والاندلس ، وأصبحت زيادة الحكم تؤلف طابع المساجد الذي يطلق عليه الاستاذ لامبير اسم الطابع الاندلسي ، بل ان بناة جامع تلمسان (أسس سنة ٥٣٠ في عهد علي بن يوسف بن تاشفين) قلدوا تخطيط جامع قرطبة النهائي بعد زيادتي الحكم والمنصور تقليدا تاما ، فبيت الصلاة في جامع تلمسان يشتمل على ١٣ بلاطا عمودية على جدار القبلة ، الاوسط منها أكثر اتساعا من البلاطات الاخرى . ويتميز هذا البلاط بوجود قبتين : احداهما أمام المحراب ، والثانية فوق منتصف البلاط الاوسط على نحو ما نراه في وضع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة المعروفة بقبة مصلى فيلافشيوسا بالنسبة للجامع كله ، ويتمثل هذا التقليد أيضا في صف العقود القائمة على دعائم ضخمة تقطع البلاطات الطولية عرضا وتقسم بيت الصلاة في جامع تلمسان الى قسمين كل منهما

---

(1) Lambert, L'architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède dans Gazette des Beaux Arts, t. XII, 1952, PP. 141-161 — Lambert, Les coupoles des Grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne au IXe et Xe siècle, dans Hesperis, t. XXII, fasc. 2, 1936 — Lambert, Les mosquées de type andalou, P. 281 — Lambert, La mosquée de Cordoue et l'art byzantin, dans Actes du VI congrés d'Etudes Byzantines, 1948-1952, PP. 331, 332 — Lambert, Précisions nouvelles sur l'œuvre d'Al-Hakam II, dans : A.I.E.O.U.A., 1936, PP. 70-80 — Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 483.

(2) السيد عبد العزيز سالم . المسجد الجامع بالقيروان . مقال في كتاب مساجد ومعاهد ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٠ . ص ١٧٤ — السيد عبد العزيز سالم : العمارة الدينية في الاندلس . مقال في دائرة معارف الشعب . ص ١٠٨

يشتمل على ثلاثة أساكيب[1] ، هذا الصف من الدعائم والعقود الحاجزة يشبه الى حد كبير صفوف العقود التي تفصل بين بيت الصلاة القديم وبين زيادة الحكم المستنصر[2] .

كذلك أثـر نظام القباب القائمة علـى البلاط الاوسط وأسكوب المحراب في زيادة الحكم بجامع قرطبة على مساجد الموحدين الجامعة ، فان بيت الصلاة بجامع اشبيلية انعكاس واضح لجامـع قرطبة بعـد زيادة المنصور بن أبي عامر[3] .

وأصبح جامع قرطبة بعد زيادة الحكم المستنصر يؤلف شكل مستطيل طوله ١٧٣,٦٥ مترا وعرضه ٧٦ مترا ، ولكـن بزيادة المنصور أصبحت مساحة الجامع كله ٢٢٢٥٠ مترا مربعا ، ولما كانت أرض الجامع من جهة القبلة تنحدر نحو النهر ، أصبح من الضروري رفع مستوى سطح المسجد عن طريق منصة مرتفعة من البناء تقوم عليها جدران الجامع الخارجية في زيادتي الحكم والمنصور ، وبناء سلالم من الخارج للوصول الى الابواب الشارعة الى بيت الصلاة .

ويقع بين جدار المحراب والجدار الخارجي للجامع فراغ تشغله عشرة غرف صغيرة تعتبر امتدادا للبلاطات العمودية على جدار القبلة في زيادة الحكم ، الغرف الخمسة الواقعة الى يمين المحراب هي المشرع الى الساباط الذي أنشأه الحكم بأعلى الطريق الموصل الى باب القنطرة ، وكان هـذا الساباط يقوم على عقد ضخم يعلو الطريق المذكور ، وقد هدمه الاسقف ماردونيس في السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، وذلك عند شروعه في اصلاح القصر ، وقد وصف الادريسي المشرع الـى الساباط بقوله :

---

(1) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, P. 195.
ـ سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٧٥٠ .
(2) Lambert, les mosquées de type andalou, P. 285.
(3) المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٨٥٦ .

« وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي الى القصر بين حائطي الجامع في ساباط متصل ، وفي هذا الساباط ثمانية أبواب تنغلق مــن جهة القصر ، وأربعة تنغلق من جهة الجامع »[1] ، ويعلو غرف المشرع الــى الساباط قبوات نصف أسطوانية ، وفي الجدار القبلي لكل من هذه الغرف الخمسة تنفتح نافذة بشبكة بالرخام . ويحتفظ المشرع اليــوم بأربع أبواب في الجدران الفاصلة بين الغرف الخمــسة ، وباب خارجي يدخل منه الامير الى المسجد ، وبــاب سادس يصل الــى المقصورة . ويصف امبروسيو دي موراليس هذا الساباط قبل تهدمه بسنوات بأنــه كان يبدو كالقلعة أو السجن ، ثم يذكر عدد آبواب غرفه ، فيذكر أنه كان يشتمل على ثمانية أبواب : « الاربعة الاولى القريبة من القصر كانت تغلق من ناحيته ... وكان البواب يتقدم حاشية الخليفة ويفتح هذه الابواب ، فيدفعها نحو الشرق ، أما الابواب الاربعة الاخرى فكانت تغلق بالعكس ، اثنان نحو الشرق واثنان نحو الغرب ، وعلى هذا الاساس كان هناك بوابين آخرين محجوزين لفتح الابواب » . ويذكر موراليس أيضا أن مصاريع هــذه الابواب كانت مكسوة بصفائح من البرنز والحديد[2] .

ويتفق مــا ذكره موراليس مع ما ذكره الادريسي مــن حيث عدد الابواب ومــن حيث اتجاه فتحها مــا دعا الاستاذ توريس بلباس الــى الاعتقاد بأن المشرع كان به خمسة أبواب ممتدة ، وأن الساباط كان بداخله غرف تفصلها ثلاثة أبواب ، فيكون المجموع ثمانية أبواب متصلة[3] . أما الغرف الخمــسة الاخرى الواقعة على يسار المحراب ، فكانت مخصصة لحفظ العدد والطسوت والحسك الخاص بوقيد الشموع في كل ليلة ٢٧

---

(١) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق الفريد ديسيه لامار ، ص ١٠ .

(٢) Ambrosio de Morales, Las antiguidades de las ciudades de Espana, apud. Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 485.

(٣) Torres Balbas, op. cit., P. 485.

من شهر رمضان ، كما كان يحفظ فيها « مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضه ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى اخراجه رجلان من قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ، ويتولى الامام قراءة نصف حزب منه ثم يرد الى موضعه »[1] ، وكان مدخل هذا المخزن يقع أيضا في الجدار الشرقي من زيادة الحكم المستنصر ، وهو الباب الوحيد من هذه الزيادة وصل الينا سليما دون أن تمسه حتى اليوم آثار اصلاحات . ويعلو هذا الطابق الادنى من الغرف طابق علوي يشتمل على ١١ غرفة مماثلة بزيادة غرفة واحدة هي التي تقوم مكان المحراب في الطابق الادنى . وتتصل هذه الغرف جميعا فيما بينها عن طريق أبواب ، ولكل غرفة نافذتان ، واحدة تطل على خارج الجامع والثانية نحو بيت الصلاة .

وجامع قرطبة منذ أن أضاف اليه المنصور زيادته فيه لم يعد يحتفظ بتناسق أجزائه ، لأن المحراب أصبح لا يقع في منتصف جدار القبلة ، ومع ذلك فانه تسوده وحدة معمارية وزخرفية واضحة .

(٢)

الدعائم الداخلية

أ ـ الاعمدة والارجل (الدعائم) :

يمثل بيت الصلاة بعقوده المتصلة القائمة على عمد غابة من النخيل ، فالعقود والاعمدة المتكررة في امتداد لا يحده البصر توحي بالطبيعة الحية ،

---

(١) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٨ ، ١٠ .

وكانت أعمدة المسجد الاقدم متخذة من الكنائس الرومانية والقوطية لتيسير بنيان المسجد والفراغ منه سريعا ، وكانت لهذه العمد قواعد مختلفة الاحجام ، وظيفتها تسوية ارتفاع العمد القديمة . أما أعمدة المسجد الاخرى فمجردة من القواعد ، وهي بذلك كانت تخدم الشيوخ والاساتذة اذ تسهل لهم مهمة الاستناد بظهورهم على سواريها أثناء قيامهم باملاء مصنفاتهم ، وكانت القواعد تعوقهم عن الاستناد على السواري .

وأعمدة زيادة الحكم المستنصر من الرخام الاسود المجزع بالابيض ورؤوسها من النوع الكورنثي ، تتناوب مع أعمدة وردية اللون تيجانها من النوع المركب . ويحتفظ محراب الجامع الحالي بالاعمدة الاربعة التي كانت تزين عضادتي محراب عبد الرحمن الاوسط . وتمتاز تيجان أعمدة الزيادة المستنصرية بأوراقها ولفائفها الملساء . أما الدعائم العليا التي تقوم فوق الاعمدة بالبلاط الاوسط من زيادة الحكم فتتميز بأنها مثمنة الشكل ومغطاة بزخارف هندسية محفورة في الجص ، وتقوم هذه الدعائم على كوابيل من النوع الذي درسناه في واجهة بيت الصلاة مع اختلاف يسير هو أنها مزدوجة في زيادة الحكم . أما نظائرها من البلاطات الاخرى من زيادة الحكم فعارية من الزخرفة . ونلاحظ أن مهندسي الحكم عندما شرعوا في اجراء زيادته في الجامع ، بدأوا بهدم جدار القبلة القديم كله ، بعد أن احتفظوا بأعمدة المحراب القديم ونقلوها الى موضعها من المحراب الجديد ، وأقاموا في موضع الجدار المهدم أحد عشر عقدا مزدوجا ضخما تفصل بين المسجد القديم والزيادة الحكمية ، وتنفتح على أحد عشر بلاطا ، تتميز العقود الثلاثة الوسطى منها بازدياد ثرائها الزخرفي عن العقود الاخرى ، والعقود المذكورة ترتكز جميعا على دعائم ضخمة ماثلة في وسط بيت الصلاة ، يسميها المؤرخون « بالارجل الصخرية » .

ب ــ العقــود :

١ ــ العقد المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة (عقــد حدوة الفرس) والعقد نصف الدائري :

لا يفرق الادريسي بين العقد المتجاوز لنصف الدائرة والعقد نصف الدائري ، فهو يطلق عليها اسم « قسي دائرة »[١] . والواقع أن العقد نصف الدائري والعقد المتجاوز لنصف الدائرة يسيطران وحدهما على جميع عقود المسجد الجامع بقرطبة بما فيها زيادة الحكم المستنصر ، فنشاهدها في العقــود السفلى والعليا ، وفي عقــود الابواب الخارجية ، والطاقات التــي تعلوها ، وفي واجهة المحراب ، وعلى المئذنة ، وحــول الصحن . أما العقود المتجاوزة فتختلف في نسبها باختلاف الزمان الذي أقيمت فيــه ، ونلاحظ أن تكوين العقد المتجاوز في بيت الصلاة القديم يسجل استمرارا للتقاليد الاسبانية القوطية ، ويعتقد الاستاذ كامبس أي كاثورلا أن عقد باب سان استيبان هــو أول عقد اسلامي التكوين ، اذ تحرر في تخطيطه من التقاليد القوطية ، ويمثل مرحلة انتقال بــين العقود المتجاوزة في المسجد الاول وبــين العقود المتجاوزة الخلافية . ونظــام التسنيج هنا يقتصر على الجزء المركزي من العقد وهو الجزء الحي منه[٢] . ثم تعرض العقد المتجاوز أو المنفوخ في عصر الخلافة لتطور سريع ، فــان توزيع السنجات في العقد أصبح يتشعع في ذلك العصر من مركز يقع في وسط الخط الممتد بين الحدائر ، في حين أصبحت الدائرة السفلى مــن العقد تتبع نفس نسبة نصف الدائرة . وفي هذه الحالة فان دائرة العقد العليا لم تعد تتمركز مع نفس مركز الدائرة السفلى ، وترتب على ذلك

---

(١) الادريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ١٤ .

(٢) Camps y Cazorla, Modulo, proporciones y composicion, en la arquitectura califal de Cordoba, Madrid, 1953, P. 29.

أن مفتاح العقد أصبح يزيد في الطول عن السنجات الاخرى • ويعتقد كامبس اي كاثورلا أن ذلك الشكل يمثل تأثيرا شرقيا وافدا من العراق[1].

وتتجلى في العقود الزخرفية مبالغة واضحة في اغلاق العقد ، كما يتضح في عقود النوافذ الثلاثية بمئذنة الجامع ، وفي هذه العقود لا يقتصر التسنيج على نصف العقد ، وانما يستمر في خطوط تلتقي مع المركز الواقع في منتصف الخط الممتد بين حدارتي العقد • وبينما تقتصر سنجات العقود المنفوخة الفاصلة بين البلاطات على أنصاف العقود ، فان عقد المحراب والعقدان اللذان يكتنفانه شرقا وغربا والعقود التي تنفتح على الواجهة الغربية ، والعقد الموصل بين مصلى فيلا فثيوسا وزيادة عبد الرحمن الاوسط فكلها عقود كاملة التسنيج •

وقد ترتب على زيادة طول مفاتيح العقد في التسنيج القائم على مركز خط الحدائر أن بدأ العقد يميل الى الشكل المنكسر ، ثم تطور شكل العقد الى عقد منفوخ يميل الى الانكسار ، وقد ظهر هذا النوع من العقود في زيادة الحكم في عقدي المدخل الى الاسطوانين المجاورين لاسطوان المحراب ، ولكن لم يتبق منها اليوم سوى العقد الشرقي • كذلك يتجلى العقد المتكسر في زيادة المنصور بن أبي عامر •

واذا كان العقد المنفوخ أو المتجاوز يسود في الجامع كله ، فان استعمال العقد نصف الدائري كان أقل بكثير ، واقتصر استخدامه فقط على العقود العليا التي تحمل الاسقفه الخشبية ، وتقوم هذه العقود على الدعائم العليا عن طريق طنف يبرز بروزا طفيفا بأعلى الدعائم • وتوحي هذه العقود نصف الدائرية بالقوة والصلابة بسبب منابتها الرأسية ، في حين تفقد العقود السفلى المنفوخة التي سبق أن تحدثنا عنها وظيفة التدعيم بسبب حنياتها المتجاوزة لنصف الدائرة ، وعلى ذلك فان وظائفها تقتصر على مجرد الربط بين الدعائم ، وتجميل البناء •

---

(1) Torres Balbas, arte His. Mus. P. 488 — Camps y Cazorla, op. cit , P. 33.

٢ ـ العقود ثلاثية الفصوص ومتعددة الفصوص :

يظهر العقد ثلاثي الفصوص لأول مرة في الجامع مختلطا بالزخرفة في النافذة اليمنى من باب سان استيبان . ولكن استخدام هذا العقد ساد في زيادتي الحكم المستنصر والمنصور، وقد أطلق الادريسي على هذا النوع من العقود « صنعة القرط » ، كما أطلق على العقود متعـددة الفصوص اسم « صنعة الفص » ، فيشير الى العقود ثلاثية الفصوص التي تزيـن وجه المحراب بقوله : « وعلى هذا الوجه ، أعني وجه المحراب ، سبع قسي قائمة على عمد ، وطول كل قوس أشف من قامة ، وكل هذه القسي مزججة صنعة القرط » ، أما العقود متعددة الفصوص « صنعة الفص » ، فيذكرها عنـد حديثه عـن الزخارف الهندسية التي تزدان بهـا سـوات المسجد (اللوحات المسطحة بسقفه الخشبي) وجوائز سقفه (الكتل الخشبية التي تثبت فيها اللوحات المسطحة) ، كمـا يذكرها عنـد حديثه عـن العقود المتشابكة أو التشبيك الذي تقـوم عليه القباب ، فـان رؤوس العقود خماسية الفصوص التي تؤلف الطابق الادنى من قاعدة قبة المحراب تعلوها نحور مستديرة مفصصة ناتئة تربط العقود السفلى بالعقود العليا المنفوخة أو المفصصة[١] . ويعبر الادريسي عن ذلك بقوله : « وقد عقد بين العمود

---

(١) طبق مهندسو الحكم فكرة تقاطع الخطوط الزخرفية على بنيـة الجامع . وتتمثل هذه الفكرة بحق في التشبيك الذي تقوم عليه القباب . وهذه الفكرة في حد ذاتها هي ثورة معمارية . وابداع أصيل لـم يسبق اليه فـن معماري . فتقاطع العقود وتشابكها له مزيتان اشار اليهما ابن عذارى . هما الوثاقة والجمال . وقد حرص مهندسو الحكم علـى بناء قباب قوية وثيقة البنيان على عمد مرتفعة للغاية حتى تتيح للضوء ان ينفذ الى مقصورة الجامع من خلال تشبيكاتها . ويحدث في نفس الوقت تأثير جمالي . وقبة فيلا فثيوسا تقوم على تشبيك مـن العقود المفصصة ، العقود السفلى منها تؤدي وظيفة معمارية . اما النحور التي تعلوها فمظهرها زخرفي بحت وان كانت تخفي تحتها بناء من الحجر له قيم معمارية واضحة . ولا شك ان تقاطع العقود المفصصة مع اخرى متجاوزة منفوخة . يؤلف ابتكارا معماريا شديد التعبير ؛ فمـن وظائف هذه التشابكات لحم طبقات العقود فيما بينها . وتوزيع الضغوط التى تمارسها القباب عليها توزيعا أكثر منطقية . ا راجع في ذلك :
Marçais, L'architecture musulmane d'Occident, P. 148 — Gomez Moreno, el entrecruzamiento de arcadas de la arquitectura arabe, Cordoba, 1930, P. 6 — Ricard, Pour comprendre l'art musulman, Paris, 1924, P. 132 — Torres Balbas, Arte his. mus. PP. 493-498.

والعمود على أعلى الرأس قسي غريبة فوقها قسي أخرى على عمد من الحجر المنجور متقنة ، وقد جصص الكل منها بالجص والجيار ، وركبت عليها نحور مستديرة بينها ضروب صناعات الفص بالمغرة »[1] . وفكرة تشابك العقود كما نراها في بلاط المحراب بزيادة الحكم من ابتكار مهندس الحكم المستنصر ، وقد سجل انشاؤها في نقش من الكتابة الكوفية بطرة المحراب نصه : (... ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، هو الحي لا اله الا هو ، فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ، موفق الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم امير المؤمنين اصلحه الله لهذه البنية المكرمة ، ومعينه على نيته الخالدة في التوسع لرعيته ... ما اليه واليهم الرغبة فيما ابتدأ من فضله فيهم وصلى الله على محمد وسلم . امر الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم امير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ واحمد بن نصر وخالد بن هاشم اصحاب شرطته ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب ...)[2] .

ويغلب على الظن ان العقود المفصصة من اصل مشرقي ، ويتمثل اقدم امثلة العقود التي تعتبر الاصل الذي اقتبس منه العقد المفصص القرطبي هو الشريط الزخرفي المفصص الذي يدور بالعقد الضخم لمدخل ايوان كسرى المعروف بطاق كسرى في طيسفون[3] ، ويظهر العقد المفصص بصورة زخرفية في بازيليكية سبيبة بتونس ويتخذ فيها شكل عقد زخرفي متعدد الفصوص[4] . ولكن استعمال هذا العقد لم ينتشر الا في المنشآت

---

(1) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ٦ .

(2) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, P. 15 — Répertoire chronologique d'epigraphie arabe, P. 197, texte n° 1581.

(3) بناه سابور الاول ذو الاكتاف في الفترة ما بين عامي ٢٤١ — ٢٧٢ م. وسمي بالقصر الابيض ، ثم رممه كسرى انو شروان بعد خرابه . واضاف اليه اضافات كثيرة بحيث غلب اسم كسرى على القصر فعرف لذلك بايوان كسرى او طاق كسرى (راجع : فرج بصمهجي . نبذة تاريخية عن طيسفون . بغداد ، ١٩٦٤ . ص ٧) .

(4) Torres Balbas, Arte his. mus., P. 491.

الآجرية في العمارة العباسية بالعراق منذ اواخر القرن الثاني والثالث ، كما نشهده في جوفة بباب بغداد في مدينة الرقة (١٥٥ هـ) ، وفي باب مسجد قصر الاخيضر (النصف الثاني من القرن الثاني) ، وفي المسجد الجامع بسامراء (٢٤٨ هـ) ، وقصر العاشق بسامراء ايضا (٢٦٤ ــ ٢٦٨ هـ)[١] • ونشهد امثلة من هذا العقد في مصر في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط في عهد عبدالله بن طاهر (٢١٢ هـ) وفي جامع احمد بن طولون (٢٦٠ هـ)، وفي افريز خشبي بعين الصيرة • ويظهر العقد المفصص في القيروان في اساس قبة المحراب[٢] وفي بعض حشوات المنبر ، ولكن هذه الامثلة جميعا تقتصر على عقود زخرفية في النوافذ او حول العقود • وهكذا ظهر هذا العقد المفصص بصورته الزخرفية على استحياء في المباني العباسية : اذ لم نعثر على امثلة له في مداخل الابواب او في العقود الكبرى التي تؤدي وظائف معمارية • اما في قرطبة فقد شاع استخدامه في زيادة الحكم المستنصر بالجامع في صور مختلفة • وعلى الرغم من اصله العباسي الواضح[٣] ، فان العقد المفصص في جامع قرطبة عقد حجري يقوم بوظيفة معمارية كتحمل الضغط العلوي دون ان يفقد مظهره الجمالي ، ومعنى ذلك ان العقود المفصصة في قرطبة تطورت تطورا كبيرا بالنسبة للعقود الشرقية وفاقت هذه العقود من حيث التنوع والمظهر الجمالي •

وجامع قرطبة يشتمل على نوعين من العقود المفصصة : العقد متعدد الفصوص نصف الدائري ، والعقد متعدد الفصوص المنكسر • اما النوع الاول فيتمثل في مدخل البلاط الاوسط من زيادة الحكم المستنصر ،

---

(١) Ibid., P. 491.

(٢) Gomez Moreno, Ars hispaniae, P. 99.

(٣) يستند الاستاذ توريس بلباس في ذلك على أن بعض العقود المفصصة بجامع قرطبة (مثل العقود التي نراها في داخل عقد المدخل بالباب الاوسط من الواجهة الغربية . وعقود المقرنصات المجوفة بأركان قبة المحراب. والعقود الزخرفية الاربعة التي تقع بين المقرنصات ، تعلوها طرر زخرفية هرمية الشكل على النحو الذي نراه في باب بغداد بالرقة .

ونعني به العقد المؤدي الى مصلى فيلافثيوسا ، وهو عقد منفوخ في تكوينه ثم جزئت حلقته الى ٢١ فصا بارزا • ويلتحم هذا العقد متعدد الفصوص من اعلى بعقد منفوخ على شكل حدوة الفرس مطوقا اياه بحيث تبدو الفصوص وكأنما قصت على ارضية العقد المنفوخ المبطن لها • كذلـك نشهد هذا النوع الاول من العقود في احد ابواب الواجهة الغربية لبيت الصلاة• اما النوع الثاني فقد انتشر في زيادتي الحكم المستنصر والمنصور، وشاع استخدام العقد خماسي الفصوص ، في حين ندر استخدام العقد ثلاثي الفصوص بحيث اقتصر على القسم الاعلى من واجهة المحراب وفي داخل جوفة المحراب نفسه • وهناك نوع آخر من العقود جاء نتيجة تطور طرأ على العقد متعدد الفصوص ، وهو العقد ذو اللفائف ، وهو عقـد مدبب مزود في بطنـه بلفائف عديدة متصلة ، ونشاهد هـذا العقد في الاسطوانين التاليين للعقدين المجاورين للمحراب شرقا وغربا ، وهمـا الاسطوانان اللذان يحدان نهاية المقصورة •

٢ ــ العقد المنكسر او المدبب :

يظهر العقد المنكسر في زيادة الحكم مثلا في العقد متعدد اللفائف الذي ذكرناه ، ولكنه يظهر بوضوح في زيادة المنصور بن ابي عامر لا سيما في العقود التي تعلو النوافذ الرخامية • ويعتقد الاستاذ جومث مورينو ان تكوين هذا العقد يمكن ان نلمحه في العقد متعدد الفصوص او لعله استوحى من تقاطع العقود المنفوخة فيما بينها[1] • وأصل العقد المنكسر مشرقي كذلك ، وامثلته الحجرية عديدة نشهدها في المنشآت الاموية مثل قبة الصخرة وقصر الحير والجامع الاموي •

---

(1) Gomez Moreno, el entrecruzamiento, P. 6.

(٣)

الكتـــل

أ ــ الركائز الخارجية :

يذكر الاستاذ جومث مورينو ان الجامع يبدو من الخارج مستطيل الشكل تتسم واجهاته الخارجية بوحدة المظهر ، فارتفاعها متوسط ولكن لا يفوتها في الارتفاع ، ولا يحط من قيمة نسبها التي تميل الى تأكيد الافقية الغالبة على الجامع او امتداده طولا اي عنصر معماري آخر باستثناء المئذنة . ويقطع هذه الواجهات على مسافات غير منتظمة في جميع الاحوال ركائز قوية ضخمة اقرب ما تكون الى الابراج يمكن ان نعتبرها صدى لتقاليد متبعة في الشرق منذ أقدم العصور[1] ، ولا نلمح فيها على الضد من ذلك أي صدى لتقاليد غربية[2] . هذه الركائز تكسب الجامع مظهر القلاع لبروزها الكبير وضخامة بنيانها . ويعتقد الاستاذ تراس ان قصور كلدة وفارس القديمة كانت تزدان على امتداد واجهاتها بمثل هذه الركائز ، ويضيفه قائلا : « ان العمارة العباسية عملت على احياء هذا العنصر المعماري ، ونقله الى المغرب . ولكن هذا العنصر انتقل الى المغرب الاسلامي في ابنية من الحجارة بعد ان كان شائعا في بلاد يعتمد البناء فيها على الآجر . ويكتسب هذا العنصر في المغرب الاسلامي بساطة شاملة لم يكن يعرفها في مسقط رأسه »[3] .

---

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 29.

(٢) يذكر الاستاذ توريس بلباس على عكس راي جومث مورينو ان العمارة الرومانية عرفت هذا العنصر في الابنية الحربية والهندسية كدعائم في الجدران وركائز لتلقي الدفع . ويذكر ايضا ان مهندس جامع قرطبة بفضل تزويد جدران الجامع بركائز لا تؤدي وظائفها في تلقي الدفع الذي تمارسه العقود او القباب . استطاع ان يواصل تقاليد العمائر الرومانية في الاندلس التي تقوم بنفس الوظيفة . والممثلة في كثير من الابنية الرومانية في الاندلس .

(٣) Terrasse, L'art hispano mauresque, P. 61.

ويتميز جامع القيروان بوجود ركائز ضخمة متقاربة في المسافة تدعم سوره من الخارج[1] ، ولا تقوم وظيفة هذه الركائز كما قد يتبادر الى الذهن على دعم البناء وتحمل الضغط الذي تمارسه عقود بيت الصلاة ، لان هذه الركائز اقيمت في مواضع بعيدة عن نقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها ، وانما الغرض منها ان تتمشى مع الدعائم البارزة التي تكتنف ابواب المسجد ، فتضفي عليه جمالا ، لان هذه الدعائم المكتنفة للابواب لو انها تركت بمفردها لظهرت كأنها بروزات منفرة ، تشوه المظهر الخارجي للجامع[2] . ويغلب على الظن أن نظام تدعيم الجدران الخارجية بالركائز انتقل الى جامع قرطبة من المغرب ، ومن قرطبة انتشر في مساجد الاندلس والمغرب في عصري المرابطين والموحدين . ونلاحظ ان المسجد الجامع بتلسان يقلد عناصر عديدة من جامع قرطبة ، ومن جملتها الركائز ، ثم يعود بناة الموحدين الى استخدام الركائز في جدران جامع اشبيلية وفي الجدار القبلي من جامع الرباط .

ب ـ المئذنة :

ذكرنا من قبل ان الامير هشام اقام مئذنة للجامع في الجهة الشمالية من الصحن ، استطاع الاستاذ فيلث هرناندث الاهتداء الى اساسها ، وثبت من دراسة هذا الاساس انها كانت مربعة الشكل طول كل ضلع منها ٦ امتار ، اما ارتفاعها فتقدره المصادر العربية بأربعين ذراعا اي ما يعادل ١٩,٢ مترا تقريبا على أساس ٤٨ سم للذراع الواحد . وكان جدارها القبلي يرتكز على الجدار الشمالي للجامع ، ويبعد بنحو ٢٣,٩٠ مترا من الجدار الحالي[3] . وذكرنا أيضا أنه كان يدور حول نواتها الداخلية ،

---

(1) Marçais, Manuel d'art musulman, t. I, P. 31 — L'architecture musulmane d'Occident, P. 19.

(2) عبد العزيز سالم . المسجد الجامع بالقيروان . ص ١٧٣ .

(3) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 44.

وهي بناء مربع الشكل اشبه ما يكون بالبرج الصغير ، درج لولبي يقع بين جدران هذه النواة الوسطى وبين جدار المئذنة الذي يغلفها . ويعتقد علماء الآثار ان هذا الدرج كان يشبه الى حد كبير درج مئذنتين اصبحتا اليوم برجين للنواقيس لكنيستي سان خوان ، وسانتياجو بقرطبة ، وبرج ثالث كان مئذنة لجامع عمر بن عديس باشبيلية ويعرف اليوم بكنيسة سان سلفادور . ويعتقد الاستاذ توريس بلباس ان اصل هذا التصميم اسباني الأصل ويرجع الى عهد سابق على الفتح الاسلامي ، ويذكرنا به درج معمودية جابية بغرناطة[1] .

اما مئذنة عبد الرحمن الناصر فقد اقيمت في سنة ٣٤٠ هـ ، واستغرق بناؤها ١٣ شهرا . وهي مربعة القاعدة ، يبلغ طول كل جانب منها ١٨ ذراعا (٨,٤٦ مترا) ؛ وكان ارتفاعها الى موضع الاذان يبلغ ٥٤ ذراعا[2] (أي ما يقارب ٢٣,٥٠م) ، بينما يبلغ الى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن ٧٣ ذراعا[3] ، (أي ما يقارب ٣٣,٨٤ م) . وقد بنيت الصومعة من كتل حجرية « ضخام الحجارة القطعية منجدة غاية التنجيد »[4] ، وبطنت واجهاتها الاربعة بالكذان اللكي[5] ؛ وهو حجر جيري سهل

(1) Torres Balbas, la primitiva mezquita mayor de sevilla, al-Andalus, 1946, fasc. 2, P. 438.

(2) ابن غالب . ص ٢٩ ـ المقري . ج ٢ ص ٨٥ . ٩٨ . ٩٩ . ويشير الادريسي الى ان هذا الارتفاع يصل الى ٨٠ ذراعاً بالرشاشي او ١٠٠ ذراع الى أعلى القبة . وهو في ذلك يتفق مع ما أورده ابن عذاري وابو حامد الغرناطي .

(3) ابن غالب ؛ ص ٢٩ ـ المقري . ج ٢ ص ٨٥ ـ الحميري . ص ١٥٧

(4) المقري ؛ ج ٢ ص ٩٨ . ٩٩ . وأغلب الظن ان كلمة القطعية يراد به القبطية . وهي كتل ضخمة ثقيلة . اوردها الادريسي في نزهة المشتاق (راجع : الادريسي . نزهة المشتاق . ص ٢١٢ . .

Dozy, Glossaire des mots espagnols et portugais, PP. 310, 311.

(5) الادريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ١٠ ـ ١٢ .

النخر والتآكل[1] ، اختصت بـه مدينة قرطبة[2] . ونظام صفوف البناء يتبع طريقة الصف طولا وعرضا (آدية وشناوي) أي وضع كتلتين من جانبيهما وكتلة من وجهها ، بحيث يتراوح طول القطعة الموضوعة من الجانب ما بين ٤٠ و ٤٨ سم ، بينما يتراوح طول القطعة الموضوعة من وجهها ما بين ٧٠ و ١٥٠ سم ، ويتم التحام الكتل الحجرية عن طريق طبقة رقيقة من الجص[3] . وينقسم قلب المئذنة الى قسمين مستقلين ، كل منهما مستطيل الشكل ، يفصل بينهما جدار يمتد من الشمال الى الجنوب ، ولكل قسم درج قائم بذاته عدد درجاته ١٠٧[4] يدور حول كتلة من البناء مستطيلة الشكل . وعلى هذا النحو تعتبر مئذنة الناصر ازدواجا لمئذنة هشام ، ولكل مئذنة باب مستقل يدخل المؤذنون منه : فباب المئذنة الشرقية واعني به القسم الشرقي من المئذنة ، ينفتح على الصحن ، اما باب المئذنة الغربية فينفتح على الطريق المحاذي للجدار الشمالي الجامع ، ويتحد الدرجان بأعلى السطح الذي تعلوه قبة . وقد وصف الادريسي درجي المئذنة فقال : « إذا افترق الصاعدان اسفل الصومعة لم يجتمعا الا اذا وصلا الاعلى منها »[5] ، وفي هذين الدرجين يقول ابن عذارى : « وقد كانت الاولى (يعني مئذنة هشام) ذات مطلع واحد ، فصير لهذه مطلعين ، وفصل بينهما بالبناء ، فلا يلتقي الراقون فيها الا بأعلاها »[6] . وعندما -

---

(1) Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, Leyden, 1881 — Dessus Lamare, La mosquée de Cordoue (d'après al-Idrisi), P. 11 — Sauvaget, la mosquée omeyyade de Médine, Paris, 1947, P. 83.

البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٢١٧ ــ ابن صاحب الصلاة ، تحقيق انطونية ملشور ، ص ١٣٩ .

(٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، ص ٣٣١ .

(٣) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 467.

(٤) يذكر ابن غالب ان لاحد درجي المئذنة ١٠٧ سلما وللآخر ١٠٥ (ابن غالب ، ص ٢٩) .

(٥) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ١٠ .

(٦) ابن عذارى ، ط. ليفي وكولان ، ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ــ المقري ، ج ٢ ص ٩٨ .

فرغ المهندسون من بناء المئذنة صعد اليها عبد الرحمن الناصر من احـد الدرجين ونزل من الدرج الثاني[1] . وكان يعلو بسطات الدرج قبوات صغيرة متقاطعة لم تبق منهـا اليوم سوى واحـدة نصف اسطوانيـة متجاوزة[2] ، تتعامد مع محور السلم ، ويقطعها من وسطها عرضا عقـد منفوخ[3] . وكانت جميع قبوات المئذنة مبنية بمواد بنائية ضعيفة : ثـم جصصت وطليت بزخارف هندسية باللونين الابيض والاحمر . وكانـت الجدران الخارجية للمئذنة مزينة بنوافذ مزدوجة أو توأمية عقودها مـن النـوع المتجاوز ، تتوزع علـى ثلاثة طوابق بالنسبة لواجهتيها القبلية والشمالية ، ونوافذ ثلاثية عقودها منفوخة كذلك تتوزع على طابقـين في الواجهتين الشرقية والغربية . ويؤكد الادريسي هـذا التوزيع اذ يقول : « وبالاوجه الاربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسي دائرة على عمد من الرخام الحسن »[4] . وعقود هذه النوافذ متجاوزة للغاية بحيث تكاد تغلق من ادنى ، وتسنيجها كامل حتى منابت العقود ، والسنجات مطولة : واحدة بارزة بيضاء واخرى غائرة حمراء على التناوب ، ويحيط بها مـن اعلى مجموعة من الفصوص الصغيرة التي تتعاقب مع اخرى كبيرة حـول السنجات ، وتنتهي مجموعة حنايا العقـد المزدوج او الثلاثي مـن اعلى بافريز بارز يدور مع الحنايا ، وتطوق المجموعة كلها طرة مستطيلة الشكل. والعقود في هذه النوافذ تتكيء على عمد صغيرة تيجانها كورنثية ومركبة. هذه التفاصيل استطعنا ان نستخلصها من نافذة ثلاثية العقد ، ما زالـت ترى اليوم من خلال الغلاف البنائي الذي يحيط بالمئذنة الاسلامية ، وقياسا عليها بالاضافة الى الرسوم التي تمثل المئذنـة في اختام المدينة في القـرن الرابع عشر ورنك الكاتدرائية التي تحمله شعارا لها ، ثم الوصف الـذي

---

(1) المقري ، ج ٢ ص ٩٨ .

(2) Torres Balbas, Arte his. mus., P. 468.

(3) Lambert, Les origines de la croisée d'ogives, dans : office des Instituts d'archéologie et d'histoire d'art, 1937, P. 138.

(4) الادريسي : وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ١٢ .

اورده امبروسيو دى موراليس امكننا الوقوف على نظام البناء في المئذنة .
وكان جدار المئذنة ينتهي من اعلى بافريز من العقود الصماء (تسعة في كل وجه) قائمة على عمد صغيرة ، ويمتد هذا الافريز حول الاوجه الاربعة للمئذنة ، وقد اصبح ذلك موضوعا شائعا في جميع المآذن الاسلامية التالية في المغرب والاندلس ، وكان يتوج الجدار من أعلى السطح شرفات مسننة.
وقد احصى الادريسي عدد اعمدة المئذنة فذكر ان عددها من الداخل والخارج يبلغ ثلاثمائة عمود ما بين صغير وكبير[1] ، بينما يذكر ابن غالب ان عدد اعمدة المئذنة مائتان ونيف وخمسون عمودا[2] . ويذكر الادريسي ايضا ان المئذنة كانت تزدان من وجه الأرض الى اعلى الصومعة بصنع مقسمة تحتوي على انواع من الصنع والتزويق والكتابة والملون[3] .
ويبدو بابا الصومعة وقد مثلا على احد الدرعين المنقوشين على باب سانتا كاتالينا ، صغيرين يعلو الواحد منهما عتب ثم عقد منفوخ يكتنفه عقدان جانبيان قد نقشا على الركيزتين البارزتين على جانبي المدخل ، وفوق العقد المنفوخ صف من اربعة عقود متصلة قائمة على ثلاثة عمد مشتركة ؛ وتنتهي البوابة من اعلى بشرفة بارزة قائمة على مساند . وكان يعلو هذا الطابق من المئذنة بيت للمؤذنين أو برج أقل ارتفاعا من الطابق الادنى من المئذنة الذي وصفناه ، كان يقضي فيه كل ليلة مؤذنان للأذان في العشاء والفجر ؛ وكان لهذا البيت اربعة ابواب مغلقة ، وكانت تتوج هذا البيت قبة مخرمة وصفها المؤرخون ، وبرأس القبة ثلاث تفاحات ، واحدة من ذهب وثنتان من فضة ، تفصل بينها أوراق سوسنية[4] . ويصف ابن عذارى هذه التفاحات بقوله : « وفي اعلى ذروة المنار ثلاث رمانات تغشى النواظر بشعاعها ، وتخطف الابصار بالتماعها ، الاولى مفروغة من الذهب ، والوسطى من الفضة ، والثالثة من الذهب ايضا ، وفوقها سوسانة من

---

(1) الادريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ١٢ .
(2) ابن غالب ، ص ٢٩ .
(3) الادريسي . المصدر السابق .
(4) نفسه .

الذهب المحض مسدسة ؛ وفوق السوسانة رمانة صغيرة من الذهب ؛ ثم طرف الزج ، وفيه تاريخ مكتوب بالذهب »[1] . ويصفها ابن سعيد بقوله : « وفي اعلى ذروتها ثلاث شسسات يسمونها رمانات ملصقة في السفود البارز في اعلاها من النحاس : الثنتان منهما ذهب ابريز ، والثالثة منهما وسطي بينهما من فضة اكسير ، وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة ، فوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف الزج البارز بأعلى الجو »[2] . وقد نهبت هذه الرمانات الذهبية والفضية في الفتنة الثانية في سنة ٥٤٠[3] .

وما ان سقطت قرطبة في ايدي القشتاليين في سنة ١٢٣٦م حتى تحول المسجد الجامع الى كنيسة ، وتحولت المئذنة الى برج للنواقيس ، وتعرض الجزء العلوي من المئذنة الاسلامية لبعض التغيرات التي عجلت بتصدعها ، ففي سنة ١٥٨٩ تصدعت تصدعا شديدا بسبب زلزال عنيف ، تشقق بسببه بيت المؤذنين وقسم كبير من الطابق الادنى، وهدد ذلك التشقق المئذنة كلها بالسقوط، وأصبح من الضروري ترميمها، ولكن عملية الترميم لم يكن من الممكن أن تتم دون تدعيم القسم الادنى من المئذنة حتى تتحمل قيام طابق علوي جديد ، وكان لا بد من حشو المئذنة من الداخل بالبناء ، ثم تغليفها كلها بكسوة من الحجر من نفس طراز كسوة البرج العلوي من مئذنة جامع اشبيلية ، واسندت مهمة التغليف الى المهندس الكبير هرنان رويث فيما بين عامي ١٥٩٣ ــ ١٦٥٣ ، اي طوال ستين سنة ، وبذلك اخفى القسم الاسلامي المحفوظ من الداخل والخارج . ولقد اتاحت الابحاث التي قام المهندس الاثري فيلث هرناندث ، الكشف عن جزء كبير من المئذنة الاسلامية ، وعلى هذا الاساس امكن اعادة تخطيط المئذنة على النظام الاصلي ، وقد حفظ لنا جزء كبير من الجدران الخارجية من المئذنة يصل ارتفاعه الى ٢٢ مترا ، بينما حفظ نحو ٢٦ مترا من النواتين الداخليتين .

---

(١) ابن عذارى ، ط. ليفي بروفنسال وكولان . ص ٢٢٨ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ٩٨ ، ٩٩ .
(٣) ابن غالب ، ص ٣٠ .

(٤)

اسقف الجامع وقبابه

أ ـ الاسقف الخشبية :

كان المسجد الجامع بقرطبة يحتفظ حتى بداية القرن الثامن عشر بأسقفه الافقية التي تتكون من لوحات خشبية مثبتة على عوارض تشد عرضا بأعلى البلاطات ، ثم تعلوها بامتداد البلاطات اسطح منشورية الشكل مكسوة بالقراميد ، ولقد أزيلت هذه الاسقف الخشبية فيما بين عامي ١٧١٣ ـ ١٧٢٣ لتآكلها ، واقيم مكانها قبوات متعارضة خفيفة . ويرجع السبب في تآكل الاسقف الخشبية الى عدم العناية بنظام صرف المياه من القنوات الموجودة بين الاسطح المنشورية ، ويبدو ان كمية من مياه الامطار تسربت الى السقف الخشبي ، فتلف جانب منه في سنة ١٢٦١ مما دعا الى اصلاحها[١] . وفي بداية القرن الثامن عشر كتب جومث برافو ان الكنيسة الكبرى بقرطبة « كانت تحتفظ منذ عهدها القديم بالاسقف التي أخذت أجزاء منها تهدد بالتلف ، لان رؤوس الجوائز المصنوعة من خشب الصنوبر ، وهي العوارض التي تدخل في الجدران ، قد تآكلت بفعل الرطوبة والرشح ، واصبح من الضروري ترميم البلاط المعروف بالبونتو »[٢] . وقد تم بالفعل ازالة الاسقف الخشبية ، ولحسن الحظ حوفظ على هذه اللوحات المتآكلة ، عن طريق اعادة استخدامها في الهياكل الخشبية الداخلية للاسطح المنشورية ، فاستخرجت من مواضعها من الهياكل المذكورة التي دفنت فيها وذلك في سنة ١٨٧٥ . وفي اثناء العمل في اصلاح اسقف مصلي سان بدرو ومصلي سان لورنثو الداخلين في زيادة

---

(١) Torres Balbas, arte his. mus., P. 538.

(٢) Gomez Bravo, Catalogo de los obispos de Cordoba, Apud., Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 538.

الحكم المستنصر ، وفي البلاط المجاور للواجهة الغربية ، تحت اشراف المهندس رافاييل لوكي ، ظهر عدد كبير من الجوائز واللوحات المكسوة بالزخارف الملونة ، ولكنها كانت مغطاة بالجص ، وقد تم العثور عليها موضوعة وضعا افقيا ، بحيث يثبت احد اطرافها في جدار الواجهة والثاني في الجدار القائم على صف العقود العليا[1] . كذلك عثر جيرو دى برانجي في سنة ١٨٤١ على قطع كثيرة من هذه الجوائز ولكنها كانت جميعها غير كاملة . ويذكر جيرو انها كانت مربعة ، وزخارفها محفورة عليها من ثلاثة اوجه ، كما ذكر ان كثيرا من هذه القطع تحتفظ بآثار زخرفة مدهونة بألوان متعددة[2] . وقد شجعت هذه الكشوف الباحثين على مواصلة البحث،فقد عثر أمادور ذي لوس ريوس في سنة١٨٧٥ على عدد من الجوائز التي تزدان بزخارف محفورة وملونة ، ويذكر انه عثر وقتئذ على عدد من الجوائز واللوحات الخشبية ازاء الباب المسمى بباب القصر . وبعد ذلك بسنوات تم العثور على عدد كبير من الجوائز واللوحات كانت قد اتخذت في الفراغ الواقع بأعلى القبوات وفي الهياكل التي تقوم عليها الاسطح المقرمدة . وقد تمكن المهندس الاثري فلاسكث بوسكو من تخليص عدد كبير منها من المواضع التي اتخذت فيها في القرن الثامن عشر ، ونجح في اعادة تركيب الاسقف الخشبية في البلاط الاوسط كله ، وفي قطاع يمتد على البلاطات السبع الصغرى من زيادة الحكم المستنصر المحصورة غربا ما بين الجدار القبلي من كاتدرائية الاسقف مانريكي ومجموعة العقود التي تسبق اسكوب المحراب[3] ، وذلك بعد ان رفض المشروع الذي

(١) Felix Hernandez, la techumbre de la gran mezquita de Cordoba, en Archivo espanol de Arte y Arqueologia, t. XII, 1928, P. 190.

(٢) Girault de Prangey, Essai sur l'architecture des Arabes et des Mores en Espagne, en Sicile et en Barberie, Paris, 1841, PP. 41-42, Note I.

(٣) Felix Hernandez, op. cit., P. 192 — Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 83 — Torres Balbas, Arte his. mus., P. 541.

اقترحه جيرو دى برانجي الخاص باعادة وضع هـذه الاسقف[1] . وقـد عرضت الجوائز واللوحات على الجمهور في المجنبتين الشرقية والغربية من الصحن ، وفي متحف الجامع . وجميع هـذه اللوحات والجوائز تنتسي لسقف واحد ، كما تدل عليه نوع مادتها وطبيعة الزخارف المحفورة عليها . وقد ساعد النص الذي اورده الادريسي في وصف الجامع مساعدة حقيقية في التعرف على هذه الاسقف[2] ، فهو يصفها بقوله : «وسقفه كله سماوات خشب مسمرة في جوائز سقفه ، وجميـع خشب هذا المسجد من عيـدان الصنوبر الطرطوشي ارتفاع حد الجائزة شبر وافر في عرض شبر الا ثلاثة اصابع ، في طول كل جائزة منها سبع وثلاثون شبرا ، وبين الجائزة والجائزة غلظ جائزة ، والسموات التي ذكرناها هي كلها ضروب الصنائع المنشـأة من الضروب المسدسة والمؤربى ، وهي صنـع الفص ، وصنـع الدوائر ، والمداهن ، لا يشبه بعضها بعضا ، بل كل سماء منها مكتف بما فيه مـن صنائع قد احكم ترتيبهـا ، وابدع تلوينهـا بأنواع الحمرة الزنجفريـة ، والبيـاض الاسفيذاجي ، والزرقـة اللازوردية ، والزرقون البـاروقي ، والخضرة الزنجارية ، والتكحيل النقسي ، تـروق العيون ، وتستميـل النفوس باتقان ترسيمها ، ومختلفات ألوانها وتقسيمها »[3] .

ولقد فند المهندس الاثري دون فيلث هرناندث النظريـة القائلة بأن هذه الاسقف متأخرة على القرن العاشر الميلادي ، ويعتقد بان هذه الاسقف اقيمت في القرن العاشر ، وانها هي نفسـها التي وصفها الادريسي في القرن الحادي عشر ، وهي نفسها التي شاهدها أمبروسيو دي موراليس في القرن

---

(1) Girault de Prangey, op. cit., P. 42 — Creswell, Early muslim architecture, Vol. II, P. 150.

(2) Felix Hernandez, op. cit., P. 198.

(3) الادريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبه . ص ٤ .

السادس عشر[1] ، وهي نفسها التي شاهدها جومث برافو في القرن الثامن عشر قبل أن تبدل الاسقف الحالية بهذه الاسقف[2] . ولقد فحص الاستاذ فيلث هرناندث الجوائز واللوحات الباقية[3] فحصا دقيقا ، واثبت صحة الارقام التي ذكرها الادريسي ودقتها البالغة فيما يتعلق بقاييسها ، واستنتج من ذلك بان اللوحات المسطحة والجوائز كانت تستقر افقيا في وضع عرضي بالنسبة لمحاور البلاطات التسع عشر، وكانت زخارف الجوائز تتشابه مع زخارف اللوحات ، كذلك اسفر الفحص الذي اجراه الاستاذ هرناندث على ان التكوينات الزخرفية ونوع الزخارف لم تكن متماثلة في جميع اللوحات ، اذ بينما توصل الى دراسة ٦٢ تكوينا زخرفيا متباينا ، اهتدى الى أربع تكوينات فقط متماثلة ، وهو ما لاحظه الآدريسي ، اذ اشار الى « ان كل سماء من سماوات المسجد مكتف بما فيه من صنائع »[4] .

وكانت جميع هذه اللوحات والجوائز تحمل زخارف يستدل من اسلوبها على انها اقيمت في عصر الحكم المستنصر . ولكن اذا كانت هذه الآثار الباقية من سقف الجامع ترجع الى ايام الحكم ، فكيف كان وضع سقف الجامع في عصر كل من عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الاوسط ؟ اعتقد ان مهندس الجامع الاول واعني به جامع عبد الرحمن الداخل ، أتبع الطريقة الشائعة في سورية في اقامة الاسقف ، فقد كانت المساجد السورية الاولى منشورية أو هرمية مفرغة . بمعنى أنها تقوم على أسقف هرمية

---

(1) ذكر امبروسيو ان هذه الاسقف من خشب الارز الذي يشبه الصنوبر ويفضله بانه معطر ولا يوجد الا في بلاد البربر . وان هذا الخشب كان مدهونا بطرق مختلفة تجعل من الزخارف شيئا لا يمكن تصوره . (Torres Balbas, arte his. mus., P. 540).

(2) Felix Hernandez, op. cit., P. 197.

(3) وصل الينا من الاسقف الخشبية ٢٠ قطعة من الجوائز ونحو ١٦٠ لوحة .

(4) Felix Hernandez, P. 219.

مفرغة ، واعتقد ان بيت الصلاة في جامع عبد الرحمن الداخل كان مسقفا على نفس نظام الاسقف السورية ، لكثرة توافد التأثيرات السورية على الاندلس في عهده . ولا شك ان حرص الامير عبد الرحمن على سرعة اتمام البناء دفعته الى اتخاذ هذا النوع من الاسقف الهرمية المفرغة ، واذا بحثنا في الاصطلاح الذي استخدمه البلوى في وصف اسقف عبد الرحمن الداخل ، بقوله :

ترى الذهب النـاري بين سموكه يلـوح كلمح البارق المتوقد

وقارنـاه بالاصطلاح الـذي استعمله الادريـسي في وصف هـذه الاسقف : « وسقفه كله سماوات خشب مسمرة في جوائز سقفه » ، نجد فارقا في المعنى ، فالاول يعني الاسقف المنشورية المفرغة فيما بينها ، والثاني يعني الاسقف المسطحة الافقية . ومـن المحتمل ان يكون عبد الرحمـن الاوسط قد سقف زيادته بنفس الطريقة القديمـة ، ولكن بيت الصـلاة تعرض للتلف في عهد الناصر واستلزم الامر اجراء اصلاحات فيه ، وكان الخليفة مشغولا ببناء الزهراء ، ثم شغل بعد ذلك بتوسيع الصحن وبنـاء الصومعة ، بالاضافة الى تعديل الجامع ، وليس من المستبعد ان يكون هو الذي اقام الاسقف الخشبية المسطحة ، فان اسلوب الزخرفة النباتية في كثير منها يشبه بعض التكوينات الزخرفية في بعض الدعائم وقواعـد الاعمدة في قصر الزهراء ، وان استخدام ورقة الاكنثس المطوية المتكررة ، وهو موضوع محبب في الفن البيزنطي ، وكثرة استخدام الدوائر الصغيرة والجامات ، والزهيرات ذات الورقات الخمسة بين الزخارف النباتية يجعلنا نميل الى الاعتقاد بوجود ثمة علاقة بين تنفيـذ هذه اللوحات المسطحـة والجوائز وبين الزخارف التي تكسـو جدران قصر الزهراء[1] ، ويؤكد ذلك

(1) هذا الراي يعارض راي الاستاذ هرناندث وتوريس بلباس اللذين يرجعان هذه التكوينات الزخرفية الى اصول عراقية .
Hernandez, op. cit , P. 221 — Torres Balbas, arte his. mus., P. 550.

ان بعض زخارف اللوحات المكتشفة تشبه بعض التكوينات الزخرفية في احدى العلب العاجية التي ترجع الى عصره • وقد لاحظ الاستاذ توريس بلباس ايضا ان الزخارف النباتية في هذه اللوحات اقرب الى الزخارف البيزنطية ، ولكنه يؤيد مع ذلك الاستاذ هرنانديث في القول بتأثيرات عراقية وفدت على قرطبة في القرن العاشر الميلادي[1] •

ومن بين اسماء الفنانين الذين اشتغلوا في تنفيذ هذه الاسقف تقرأ أسماء « ابن فتح » ، و « حاتم » ، و « رشيق »[2] • وأغلب الظن أن رشيق هذا هو نفس الفنان الذي سجل اسمه في احدى زخارف قصر عبد الرحمن الناصر في مدينة الزهراء[3] ، كما نشاهد هذا الاسم أيضا مدهونا على قاع قطعة من الخزف في حفريات الزهراء[4] ، وهذا دليل واضح على ان الاسقف الخشبية تم تنفيذها في بيت الصلاة بجامع قرطبة في عصر الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر • ثم تابع الحكم المستنصر والمنصور بن ابي عامر نفس الطريقة ، ولكنهما استكثرا من الزخارف الهندسية التي تتجلى فيها بعض التأثيرات العراقية في العصر العباسي الثاني •

ب ـ القبوات والقباب :

عمل مهندسو الحكم المستنصر على حشد كل القيم الجمالية من تناسق وايقاع ، وتعادل واتزان ، وتنوع وتكرار ، وانسجام الوان على المحراب البديع الذي يعتبر بحق اجمل ما في الزيادة الحكمية ، فوفقوا في سبيل ذلك الى ابتكار معماري اصيل • فعلى كل جانب من جانبي المحراب

---

(١) Torres Balbas, Arte his. mus. PP. 550-551.

(٢) Felix Hernandez, op. cit., P. 220.

(٣) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 84.

(٤) Velazquez Bosco, Medina Azzaahra y Alamiriya, Madrid, 1912, illus. N° XLIV.

فتح باب يعلوه عقد منفوخ تحدده من أعلى طرتان مستطيلتان تحصران بينهما شريطين من الكتابة بالفسيفساء على أرض اللازورد ، هذان العقدان يماثلان عقد المحراب نفسه من حيث المظهر العام ، ومن حيث طبيعة الزخرفة وتناسق الالوان ، وان كانا يختلفان عنه في التفاصيل . كذلك حرص مهندسو الجامع على ايجاد بلاط عرضي يمتد بحذاء جدار القبلة في مثل روعة البلاط الاوسط العمودي على هذا الجدار ، فاقاموا على اسطوان المحراب قبة قائمة على هيكل من الضلوع البارزة المتقاطعة فيما بينها ، ثم حوطها بقبتين جانبيتين ، تأكيدا لفخامة البلاط العرضي وتمجيدا للمقصورة الخلافية ، واستكمالا للتناسق والانسجام الذي املاه وجود بابين معقودين على جانبي المحراب بعقدين مماثلين لعقد المحراب ، ورغبة في انفاذ مزيد من الضوء ليغمر به مقصورة الخليفة من خلال نوافذ القباب . وعلى هذا النحو نجح مهندسو الحكم في الايحاء بوجود اسكوب مواز لجدار المحراب ، كما نجحوا في احداث التأثير الجمالي المطلوب ، وادى حرصهم على توزيع التناسق فيما يلي المحراب شرقا وغربا الى ابتكار اصيل في العمارة الاسلامية هو فكرة تعدد القباب على اسكوب المحراب . وهكذا كان وجود البابين المجاورين لعقد المحراب بعقديهما المنفوخين ، وطرتيهما المستطيلتين اللتين تماثلا طرة عقد المحراب ، السبب المباشر الذي املى على هؤلاء المهندسين فكرة الاستمرار في تعميم مظهر التناسق على جانبي المحراب وذلك باقامة قبتين تكتنفان قبة المحراب من الشرق والغرب بازاء العقدين المماثلين للمحراب اللذين يكتنفانه من الجانبين . ويغلب على الظن ان هذا النظام الفريد الذي نشهده لاول مرة في مسجد اسلامي هو الذي أوحى الى مهندس الحاكم بأمر الله بفكرة توزيع ثلاث قباب على اسكوب المحراب ، كما انه هو المصدر الذي استلهم منه مهندسو الموحدين فيما بعد فكرة تعدد القباب على بلاط المحراب واسكوبه في مساجد تنال والقصبة والكتبية بمراكش واشبيلية .

ويواصل مهندسو الحكم اضفاء مظهر التناسق الذي ضبقوه على

اسكوب المحراب باقامة قبة الضوء ، او القبة المخرمة الكبرى على مدخل البلاط الاوسط من زيادة الحكم . وقبل ان نقوم بدراسة بنية هذه القباب الاربعة بزيادة الحكم يستلزم الامر الاطلاع على ما ورد في كتب التاريخ والجغرافية العربية فيما يتعلق بوصف هذه القباب ، اذ ان بعض النصوص التاريخية تتضمن اشارات عن هذه القباب لها اهميتها الخاصة بالنسبة للدراسة الفنية . واول من اشار الى قباب الجامع هو ابن النظام الكاتب الاخباري في عصر الحكم المستنصر ، وينقل ابن حيان عنه نصا يتعلق بزيادة عبد الرحمن الاوسط حدد فيه امتداد هذه الزيادة ، بقوله : « فعمل بما رسمه حين الزيادة الثانية من هذا المسجد الفاضل المنسوبة الى عبد الرحمن بن الحكم ، المحدودة من عند الارجل الحجرية الضخام الماثلة اليوم في وسط ابهاء المسجد[1] الى المحراب الاقدم[2] الذي اتخذت فيه اليوم **القبة الكبرى المخرمة** »[3] . والكاتب يشير هنا الى القبة الكبرى المعروفة اليوم بقبة مصلي فيلافثيوسا والتي يطلق عليها الاستاذ جومث مورينو اسم قبة الضوء[4] Lucernario ، ولكن الاستاذ توريس بلباس يخطىء في تمييزها ، ويجعلها هي نفس قبة المحراب[5] . والظاهر انها سميت بقبة الضوء لتعدد نوافذها المفتوحة حول قاعدتها المستطيلة ، ويبلغ عدد هذه النوافذ ١٦ نافذة : اربعة في كل جانب ، تسمح بنفاذ الضوء قويا في صلب الجامع أي في موضع لا تكاد تصل اليه شعاعات الضوء الشاحبة التي تتسلل من نوافذ الجدران ومن قباب اسكوب المحراب . اما نوافذ قبة المحراب والقبتين المجاورتين لها شرقا وغربا فقليلة من حيث العدد

---

(١) يعني بها الدعائم المتخلفة من جدار القبلة بمسجد عبد الرحمن الداخل (انظر الصورة) .

(٢) يقصد به محراب عبد الرحمن الاوسط الذي اقامه في جدار القبلة بزيادته .

(٣) راجع نص ابن النظام الذي نشره ليفي بروفنسال في مجلة Arabica ، ص ٩١ ، ٩٢ — ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢٤٥ .

(٤) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ١٤١ .

(٥) Torres Balbas, Arte his. mus., P. 498.

بالنسبة لقبة فيلافشيوسا ، ثم انها نوافذ ذات متكآت رخامية تعوق الضوء من النفاذ بنفس القدر الذي تتيحه نوافذ قبة فيلافشيوسا . وعلى هـذا الاساس فان هذه القبة التي يشير اليها ابن النظام تستحق عن جدارة هذا الاسم « قبة الضوء » . ولكن الادريسي يطلق على قبة المحراب اسم القبة الكبرى[1] على الرغم من انها تقوم على اسطوانين ، في حين تقوم قبة الضوء على ثلاثة اساطين . ويتفق عدد كبير من المؤرخين العرب على تسمية قبة المحراب بالقبة الكبرى ، منهم ابن سعيد الذي يسميها القبـة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة[2] ، وابن غالب ويسميها القبة العظمى التي كانت تعلق فيها الثريـا الكبيرة التي تحمل ١٠٢٠ كاسا[3] ، وهي اكبر ثريات الجامع واضخمها[4] . والظاهر ان الادريسي وابن سعيد وابن غالب قد سموها بالقبة الكبرى لانها القبة التي تقوم امام اسطوان المحراب ، انبل بقعة في المسجد الجامع واشرفهـا ، بل واكثرها اهميـة ، والموضع الذي يؤم صاحب الصلاة المسلمين ، ويقف على المنبر للخطبة ، والمكان الذي يتخذه الخلفاء للصلاة ، والبقعة الطاهرة التي تطالع فيهـا آيات القرآن ، ولهذا السبب قلت فتحاتها ونوافذها واستعيض عن ذلك بالزخرفة الزاهية التي تأخـذ بمجامع القلوب ، وزودت باضخـم ثريات الجامع لتزويدها بالضوء . اما ابن عذارى فيسمى قبة فيلافشيوسا او القبة الكبرى المخرمة باسم « القبو الكبير » الذي يصطف المؤذنون امامه يوم الجمعة للاذان ، ويصفه بأنه من أعجب البنيان[5] . ولا شك أن اختيار هذا الموقع بالذات للاذان بداخل الجامع كان موفقا لان هذه القبة تتوسط بيت الصلاة تقريبا ، ومنه يسهل انتشار صوت المؤذن الى باقي بلاطات الجامـع .

---

(١) الادريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبة ؛ ص ٢ .
(٢) المقري . ج ٢ ص ٨٩ .
(٣) ابن غالب . ص ٢٩ .
(٤) المقري . ج٢ ص ٨٩ .
(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤١ .

كذلك وصل الينا وصف لمسجد قرطبة وقبابه ، كتبه ابو محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبني ، وجاء في وصف القباب عبارة نصها : « وظهور القباب مؤللة ، وبطونها مهللة ، كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان »[1] . هذه العبارة تعبر تعبيرا قويا عن حقيقة بنية القباب من الداخل والخارج على نحو يثير الاعجاب ، ولا شك ان الكاتب قد شاهد العنق المثمن الذي تقوم عليه القباب من الخارج وقد فتحت فيه متكآت الرخام وبأعلاه سطح مدبب من ثمان إوجه بدلا من الشكل المنشوري او الهرمي العادي ، فتبدو ظهور القباب على هذا النحو « مؤللة » أي مدببة[2] ، كذلك شاهد الكاتب جوف القباب فألفاه مكونا من الضلوع البارزة التي تتخذ اشكال عقود منفوخة متقاطعة فيما بينها ومؤلفة الهيكل الذي تقوم عليه كسوة القبة ، تاركة في المركز فراغ مثمن الشكل تشغله قبية مفصصة . هذه الضلوع البارزة يشبهها الكاتب بالأهلة وهو تشبيه بارع توصل اليه الكاتب وعبر به عن حقيقة ما شاهده تعبيرا واضحا ودقيقا في آن واحد . وحول هذه الضلوع شاهد زخارف من الفسيفساء المذهبة وقواقع زخرفية ونجوم منقوشة ، فبدت بطون القباب وقد تهللت اي تزاحمت فيها الاهلة (ويمكن فهم تهللت على انها اشرقت) كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان . وكانت قباب المقصورة الثلاثة مذهبة على حد قول الحميري[3] ، وان كان التذهيب في الوقت الحاضر لا ينطبق الا على قبة المحراب وحدها .

ولما كانت القباب تتطلب دعائم ضخمة لتتلقى الدفع الذي تمارسه ، وهي مهمة تحتاج الى ركائز ضخمة لا يمكن ان تقوم بها الاعمدة الرفيعة ، فقد كان من الطبيعي ان يفكر المهندسون في حل لهذه المشكلة تكفل

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٨٩ — ٩٢ .
(٢) الل الشيء اي حدد طرفه (لسان العرب لابن منظور، ج ١٣ ص ٢٤)
(٣) الحميري ، ص ١٥٧ .

تحقيق الدعم المطلوب مع تجنب اقامة دعائم او ركائز عند المقصورة لان وجود هذه الدعائم المفترض اقامتها من شأنه ان يقطع وحدة نظام التدعيم المعاري في المسجد ، ويفسد المظهر الجمالي الذي يسود بيت الصلاة ، ويحجب رؤية القبلة عن انظار المصلين مع انها اجمل واروع عناصر الجامع المعارية والزخرفية معا . ونجح المهندسون القرطبيون في حل المشكلة على نحو اصيل ، ففي كل من الركنين الاماميين للاسطوان المزدوج الذي ترتفع عليه قاعدة قبة المحراب ، ركز المهندسون عمودين بدلا من عمود واحد ، ونصبوا في الفراغ القائم بينهما عمودين آخرين في الواجهة الشمالية وعمود في كل من الجانبين القصيرين من جوانب الاسطوان المزدوج ، وامكن لهذه الاعمدة ان تحمل طابقين من العقود : الادنى من النوع المفصص (ذي الخمسة فصوص) . والاعلى من النوع المنفوخ ، وحرصا على تشبيك الطابقين اوصل المهندسون بينهما بنحور تمتد من رؤوس العقود المفصصة السفلى يمينا ويسارا لتلتحم ببطون العقود العليا مؤلفة بذلك تشبيكا متماسكا ، يسهل بواسطته توزيع الضغط الذي تمارسه القباب توزيعا يجنب تركيزه على الاعمدة . ولما لم يكن من الضروري بالنسبة لقبة مصلى فيلافثيوسا اقامة دعائم ، فقد أقاموا في الاركان أربعة اعمدة مصلبة ساعدت على دعم قاعدة القبة ، وساهم في ذلك عمودان متوسطان وعقد المدخل الى زيادة الحكم ، وهو عقد مزدوج مفتوح في الجدار الضخم الذي اقامه الحكم ، وحرصا على استقرار القبة على قاعدة ثابتة قوية وتوزيع دفعها توزيعا مريحا مع تجنب اي تركيز في الثقل او الضغط قد يؤدي الى تصدع القباب وانهيارها ، ركب المهندسون في هذه القبة ايضا عقودا مفصصة اخرى ونحورا رابطة بحيث تألف من ذلك شبكة معقدة متداخلة حلت مشكلة التدعيم حلا مرضيا واصيلا . ويعلق الاستاذ توريس بلباس على ذلك بقوله : « ان المهندس الذي ابتكر في النصف الثاني من القرن الثامن البنية الاصيلة التي يعبر عنها نظام طابقي العقود المتراكبة ، والعقود السفلى المنطلقة في الهواء المتحررة من كل تحمل

لضغوط السقف والسطح المقرمد ، هذا المهندس البارع خلفه بعد مائتي عام مهندس طور الموضوع ، وعقد في شكل العقود ، فشبكها ، ورفع فوق نظام التدعيم الضعيف قواعد ضخمة ثقيلة ، تتوجها قباب من الحجر ، كل ذلك في براعة فنية يؤديها بناء ، وحساسية مرهفة يعبر عنها فنان »[1].

وتقوم القباب على عقود نصف دائرية بارزة من حجر منجور ، تتقاطع فيما بينها مؤلفة اشكالا نجمية مضلعة ، مع ترك فراغ في الوسط مثمن الشكل في القباب الثلاث المتجاورة بالمقصورة ومربع الشكل في قبة الضوء ، تشغله قبيبة مفصصة ، ويغطي الفراغات الواقعة بين العقود المتقاطعة والمتخلفة من التقاطع كسوات حجرية تختلف في مستوياتها ، وتطبق في هذه الفراغات في جميع القباب باستثناء قبة المحراب التي كسيت بالفسيفساء قبيبات دقيقة وقواقع ومحارات مفرغة ومضلعة ، وزخارف نباتية بارزة واشكال نجمية وصور مصغرة لقبيبات دقيقة قائسة على الضلوع ، وتتمثل هذه القبيبات المضلعة في قبة الضوء بمصلى فيلافتيوسا ، وهي القبة الوحيدة التي تظهر فيها العقود البارزة بلا طلاء يغطي سنجاتها، ونلاحظ ان القاعدة المربعة تتحول في القباب الثلاثة بمقصورة الجامع تجاه المحراب الى طابق مثمن عن طريق جوفات مقوسة تشغل الاركان الاربعة للقاعدة ، وجوفات القبة الوسطى او قبة المحراب تعلو كل منها قبوة مضلعة معقودة بعقد خماسي الفصوص ، في حين تتألف في القبتين المجاورتين لقبة المحراب من محارات مضلعة عقدت من اعلى بعقود منفوخة ، وتتوسط جدران قواعد هذه القباب الثلاثة عقود زخرفية ، تعلوها في قبة المحراب عقود منفوخة وفي القبتين المجاورتين لها عقود خماسية الفصوص . وبعد ان تتحول القاعدة المربعة الى قاعدة مثمنة نلاحظ انه يشغل كل ضلع من اضلاع هذه القاعدة نوافذ مفتوحة بها متكآت رخامية مشبكة ، وينطبق ذلك فقط على القبتين المجاورتين لقبة المحراب ، اما هذه القبة الاخيرة فلا

---

(1) Torres Balbas, arte his. mus., P. 505.

يفتتح فيها سوى نوافذ اربعة فقــط • وتنبت من كل مــن حدائر العقود الثمانية التي تشغل عنق كل من القبتين الجانبيتين ضلعان بارزان قطاعهما مستطيل الشكل ، يقومان على عمود واحــد ، (وعلى عمودين في قبــة المحراب) ، وتتقاطع هذه العقود فيما بينها مؤلفة فراغا مثمنا ترتكز عليه قبة مضلعة او مفصصة ، ويغطي قبة المحراب كلها كسوة من الفسيفساء المذهبة تتخذ زخارف نباتية واخرى هندسية شطرنجية ؛ تسلأ فصوص القبوة المركزية وتغمر الضلوع وما بينها ، وكتابات تدور بقاعدة القبــوة المفصصة المركزية • أما قبة مصلى فيلافثيوسا القائمة على الاسطوان الذي يمثل مدخل زيادة الحكم في الجامع فتقوم على قاعدة مستطيلة الشكــل طولها ٨,٣٥ مترا وعرضها ٧,٣٥ مترا ، ويتألف من تقاطع ضلوعها مربــع مركزي تتوسطه قبوة مضلعة • ويقع بين منابت العقود المتقاطعة ١٦ نافذة ؛ اربعة في كل جانب[1] •

وقد بحث مؤرخو الفن في اصل القبوات ذات الضلوع المتقاطعــة ؛ ولكنهم لم يهتدوا الى مثل واحد اقدم في تاريخه من امثلة قباب جامــع قرطبة ، ولكنهم اهتدوا الى امثلة متأخرة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (الميلادي) في العــراق وفي ايران ، وكلهــا من الآجر • امــا المثل الحجري الوحيد للقباب القائمة على الضلوع المتقاطعة او المتشابكــة في قرطبة فيتمثل في كنيسة أشبط الواقعة بشمال ارمينية • ولكن قباب اشبط ترجع الى تاريخ متأخر كثيرا عن قباب قرطبة ، فبينما يرجع تاريخ انشائها الى سنة ١١٨٠ م نجد تاريخ انشاء قباب قرطبة لا يتجاوز سنة ٩٦٥ م • وهناك من يرجع اصل قباب قرطبة الى قبوات الضلوع بجامع اصفهــان الكبير، ولكن هذه القبوات لا يمكن انتتخذ مصدرا لقباب قرطبة لعاملين: الاول انها تعرض نظاما اوليا للضلوع المتقاطعة ، يشبه الى حد ما نظــام

---

(1) Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, PP. 54-60 — Arte hispano musulman, PP. 498-528.
جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ١٤٥ •

القباب القرطبية ولكنه لا يعد اصلا له[١] . والثاني انها ترجع الى القرن الحادي عشر الميلادي ، مما يحملنا على القول بان قرطبة هي التي مارست تأثيرها على القباب الشرقية . ويعتقد الاستاذ لامبير ان اصول قباب قرطبة وقبوات ارمينيـــة لا بد ان تكون واحدة ، وانهـــا قد تكون في احـــدى المقاطعات البيزنطية او الساسانية بآسيا ، كما استطاع ان يلاحظ وجود تقارب واضح المعالم بين انفصال الضلوع في قباب جامع الزيتونة بتونس وبين نظائرها المتقاطعة في جامع قرطبة على الرغم من أن ضلوع هذه القباب التونسية المشعة من مركز القبة لم تصل بعد الى المرحلة التي تنفصل فيها عن غطاء القبة ، وان كانت في الوقت نفسه اكثر بروزا من ضلوع قبـــة المحراب بجامع القيروان[٢] .

وقد انتقل نظام التقبيب القرطبي القائم على تقاطع الضلوع مـــن قرطبة الى طليطلة ، فنراه ممثلا في صور مختلفة في مسجد الباب المردوم . ونشاهد في قباب هذا المسجد ما يمثل شكـــلا رباعيا منحرفـــا ذا قطرين متقاطعين يؤلفان ما يشبه قبوتين متداخلتين من الطراز القوطي ، ومنها ما يبدو على شكل مثمن ، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع قبة المحراب بجامـــع قرطبة ، واخرى تمثل اشكالا نجمية مثمنة الرؤوس . ثم انتشر استعمـــال القباب ذات الضلوع منذ ذلك الحين انتشارا كبيرا يشهد به ذلك العدد الهائل الذي نراه في الكنائس المسيحية بطليطلة مثل قبة مصلى بيلين في دير سانتافي ، وقبة مسجد المسلمين بالدباغة المعروف بلاس تورنيرياس بطليطلة[٣] ،وكانت قبة مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة قائمة على الضلوع . وظل استخدام القباب ذات الضلوع المتقاطعة منتشرا في الاندلس والمغرب

---

(١) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 521-524.

(٢) Lambert, Les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne, au IXe et Xe siècles, Hesperis, t. XXII, fasc. II, 1936 — Lambert, L'architecture musulmane au Xe siècle, Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، مسجد المسلمين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

حتى ظهرت القباب المقرنصة في عصر دولتي المرابطين والموحدين . ومن قباب قرطبة وطليطلة تشعبت الفكرة وسرت في العمارة الرومانية الاسبانية والفرنسية ، فطغت على نظام التقبيب المصلب في المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس دل ريو بنبرة ، وبرج دير موساك ، وقبوة اولورون وقبوة اوسبيتال سان بليز بفرنسا[1] .

(٥)

الابواب والنوافذ

كان جامع قرطبة الذي اقامه الامير عبد الرحمن الداخل يشتمل على خمسة ابواب : ثلاثة منها تنفتح على الصحن (واحد في كل من الاسوار : الشمالي والشرقي والغربي) ، واثنان في بيت الصلاة (احدهما في الشرق والآخر في الغرب) . ثم اضاف هشام للجامع بابين للسقيفة الجوفية الملحقة ببيت الصلاة من طرفيها الشرقي والغربي، وفتح عبدالرحمن الاوسط في زيادته الثانية بابين : احدهما في الجدار الشرقي والثاني في الجدار الغربي من جهة القبلة . اما الناصر فيبدو انه فتح بابين يشرعان الى الصحن بعد ان قام بتوسعته ، احدهما في الجدار الشرقي والاخر من الغربي ، ثم فتح الحكم في زيادته ثمانية ابواب اربع في كل من جانبيه الشرقي والغربي ، كما فتح في الجدار القبلي مما يلي المحراب غربا بابا يشرع الى الساباط ، واصبح مجموع عدد ابواب الجامع بعد زيادة الحكم فيه عشرين بابا . ولما اجرى المنصور زيادته الكبرى في جامع قرطبة هدم الجدار الشرقي ، واضاف لبيت الصلاة ثمان بلاطات بطول الجامع ، ثم

---

(1) السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الاندلس، ص ٤٠ — ومقال بعنوان التاثيرات المعمارية في الاندلس ، دائرة معارف الشعب . عدد ٦٤ ، ص ١٧٤ .

فُتح في الجدار الشرقي الجديد عددا من الابواب يماثل عدد ابواب الواجهة الغربية ، ثم فتح بابا في الجدار الشمالي ، فاصبح المجموع الكلي لابواب الجامع ٢١ بابا ، وهو رقم اورده المقري نقلا عن ابن بشكوال[١] ، واعتقد ان هذا الرقم هو اصح الارقام التي اوردها المؤرخون الآخرون[٢] . والى هذا العدد يمكن ان نضيف ثمانية ابواب كانت تنفتح في الساباط ، وبابا للمخزن الواقع الى يسار المحراب ، ثم الباب المتخلف من جدار الزيادة الحكمية الشرقي مما يلي جدار القبلة ، واخيرا ثلاثة ابواب بالمقصورة . وكانت جميع الابواب الخارجية وفقا لما ذكره الادريسي « مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس ، وفي كل باب منها حلقتان في نهاية الاتقان ، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الاحمر المحكوك انواع شتى واجناس مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البزاة »[٣] .

هذا الوصف الرائع هو أقرب الى أن يكون وصفا لمؤرخ معاصر للفن، فالادريسي لم يترك الدقائق الزخرفية البسيطة دون ان يصفها ، فقد اشار الى الفسيفساء التي تزين واجهات الابواب والتي تقوم على ترصيعها بقطع من الآجر الاحمر الاملس مع قطع من الحجارة البيضاء في اشكال هندسية،

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) ذكر ابن غالب ان عدد ابواب الجامع بعد زيادة المنصور ١٧ (واعتقد انه استبعد من المجموع الكلي بابا سقيفة هشام وباب القبلة) . وذكر كل من الادريسي وابو حامد الغرناطي أن عدد الابواب بعد زيادة المنصور بلغ عشرين (ولعلهما لم يحتسبا الباب الشمالي الصغير أو الباب المؤدي الى المشرع للساباط) .

(٣) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ١٠ . ويذكر ابن سعيد ان هذه الابواب كانت ملبسة بالنحاس الاصفر (المقري ، ج ٢ ص ٨٨) ، ويذكر المقري ان في كل باب منها حلقة متقنة الصنعة (ج ٢ ص ٩٥) بينما يذكر ابو حامد الغرناطي نقلا عن الادريسي ان في كل باب حلقتان في نهاية الصنعة ونميل الى الاخذ بقول الادريسي استنادا الى ما نشاهده اليوم في باب الغفران .

الى جانب الزخارف النباتية التي تملأ بنيقـات العقود وتغمر السنجـات والاعتاب وطرر العقود ، ومـا بين العقود العليـا والجانبية ، ويشبههـا بالتريش وصـدور البزاة ٠ وكانت ابواب الجامع تنفتح بين زوج مـن الركائز ، ونلاحظ ان ابواب الزيادة الحكمية تتميز بالضخامة ، والثراء الزخرفي ، فواجهاتها جميعا مكسـوة بالزخارف النباتية والهندسية ٠ ومع انه لم يتبق من هذه الابواب سوى ثلاث في الواجهة الغربية ، الا انه تبقت مع ذلك عقود في مخلفات الجدار الشرقي ، احدها باب وصل الينا كاملا في نهاية الواجهة الشرقية مما يلي القبلة ، زود عقده بعتب مسنج يعلوه عقد مخفف الضغط ، يقتصر تسنيجه على الثلث الاعلى من دائرة العقد ، بينما يغطي الفراغين الجانبيين زخارف رائعة قوامها التوريقات والتكوينات النباتية التي تتألف من فروع لولبية مستديرة تتصل فيما بينهـا اوراق مختتمة من الاكنتس ٠ وتتوسط هذه الاكاليل المستديرة ورقة نباتية مـن ثلاثة فروع مشدوخة من الوسط ٠ ويتناوب في العقد سنجات حجريـة نقشت فيها توريقات نباتية مع اخرى من الآجر ذات اربعة قوالب مصفوفة على جوانبها ٠ اما طبلة العقد فتكسوها زخرفة هندسية من اشرطة حجرية متعرجة ، تتناوب مع أخرى من الآجر ، أما سنجات العتب المكمل لطبلة العقـد فتغطيها زخارف شبيهة بزخارف سنجات العقـد ٠ ويغمر بنيقات العقد الرئيسي والعقود الخمسة المفلقة التي تتقاطع بأعلى الباب زخارف من التوريق ٠ اما زخارف الطرة المحيطة بعقد الباب فشطرنجية مرصعـة بفصوص الحجر والآجر ٠ ولعل هذه البوابـة كانت تتوجها مـن اعلى شرفات مسننة على مثال باب المكتبة بجامع القيروان[1] ٠ ويكتنف الابواب الاخرى التي تنفتح في الواجهة الغربية من كل من الجانبين جوفة مستطيلة لها عتب مسنج ، بأعلاها عقد مفلق خماسي الفصوص : تكسـوه زخارف هندسية من الفسيفساء ، وتملأ بنيقتي العقد توريقات تتوسطها زهـرة

---

(1) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 150 — Marçais, l'architecture musulmane d'occident, P. 169.

بارزة ، ويعلو الباب من اعلى نوافذ مغلقة تعلوها عقود منفوخة قائمة على عمد ، وتتقاطع هذه العقود فيما بينها ، وتحتشد في ارضية النوافذ المغلقة وبنيقات العقود وطررها وظهورها زخارف هندسية ونباتية .

ومن الجدير بالذكر ان هذه الابواب جميعا تحتفظ بنفس نظام باب سان استيبان ، وان سنجات عقود الابواب الغربية كاملة بعكس نظائرها في الجدار الشرقي الذي يرجع الى عهد المنصور . وتتبع ابواب هــذه الجدار الشرقي في اسلوبها ابواب الجدار الغربي ، ولكن زخارفها ليست في مثل زخارف بوابات الحكم من حيث خطوط الزخرفة ومن حيث نسبها ومن حيث طريقة ادائها مما يدل على اضمحلال واضح في فــن الزخرفة والبناء في عصر المنصور . ولقد وصلت الينا ابواب زيادة المنصور مشوهة، لا سيما في اجزائها العليا ، فرممت في طليعــة هذا القرن ترميما غير علمي ابعدها عن اصولها[1] .

أما نوافذ الجامع فيصفهــا الادريسي ، دون ان يشــير الى عددها ، فيذكر انه « فيما استدار بالجامع من اعلاه لتمــدد الضوء ودخولــه الى السقف متكآت رخام ، طول كل متكأ منها قدر قامة في سعة اربعة اشبار في غلظ اربعة اصابع ، وكلها صنع مسدسة ومثمنة مخرمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضا »[2] . اما ابن غالب فيذكر اعدادها بقوله : « عــدد الواح الرخام المنصوبة في الحيطان لدخول الضياء عليها اربعــة وخمسين لوحا ، وفي الجهة الشرقية منها خمسة عشر لوحا ، وفي الغربية مثلها ، وفي القبلة منها ثمانية عشر لوحا ، وفي الساباط الذي يدخل منــه ساكن القصر الى الجامع ستة ألواح »[3] ، ولكنه لا يذكر شيئا عن المتكآت المنصوبة بعنق القباب الاربعة . وتتميز هذه المتكآت ـــ وبعضها من الرخام والبعض من

---

(1) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 162 et sqq. — Torres Balbas, Arte hispano musulman, PP. 575-578.

(2) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ١٤ .

(3) ابن غالب ، ص ٢٩ .

الجص ــ بزخارفها الهندسية وقوامها الدوائر والمربعات والنجوم مثمنة الرؤوس ، ويلاحظ ان متكآت القباب اقل حجما من متكآت الجدران .

ويعتقد الاستاذ كلاوس بريش ان متكآت الرخام في الواجهة الشرقية من الزيادة الحكمية كانت تشبه نظائرها في الواجهة الغربية[1] ، كما يذكر ايضا ان عدد المتكآت الحالية ثلاثون ، منها واحدة انقسمت الى قسمين ، ولكنه يعتبرها واحدة ، ومنها احدى عشرة حديثة ، وتسعة عشرة اصلية ، وكل هذه المتكآت من الرخام الابيض[2] ، وتغلب على زخارفها العناصر الهندسية ، وان كان بعضها يزدان بعناصر نباتية ، مع ملاحظة ان زخارف متكآت الزيادة الحكمية اكثر زخارف المتكآت تعقيدا وغلوا في الحشد الزخرفي .

(٦)

واجهة المحراب

واجهة عقد المحراب وعقدي البابين المجاورين شرقا وغربا :

يذكر المقري نقلا عن صاحب كتاب مجموع المفترق ، ان جدار المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء[3] . ويذكر الادريسي ان هذا الجدار يكتظ بالنقوش والرقوم التي يعجز الواصفون عن وصفها[4] . والواقع أن وجه المحراب والعقدين المجاورين له قد كسيا بالزخارف الرائعة من نباتية وهندسية وكتابية تبهر الناظر اليها بكثرتها

---

(1) Klaus Brish, las celosias de las fachadas de la gran mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. XXVI, 1961, P. 399.

(2) Ibid., P. 400

(3) المقري ، ج ٢ ص ٩٥ .

(4) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ٦ .

وأناقتها وتنوعهـا وتناسق توزيعها • فعقد المدخـل الى المحراب منفوخ متجاوز يقوم من كل جانب على عمودين ، هما نفس العمودين اللذين كانت تزدان بهما كل من عضادتي محراب عبد الرحمن الاوسط ، اقتلعها مهندسو الحكم ونقلوها الى الزيادة الحكمية لتوضع في موضعها من المحراب الجديد• ويغطي الوجهين المرئيين من منكبي عقد المحراب كتابـة كوفية في ثلاثـة سطور مذهبة على ارضية حمراء ، نقرأ على المنكب الايمن النص التالي :
« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتـدي لولا ان هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق • أمر الامـام المستنصر بالله عبدالله الحكم امير المؤمنين » ، ونقرأ علـى المنكب الايسر النـص الآتي : « أصلحه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضي الله عنه بنصب هذين المنكبين فيما أسسه على تقوى من الله ورضوان ، فتم ذلك في شهر ذي الحجة سنة اربع وخمسين وثلاث مائة »[1] • ويؤزر جـدار المحراب لصق عضادتيه لوحان من الرخام الابيض حفرت فيهما زخارف من التوريقات الدقيقة حفرا غائرا عميقا يبرزها كما لو كانت مفرغة على نحو ما نراه في المنمنمات ، وتعتبر هذه الزخارف من اروع امثلة فن النحت على الرخام في العصر الاسلامي • ويتألف عقد المحراب من سنجات طويلة تمتد حتى منكبيه ، وتغمرها زخارف نباتيـة من الفسيفساء متعـدد الالوان • ويحدد دائرة العقد افريز بارز من الرخـام يزدان بورقة نباتيـة متكررة ويحف بها مسبحة ، بينما يعلو العقـد افريز مستطيل مـن الرخام يزدان بتوريقات بارزة • وبنيقتا العقد من الرخام تكسوهما توريقات من فروع مستديرة ولولبية تتمثل فيها ورقة الاكنش ، ويحيط بالعقد طرة مستطيلة او تربيعة ، تفصلها من اعلى عن الافريز الذي ذكرناه ارضية من الفسيفساء، ويملأ الطرة سطران من الكتابة الكوفية من الفسيفساء المذهبة على ارضية لازوردية يتضمنان تسجيلا لتاريخ بناء التشبيك الذي تقوم عليـه القبة •

---

(1) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, P. 12.

وبأعلى الشريط الافقي بالطرة افريز عريض بطول المحراب ، يزدان بسبعة عقود ثلاثية الفصوص مغلقة قائمة على ثمانية عمد صغيرة رشيقة ، تيجانها كورنثية . ويغطي سطوحها الغائرة الواقعة بين العمد فسيفساء تمثل زخارف نباتية ، وتنتهي الواجهة من اعلى بشريط بارز مكتظ بالزخارف المحفورة ، وعلى هذا الشريط البارز تقوم قاعدة القبة .

ويصف الادريسي وجه المحراب وصفا يتفق مع الواقع بقوله : « ولهذا المسجد قبلة يعجز الواصفون وصفها ، وفيها اتقان يبهر العقول تنميقها ، وكل ذلك من الفسيفساء المذهب الملون ، مما بعث صاحب القسطنطينية العظمى الى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الاموي ، وعلى هذا الوجه اعني وجه المحراب سبع قسي قائمة على عمد ، وطول كل قوس أشف من قامة ، وكل هذه القسي مزججة صنعة القرط[1] ، قد أعيت الروم والمسلمين بغريب اعمالها ودقيق تكوينها ووصفها ، وعلى اعلى الكل كتابان مسجونان من بحرين من الفسيفساء المذهب في ارض الزجاج اللازوردي ، وكذلك تحت هذه القسي ذكرناها كتابان مثل الاولين مسجونان بالفسيفساء المذهب في ارض اللازورد . وعلى وجه المحراب انواع كثيرة من التزيين والنقش »[2] .

والعقدان الجانبيان لعقد المحراب ابتكار قرطبي ، استحدثه مهندسو جامع الحكم المستنصر استكمالا للمظهر الجمالي للبناء والزخرفة ومراعاة للتناسق والانسجام بين جوفة المحراب وبين البابين المفتوحين على يمينه ويساره ، ويبدو العقدان الجانبيان كما لو كانا محرابين اضافيين ، وقد انتقلت هذه الفكرة الى العمارة الفاطمية واصبح جدار القبلة في المساجد الفاطمية بل وفي الاضرحة ايضا مزودا بمحاريب ثلاثة . ولكل من العقدين المجنبين لعقد المحراب في جامع قرطبة عتب مسنج ، ولكنه مغطى في الوقت

---

(١) اي مفصصة .
(٢) الادريسي، وصف المسجد ص ٦ ـ نزهة المشتاق، ص ٢٠٩، ٢١٠ .

الحاضر ، ويعلو العتب عقد يماثل عقد المحراب ، ويملأ وجه العقد وبنيقتيه زخارف نباتية من الفسيفساء متعـدد الالوان ، وتحيط به خمسة افاريـز الثاني والرابع منها تشغله كتابة كوفية ، والثالث والخامس تحتشد فيـه زخارف هندسية، وتتوسط طرة المحراب من اعلاها نافذة مستطيلة الشكل نصبت فيها لوحة مخرمة حديثة • وقـد تعرض الجزء العلوي مـن الطرة لاصلاحات أفسدت صورتها القديمة وشوهتها ، ويحيط بالنافذة ثلاثـة أشرطة من الفسيفساء ، تملأ الاوسط منها كتابة • أما العقد الايسر فقد كان مختفيا وراء لوحة مصورة ومذبح ، فلما أزيلا ظهر العقد مشوها قد فقد معظم عناصره الزخرفية ، فرمم سنة ١٨١٦ ، على مثال العقد الايمن للمشرع الى الساباط ، ونسخت نفس النقوش الكتابية التي سجلت حول العقد الايمن • ويعلو كل من العقدين الجانبيين لعقد المحراب بأعلى النافذة عقد كبير منفوخ بارز ومسنج في ثلثـه العلوي ، وتتميز سنجاته بأنهـا متماشقة ، ويقوم العقد على عضادتين ، ويعتقد الاستاذ تراس بأن أصل هذا النوع موجود في العمارة البيزنطية ، وأنه استخدم من قبل في كل من جامعي دمشق والقيروان[1] •

أما المحراب فيعتبر أجمل العناصر المعمارية والزخرفية في الجامع ، فقد اهتم به مهندسو الحكم المستنصر اهتماما خاصا ، وحشدوا في حنيته وعلى واجهته وأمام أسطوانه وفي بلاطه وأسكوبه كـل أنواع الزخارف التي أثارت اعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء • ويذكر ابن غالب أن « طوله من القبلة الى الجوف ثمانية أذرع ونصف ، وارتفاع قبوه ثلاثة عشر ذراعا ونصف ذراع »[2] • ويتفق ابن سعيد مع ابن غالب في هذه المقاييس فيذكر أن « ذرع المحراب في الطول من القبلة الى الجوف ثمان أذرع ونصف ، وعرضه من الشرق الى الغرب سبع أذرع ونصف ، وارتفاع قبوه في السماء ثلاث عشرة ذراعا ونصف »[3] • وتخطيط المحراب على

---

(1) Terrasse, l'art hispano mauresque, P. 111.

(٢) ابن غالب ، ص ٢٨ .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٩٧ ، ٩٨ .

شكل مثمن منتظم ، وهـو المثـل الوحيد في العمارة الاسلامية بهـذا التخطيط ، وقد أثر محراب قرطبة في شكل محراب المرية الذي تحولت أركانه الاربعة الى مثمن عن طريق جوفات ركنية مقوسة[1] . ومحراب قرطبة مفرغ في كتلة ضخمة من البناء ويظهر موضع المحراب من الخارج بواسطة مستطيل ناتيء عن الجدار يبدو كأنه ركيزة مطولة . ويغطي ازار المحراب من الداخل لوحات ملساء من الرخام المجزع ، يعلوها شريط بارز من الرخام نقشت فيه كتابة كوفية بارزة نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين ، أمر الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله بعد عون الله فيمـا شيده من هذا المحراب بكسوته بالرخام رغبة فيجزيل الثواب وكريم المآب، فتم ذلك على يدي مولاه وصاحبه جعفر بن عبد الرحمن رضي الله عنه بنظر محمد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخالد بن هاشم أصحاب شرطته ، ومطرف ابن عبد الرحمن الكاتب عبيده في شهر ذي الحجة من سنة أربع وخمسين وثلث ماية ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقـد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور »[2] . ويعلو هذا النقش رف بارز من الرخام يدور حول جوفة المحراب ، ويستند على مساند مزينة بتوريقات محفورة حفرا غائرا على أسلوب أوراق التيجان ، ويجري تحت هذه المساند مسبحة حباتها بارزة ، وبين المسند والمسند كتابة بارزة في اطار ، تقرأ في الاطارين الواقعين الى اليمين « عمل فتح وطارق » ، وفي الاطارين الواقعين الـى اليسار « عمل نصر وبدر » . ويعلو المساند المذكورة افريز من الكتابة الكوفية تتضـمن آية قرآنية . ويزدان كل وجه من الاوجه الستة للمحراب من الداخل بأعلى الرف البارز بعقد مغلق من ثلاثة فصوص يقوم علـى عمودين مـن الرخام ، ويتناوب في العقد سنجات ملساء وأخرى مزينة بتوريقات ، ويغطي عضادتي العقد وبنيقتيه وتربيعته توريقات محفورة في

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

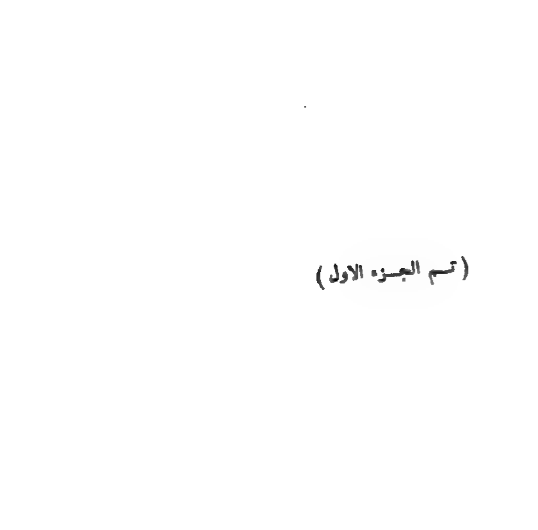
(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Esp., PP. 10, 11.

الجص تشبه التوريقات المحفورة في اللوحتين الرخاميتين اللتين تكتنفان عقد المحراب من الخارج[1] . ويرى الاستاذ توريس بلباس أن أثر اليد العاملة البيزنطية واضح كل الوضوح في الرف البارز وفي زخارف المساند وفي المسابح الزخرفية اذ نشهد مثيلا لها في كنائس القسطنطينية مما يقطع بأنه لم يصل الى قرطبة صناع حاذقين لزخرفة الفسيفساء فحسب بل فنانون ونقاشون ونحاتون[2] .

ويعلو جوفة المحراب « خصة رخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الالوان »[3] . وقد وصف ابن غالب الاندلسي المحراب وصفا تفصيليا كاملا جاء فيه : « سقفه القبو من رخامة بيضاء منقورة بالحديد على صفة المحارة قد أحكمت وأنزلت في موضعها بأتقن صنعة ، وهو مثمن البنيان من داخله ، مكسوة جوانبه بثمانية ألواح من الرخام طول كل لوح منها ... الثمين الذي الطبع فيه ثمانية أذرع تامة ، عرض الستة منها ستة أشبار ، وعرض اللوحين الباقيين ثلاثة أشبار الى موضع الرف المستدير على رؤوس الالواح المعمول بالرخام ، وأرضه مفروشة بالرخام الابيض ، في عتبة بابه لوح رخام أبيض يمسكه ما بين عضادتيه ، وما تحت سواري العضادتين ، طوله اثنا عشر شبرا ، وعرضه أربعة أشبار ، وجدار المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء »[4] .

كذلك وصف أبو ابراهيم محمد بن صاحب الصلاة الوليني محراب الجامع عند حضوره لمشاهدة الاحتفال بليلة القدر بقوله : « قد قوس محرابها أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة مقرطق ، وبقوس قزح منطق ، وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام »[5] .

(1) Torres Balbas, Arte hispanomusulman, P. 537.
(2) Ibid.
(3) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ٨ .
(4) ابن غالب ، ص ٢٨ ، ٢٩ .
(5) المقري ، ج ٢ ص ٩٠ — ٩٢ .



(تـم الجـزء الاول)



قائمة بالاصطلاحات الفنية الواردة في الكتاب وتفسيرها

العقـد : هو القوس أو حنية تتخذ امـا شكلا نصف دائري أو نصف دائري تجاوز القطر أو نصف دائري منكسر من أعلاه أو مقصوصا أو مفصصا •

افريـز : شريط زخرفي بارز يتخذ قطاعا مستطيل الشكل قد يمتد مستقيما أو ينحني حول دائرة العقد • وتحتفظ اللغـة الاسبانية باللفظ العربي ، فالاصطلاح يقابل بالاسبانية كلمة Alfiz •

ازار : افريز زخرفي يدور عادة حول الجزء الادنى مـن الجدار ، والاصطلاح كما يبدو مشتق مـن المصدر « أزر » ، ويقابل بالاسبانية لفظـة Alizar •

شرفات الجامع : الفتحات التي تتخلل الجدار العلوي مـن سور الجامع أو سور المدينة ، وتتعاقب الشرفات في العادة مع الدراوي التـي يحتمي خلفها المدافعون عن الاسوار الحربية من سهام العدو التي يفوقها اليهم ، ويقابل الاصطلاح بالاسبانية كلمة Almenas •

بنيقتا العقد : الفراغان مثلثا الشكل المحصوران بـين دائرة العقد والطـرة المستطيلـة ويقابـل الاصطلاح بالاسبانية لفظـة Albanega وبالفرنسيـة écoinçon •

سنجات العقد : الكتل الحجرية التي تلتحم فيما بينها على شكل العقد مؤلفة في مجموعها دائرته ، والاصطلاح يقابله بالاسبانية Dovelas وبالفرنسيـة Claveaux •

عنب مسنبج : كتل حجرية ملتصقة فيما بينها أفقيا توضع فوق فتحة الباب (بالاسبانية Dintel وبالفرنسية linteau) •

طرة العقد (او التربيعة) : الشريط البارز الذي يحيط بحنية العقد ويتخذ عادة شكلا مربعا أو مستطيلا (بالفرنسية encadrement وبالاسبانية arraba أو alfiz) •

التوريق : زخرفة نباتية متشابكة (بالفرنسية arabesques وبالاسبانية ataurique) •

بائكة : صف من العقود المتصلة (بالفرنسية arcature وبالاسبانية arqueria) •

سقائف : (جمع سقيفة) وهي أروقة مسقوفة(بالاسبانية Azaquifas وبالفرنسية nefs أو galeries couvertes) •

كابولي : مسند يرتكز عليه بناء بارز أو عقد من العقود (بالاسبانية modillon أو canecillo وبالفرنسية console) •

حدائر : (جمع حدارة) كتل من الحجارة مربعة الشكل أو على شكل هرمي ناقص تعلو تيجان الاعمدة وتتلقى العقود(بالاسبانية Impostas وبالفرنسية impostes) •

جائزة : كتلة من الخشب قطاعها مربع تمتد أفقيا في جانبي السقف لتحمل الالواح المسطحة فيما بينها (بالاسبانية Jacena وبالفرنسية Poutre-solive) •

عضادتا الباب : جانباه أو الدعامتان اللتان يكتنفانه (بالاسبانية Jambas وبالفرنسية Jambages) •

كابولي ذو لفائف : مسند من الحجارة يحمل العقود ويزدان وجهه بزخرفة على شكل لفائف حلزونية (بالاسبانية modillon de lobulo وبالفرنسية modillon à copeaux) •

طبلة العقد : فراغ يشبه مثلث بين استدارة العقد وفتحة الباب (بالاسبانية timpano وبالفرنسية tympan) •

عنق القبة او رقبتها : المنطقة الواقعة بين القاعدة المربعة للقبة والخوذة نصف الكروية وتتخللها عادة نوافذ مشبكة (بالفرنسية tambour) ٠

سقف هرمي او منشوري : هيكل خشبي على شكل جملون (بالاسبانية techo a dos aguas وبالفرنسية combles versants) ٠

وتر : عود من الخشب يمتد بين حدارتي عقدين وظيفته ربط المتود فيما بينها (بالفرنسية tirant وبالاسبانية tirante) ٠

قرمة التاج : طنف زخرفي يعلو تاج العمود وتميل جوانبه الاربعة نحو الداخل في انحناء مقعر (بالاسبانية cimacio وبالفرنسية abaque) ٠

متكات (جمع متكا) : التشابكات الزخرفية التي تملأ فراغ النوافذ، وأكثر ما تكون من الرخام أو الجص (بالفرنسية jalousie d'une fenêtre وبالإسبانية celosia) ٠

